دمشق من عصور ما قبل التاريخ إلى الدولة المملوكية






المشروع القومي للترجمة

تأليف : جيرار ديجورج
ترجمة : محمد رفعت عواد
مراجعة وتقديم : محمود ماهر طه

738

رغم الكلام غير الموثق الذى قيل كثيرا عن شخصيات غامضة مثل إبراهيم ونوح، فقد اتضح اليوم وتأكد تماما أن دمشق اتبعثت وظهرت للوجود من قرية يرجع تاريخها للعصر الحجرى المصقول.

ذكرت دمشق فى وثائق إلبا Elba على جدران معبد الكرنك حيث كانت فى الألفية الأولى قبل الميلاد عاصمة أقوى مملكة آرامية قبل أن تحتل من الفرس ثم الإغريق فالرومان. وبعد ذلك صارت عاصمة الإمبراطورية الأموية المترامية الأطراف التى تمتد حدودها من المحيط الأطلنطى غربا حتى الهند والسند شرقا، وكان ذلك عصرها الذهبى والذى لا زالت آثاره باقية حتى اليوم رغم عوامل الزمن. فها هو الجامع الشهير الذى اقترن اسمه بالأسرة الأموية.

وفى عصر الحروب الصليبية وما نجم عنها لفترة قصيرة من انتهاكات ومذابح إلى أن اعتلى السلطة قادة بواسل أمثال نورالدين وصلاح الدين وبيبرس، وأصبحت دمشق مركز الهجوم المضاد وقاعدة للحملات العديدة التى حققت النصر على الصليبيين. وباتحاد سوريا مع مصر أيام حكم المماليك، أمكن صد هجوم التتار. وفى عام ١٤٠١، كانت دمشق توصف بأنها "شامة الحسن والجمال على جبين العالم" إلى أن احتلها تيمور لنك فأصابها بطعنة قاتلة، فأدخلها فى دهاليز الانهيار والتدهور. وازداد الوضع سوءًا بعد اكتشاف طريق رأس الرجاء الصالح وتحول التجارة إلى أوروبا إلى هذا الطريق.

وفى عام ١٥١٦، سقطت دمشق بلا مقاومة فى أيدى العثمانيين بقيادة سليم الأول. وقد ساعد انتشار العمران فى دمشق وتراثها التاريخى العريق إلى أن تقف على قدميها على قدم المساواة مع القاهرة وأصفهان وفاس المغربية.



المشروع القومى للترجمة

دمشق من عصور ما قبل التاريخ
إلى الدولة المملوكية

تأليف : جيرار ديجورج
ترجمة : محمد رفعت عواد
مراجعة وتقديم : محمود ماهر طه



٢٠٠٥

المشروع القومى للترجمة

إشراف : جابر عصفور

- العدد : ٧٣٨
- دمشق من عصور ما قبل التاريخ
- جيرار ديجورج
- محمد رفعت عواد
- محمود ماهر طه
- الطبعة الأولى ٢٠٠٥

هذه ترجمة كتاب :

DAMAS

Des Origines aux Mamluks

Gérard DEGEORGE

شارع الجبلاية بالأوبرا - الجزيرة - القاهرة ت ٧٣٥٢٣٩٦ فاكس ٧٣٥٨٠٨٤

El Gabalaya St. Opera House, El Gezira, Cairo

Tel. : 7352396   Fax : 7358084

المحتويات

تقديم المراجع

دمشق الدرة الساطعة فى جبين الشام .. بل هى تاج المشرق العربى .. تلك المدينة التى تبدو فى واحة كأنها الزمردة الخضراء وسط رمال الصحراء الذهبية .. لا يعرف مؤرخ بداية لنشأتها ، فهى ولدت قبل التاريخ ، وعاصرت جميع أحداثه مما جعل اسمها مذكورا فى الكتب المقدسة ، والوثائق التاريخية بمختلف لغات العالم القديمة والحديثة . يقول عنها المؤرخ الشهير " المقدسى " « إن دمشق هى المكان الوحيد فى إقليم الشام الذى يصح أن يسمى مصرا » . ومصر عنده هى كل بلد أقام به السلطان الأعظم وجمعت إليه الدواوين ، وقلدت منه الأعمال ، وأضيفت إليه مدن الإقليم مثل دمشق . لقد عثر فى بعض الحفائر الأثرية بهذه المدينة على فخار يرجع إلى العصر البرونزى القديم، أى إلى حوالى منتصف الألف الثالث قبل الميلاد .. وفى الآثار الفرعونية التى عثر عليها فى مدينة تل العمارنة بمصر ذكر اسم دمشق منطوقا بـ« دمشقا » مما يدل على وجودها العتيق . ثم جاء الشعب الآرامى فى أواخر الألف الثانى قبل الميلاد حيث انطلقت قبائله من الجزيرة العربية واستقرت فى بلاد الشام وكانت دمشق موطنا لشعبه ، فقد أسست عدة دويلات كانت دولة دمشق الآرامية أعظمها وأشهرها .. وقد أطلق الآراميون على هذه المدينة اسم « دراميسيق » وتعنى الدار المسقية .. ثم قام اليونانيون والرومان بعد ذلك بتحريف هذا الاسم إلى « داماسكوس » ، وبقى اسمها عند العرب دمشق . ولقد تحدث عنها المؤرخ الجغرافى الشهير استرابون كأشهر مدينة فى غرب أسيا .

ارتبط تاريخ دمشق ، منذ الغزو المقدونى ، بالغرب لفترة تقدر بحوالى عشرة قرون، وكانت الشام بعد الإسكندرية نصيب خلفائه السلوقيين الذين أولوا دمشق عناية

كبيرة . ولقد عرفت دمشق فى هذه الفترة من تاريخها ازدهار الحضارة الهيلينستية التى اندمجت فيها عناصر الثقافة اليونانية مع حضارة الشرق .. وخلال أواخر العصر اليونانى ازدهرت فى جنوب الشام ودولة عربية هى دولة الأنباط وصل نفوذ ملوكها مرتين إلى دمشق وذلك عام ٨٥ ق . م فى عهد الملك الحارث الثالث .. وفى عام ٣٧ فى أيام الملك الحارث الرابع كانت بلاد الشام – بما فيها دمشق – أصبحت تابعة للحكم الرومانى عام ٦٤ ق.م. وعرفت دمشق فى هذا العهد نشاطا تجاريا واسعا مستفيدة من كونها محطة رئيسية على طريق القوافل ومن اتساع الإمبراطورية الرومانية .. وأصبحت دمشق فى عهد الإمبراطور هادريان حاملة لقب « متروبول » أى مدينة رئيسية .

فى أواخر القرن الرابع الميلادى انقسمت الإمبراطورية الرومانية وأصبحت دمشق من أملاك الجزء الشرقى وهو مايعرف باسم الدولة البيزنطية وكانت دمشق حينذاك مركزا عسكريا مهما فى مواجهة جحافل الفرنس الذين قاموا باستعمارها عام ٦١٢ م ويستعيدها الروم بعد خمسة عشر عاما على يد هرقل عام ٦٢٧ ثم يقوم العرب بفتحها عام ٦٣٥ م بقيادة أبى عبيدة الجراح وخالد بن الوليد . أصبح لدمشق فى العصر الأموى بعد ذلك أعظم مكانة حضارية ممتازة مرت بها خلال تاريخها الطويل، حيث غدت عاصمة لدولة كبرى لم تلبث أن وصل نفوذ حكامها إلى حدود الصين شرقا وإلى سواحل الأطلنطى غربا . فالعصر الأموى يعتبر بحق العصر الذهبى لمدينة دمشق قامت خلاله فيها قصور الخلفاء، وكان من أهم معالمها الأثرية فى هذا العصر جامع بنى أمية الكبير الذى تم تشييده فى عهد الخليفة الوليد بن عبد الملك ، ولايزال يعتبر من أجمل الأبنية العربية الإسلامية فى العالم أجمع . وفى عجالة سريعة نذكر أن دمشق قد مرت بعصور العباسيين وحكمها ولاة طولونيون وإخشيديون وفاطميون وأيوبيون ومماليك وعثمانيون . ولكن يجب أن نلقى ضوءا على دور عظيم وباسل قامت به دمشق ضد الغزاة الصليبيين فى العصر الأيوبى . فقد نجحت دمشق بالصمود ضد هؤلاء الغزاة ونجحت من الوقوع فى أيديهم ، ثم تعرضت لحصارهم عام ١١٤٩ حين شارك

فى حصارها ملك الألمان « كونراد الثالث » وملك فرنسا « فرانسوا السابع » وعسكرت قواتهم فى منطقة داريا قرب منطقة المزة ، وقامت دمشق ببسالة بفضل قائدها « معين الدين أنر » الذى استعمل وسائل الحرب والسياسة حتى أنقذ دمشق من دخول الصليبيين . وخرجت دمشق من محنتها رافعة الرأس . ونجح البطل نور الدين محمود زنكى بعد ذلك بتوحيد المشرق العربى لطرد الغزاة الصليبيين من الوطن العربى بوساطة أحد قادته أسد الدين شيركوه وابن أخيه صلاح الدين الأيوبى .

توفى نور الدين فى دمشق عام ١١٧٤ ، ويستقر الحكم بعده إلى قائده فى مصر صلاح الدين الأيوبى ليجعل من دمشق عاصمته الثانية لحكمه متنقلا بينها وبين القاهرة ، لكنه فضل الاستقرار فى دمشق لقربها من عملياته العسكرية ولقربها من فلسطين الذى كان يخطط لتحريرها من الغزاة الصليبيين ، وحرر منهم القدس فكانت هذه الانتصارات ثمرة توحيد مصر بالشام . وتوفى القائد البطل صلاح الدين الأيوبى فى دمشق عام ١١٩٣ ، حيث دفن بها فى شمال الجامع الأموى .

كان هذا عرضًا موجزًا لأهم الأحداث التاريخية ولأمجاد دمشق التى تعرض هذا الكتاب لها بالتفضيل الدقيق بأسلوب علمى رائع مع وصف لأهم المبانى الأثرية والتاريخية التى تزدان بها دمشق وتقوم شاهدة على حضارات مجيدة مرت بها عبر تاريخها الطويل العظيم، ولعل من أشهرها الجامع الأموى الذى سبق ذكره فتوجد قلعة دمشق الأيوبية التى أنشئت عام ١٢٠٥ فى عهد الملك العادل ، والتى تعد من أهم الشواهد المعمارية والعسكرية فى العالم . كذلك سور دمشق وأبراجه والقصور القديمة مثل قصر العظم وبيت السباعى وخلافه والتكية السلمانية وكنيسة حنانيا والقديس بولس هذا بالإضافة إلى العديد من المتاحف الأثرية والحضارية مثل المتحف الوطنى ، ومتحف الخط العربى ، ومتحف مدينة دمشق التاريخى ، والمتحف الحربى ومتحف الطب والعلوم عند العرب وغيرها من المتاحف والأماكن الأثرية التى يطول حصرها . فدمشق مدينة تختال بحضارتها الراقية وتاريخها المجيد الممتد لعصور طويلة مما يجعل لها مكانة عالمية تفوق بكثير العديد من عواصم العالم الحديث .

وهذه القيمة الحضارية الكبيرة لدمشق هى التى دعت العديد من علماء الآثار والتاريخ فى العالم إلى الكتابة عن تاريخها وآثارها ومنهم هذا المستشرق الفرنسى الشهير جيرار ديجورج .. فقد كتب عن دمشق بحب عميق لها حيث قام بالاستقرار بها فترة طويلة وعاشر أهلها عن قرب وتأثر بهم عن حب حيث كان يعمل فى معهد الآثار الشرقية بدمشق . وكتابنا هذا هو الجزء الأول تحت عنوان « دمشق من عصور ما قبل التاريخ إلى الدولة المملوكية » . وسيعقبه الجزء الثانى بعنوان « دمشق من الإمبراطورية العثمانية حتى الوقت الحاضر» .

وجدير بى أن أشيد بالجهد الكبير الذى بذله الأستاذ محمد رفعت عواد فى ترجمة هذا الكتاب بأسلوب عربى رشيق سهل ممتنع ، بحيث يشعر القارئ بأنه مؤلف وليس مترجمًا . وفى الحقيقة لقد أحسن المترجم اختيار الكتاب لأهمية موضوعه، فالمكتبة العربية ينقصها بشكل واضح الكتب التى تتحدث عن مدننا بوجه عام ، وعن عواصمنا بشكل خاص والتى تتناول تاريخها وآثارها وجغرافيتها وسكانها .. وأرجو أن يكون هذا الكتاب بداية لسلسلة كبيرة تغطى هذا النقص فى موضوعة لقراء العربية .

والله سبحانه وتعالى ولى التوفيق .

الدقى ٢٠٠٥

المراجع

محمود ماهر طه

مقدمة المترجم

فى عام ١٩٥٨ - وفى أثناء عملى بسوريا - وقفت على جبل قاسيون بدمشق وكنت أنظر إليه على أنه مجرد جبل عادى إلى أن وقع هذا الكتاب بيدى فتلقفته وقرأته بنهم واكتشفت فيه كنوزًا من المعرفة وإجابات لأسئلة ظلت تراودنى فترة طويلة .

أدركت أنى كنت أقف على معلم من معالم التاريخ السحيق بل من عصور ما قبل التاريخ حيث يمتد منذ نشأة الإنسان الأولى على وجه الأرض .

ذكر الكتاب أن جبل قاسيون من الأماكن المفضلة . ففى قمته توجد " مغارة آدم " وهى على مسافة ميل من المكان "المبارك" الذى ولد فيه إبراهيم عليه السلام بقرية برزة وتطل على "مغارة الدم " حيث قتل قابيل أخاه هابيل بدافع الغيرة .

كما كان إبراهيم وموسى والمسيح ولوط وأيوب يقيمون شعائرهم الدينية فى مغارة الدم .

وهناك مغارة أخرى أطلق عليها « مغارة الجوع » لأنه ذكر فى الأثر أن أكثر من سبعين نبيا لم يكن لديهم من طعام سوى الخبز الجاف وماتوا جميعًا من الجوع .

وعلى بعد سبعة كيلو مترات إلى الغرب من دمشق ، توجد قرية ربوة وهى ملتقى سبعة أنهار . وذكرها القرآن الكريم فى (سورة المؤمنون) :﴿ وَجَعَلْنَا ابْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُ آيَةً وَآوَيْنَاهُمَا إِلَىٰ رَبْوَةٍ ذَاتِ قَرَارٍ وَمَعِينٍ ﴾

وتغنى بها محمد عبدالوهاب فى قصيدة لأحمد شوقى ولقد مررت على الرياض بربوة . والرياض هنا : الحدائق الغناء والماء الوفير . كما أن دمشق عاصرت ألوانًا

مختلفة من الحضارات الآشورية والإغريقية والرومانية والمسيحية واليهودية ، إلى أن دخلها المسلمون ورويت أرضها بدماء الآلاف الذين سقطوا نتيجة الحروب والصراعات عبر التاريخ .

وفي عهد الملك أمنحتب الأول الذي خلف أحمس في عام ٥٤٦ ق.م. امتد النفوذ المصري حتى وصل إلى بلاد ما بين النهرين ، ووجدت هذه الحملات منقوشة على جدران المعابد ، واعتبرت مصدراً رئيسيا للمعلومات حول سياسة مصر وسوريا .

وعندما تولى تحتمس الثالث الحكم عام ١٤٩٠ ق.م. قهر قوات التحالف بقيادة أمير قادش وسجلت أسماء ١١٩ مدينة على أحد جدران معبد الكرنك . ومن بين المدن التي ذكرت ، ظهرت دمشق لأول مرة في التاريخ . كما نجح أمنحتب الثالث (١٤٣٨ – ١٤١٢) ابن تحتمس الثالث . وقد وجدت نقوش على قاعدة تمثال في المعبد الجنازي للملك رمسيس الثاني في الجزء الغربي من طيبة تظهر دمشق للمرة الثانية في النصوص ضمن المدن السورية التابعة أو الصديقة لمصر .

ويقال إن مكان دمشق كان دارا لنوح عليه السلام ، ومنشأ خشب السفينة كان من جبل لبنان وأن ركوبه السفينة كان من عين الجر من ناحية البقاع .

وصف أحد المؤرخين دمشق بأنها جنة الله في أرضه ويحيط بها الغوطة ذات الأرض الخصبة التي تمد المدينة بخيرات غذائية منوعة من بساتينها الغناء .

السؤال الآخر الذي كنت أبحث عن إجابة له هو الجامع الأموي بدمشق . فعندما زرته شعرت بانبهار أمام عظمة هذا الصرح الإسلامي ، ووجدت في هذا الكتاب إجابات مستفيضة عن تكاليف بنائه في عهد الأمويين والصراعات التي نشأت عند إنشائه حيث كانت توجد في مكانه كنيسة ، كذلك الفن المعماري والزخارف . وعند انتهاء بنائه كان تحفة معمارية فنية إسلامية رائعة رغم ما تعرض له من حرائق وتدمير وتخريب .

ولا زالت دمشق تزخر بالآثار الإغريقية والرومانية والإسلامية الأموية والعباسية والفاطمية والأيوبية والمملوكية .

اشتهرت دمشق بالرخاء وتقدم الصناعة والحرف فى مجالات شتى لأن أهلها صناع مهرة فى المنسوجات والأسلحة والجلود . كما كانت معبرا للتجارة القادمة من الشرق ومن الجنوب وتمر إلى أوروبا .

صدر هذا الكتاب عام ١٩٩٧ وفيه يتحدث الكاتب عن "دمشق من عصور ما قبل التاريخ إلى الدولة المملوكية " وكان قد أصدر كتابا آخر عام ١٩٩٤ بعنوان " دمشق من الإمبراطورية العثمانية حتى الوقت الحاضر" .

وللتسلسل التاريخى السليم ، يعتبر الكتاب الخاص بدمشق من عصور ما قبل التاريخ إلى الدولة المملوكية : الجزء الأول ، والكتاب الخاص بدمشق من الإمبراطورية العثمانية حتى الوقت الحاضر الجزء الثانى .

وبذا تكتمل الصورة عن إعطاء فكرة متكاملة عن دمشق أو بمعنى أدق الشام أو بمعنى أشمل : سوريا ولبنان والعراق والأردن وفلسطين والأحداث الجسام التى مرت بتلك المنطقة .

يبدأ كتابنا هذا بمقدمة يتحدث فيها المؤلف عن جمال دمشق ووفرة مياهها وحدائقها الغناء .

ثم يقسم الكتاب إلى ثلاثة فصول مطولة :

١- من عصور ما قبل التاريخ إلى الدولة الأموية .

ففى عهد الأمويين سيطرت دمشق على إمبراطورية شاسعة تمتد من المحيط الأطلنطى حتى الهند والسند ، وكان ذلك عصرها الذهبى ويشهد على ذلك الجامع الأموى الشهير .

٢ - الدولة العباسية والسلاجقة .

٣ - حكم الأتراك .

ويتعرض المؤلف لما مر بتلك المناطق من أحداث .

وبفضل وحدة مصر وسوريا ، أمكن التغلب على الغزاة والمحتلين من الصليبيين والتتار وهزيمتهم وطردهم وذلك بزعامة عماد الدين زنكى، ونور الدين محمود، وصلاح الدين الأيوبى ، والظاهر بيبرس ، وقطز إلى أن جاء العثمانيون بزعامة السلطان سليم الأول وهذا ما سيتحدث عنه المؤلف فى الجزء الثانى .

تمهيد

صورة من الجنة

رغم أن دمشق لا تبعد سوى خمسين ميلا عن البحر ، فإن سلسلة جبال لبنان تصد الرياح الرطبة المحملة بالأمطار وتجعل جو دمشق شبه صحراوى . وتقع على منحنى خط الأمطار حيث تتجاوز مائتى ملليمتر فى العام ، ويفصلها عن الصحراء سهل خصب يمتد من الغرب محملاً بالمواد الرسوبية القادمة من جبال لبنان . تقع دمشق على ضفاف نهر بردى ، ويحدث فى سنوات الجفاف الشديد أن تجف مياه نهر بردى ، وتساعد سلسلة جبال لبنان على الحد من بخر المياه الناتجة عن الأمطار وجريانها فى أماكن شاسعة بل تعمل على امتصاصها وحفظها فى باطن التربة وتتدفق بعد ذلك فى شكل ينابيع عند سفوح سلسلة الجبال لتغطى منطقة سهل الزبدانى . وهذه الينابيع لا تنضب ولا تجف بل تظل مليئة بالمياه الجوفية حتى مع تعاقب الفصول وتقلبات المناخ . يقال إن دمشق تشرب من سبعة أنهار عبارة عن فروع . وبالقرب من بسيمة عين الخضراء ماؤها صاف عذب بارد طيب جدا يخرج من سفح الجبل ويجرى فى قناة قديمة . وعلى جانب منها يزهو بأبهى حلة طبيعية وفى الجانب الآخر النهر وحولها الجبال الشاهقة ، فهى جنة أصبحت سلوى الغريب ومنتزه القريب . وإذا سلكت دمشق ترى نهر بردى عن يمينك ونهر يزيد عن يسارك ، ثم بعيداً قليلاً وعلى بعد ميل من دُمَّر يتفرع منه نهر ثورا وهو على اليسار أيضًا ثم يتفرع منه نهر القنوات ثم نهر بانياس والباقى يظل اسمه بردى . أنشأ نهر بردى فى موقع دمشق واحة متسعة هى الغوطة المشهورة ، وهذه الواحة تعد بحق روضة من الرياض . وتعتبر سهول دمشق ذات تربة حمراء خصبة جدا . وتنتج هذه الأراضى جميع البقول والحبوب والخضرة

والفواكه وكلها من أجود الأنواع ، ولاسيما المشمش والآس والعنب كما يكثر فيها الحور والصفصاف .

ومنذ العصر الآرامى ، عمل الإنسان على الاستفادة من تلك الميزة ، فقام بتوزيع المياه من جانبى نهر بردى بحفر أعداد كبيرة من القنوات مشكلا بذلك ما يشبه مروحة كبيرة تعمل على تغذية المدينة بالمياه ورى آلاف الهكتارات من الأراضى الخصبة الغنية بالغرين إضافة إلى تصريف المياه الراكدة من مياه الأمطار الشتوية . تتفرع جميع القنوات الرئيسية من نهر بردى عند وصوله إلى قرية ربوة التى تبعد سبعة كيلو مترات إلى الغرب من دمشق . يخرج من الشاطئ الأيسر فرعان هما اليزيد والتورة ، ومن الشاطىء الأيمن أربعة أفرع هم : الميزاوى والدارانى والقنوات وبانياس .

إن تلك الوفرة فى المياه – وبهذا الشكل من الاتساع – كانت من العوامل الدائمة التى تدعو للانبهار و الإعجاب . وقد كتب العالم الجغرافى ابن حوقل فى نهاية القرن العاشر الميلادى يقول : " ينساب الماء فى كل مكان ، فى البيوت والشوارع وفى الحمامات " . وعلق المؤرخ الدمشقى ابن عساكر فى القرن الثانى عشر الميلادى قائلاً : "إن وفرة المياه هذه لهى إحدى المميزات الرائعة لهذه المدينة (.....) لأنه فى أغلب البلاد لا يتم الحصول على المياه إلا مقابل الدفع " .

وذكر عالم الطبيعيات الفرنسى بيلون دى مان عام ١٥٥٥م قائلاً : "توجد درجة عالية من الرفاهية والراحة فى وفرة المياه بدمشق (.....) حتى إن كل فرد فى المدينة يكاد يكون لديه نافورة سواء فى حديقته أو مسكنه " .

وابتداء من شهر أبريل وحتى نهاية شهر نوفمبر (فترة عدم سقوط الأمطار) توضع المياه تحت تصرف كل قرية . وتوضع مقسمات لحجز المياه بين صخور ضخمة وتتم عملية توزيع المياه على القرى ولرى الأراضى بصورة عادلة . وفى مدينة مثل الغوطة ، يقوم أشخاص بصيانة ومراقبة نظام توزيع المياه حيث يقومون بفتح وغلق المقسمات الخاصة بسريان المياه ومراقبة أى تلاعب قد يحدث .

وهكذا فبفضل جهد الإنسان وصبره ، وبسبب وجود طبقة مائية ضخمة من المياه المليئة بالغرين الخصب والتي تمتد تحت سفح جبل قاسيون ، قامت حول مدينة تعتبر قوية منذ أقدم العصور ، ومناطق زراعية هي الأقدم والأغنى فى الشرق الأوسط .

وفى الجزء الغربى حيث السيطرة على مياه الرى والصرف فائقة ، نجد الغوطة أو بعبارة أخرى مساحة من الخضرة تغطى أكثر من ثمانية آلاف هكتار وتمتد لمسافة خمسة وعشرين كيلو متراً طولاً ، وحوالى عشرة كيلو مترات بالعرض . عليها أكثر من مائة ألف بستان وزراعات بقولية : أشجار مشمش ورمان وتفاح وكمثرى ، وخوخ وكرز وبرقوق وتين ورمان ، وخيار وقرع وطماطم وفاصوليا ، وحمص وقنب ويانسون، وزهور وورد دمشق المشهور ..

ثم تأتى بعد ذلك مساحة ضخمة من أشجار الفاكهة والحبوب . وفى منطقة الزور حيث بساتين الفاكهة تجاور أشجار الحور والصفصاف . وإذا اتجهنا ناحية الشرق نجد فرصة الرى أقل وبالتالى الدورة الزراعية أطول وتصلح فيها زراعة الكروم والحبوب وأشجار الزيتون . وأبعد قليلاً من تلك المناطق ، تحل الزراعات الكثيفة محل النباتات . وتتباعد القرى ويشح الماء . وهنا تتواجد منطقة " المرج" أو المراعى وهى أقل سكانًا لكن مساحتها ضعف مساحة الغوطة . وتتميز بأنها تصلح للرعى وزراعة الحبوب فيكون السهل مخضرا فى الربيع ، كئيباً ومثيرا للغبار باقى أيام السنة . وتعرف تلك المناطق بالبادية ثم فى الصحراء أو بعبارة أخرى تلك المنطقة الشاسعة المليئة بالأحجار والتى تمتد حتى شمالى شبه الجزيرة العربية .

أما عن المدينة ذاتها فيحدها من الغرب جبل قاسيون ، وهو آخر سلسلة جبال لبنان الشرقية . وفى بداية السهل الخصيب وعلى الشاطئ الأيمن لنهر بردى وعلى بعد مسافة قصيرة من الجبل ، يمتد من الشرق إلى الغرب على مساحة أقل من كيلو مترين ، ربما لأسباب إستراتيجية ، أربعة تلال صناعية ارتفاعها حوالى عشرين متراً

تحدد موقع عصر من العصور المختلفة ، وأعلى تل هو الأقدم حيث يحدد موقع عصر الحجر المصقول .

يوجد التل الأول جنوب شرق الجامع الكبير على مسافة أقل من خمسمائة متر من بردى ، والثانى فى الحى المسيحى ، والثالث فى الحى اليهودى ، أما الرابع ففى الجزء الشمالى من حى شاغور .

تعتبر دمشق منذ القدم مركز إنتاج زراعى وموقع تبادل بين البدو والحضر، ونقطة التقاء الطرق الصحراوية والممرات الجبلية وكذلك لخطوط سير القوافل للقادمين من الهند والصين عن طريق الخليج الفارسى ، وشبه الجزيرة العربية والبحر الأحمر وشرق أفريقيا ، ومن الأناضول وآسيا الوسطى ، كما أنها على اتصال وثيق بالبحر المتوسط عبر موانئها الطبيعية فى صور وعكا . لذلك كانت دمشق منذ القدم مصدر إلهام سياسى وتجارى وثقافى . تعتبر دمشق منذ العصر الآرامى من أوائل المدن السورية لموقعها الإستراتيجى ولأنها تمثل نقطة التقاء بين ثلاث قارات وبين البحر المتوسط ونهر الفرات ، وجبال طوروس والصحارى العربية .

وقد أضفت مياهها الجارية ووفرة حدائقها بصمات واضحة على نفسية البشر هناك . وقد وصفها المؤلفون المسلمون بأنها صورة من الجنة . ووصفها الطبرى ضمن أركان الدنيا الأربعة ، فهى "مليئة بالنعيم والبهجة ومتع الحياة " . ووصفها المقدسى بأنها إحدى جنات الدنيا الأربع كما وصفها الدمشقى بأنها "من أكثر المدن على وجه الأرض قدسية وجمالاً وأناقة وأنها تشبه طائرًا أبيض يرقد على مرعى شاسع ويرتوى بمياه متجددة " . وكتب ابن بطوطة – الرحالة العربى الشهير – عنها فى القرن الرابع عشر قائلاً : "لقد تجاوزت جميع المدن الأخرى فى جمالها وكمالها " ، بينما شبهها أحد الشعراء بأنها "شامة الحسن والجمال على جبين العالم " . وبالنسبة للأوروبيين فإنها تعتبر واحة الأمان التى يستريح فيها المرء بعد طول عناء من السفر عبر الصحراء .

وفيما يتعلق بأصل مدينة دمشق ، فمن الصعب الوصول إلى معرفة ذلك قبل علم الآثار القديمة الذى ظهر مؤخراً ، ذلك أن الغموض وعدم وضوح الرؤيا أصبحا كاملين ولجأ كل إنسان إلى الاجتهاد الشخصى كل حسب طريقته ، وأغلب الظن باللجوء إلى "سفر التكوين" وذلك بالعودة إلى العصور السحيقة . "بنيت دمشق على يد دمسق بن قانى بن مالك بن أرفاشاد بن سام قبل ميلاد إبراهيم عليه السلام بخمس سنوات" . وأكد ابن روشيه دون تردد – وهو مؤلف من القرن العاشر الميلادى وموطنه أصفهان – أن "مكان دمشق كان دارا لنوح عليه السلام ومنشأ خشب السفينة من جبل لبنان وأن ركوبه السفينة كان من عين الجر من ناحية البقاع ، وأن أول حائط وضع فى الأرض بعد الطوفان حائط دمشق وحران" .

ويعتبر جبل قاسيون من الأماكن المفضلة . ففى قمته توجد "مغارة آدم" وهى على مسافة ميل على الأقل من المكان "المبارك" الذى ولد فيه إبراهيم عليه السلام بقرية بَرْزَة فى جبل قاسيون ، وتطل على "مغارة الدم" حيث قتل قابيل أخاه هابيل بدافع الغيرة .

وكان إبراهيم وموسى والمسيح ولوط وأيوب يقيمون فيها شعائرهم الدينية . كما وجد فيها إلياس مأوى حيث هرب من ملوك قبيلته . كما ذكر أن المسيح جاء وأقام بها هو وأمه . وفى بيت لاهيا شرق دمشق كان يتواجد آذر والد إبراهيم يمارس عبادة الأصنام التى رفضها ابنه واتجه إلى عبادة الله الواحد الأحد وقام بتحطيم تلك الأصنام .

وذكر ابن عساكر أن بين الجبل وباب الفرادس (وهو أحد أبواب السور الشمالى) توجد مقابر لسبعمائة نبى . كما أن العقائد المتعلقة بالعالم الآخر كالبعث والحساب ليست غائبة ؛ ففى الأثر : "ستكون دمشق الملاذ الأسمى للبشر عندما تندلع الاضطرابات الدموية فى نهاية الزمان" . وذكرت تقاليد أخرى أن عيسى عليه السلام سينزل من السماء إلى دمشق عن المنارة البيضاء الكبرى للباب الشرقى للجامع الأموى وتحمل تلك المنارة الشرقية اسم عيسى عليه السلام .

عالمان وجهاً لوجه

طالب الآباء الأوائل للكنيسة بإيجاد نوع من التسامح والحرية الدينية وذلك عملاً بتعاليم المسيح . إلا أن كل شيء قد تغير وقامت اضطهادات رهيبة[١] وغرقت الإمبراطورية في دماء الضحايا والشهداء[٢] ، وطالت أولاً كل من كان يطلق عليهم أصحاب البدع والمخالفين ، ثم اليهود والسامريين ، ثم اتجهوا إلى عبدة الأوثان .

وقد ذكر فولتير أن الكراهية المتعلقة بالخلافات اللاهوتية هي الأكثر والأشد قسوة من أي كراهية أخرى .

ولم تنج المعابد الدينية التي كانت عبارة عن تحف فنية وتدل على عبقرية الإنسان في بنائها من محاولات هدمها وتخريبها ، رغم أنه لا يوجد مثيل لها على مر التاريخ . فقد قامت الجماهير الثائرة بهدمها وتخريبها وذلك بقيادة رهبان متعصبين . ومنذ بداية القرن الخامس الميلادي ارتكز أوجستين المفكر المسيحي الشهير بعد سان بول على فقرات تدعو إلى رجم أصحاب البدع .

وعندما ظهر الإسلام ، وجدت هذه الكراهية التي كانت تتجه نحو الملحدين والمخالفين طريقاً آخر للتعبير عن نفسها خصوصاً في المنافسة الروحية لحقيقة أصول العقيدة إضافة إلى المنافسة السياسية - العسكرية الأكثر إيلاماً وحزناً ، فالغزو الاسلامي السريع الذي انتزع كالبرق - من بيزنطة في بضع عشرات من السنين - الشام ومصر وشمال أفريقيا وإسبانيا ، ترك في الوعي التاريخي الغربي صورة عن الإسلام مليئة بالكراهية والعداء . ورغم ذلك فعلى الصعيد الديني ، فإن الدين الجديد هو أيضاً دين الخلاص والنجاة والاتجاه نحو العالم الآخر ، وظهر ذلك في مواقف عديدة مع بعض اختلافات طفيفة جدا بالنسبة لطوائف مسيحية معينة ، خاصة تلك التي كانت ترفض اعتبار المسيح ابن الله وأنه مساو في الجوهر مع الأب .

ولكن بدلاً من التعبير عن الرضا والشعور بالعرفان لهذا الدين الذى نادى بالتوحيد ، وجهت التقاليد المسيحية اللوم إلى النبى محمد بإيقافه انتشار المسيحية بشكل واضح واتهموه بأنه نشر الإسلام بحد السيف . ولكن هناك من نقض أقوالهم ، فقد كتب فولنى Volney منددًا بالمجازر والمذابح التى قام بها الصليبيون ضد المسلمين . كما قام المستعمرون الغربيون فى القرن السادس عشر وفى جميع القارات وأثناء التوسع الأوروبى بأعمال بربرية وقال " أليس الأوروبيون هم الذين ملأوا الأرض بظلمهم منذ ثلاثمائة عام ؟ أليسوا هم تحت ادعائهم التجارة اكتسحوا الهند وأخلوا قارة جديدة من سكانها حيث أبادوا الجزء الأكبر من السكان الأصليين لقارة أمريكا واستعمار هذا الجزء من العالم بأناس سرقوهم من أفريقيا ، والاضطهادات التى لا تتوقف ضد المخالفين لهم فى ملتهم ، ومحاكم التفتيش ، بالإضافة إلى جرائم أخرى عديدة لا تنتهى ؟ "

وابتداء من القرن الثامن عشر ، وبدافع التقدم الفنى ، ظهرت مبادىء وقيم جديدة أوجدتها الثورة الفرنسية دون أن يكون لها اعتبارات دينية تستخدم كتبرير لمحاولات التوسع والغزوات وجاءت بقيم علمانية . التعليم وتحرير الشعوب التى توصف عامة بالرجعية والتخلف ونشر الحضارة والتقدم . وقد ذكر جون ستيوارت ميل عام ١٨٥٩ أن " روح التقدم لا تنم أبدًا عن روح الحرية ، لأنه من الممكن أن تؤدى إلى فرض التقدم على شعب متحفظ يكتم ما يجب أن يقال " . وهكذا ففى عام ١٩٢٠ كان إعلان حقوق الإنسان فى يد ، والبندقية فى اليد الأخرى ، عندما فرضت فرنسا وصايتها على سوريا وجعلت أولوية بصورة تدعو للنفاق لمهمتها "التاريخية" وهى حماية الأقلية المسيحية ، ومن ناحية أخرى "إخلاصها" و "نواياها الطيبة" ورغبتها فى "نشر الخير وفرض نظام يؤدى إلى الاستقلال والنظام والتسامح وزيادة الثروة" . ولم تنطل اللعبة على السوريين الذين أعربوا عن غيظهم وخيبة أملهم واعتبروا أن ذلك خيانة وغدرًا واستغلالاً للمبادىء العالمية ، وفقدت فرنسا ثقة الرأى العام العربى بصورة نهائية وبالذات فى سوريا والجزائر.

الكارثة

كان النصف الأول من القرن العشرين بالنسبة لدمشق وسوريا من أحلك الفترات في تاريخهما . ففي عام ١٩١٥ وعد الإنجليز العرب بالاستقلال ووحدة أراضيهم بأكملها داخل الحدود الممتدة من جنوب جبال طوروس في مقابل اشتراكهم في الصراع ضد الإمبراطورية العثمانية . وفي العام التالي عقدت مفاوضات سرية بين إنجلترا وفرنسا تم على أثرها تقسيم الشرق الأوسط إلى "مناطق نفوذ " .

وأخيراً ، وفي ٢ نوفمبر ١٩١٧ ، صدر وعد وزير الخارجية البريطانية ومنحت – دون علم الشعوب المعنية – أرضا لا تمتلكها وتعهدت " بتسهيل إقامة وطن قومي للشعب اليهودي في فلسطين بشرط احترام حقوق العرب" . وبعد انتهاء الحرب العالمية الأولى وانتصار الحلفاء ، قيل إن بعض الأقطار التي كانت تابعة لدول مهزومة ومن بينها الدولة العثمانية ليست قادرة على حكم نفسها بنفسها، ولذلك يستحسن أن يعهد بإدارتها مؤقتا إلى دولة متقدمة تساعدها على ممارسة الاستقلال فيما بعد . ولم توزع هذه الأقطار بين الدول الكبرى إلا في مؤتمر سان ريمو في أبريل ١٩٢٠ ، وانفسح المجال أمام بريطانيا وفرنسا لكي تنفذ سياستهما التوسعية في الشرق العربي . واختصت فرنسا بالانتداب على سوريا ولبنان . والجزء الجنوبي وفلسطين وشرق الأردن تحت الانتداب البريطاني . وبعد عامين قامت قوات الجنرال جورو بطرد الأمير فيصل من دمشق في يولية ١٩٢٠ .

وقامت فرنسا باتباع شعار" فرِّق تسد" لتحطيم التحالف الوطني . وكان من السهل عليه أن يجد ضالته في النعرة الطائفية الموجودة عند بعض موارنة لبنان . كما قامت بتمزيق سوريا ، فأنشأت على الساحل الدولة اللبنانية . وفي الداخل حاولت فرنسا ضم

السكان فى حكم ذاتى محلى وأنشأت دولة حلب ودولة دمشق وجبل العلويين . ولكن الشعور الوحدوى لدى السوريين لم يضعف . وعبر فيصل عن خيبة أمل العرب وشعورهم بالمرارة فى مذكرة بعث بها إلى القسطنطينية يتحسر فيها على الوحدة التى كانت سائدة أيام الحكم العثمانى .

وفى أكتوبر ١٩٢٥ وصلت أخطاء فرنسا السياسية إلى الذروة عندما قمعت بطريقتها الثورة الوطنية وقامت بغارات مكثفة على دمشق ، وقتل عدد ضخم من المدنيين ، ودمر الجزء الغربى من المدينة بالكامل .

كان الانتداب يخفى وراءه موقفًا استعماريا حقيقيا . فرغم أنه كان ينص على فترة مؤقتة ، إلا أن نتائج التدخل الأوروبى تركت آثارًا ضارة على مجرى الأحداث فى الشرق الأوسط تمثلت فى دوام تقسيم الحدود مما أدى إلى انقسام وإضعاف العرب. وفى عام ١٩٤٨ ، قامت على جزء من أرض الشام الجنوبية دولة إسرائيل وهى دولة قائمة على الحرب والتوسع . ومنذ إنشائها قامت خمس حروب مسلحة كانت فى كل مرة تعرض السلام العالمى للخطر . ومنذ البداية لم تخف الحركة الصهيونية أيا من أهدافها ، فليس إنشاء وطن قومى فى فلسطين ، كما نص عليه وعد بلفور ، وإنما تحويل فلسطين إلى دولة يهودية . ولم تتوان عن إظهار تحديها أولاً بالريبة وعدم الثقة، ثم بالعداء تجاه السكان الشرعيين لفلسطين . وفى ٢٧ فبراير ١٩١٩ رد الدكتور وايزمان على وزير الخارجية الأمريكى عندما استفسر منه عن مفهوم " الوطن القومى" قائلاً : "ينبغى إنشاء أمة بالتدريج ستكون يهودية مثل فرنسا الفرنسية وبريطانيا البريطانية " .

ومن جانبه كان فلاديمير جابوتنسكى زعيم الحزب التعديلى ذو الميول الفاشية – والذى كان بن جوريون يطلق عليه "فلاديمير هتلر" مناحم بيجن " يطلق على الصهيونية تعريفًا مفاده أنها حركة تهدف إلى إنشاء أغلبية يهودية فى أرض إسرائيل على جانبى نهر الأردن ويعلن أن "هذا المفهوم قد اخترناه حتى لا نسبب إزعاجًا أو قلقا للسلطات التركية فى ذلك الوقت" . وجاء تفسير آخر مطابق لهذا من جانب

بن جـوريون : " وطن قـومى معنـاه تحـويل كل الأراضى التى يغـطيها الانتداب على أرض إسرائيل على جانبى نهر الأردن إلى دولة يهودية ، أى كومنولث ذو أغلبية يهودية" وقد أعلن بن جوريون أثناء اجتماع لجنة العمل الصهيونى الذى عقد بلندن فى يوليه ١٩٣٢ هذا الشعور الذى يستحوذ على أفكار الغالبية العظمى ، والذى لابد من تنفيذه حسب الأفكار الصهيونية ، وهو تحويل الوطن إلى دولة يهودية .

وقد تجلى هذا المفهوم على الطبيعة بنداء إلى الهجرة الجماعية ، والعمل على طرد الفلاحين من "الأراضى المغتصبة " . وعندما لجأ الملاك اليهود إلى تشغيل الأيدى العاملة الفلسطينية لديهم لرخص أجورهم هاجمهم بن جوريون بشدة . كما كان يخشى من تكوين دولة ذات أغلبية عربية لأنها كانت ستعمل حتماً على إيقاف الهجرة اليهودية . وأعلن بن جوريون أمام مؤتمر بال فى يوليه ١٩٣١ "إننا نرفض سيطرة الأغلبية الموجودة حاليا (العرب) على الأقلية التى لا تشكل إلا نسبة ضئيلة من الأمة العبرية فى الطريق نحو بلدهم .

وفى عام ١٩٣١ وبعد تسعة أعوام من إنشاء إمارة شرق الأردن تحت الانتداب البريطانى ، أعلن بن جوريون فى مؤتمر بال "فى الضفة الشرقية لنهر الأردن توجد أراض عديدة وجاهزة . وسوف نستخدم الأردن كحد لهجرتنا واستقرارنا " . وفى عام ١٩٣٧ اقترحت لجنة بيل خطة للتقسيم لم تمنح اليهود سوى ٢٥٪ من الأراضى الفلسطينية . لكن بن جوريون رد على هذه اللجنة قائلاً : " إن الحدود التى يقترحونها علينا سوف نحطمها وليس بالضرورة عن طريق الحرب " .

تصريحات وتصرفات مخالفة تماماً لنص وروح وعد بلفور ، كما عبر بذلك السير هيربرت صامويل المفوض السامى البريطانى فى تقرير بعث به فى صيف ١٩٢١ ذكر فيه أن تطلعات الصهاينة تتم على حساب حقوق العرب . أما العرب أنفسهم فقد أعربوا عن قلقهم . وحدث عصيان وتمرد لدى الفلسطينيين الذين كانوا يجهلون ما يخبئه لهم المشروع الصهيونى . وقامت احتجاجات عديدة فى الدول المجاورة . وفى ربيع ١٩١٤ وجه أعيان القدس ويافا وغزة نداء فى إحدى صحف

إسطنبول : " إذا لم يهب الرجال المخلصون لنجدة الفلسطينيين فإن مصيرهم سيكون مصير الهنود الحمر نفسه بأمريكا . فالصهيونية كدولة داخل الدولة العثمانية إنما تهدد الوجود العربى نفسه فى فلسطين " .

وفى ١٢ نوفمبر ١٩٣٣ أعلن عمدة نابلس للمفوض السامى البريطانى قائلاً "يشعر العرب بأنهم مهددون وبأنهم سيجدون أنفسهم مستبعدين أو مطرودين من بلادهم . والقول بأن اليهود سيجعلون حياتهم مزدهرة لا يعنى شيئًا ، لأننا لو وجدنا أنفسنا مستبعدين أو مطرودين فلا يهم أن نصبح أكثر غنى وجمالاً " . والطرد بلا قيد ولا شرط ولن يتأخر المستقبل القريب فى إثبات ذلك لأن العناصر الأكثر تطرفا كانت تنادى بذلك علنا أو قبل انتهاء الحرب العالمية الثانية لستة أشهر تبنى حزب العمال البريطانى قرارا يطالب فيه بترحيل جميع عرب أرض إسرائيل إلى الدول المجاورة .

ومنذ بداية الحرب العالمية الأولى تكونت الجماعات الإرهابية السرية من رجال مدربين تدريبًا جيداً داخل الكوماندوز الخاص بالجيش البريطانى ثم اتجهوا إلى مهاجمة قوات الانتداب البريطانى ، وأكثر الجماعات تطرفا جماعة « شتيرن » التى كانت تطالب بدولة يهودية من النيل إلى الفرات . وقد وصل الأمر بهذه الجماعة إلى أنها أبدت إقامة تحالف مع هتلر ضد بريطانيا .

وابتداء من أكتوبر ١٩٤٥ حدثت عمليات اغتيال وخطف ضباط بريطانيين وأعمال ثأر وسرقة أسلحة وهجوم على مراكز وأقسام الشرطة والثكنات العسكرية وزادت عمليات تخريب مصافى البترول والجسور والسكك الحديدية إلخ .... ، وفى ٢٢ يولية ١٩٤٦ قامت جماعة أتيزل بزعامة مناحم بيجن بنسف فندق الملك داود حيث كان مقرا للقيادة العامة للقوات البريطانية، وأسفر الانفجار عن مصرع أكثر من مائتى قتيل من بينهم خمسة عشر مدنيا من اليهود . وإزاء هذا الجو من العنف شعرت بريطانيا بعجزها التام عن مواجهة الأهداف والأساليب التى يتبعها الصهاينة ، فقررت فى ١٤ فبراير ١٩٤٧ طرح المسألة الفلسطينية أمام الأمم المتحدة . وتمت الموافقة على

قرار التقسيم بأغلبية ثلثي الأصوات . وفي ٢٩ نوفمبر ١٩٤٧ صدر قرار الأمم المتحدة من جانب واحد مخالفًا لأماني وتطلعات سكان فلسطين الشرعيين ولم يقبلوه سواء من حيث المبدأ أو الصياغة المحددة ، ففي الوقت الذي كان فيه اليهود أقل من ثلث السكان في فلسطين فإن الخطة منحتهم ٥٧٪ من الأراضي وبصفة خاصة الأراضي الخصبة وابتداء من ديسمبر ١٩٤٧ عمل الصهاينة رغم تظاهرهم بقبول القرارات الدولية ، على زيادة رقعة الأرض التي خصصتها لهم الأمم المتحدة ووضع الحلم القديم الخاص "بـ التطهير العرقي" موضع التنفيذ وذلك بمضاعفة تصريحاتهم الخاصة بإعلان الحرب .

ومن المعروف أن بن جوريون الذي لم يعتقد أبدا في إمكانية التعايش مع العرب ، فإنه طالب بشن هجوم على نطاق واسع حتى يقلل إلى أدنى حد النسبة المئوية لعدد السكان العرب داخل حدود «الدولة المستقبلية " لأنه كما ذكر " كلما قل عدد العرب ، سيكون ذلك أفضل " . ومن جانبها أعلنت جماعة أرجون أن تقسيم الوطن كان غير عادل وأن القدس لابد أن تكون العاصمة الأبدية ونادت بإجراءات قمعية " بالدم والنار" . وعملت ورش صناعة الأسلحة بأقصى طاقتها وتم شراء أسلحة بكميات ضخمة من الخارج ، ونفذت عمليات معدة مسبقًا وبدقة في جميع أرجاء فلسطين سواء داخل أو خارج الحدود التي خصصتها الأمم المتحدة لإسرائيل .

وكان الهدف وراء كل ذلك هو الغزو بلا قيد أو شرط تبعه في كل مرة هدم القرى وتخريبها وطرد سكانها . وفي ١٩ ديسمبر حدث هجوم مباغت على قرية القزازة المجاورة لمستعمرة زريجوفوت ، وتم نسف منزل العمدة بمن فيه من الناس . وذكر المتحدث باسم جماعة الهاجاناه أن المدنيين وكبار السن والنساء والأطفال كانوا يذبحون بدم بارد داخل منازلهم . وعندما اقترب ١٥ مايو ١٩٤٨ موعد رحيل آخر جندي من القوات البريطانية ، استمرت العمليات بشراسة . وفي ليلتي ٩ ، ١٠ أبريل ١٩٤٨ وحوالي الساعة الرابعة والنصف صباحًا ، توغلت قوات مشتركة من الأرجون وليهي داخل قرية دير ياسين (وهي تتبع الدولة العربية في خطة التقسيم) ، وقاموا

بقتل أكثر من ثلاثمائة شخص بالمدافع الرشاشة والقنابل اليدوية والسلاح الأبيض . وأعلنت الأرجون عن العملية فى مؤتمر صحفى سرى وقدمتها على أنها " البداية لغزو فلسطين ، وضفتى نهر الأردن " . وفى نهاية الشهر تم جلاء القوات البريطانية وتقدمت القوات اليهودية إلى حيفا " مثل السكين فى قالب الزبد" وتملك العرب الرعب والهلع وفروا للنجاة بأنفسهم وهم يصرخون "دير ياسين" .

ونقل البعض على زوارق صغيرة تابعة للجيش البريطانى وآخرون فى لوريات نحو نازاريت ونابلس ولبنان .

وفى الوقت نفسه واصل بيجن شن هجماته "التطهيرية" على يافا والقرى المحيطة بها . وبدأ العرب يغادرون المدينة رغم القنابل والقذائف التى كانت تصب عليهم من كل جانب .

وكتب بيجن يقول : " وصلت الفوضى إلى أقصى درجة . ازدحمت الشوارع وهدمت المنازل وبدأ البعض عمليات السلب والنهب والاغتيال " . نهاية أبريل تم إجلاء ٣٠ ألف شخص من الأحياء العربية فى القدس . وهنا بدأ شعور يقينى بأن الأغلبية الساحقة من السكان أصبحت يهودية . وفى ١٥ مايو وفى الوقت الذى كان المفوض السامى البريطانى يغادر فلسطين ، كانت مئات الآلاف من الفلسطينيين قد أصبحوا لاجئين وأن القوات اليهودية تحتل مناطق مهمة كانت بحوزة العرب خارج نطاق خط التقسيم الذى أقرته الأمم المتحدة . واستعد بن جوريون وحكومته المؤقته لإعلان استقلال إسرائيل على الملأ . وامتنع الإعلان عن تحديد حدود معينة للدولة الجديدة لأنه لم يكن لدى بن جوريون النية إطلاقًا الاكتفاء بالحدود التى رسمتها له الأمم المتحدة ، بل كان يريد توسيع نطاقها ، وأنه كان على يقين بأن التقسيم لم يكن سوى مرحلة ، وأنه كان بانتظار فرص جديدة تسنح حتى تصل إسرائيل أخيراً إلى ما تريد تحقيقه حتى لو استدعى الأمر الانتظار عدة قرون فى سبيل تحقيق الهدف النهائى .

وكان مناحم بيجن قد أذاع كلمة قال فيها : "الجيش العبرى هو وحده الذى يقرر الحدود اليوم وغدا" . وعندما دخلت الجيوش العربية المشتركة لنجدة السكان المدنيين ، قام الجيش الإسرائيلى بتجميع آلاف المدنيين فى سيارات شحن ونقلهم إلى قطاع غزة . وفى بداية شهر نوفمبر " وأثناء ذلك الوقت واصل اللاجئون تدفقهم . وتعمد الإسرائيليون طرد العرب عن طريق المذابح العادية "المحسوبة" .

وعندما دخلوا مدينتى اللد والرملة لاحتلالهما ، " قام العدو بعمليات تفتيش من منزل إلى منزل وقبض على جميع الرجال الذين هم فى سن حمل السلاح وأرسلوهم إلى معسكرات الاعتقال ، ثم قامت السلطات الإسرائيلية بالتنبيه على السكان الذين بقوا فى المدينتين بإخلائهما فى خلال نصف ساعة " .

فى اليوم التالى من الصراع كانت إسرائيل قد استولت على ستة آلاف كيلو متر مربع من الدولة العربية ودمرت ٣٨٥ قرية عربية وأكثر من سبعة آلاف فلسطينى خرجوا إلى المنفى . وتحملت الأردن التى كان عدد سكانها لا يتجاوز المليون نسمة العبء الأكبر من اللاجئين الذين وصل عددهم إلى ٥٠٠ ألف لاجئ ، ومصر ٢٥٠ ألف لاجئ فى قطاع غزة بصورة رئيسية . ومنع اللاجئون من العودة إلى ديارهم . وكان بن جوريون قد أمر بتدمير ونسف جميع القرى الفلسطينية حتى لا يعودوا إليها مرة أخرى بعد انتهاء المعارك . وكثير من الذين غامروا بالعودة أجهزت عليهم الدوريات الإسرائيلية بمجرد رؤيتهم .

ازدادت خطورة المأساة العربية - الإسرائيلية نتيجة التخاذل الدولى وعدم الاكتراث وأيضًا بسبب الدعاية الصهيونية المنظمة ووسائل الإعلام والمثقفين والسياسيين الغربيين المتعاطفين معها ، حيث نجحوا فى قلب الحقائق وجعل المعتدى هو المعتدى عليه واللاجئين المنهزمين الجبناء الذين فروا وهجروا أراضيهم بمحض إرادتهم وشجعهم على ذلك القادة العرب .

وبالرغم من شهادة الضحايا ، وشهادة جلوب باشا ، ورغم تقارير الأمم المتحدة وإظهار الحقائق فى الصحف البريطانية منذ بداية الستينيات ، فإن الكذب تكرر بصورة متواصلة ولم يتوقف نشر وبث تلك الأكاذيب حتى كأنها من البديهيات . وربما لم يكن من السهل اتهام الأحياء الذين نجوا من الإبادة الجماعية على يد هتلر بالقيام بعمليات الطرد المنظم والمتعمد وتنفيذ عدد من المذابح المقننة بصورة مدروسة ضد شعب بأكمله وأرض أجداده والسماح بأن يقدم العرب ضحايا للتكفير عن جرائم وتخاذل أوروبا ضد اليهود . وفى ٦ ديسمبر ١٩٦٧ رد الجنرال ديجول بخطاب على " شعب الله المختار الواثق من نفسه والمهيمن " وحاول بن جوريون أن يبرر سياسته وأكد بلا حياء قائلاً : " عندما تشتد حدة الصراع فى المدن ، كان اليهود جيران العرب يرجونهم طالبين منهم البقاء ، ولكنهم كانوا ينفذون أوامر مفتى مصر وعلى ذلك رحل معظمهم " .

يستدل من ذلك أن الأهداف الأولى التى تحققت هى طرد الفلسطينيين وضم الأراضى بلا قيد أو شرط كان نتيجة منطقية للنصر على القوات العربية المشتركة ، كما أن الستة آلاف كيلو متر مربع التى خصصتها الأمم المتحدة للدولة العربية قد اقتطعت وضمت إلى إسرائيل . واصلت إسرائيل سياستها التوسعية وباستخدام القوة بكل وقاحة وصلف بدافع التعصب العنصرى ضد العرب بكل عناد ودون شعور بأى عيب أو نقيصة فى استغلال الفرص والظروف والسيطرة المطلقة للعلاقات الدولية . أما المائة وستون ألف فلسطينى الذين فروا من "التطهير العرقى " فكانوا من سكان الجليل الأعلى وكانوا يخضعون حتى عام ١٩٦٠ لنظام إدارى عسكرى تعسفى وعوملوا على أنهم أجانب على أراضيهم ونجحت القوات الإسرائيلية فى مصادرة حوالى ٥٠٪ من أراضيهم . وكما أعلن بن جوريون أن كل ذلك لم يكن سوى البداية . وفى عام ١٩٥٦ قامت حرب موجهة ضد مصر من جانب الاستعمار الفرنسى - البريطانى بمشاركة إسرائيل ، وفى عام ١٩٦٧قامت القوات الإسرائيلية بغزو سيناء بالكامل والضفة الغربية وقطاع غزة . وفى عام ١٩٨٢ حدث غزو على لبنان واحتلال الجزء الجنوبى من البلاد ومذبحة اللاجئين فى مخيمى صبرا وشاتيلا وهؤلاء هم سلالة من بقى من دير ياسين .

كما أن سياسة الأمر الواقع المتمثلة فى ضم الجولان والقدس الشرقية والنظام القائم على العقوبات والحكم بالغرامة فى "الأراضى" المحتلة والمخالف كلية للاتفاقيات الدولية - والذى أدينه بشدة - بقرارات عدة صادرة عن الأمم المتحدة لإسرائيل . والقائمة طويلة بالمخالفات ضد الشرعية ، من استغلال وقح للموارد البشرية والطبيعية إلى السيطرة على تحويل المياه ، وفرض قيود على الصادرات الزراعية ، ونزع الملكية وبناء مستوطنات بشكل مكثف ، والقبض على عشرات الأشخاص ، وإيداعهم السجون بصورة تعسفية والضرب والنفى والإبعاد عن المنازل والإجراءات الكيدية والمهينة ، وضم أجزاء من الأراضى دون قيد أو شرط . وقد أدت تلك السياسة المخزية والمخالفة للحقوق الدولية والشرعية إلى رفع الأصوات حتى داخل إسرائيل نفسها بإدانتها : " إننا نتصرف فى الأراضى المحتلة من الضفة الغربية للأردن وفى قطاع غزة وفى لبنان مثلما تصرفت النازية فى الأراضى التى احتلتها فى تشيكوسلوفاكيا . وفى الغرب أعلن البروفيسور ريتشا ياهو ليبوفيتز عام ١٩٨٧ رغم أنه صهيونى أن إسرائيل كانت مسئولة عما حدث فى حرب ١٩٧٣ بسبب موقفها المتصلب لأنها لم تكن مهتمة بنشر السلام بل بالغزو فقط . واختتم قائلاً : "إن دولة إسرائيل اليوم هى فى حقيقتها جهاز تعسفى للسلطة اليهودية على شعب آخر " . باريس ١٩٩٦ .

الفصل الأول

من عصور ما قبل التاريخ إلى العصر الأموى

رغم أن فى الشام الأثر القديم للوجود البشرى بل وأول وجود للإنسان على ظهر الأرض ، فإن بعض الأدوات النادرة المصنوعة من الحجر المصقول قد يرجع تاريخها إلى حوالى مليون سنة ، فقد وجدت دلائل لاستقرار دائم على ضفاف الأنهار الكبرى كنهر العاصى والنهر الكبير ونهر الأردن ونهر الفرات لا ترقى إلى أبعد من ٥٠٠ ألف إلى ٦٠٠ ألف سنة .

ففى العصر الحجرى القديم منذ ٢٥٠ ألف عام من عهود ما قبل التاريخ أى العصر الذى ظهر فيه أول استخدام للنار فى الشرق الأوسط كانت بلاد الشام مكتظة بالسكان كما دلت على ذلك الأدوات الحجرية المتناثرة فى أماكن تغطى مساحة تلك البلاد ، فقد وجدت أدوات مصنوعة من الحجر بالقرب من قرية برزا الحالية وعلى ضفاف نهر بردى وفى الأشرفية على بعد حوالى ٢٠ كيلو متراً إلى الشمال من دمشق وكانت الأدوات الحجرية موزعة على مساحة حوالى ثلاثين هكتارا .

وابتداء من نهاية العصر الحجرى ، أى منذ حوالى خمسة عشر ألف عام ، بدأت درجة حرارة المناخ ترتفع تدريجيا وتقل الرطوبة وبالتالى بدأت بعض الحبوب تنمو تلقائيا بدون رى مثل الشعير والقمح والدخن حيث تأقلمت فى المناطق شبه الصحراوية وكونت جزءاً لا بأس به من غذاء الإنسان . وبظهور الأدوات الصغيرة المصنوعة من الصوان بدأ عصر الانتقال من الترحل إلى الإقامة والاستقرار وممارسة الزراعة .

وفيما بين الألفية العاشرة والألفية الثامنة ظهرت ثقافة جديدة تدعى الناتوفية انتشرت فى بلاد الساحل الشرقى للبحر المتوسط وفى صحراء يهودا وجبل كرمل والجليل الأعلى ، ووادى نهر الفرات، وفى واحات الصحراء السورية واشتقت اسمها من واد فى فلسطين يدعى وادى الناتوف . وينسب إلى الناتوفيين الاقتصاد الذى كان قائمًا على اقتصاد النهب والسلب ، حيث أخذ طابع العصر الحجرى الذى يعتمد على القنص والصيد والزراعة فى القرى الأولى التى استقر سكانها ومنها أريحا فى الوادى الأدنى لنهر الأردن ومرابط فى الوادى الأوسط لنهر الفرات ، وذلك منذ ثمانية آلاف وخمسمائة عام حيث كانت البيوت شبه دائرية وشبه مدفونة فى باطن الأرض ومبنية بمواد خفيفة ومسقوفة بأفرع الأشجار أو البوص .

فى هذه البيئة المستقرة بعد الترحل فى بداية الألفية الثامنة بدأ السكان يتعودون على استخدام الحبوب فى غذائهم وبدأت التجارب الأولى للزراعة . كما كانت منتجات الصيد تلعب دورًا كبيرًا فى توفير الغذاء . إلا أن الإنسان بدأ يطور غذاءه بالتدريج بدءًا من اعتماده على طريقة النهب والسلب إلى إنتاج غذائه . فالسكان الذين كانوا دائمًا رحلا ، أصبحوا الآن منقسمين داخل جدران صغيرة مستقيمة واستمروا فى صناعة الفخار وأدوات من الأحجار المصقولة تتكون من رأس سهم ونصل منجل . كما بدأوا يتعايشون مع صناعة الأدوات المصنوعة من العظم . كان الصيد يحتل أهمية كبيرة لدى الناتوفيين ثم تركز على الحيوانات آكلة العشب مثل الجاموس البرى والخيل .

كان الفن فى بعض الأحيان يمثل انعكاسًا للوضع الاقتصادى والاجتماعى الجديدين، فبدأوا يرسمون وينحتون أشكالاً للحيوانات ذات طابع إنسانى من الطين المحروق وبالذات لأشكال أنثوية لعبادة الخصوبة أخذوها من الحضارة المصرية القديمة والأناضول ، وبلاد ما بين النهرين ، وجزر الأرخبيل .

وبخلاف فلسطين ووادى نهر الفرات ، لم يتم العثور على أى تعود على استخدام الحبوب فى التغذية إلا فى تل الأسود ويقع على بعد حوالى عشرين كيلو مترًا إلى

الجنوب الشرقى من دمشق حيث أظهرت الحفريات الإستراتيجية التى قام بها هنرى كونتتسون ابتداء من عام ١٩٧١ طبقات عميقة توضح بداية الاستقرار فى الموقع واقتصادا قائماً على زراعة القمح على مياه الأمطار وليس على الرى وكذلك البازلاء والعدس والشعير البعلى (الذى يعتمد على مياه الأمطار دون الرى) ، وكذلك فواكه متنوعة كالفستق والتين واللوز والعنب وصيد الغزلان والخنزير البرى وصيد السمك . وكانت الأدوات المصنوعة من الحجر مكونة من نصل طويل ذى أسنان دقيقة . أما الأدوات العظمية النادرة فكانت متنوعة : مثقب ، إبر ، سكاكين ، ملاعق ، مقبض للأدوات . كما كونوا أشكالا من الصلصال العادى والمحروق لحيوانات كالغزال والوعل البرى والخنزير البرى ، وأشكالاً بشرية على هيئة أسطوانة ومخروطى ، ونساء جالسات والأيدى متشابكة على البطن أسفل الصدر . استخدم الحجر الزجاجى الأسود فى صناعة الأزميل الخاص بالحفر والمثقب حيث منشئة الأناضول كدليل على التبادل التجارى والاقتصادى .

المرحلة الأخيرة من الاستقرار فى تل الغريفى حيث أنشئت قرية جديدة على بعد خمسة عشر كيلو مترا جنوب غربى دمشق، وعلى موقع تل الرماد الذى يطل على هضبة من البازلت ، ويقع على طريق مواصلات مهم يربط بين الشمال الجنوب . كان السكان يقومون بزراعة الحبوب كالقمح النشوى والشعير والعدس والكتان وكذلك الخضروات المختلفة والفواكه مثل اللوز والفستق بالإضافة إلى صيد الغزال ورعى الأغنام . وتشبه الأدوات الحجرية المستخدمة فى تل الغريفى إلى حد كبير تلك التى كانت تستخدم فى مرابط وأريحا أو رأس شمرا . كان البازلت يستخدم فى صناعة الآلات الضخمة حيث وجدت بكثرة فى الأرض ، كما استخدم الحجر المصقول فى صناعة الأوانى المختلفة والبلطات .

وبعد ألف سنة تطورت العمارة تطوراً كبيراً خاصة دعامة الجدران التى أصبحت ذات زوايا مستقيمة واستبدل التصميم الدائرى بالتصميم المستطيل . وأصبحت المنازل تمتد على طول الطرقات وطليت الأرضية بالجير وبنيت الأساسات بالحجر والمبانى

بالطوب المحروق مقاس (٤٠ × ٣٠ × ٨) وهو يشبه قوالب الطوب المستخدمة فى أيامنا هذه فى القرى القريبة من دمشق . تطورت صناعة الأوانى والأحواض والأقداح . فبدلاً من صناعتها من الحجر المصقول ظهرت مادة جديدة يدخل فيها الجير المصبوب فى قوالب مما ساعد على استخدام السيراميك فى صناعة الأوانى والأوعية .

وفى نهاية الألفية السابعة بدأ الناس يتعودون على السكن والاستقرار فى قرى وزراعة النباتات واستئناس الحيوانات وصقل الأحجار واستخدام الطوب المحروق وزادت عمليات الاستقرار . فعلى الساحل ظهرت رأس شمرا ومدينة أوجاريت الكنعانية التى احتلها المزارعون عام ٦٥٠٠ قبل الميلاد ، وواحة الكوم على الشاطئ الأيمن لنهر الفرات وقرية البقرس التى تأسست عام ٦٤٠٠ ق.م ، والتى سرعان ما أصبحت بلدة كبيرة من ثلاثة هيكتارات ، وتضم منازل متلاصقة متعددة الخلايا وجدرانها مزينة برسومات تمثل طائر النعامة .

وفى النصف الأول من الألفية السادسة ساعدت التقنيات الخاصة بفنون النار إلى استخدامها فى صناعة السيراميك حيث كان يصنع يدويا . وفى تلك الفترة تم استئناس الماعز والأغنام والخنازير والجاموس والكلاب ، مما يدعو إلى الاستنتاج بأن حضارة تل رماد كانت قائمة أساساً على الرعى . وفى منتصف الألفية السادسة أكدت مظاهر اختفاء المنازل وندرة الأدوات المتقدمة على هجرة حياة الاستقرار ، وهو التطور نفسه الذى حدث فى فلسطين . وقد يكون ذلك نتيجة تغير المناخ الذى سبب عدم انتظام الزراعة ، والهروب من تلك الأماكن لمدة تزيد عن الألف عام ، بحيث لم تستأنف حياة الاستقرار إلا فى النصف الثانى من الألفية الخامسة فى تل الخزامى الواقع على بعد ثلاثة كيلو مترات من تل أسود إلا أنه مع الأسف ، وفى موقع المطار الجديد قامت بعثة تنقيب لإنقاذ بعض الأوانى التى جمعتها من تل الرماد ، وقد تآكلت طبقاتها الداخلية بفعل عوامل الزمن . ولذا لم يتم الاستدلال على أى شىء فى دمشق من الألفية الخامسة والرابعة .

وفى نهاية الألفية الخامسة ظهرت ثقافة أوبيد Obeid وسميت كذلك نسبة إلى موقع صغير فى حوض بلاد ما بين النهرين الأدنى ، حيث نشأت قبل ألف عام ونشرت نورها على بلاد الشام بالكامل والخليج الفارسى حتى وصلت إلى البحر المتوسط . وتتميز هذه الثقافة بسيراميك أحادى اللون . فهى تمثل تقدما حاسما على طريق العمران ، ففى ضواحى إريدو Eridu ظهرت للمرة الأولى بجوار المساكن مبان ضخمة ذات طابع عام ومعابد ذات أشكال جديدة ونظام جماعى . وفى شخص الملك – الكاهن وبناء على المعرفة العميقة والقوة والسلطة بفعل تراكم الثروة ، أقيم فن معمارى يدعو للفخر ، وقد تجاوز المجموعات السكنية المحددة الموجودة . وتختلف القرية طوبوغرافيا واجتماعيا بحيث تتيح إمكانية العلاقات والمبادلات . أما "الثورة المختصة بالعصر الحجرى الأخير" ، وهذا النضج البطىء الذى تدرج عبر الألفية ، فقد فتحا الطريق نحو "ثورة عمرانية" اكتملت بعد بضعة أجيال .

وفيما بين عام ٣٢٠٠ وعام ٣١٠٠ قبل الميلاد حدث تطور فى بلاد سومر فى الجزء الأدنى من بلاد ما بين النهرين وبلاد بابل المجاورة ، وذلك فى الوقت الذى كانت فيه بقية العالم بما فيها الشرق الأوسط لا تزال تعيش نمط العصر الحجرى . إذ ظهرت فى تلك البلاد نهضة معمارية كبيرة تمثلت فى إنشاء أعداد ضخمة من الآثار على عدة هكتارات وشبكات تجارة ممتدة ، وحدث تبادل تجارى مكثف ونظام محاسبة وتسجيل وتجسيد الأرقام باستخدام أشكال صغيرة متنوعة مصنوعة من الصلصال فى بادئ الأمر ثم باستخدام حزوز على ألواح صغيرة . لقد كانوا على عتبة استخدام الكتابة التى اخترعت فى نهاية الألفية الرابعة فى مدينة أروك Uruk ، ونشأت هذه الحضارة الساطعة نتيجة زيادة التبادل التجارى وتمركز السكان بكثافة فى الأماكن الحضرية مما ساعد على نشرها وامتدادها إلى خارج موطنها الأصلى .

ازدهرت الحضارة البرونزية القديمة فى بلاد المشرق منذ نهاية الألفية الرابعة وطوال الألفية الثالثة وتميزت بتكوين دول حقيقية لكنها ظلت على هامش التاريخ نتيجة عدم اختراع الكتابة فيها . ولكن بجانب التكتلات السكانية المزدهرة لبلاد سومر ، التى

وصلت مساهمتها إلى حوالى أربعين هكتارا ، فإن المدن السورية الأولى التى لم تنمُ إلا فى بداية الألفية الثالثة ، ظهرت متأخرة وبشكل متواضع .

وفى الألفية الثالثة سيطرت إبلا Ebla على بلاد الشام من جهة الشمال وعلى الساحل كانت توجد أوجاريت وهى ميناء مهم ، وعلى نهر الفرات قرشميش وتتحكم فى موقع إستراتيجى عند عبور النهر . ذكرت دمشق فى هذا العصر على ألواح إبلا . وفى عام ١٩٦٥ حدثت عمليات تنقيب داخل حرم المسجد الأموى واكتشف إناء يرجع تاريخه إلى منتصف الألفية الثالثة .

وفى نهاية الألفية الثالثة وقعت هجمات من جانب البدو العَموريين وهى قبائل سامية من ناحية تدمر مما أدى إلى اختفاء الحياة الحضرية فى عدة مناطق من الشام وبلاد ما بين النهرين عند نهاية آخر أسرة سومرية تحت حكم الإمبراطور أور UR الذى امتد نفوذه من سوس إلى جبيل . استوعب القادمون الجدد حضارة السومريين وأسسوا سلسلة من الممالك منها بابل حيث شكلوا وحدة لم تتم بزعامة حمورابى سادس ملك لهم . وفى الشام كان استقرار هؤلاء البدو بطيئًا ولم يتم إلا فى منتصف القرن التاسع عشر قبل الميلاد .

واستقرت أسرات عَمورية وكونت مدنًا لدول تم التعرف عليها من خلال وثائق وسجلات مارى Mari ، ففى شمال الشام تكونت مملكة قرشميش ومملكة يامحاد وعاصمتها حلب حيث امتد نفوذها إلى زاجروش . وفى وسط الشام مملكة قطنة وتقع عاصمتها قرب مدينة حمص الحالية . امتدت الأراضى العمورية إلى جنوب قطنة وشملت إقليم دمشق ، وفى عام ١٩٩٤ اكتشف خاتم أسطوانى الشكل فى دير خبية على بعد عشرين كيلو مترا إلى الجنوب الغربى من دمشق حيث يؤكد العلاقة بين إقليم دمشق وبلاد ما بين النهرين فى القرن الثامن عشر قبل الميلاد . وفى الساحل كان عصر ازدهار الحضارة الكنعانية حيث كانت مدن الدول مثل أوجاريت وجبيل على علاقة ثقافية وتجارية وثيقة مع مصر ، ولكن خوفًا على استقلالهم لجأوا إلى الاحتماء خلف أسوار ومتاريس.

شهد القرن السادس عشر فترة من التغييرات السياسية والعرقية العميقة ، ففى عام ١٥٩٥ شن الحيثيون هجوما ناجحًا على بابل ووضعوا بذلك نهاية للأسرة العمورية محطمين فى طريقهم مملكة يامخاد وعاصمتها حلب . وفى الوقت نفسه قاموا بتوحيد الجزء الشمالى من الشام وبلاد ما بين النهرين تحت سلطتهم وأخضعوا معظم الدول الكنعانية والعمورية وأصبحت تابعة لهم وأسسوا إمبراطورية جديدة أسموها الميتانية Mittani ولكن لم يتم التعرف على عاصمتها . وكانوا يتميزون بأنهم مدربون مهرة للخيول وفرسان ممتازون وأدخلوا استخدام العربات التى تجرها الخيول إلى الشرق الأوسط وأصبحت السلاح الرئيسى فى المعارك . وعلى الصعيد الدينى أحضروا مقدساتهم البدائية مثل ميترا وفارونا وأندرا ولكنهم فشلوا فى نشر لغتهم على سكان البلاد الأصليين.

وقد كشفت أعمال التنقيب التى تمت على الضفة الشمالية لنهر بردى على بعد حوالى خمسة عشر كيلو مترا إلى الشرق من دمشق فى تل الصالحية عن وجود مدينة مهمة محاطة بسور سميك ارتفاعه ثلاثة أمتار . كما كانت دمشق مركزًا تجاريا مهما .

وخلال العصر البرونزى الحديث كان يطلق على دمشق اسم أبو Apu ثم تحول إلى أوبى Upi ومع ذلك فإن الحدود الجغرافية لأراضى Apu (أبو) غير معروفة ، وليس من المؤكد أن عاصمتها كانت دمشق . ومثل باقى المدن المعاصرة كان يحكمها " ملوك " عرف منهم اثنان فقط هما أريوانا وزلايا .

وكل ما عرف عن أوبى Upi من العصر البرونزى الحديث كان مسجلاً فى الصراعات التى تمت بين القوى الكبرى فى ذلك الوقت : مصر وميتانى والحيثيين .

نشأت حركة التوسع المصرى نحو الشرق أثناء الربع الثانى من القرن السادس عشر على يد فرعون مصر أحمس (١٥٧٠ - ١٥٤٦) بعد نجاحه فى طرد الهكسوس خارج دلتا مصر حيث قاد جيوشه إلى جنوب فلسطين ، وباستيلائه على مدينة شاروهين Sharuhen عمل على تقوية حدوده الشرقية . وفى عهد أمنحتب الأول الذى

خلف أحمس فى عام ١٥٤٦ قبل الميلاد امتد النفــوذ المصرى حتى وصــل إلى بــلاد ما بين النهرين وأصبح الاهتمام الأكبر لملوك الأسرة الثامنة عشرة والأسرة التاسعة عشرة حيث وجدت هذه الحملات منقوشة على جدران المعابد واعتبرت مصدراً رئيسيا للمعلومات حول سياسة مصر وسوريا . قاد تحتمس الأول (١٥٢٥ - ١٥١٢ ق.م) جيوشه إلى منطقة قرشميش حيث انتصر على الميتانيين وأقام نصبًا تذكاريا على ضفاف نهر الفرات . وعندما تولى تحتمس الثالث الحكم فى عام ١٤٩٠ ق.م كانت قوة مصر قد بلغت أوجها . وجه أول حملة برية إلى سوريا وليس حملة بحرية كما فعل أمنحتب الأول وتحتمس الأول عندما نزلا على الساحل الفلسطينى . قهر تحتمس الثالث قوات التحالف بقيادة أمير قادش ورد أعداءه إلى مدينة مجدو التى استسلمت بعد حصار دام سبعة أشهر . وسجلت أسماء ١١٩ مدينة على أحد جدران معبد الكرنك وأخذ سكانها أسرى وظهر فرعون ممسكا بشعر رءوسهم وهم راكعون تحت قدميه ، ومن بين المدن التى ذكرت دمشق حيث ظهرت هنا لأول مرة فى التاريخ . وبعد هذه الحملة الأولى حافظت مصر على شمال سوريا تحت قيادتها ، واستمرت الحملات نحو الشمال ، وأثناء حملته الثامنة كان منتصرا للمرة السابعة عشرة .. فى السنة الرابعة والخمسين من حكمه هزم تحتمس الثالث قوات ميتانى إلى الغرب من حلب ووصل إلى نهر الفرات وأقام نصبًا تذكاريا تعبيراً عن انتصاره لدى جده تحتمس الأول ، ثم نزل بطول النهر ووصل عمار Emar وحاليًا سكينة وذلك قبل عودته لمصر . وعلى الرغم من حملاته العديدة التى حازت الانتصارات العسكرية ، فإن تحتمس الثالث فشل فى أن يستبدل سلطة ميتانى التى كانت قائمة فى شمال سوريا بسلطة مصرية دائمة . ومع ذلك فقد نجح فى إخضاع الممالك الصغيرة من السودان إلى الفرات ، ووصلت السلطة السياسية المصرية إلى قمة مجدها .

نجح أمنحتب الثالث (١٤٣٨ - ١٤١٢ ق.م) ابن تحتمس الثالث فى المحافظة على السيادة المصرية المطلقة على شمال سوريا حيث قاد ثلاث أو أربع حملات لقمع ثورات تدعمها الميتانى . قام تحتمس الرابع (١٤١٢ - ١٤٠٢ ق.م) بحملة واحدة ثم اختار الدبلوماسية عن طريق الزواج حيث تزوج ابنة أرتاما الأول ملك ميتانى . واستمرت

العلاقات السلمية بين الإمبراطوريتين أثناء حكم ابنه أمنحتب الثالث . وقد أظهرت نقوش وجدت على قاعدة تمثال فى المعبد الجنائزى لرمسيس الثانى فى الجزء الغربى من طيبة دمشق للمرة الثانية فى النصوص ضمن المدن السورية التابعة أو الصديقة لمصر . وفى عهد أمنحتب الرابع أخناتون (١٣٧٩ - ١٣٦٢ ق.م) انتقلت العاصمة إلى مصر الوسطى فى أخيتاتون (تل العمارنة) حاليا حيث اكتشفت عام ١٨٨٧ كمية كبيرة من الألواح المصنوعة من الخزف مكتوب عليها باللغة البابلية ذات الطابع المسمارى وتحتوى - بالإضافة إلى خطابات فى آخر عهد أمنحتب الثالث - على جزء كبير من المراسلات الدبلوماسية فى عهد أخناتون نجحت فى المحافظة على سلطتها فى شمال سوريا بما فى ذلك أرض أوبى Upi كما تعطى مؤشرات محددة على طريقة ممارسة تلك السلطة على الأقاليم . وكانت هناك حامية صغيرة بقيادة ضابط مصرى فى مدن معينة للسيطرة على الصراعات بين المدن المنافسة خاصة إذا وصلت إلى حد تهديد المصالح المصرية . وفى عام ١٩٦٩ وجد خطاب فى كوميدى (كميد اللوز حاليا) فى سهل البقاع كان قد أرسل من فرعون إلى " زلايا " ملك دمشق وفيه يشكو الحكام من عمليات سلب ونهب تقوم بها عصابات مسلحة لا دين لها ولا قانون يقال إنهم من العبرانيين .

ومنذ اعتلاء سوبيلوليوما الحيثى الحكم عام ١٣٨٠ ، بدأ يمارس سياسة عدوانية قلبت موازين القوى فى الشرق الأوسط لمدة ثلاثين عاما . فقد استولى على جميع ممتلكات ميتانى بشمال سوريا وضم إلى إمبراطوريته عددا من المدن التابعة لمصر مثل أوجاريت وقادش بالقرب من حماة الحالية، بل وربما أوبى Upi حيث هزم الملك أريوانا وأخذ أسيرا وتم نفيه فى الأناضول . وقد كشفت نقوش فى القاهرة عام ١٩٧٣ توضح أن فرعون مصر حورمحب (١٣٤٧ - ١٣٢٠ ق.م) قاد حملة إلى جبيل فى جنوب سوريا حتى قرشميش مما يوضح أنها وأرض أوبى Upi حتى هذا العصر كانتا تحت قيادة مصر بشكل حازم . واصل سيتى الأول (١٣١٨ - ١٣٠٤ ق.م) ثانى الملوك الفراعنة من الأسرة التاسعة عشرة القتال ضد الحيثيين واستولى على قادش، وأعاد السلطة لمصر فى عَمورة وخلد مآثره فى معبد آمون بالكرنك . وفى السنة الرابعة لحكمه ، وصل

رمسيس الثانى (١٣٠٤- ١٢٣٧ ق.م) إلى وادى نهر الكلب حيث حفر نقوشا لم تعد واضحة هذه الأيام . وفى العام التالى ، وفى معركة قادش الشهيرة ، اضطر المصريون للتراجع وتركوا مؤقتًا على الأقل عمورة إلى الحيثيين . وفى عام ١٢٨٣ ق.م وبعد سبعة عشر عامًا من الحروب المتواصلة ، وقعت معاهد سلام بين رمسيس الثانى وملك الحيثيين هاتوسيلى الثالث ورسمت الحدود بين المملكتين بطول خط يمر جنوب قادش .

ويبدو أن القرن الثالث عشر كان عصرا ذهبيا بالنسبة لسوريا، حيث عم الرخاء بشكل واضح نتيجة التبادل على نطاق واسع بينها وبين وادى النيل ووادى دجلة والفرات والأناضول وقبرص . وفى نهاية العصر البرونزى تحول هذا العالم الغنى الذى ظل عدة قرون غارقا فى الظلام نتيجة كارثة غير معروف مصدرها ، فقد حدث نوع من الاتحاد لشعوب غريبة " شعوب البحر" بعد عدة محاولات لغزو مصر كانت القوات المصرية فى كل مرة تصدهم . لكنها نجحت فى اقتحام الإمبراطورية الحيثية ودمرتها وخربت سوريا حتى السهول الداخلية إلى أن وصلت الى وادى نهر الفرات وأضرمت النار فى عمار وسالت الدماء فيها . ودمرت مدنًا مثل أوجاريت وألالاخ وقطنة قبل أن يتوقفوا عند حدود مصر حيث صدهم رمسيس الثالث حوالى ١١٩٠ ق.م . ووجدت نقوش على جدران معبد مدينة هابو فى طيبة لم تدع أى مجال للشك عن حجم الكارثة ، وقد ذكرت النقوش أن من بين الغزاة البليست أى الفلسطينيين الذين احتلوا مدنًا مثل غزة وعسقلان وأسدود قبل أن يصيروا حوالى عام ١١٠٠ ق.م الأعداء الرئيسيين لقبائل إسرائيل . وبعد رحيل " شعوب البحر" خيم السكون على سوريا لعدة أجيال .

وعندما ظهرت الوثائق اتضح أن الوضع السياسى تغير تمامًا . ففى شمال سوريا وحول مدن مثل قرشميش وحماة أنشئت ممالك صغيرة على أنقاض الإمبراطورية الحيثية ، وعلى أطراف الصحراء ، هناك قادمون جدد ألا وهم الآراميون والساميون وهم شبه بدو رحل حيث لا زالوا بعيدين نسبيا عن مناطق الاستقرار ، وقد ذكرت فى التوراة بعض قصص خرافية حول أصل الآراميين وعلاقتهم بأجداد إسرائيل . فقد ورد فى سفر التكوين "آرام" لأول مرة أنه ضمن أبناء سام ومرة

أخرى أنه ضمن أبناء إبراهيم وأنجب إسحق ويعقوب الأجداد المباشرين للإسرائيليين وزوجات أراميات . كتبت هذه القصص فى عصر كان ينظر فيه للآراميين على أنهم شعب قوى .

وفى عصر شاءول - الملك الذى اختارته القبائل العبرانية لتوحيد صفوفهم وقواهم ضد الفلسطينيين - ظهرت عدة دول آرامية على حدود مملكة إسرائيل . بيت ريحوب فى جنوب وادى البقاع وآرام ماكه فى مرتفعات الجولان وجيشور شمال وادى اليرموك وخاصة آرام صوبا الأقوى بينهم والمتمركزة فى شمال البقاع . أما عن دمشق فقد ظهرت للمرة الأولى فى قصص الحروب التى خاضها داود (١٠٠٤ - ٩٦٥ ق.م) ضد أمون وهى إحدى الممالك خارج الأردن لكى يتمكن من ضم طرق التجارة مع شبه الجزيرة العربية . وبعد أن هزم داود حدد عازر Hadadezer ملك صوبا Zobah قرب حماة الذى كانت عمورة قد طلبت منه التحالف معها ، إلا أن داود انقض على جيش الإنقاذ الذى أرسله الآراميون بدمشق وحقق داود نصرا ساحقًا واستولى على دمشق ووضع فيها حامية . وقد ذُكر أن حدَدْ عازر كان من أقوى الملوك وأكثرهم شجاعة وأنه استولى على دمشق وسائر بلاد الشام باستثناء إقليم فينيقيا (لبنان حاليا) .

حافظ سليمان بن داود والذى خلفه فى الحكم على قوة إسرائيل وأوصلها إلى قمة مجدها لكنه واجه فى الأقاليم مؤامرات عدة كانت تساندها مصر . وفى وسط بلاد الشام ، سار ريزون Rezon - وهو ابن شخص يدعى إليادا وأحد خدام حدد عازر - نحو دمشق على رأس جيش صغير نجح فى تجميعه ونادوا به ملكا ووقف ضد إسرائيل طوال مدة حكم سليمان . وبعد موت سليمان ضعفت قوة إسرائيل وتمكن ريزون وخلفاؤه من تكوين الدولة الآرامية فى دمشق والتى أصبحت أقوى دولة فى المنطقة . وفى بداية القرن التاسع ، دخلت فى صراع على أسا وباشا وهما ملوك مملكة إسرائيل . كان أسا قلقا من المحاولات التى يقوم بها خصمه بتقوية جيشه فى منطقة رامة Ramah على بعد عدة كيلو مترات من أورشليم فجمع ثروته وخزائنه من ذهب وفضة والنص التوراتى وأرسلهم إلى بار - حدد بدمشق وطلب منه أن ينقض تحالفه

مع باشا . قام بار - حدد بغزو أراضى إسرائيل الواقعة شمال بحيرة طبرية وبسط بذلك هيمنته على دمشق والطرق التجارية المؤدية إلى الموانئ الفينيقية التى كانت مستقلة مثل : صيدا وصور وعكا . وفى منتصف القرن التاسع وفى عهد حدد - إدر كانت دمشق قوية وعلى رأس تحالف يضم ملك حماة وأشاب ملك إسرائيل لمواجهة الأطماع الآشورية . ولكن حدد - إدر توفى فى ظروف غامضة ، ربما مخنوقًا بغطاء مبلل قام به أحد الأشخاص ويدعى حزائيل Hazael ولم يغير التحالف ضد الآشوريين من الأمر شيئًا ولم ينقذ الأسرة وتدهورت العلاقات بين آرام وإسرائيل اللتين كانتا تعارضان شن معركة ضد راموث جلعاد Ramoth Galaod وعبر سلمانا صار الثالث نهر الفرات مرة أخرى . وقعت حماة الصلح بينما دفعت الجزية كل من إسرائيل وصور وصيدا . ووجدت دمشق نفسها وحيدة ضد الآشوريين . وبعد هزيمتها فى المناطق الشمالية لجبال لبنان رجع حزائيل إلى دمشق قبل أن يحاصرها سلمانا صار الثالث . وتلك هى المرة الأولى التى يصل فيها جيش آشورى إلى دمشق . ومن المؤكد أنها كانت محصنة لأن الجيش الآشورى فشل فى الاستيلاء عليها فقام بقطع الأشجار وضرب الأجزاء الخلفية منها وأشعل فيها النيران . سار سلمانا صار الثالث بعد ذلك إلى حوران يدمر ويحرق ويخرب القرى التى فى طريقه ثم اتجه نحو الساحل وأقام نصبا ليخلد ذكرى مروره . وفى عام ٨٣٨ ق.م وفى السنة الواحدة والعشرين من حكمه ، بدأ حملته السادسة والأخيرة . وللمرة الثانية يجد حزائيل نفسه وحيدا فى الوقت الذى سقطت فيه معظم المدن السورية فى أيدى الغزاة أو دفعوا جزية . وبعد أن حقق سلمانا صار الثالث نصرا على قوات دمشق ، فشل مرة أخرى أمام المدينة . وكان لابد من الانتظار ثلاثين عامًا حتى يتمكن جيش آشورى من الظهور أمام دمشق .

وبعد أن تحرر حزائيل من التهديد الآشورى ، ركز قواته ضد إسرائيل ، التى لم تتمكن من الوقوف ضد حزائيل بعد أن أنهكت من التطهير الدموى وعمليات الذبح والاغتيال وقطع الرءوس وإرسالها فى سلال وذلك بعد اعتلاء ييهو Jehu العرش كملك إسرائيل العاشر وفقدت إسرائيل معظم حدودها فيما وراء الأردن . وتابع حزائيل

سياسته التوسعية واجتاز نهر الأردن وتقدم نحو فلسطين واستولى على مدينة جات Gath ولم يعد هناك جيش لإسرائيل سوى خمسين فارسا وعشر عربات وعشرة آلاف رجل مشاة كانوا تابعين لدمشق . اتجه حزائيل نحو يهودا وسار نحو أورشليم حيث الملك يوأس Joas الذى جدد الحركة التى قام بها قبله الملك أسا الذى قام بشراء انسحاب الآراميين من كنوز المعبد ومن قصره . ومرة أخرى أصبحت يهودا تابعة لدمشق . استمر حكم حزائيل مدة أربعين عامًا وأصبحت مملكة آرام بدمشق القوة الأولى لسوريا حيث يمتد نفوذها من حمص إلى سيناء ومن الساحل إلى أطراف الصحراء . أما المدن الكنعانية الموجودة على الساحل ، فقد حافظت على استقلالها . أما بار – حدد الثالث الذى تولى الحكم بعد أبيه حزائيل فقد فشل فى المحافظة على السيطرة على دمشق ، وقامت الدول التابعة لفلسطين بتمرد بينما عبر الآشوريون نهر الفرات . وفى المناطق الجنوبية من الشام تعرض بار – حدد لضربات عسكرية مؤلمة حيث هزمه يوأس ثلاث مرات وفقد جميع المدن التى استولى عليها والده حزائيل من إسرائيل . واضطر بار – حدد أن يوافق لملك إسرائيل على منحه مزايا تجارية فى عاصمته دمشق وأتاح بذلك فرصة للإقامة الدائمة للجالية اليهودية فى دمشق وتبع ذلك التوقيع على معاهدة تحالف بين يوأس وبار – حدد .

لكن الدولة الآشورية هى التى كان يجب عليها أن توجه الطعنة القاضية إلى السيطرة على دمشق . ففى حوالى عام ٧٩٦ ، سار حدد نينارى الثالث (٨١٠-٧٨٣) نحو أرض شا – إمريشو . Sha-imerishu وما إن عبر نهر الفرات حتى أخضع الحيثيين ثم استولى على باقى أراضى عمورة ووصل إلى "البحر العظيم الذى تغرب فيه الشمس" وأقام نصبا تذكاريا له فى أرمادا وهى جزيرة أروادا الحالية وقطع حوالى مائة شجرة من أشجار الأرز من جبل لبنان لتشييد قصره ومعابده ، ثم أخضع إسرائيل وصور وصيدا وبلاد فلسطين ، ووصل أمام دمشق حيث اضطر بار – حدد الثالث أن يعلن خضوعه له . وحسب النص المحفور على لوحة وجدت فى نمرود ذكر للمرة الأولى أنه فى داخل قصر ملك دمشق أن الملك الآشورى تلقى جزية " ما يعادل

خمسين ألف كيلو جرام فضة وما يعادل خمسمائة كيلو جرام ذهب وخمسة وسبعين ألف كيلو جرام برونز ومائة وخمسة وعشرين ألف كيلو جرام حديد ، وملابس مزركشة بخيوط حريرية ومعدنية متعددة الألوان ، وكتان وسرير وأريكة مطعمة بالعاج بالإضافة إلى أموال وممتلكات لا أول لها ولا آخر " .

إلا أن هذا الغزو الذى قام به حدد - نيناری الثالث والذى قدمته النصوص على أنه أعظم إنجاز قام به فى حملاته العسكرية على سوريا - لم يؤد مع الأسف إلى حدوث تكامل نهائى للعاصمة الآرامية فى الإمبراطورية الآشورية . وفى عام ٧٧٣ ق.م ، وحسب النص الذى وجد محفورا على مسلة مقامة فى عهد سلمانا صار الرابع (٧٨٢ - ٧٧٢ ق.م) - ووجدت مؤخراً فى بازاريك بتركيا - أن الآشوريين بقيادة أحد ملوكهم ويدعى خاديا نو اضطر إلى دفع جزية لدمشق . وأثناء الربع الثانى من القرن الثامن ، أصبحت دمشق تابعة لملكة إسرائيل بقيادة ملكها جيرو بوم الثانى والذى يعتبر عصره من أزهى العصور فى تاريخ إسرائيل . وبموت جيرو بوم نشأ صراع على السلطة فى السامرة وانتهزت دمشق الفرصة لتستعيد استقلالها .

وفى عهد تجلات بلاسر الثالث Teglat-Pileser وحوالى عام ٧٣٥ ق.م بدأ الصراع الذى أنهك المملكة الآرامية بدمشق . وقد ورد ذكر هذا الصراع فى الكتاب الثانى من كتاب الملوك وفى سجل الأحداث والذكريات الآشورية التى ذكرها النبى إليشع الذى عاصر هذه الأحداث . وفى الوقت الذى كان فيه الملك الآشورى يقود حملة فى شمال وشرق الدول التابعة له ، قام تحالف بقيادة راديان Radyan ملك دمشق ويضم فاسيه Phacee ملك إسرائيل ومدينة صور الكنعانية وقاموا بحصار أورشليم إلا أن الملك أشعز Achaz طلب مساعدة تجلات بلاسر . وابتداء من عام ٧٣٤ استبسل فى الدفاع عن سوريا لمدة عامين ونزل أولا على شاطئ البحر المتوسط حيث استولى على كل مدنها ووضع على رأس كل مدينة حكاما تابعين له . وذكر النبى إليشع أن صور " كانت ملكة البحار حيث التجار من الأمراء والمشترون من النبلاء " . وقد أقام

تجلات بلاسر الثالث نصبًا تذكاريا لانتصاره فى غزة بعد أن فر ملكها ، وأجبر ملك إسرائيل على قبول السيادة المطلقة للآشوريين على ملكه حيث لم تمتد سلطته إلى خارج حدود السامرة ، ضم آشوريين - شمال البلاد - إلى الإمبراطورية الآشورية وقسمت إلى ثلاثة أقاليم : مجدو ويضم الجليل ودر على الساحل وجيلاد وهى المنطقة الواقعة بين الأردن والصحراء العربية . وفى الوقت نفسه أخضع زنوبيا Zabiba ملكة العرب، واكتسح فى طريقه المدن الواحدة تلو الأخرى ، وحمل معه فى كل مرة مئات الأسرى بأموالهم وماشيتهم وأغنامهم . وذكرت النصوص الآشورية أن عدد المدن والقرى التى دمرها بلغت ٥٩١ مدينة وقرية وست عشرة مقاطعة . وفى عام ٧٣٣ ق.م حانت ساعة دمشق التى حدثنا عنها النبى إليشع بأنها كانت مشهورة بثرواتها .

أما راديان الذى كان على رأس قواته أمام الآشوريين ، فقد فر من ميدان المعركة ولكى ينقذ حياته ، تسلل متخفيًا كالنمس حتى وصل إلى مدخل مدينته . وأمام السكان المذعورين ، قام تجلات - بلاسر بوضع الأعيان الذين وقعوا فى قبضته أحياء على خوازيق ونهب وسلب كل ما يحيط بالمدينة ودمر البساتين العديدة . وبعد خمسة وأربعين يوما من الحصار ، سقطت المدينة وهرب عدد كبير من سكانها وقتل راديان . وانتهى بذلك آخر حصن آرامى فى سوريا . وأصبحت دمشق عاصمة إقليم آشورى صغير وقسم الباقى إلى عدة أقاليم مجاورة . ولم تعد دمشق مدينة ، بل كومة من الأطلال والخرائب .

وكان لابد من الانتظار ما يقرب من أربعة عشر قرنًا لتستعيد المدينة الآرامية الكبيرة مجدها وتصير عاصمة لدولة مستقلة .

لم تنته الحملات الآشورية غرب الفرات . فقد أكمل سارجون الثانى (٧٢٢-٧٠٦ ق.م) ما بدأه سالمانا صار واحتل السامرة وهرب منها سكانها . وفى عام ٧٢٠ ق.م وبعد أن هزم كركر ملك حماه الذى كان يتزعم عصيانا اشتركت فيه دمشق وفى رفح أوقع هزيمة ساحقة بقوات تحالف من مصر وغزة . وفى عام ٧١٧ ق.م سقطت آخر دولة حيثية فى شمال سوريا .

وإذا كان سقوط دمشق قد وضع حدا نهائيا ، فإن سوريا بالنسبة للتاريخ السياسى للآراميين قد امتد نفوذها الثقافى لعدة قرون . وسوف تصير اللغة الآرامية وهى اللغة السامية القريبة من العبرية والعربية ، اللغة الدولية للإمبراطورية الفارسية . وفى مصر استخدم الموظفون الفرس والمصريون تلك اللغة فى مراسلاتهم ، وحرر اليهود التلمود باللغة الآرامية حيث بشر المسيح الذى ولد بالناصرة بعقيدته باللغة الآرامية . ولا زالت اللغة السريانية مستعملة حتى اليوم فى الطقوس الدينية لعدد كبير من مسيحيى الشرق الأوسط . ولم تتوقف إلا بعد الغزو الإسلامى حيث تلاشت بالتدريج أمام اللغة العربية . ولم يتبق لهم أى شيء من المبانى المعمارية إلا بعض آثار لقصر ملكى اكتشف فى تل حلف كان قد أنشئ فى القرن التاسع فى جوزانا عاصمة دولة آرامية صغيرة فى بيت باهيانى .

ورغم عدم وجود أعمال تنقيب فى موقع المدينة نفسه ، فمن الممكن وضع مخطط يحدد دمشق الآرامية . وقد أكدت النصوص الآشورية والنصوص التى وردت بالتوراة أنها كانت مدينة قوية وتتمتع بالرخاء وبها قصر محاط بأسوار منيعة على ربوة فى وسط المدينة فى حى "القلعة" . كما أن وجود الحدائق التى عمل الملوك الآشوريون على قطع أشجارها توحى بأن شبكة الرى كانت موجودة . كما ذكر أنه كان يوجد نهران بدمشق "أبانا وبارفار" والذى عرف فيما بعد باسم بردى . أما أبانا فقد عرف باسم بانياس ، وذلك لتغذية معبد حدد بالماء . ومن المحتمل أن يكون هذا المعبد فى موقع الجامع الأموى الحالى الموجود فى الجزء الشمالى الغربى من المدينة . وقد عرف من مصادر موثوقة أن الجامع الأموى حل محل كاتدرائية يوحنا المعمدان .

وبسبب عدم التنقيب فى الموقع الحالى للمسجد ، لم يظهر أى أثر للمعبد حتى عام ١٩٤٨ عندما اكتشف فى الجزء الشرقى من الجدار الشمالى لحرم المسجد حجرا ضخمًا من البازلت يرجع تاريخه إلى العهد الآرامى وعليه زخرفة على شكل أبى الهول : أسد بذيل وله رأس إنسان . كما وجدت مجموعة من الألواح المزينة بالعاج

فى قصر الحاكم الأشورى لمدينة حداتو ومقرها الحالى أرسلان تاش بشمال سوريا . ومنذ تلك العصور السحيقة ، احتفظت قرى الغوطة بأسمائها الآرامية : كفر بطنه وعقربه ..... إلخ .

ظلت الدولة الآشورية قوية تحت حكم أوسرحدون (٦٨٠- ٦٦٩ ق.م) وأشوربانيبال (٦٦٨-٦٢٧ ق.م) حيث قادوا حملات ضد صور ومصر إلا أنها انهارت بعد بضع سنوات أمام ضربات الميدز Medes والسيت Scythes والأسرة "البابلية الحديثة" التى نشأت مؤخراً فى بابل . وسقطت أشور عام ٦١٤ ق.م ونينيف العاصمة بعد عامين وحران التى تبعد أربعين كيلو متراً إلى الجنوب الشرقى من عرفا الحالية فى عام ٦٠٩ ق.م ثم جاء دور كارشميش عام ٦٠٥ ق.م حيث سحقت أخر كتائب الجيش الآشورى وحلفائه المصريين . واقتسم المنتصرون الإمبراطورية فيما بينهم وانضمت سوريا بالكامل إلى الإمبراطورية البابلية الحديثة الذى مر ملكها نابوشو دونوصور الثانى (٦٠٤ - ٥٦٢ ق.م) بدمشق عندما كان محاربا فى فلسطين .

أرسل قائد قواته هولوفيرن للإعداد لقدوم نابوشود وصور لكنه أضرم النيران وذبح الأهالى فى شمال البلاد ونزل إلى سهل دمشق وقت حصاد القمح وأشعل النيران فى جميع الحقول وأباد الكثير وأخذ الماشية والأنعام وسلب المدن وخرب الريف وذبح الشبان .

وبعد أقل من قرن على وجود الأسرة البابلية الحديثة ، انتهت بدورها هى الأخرى . ففى ٢٩ أكتوبر عام ٥٣٩ ق.م، توغل الفارسى قورش إلى بابل دون قتال . وفتح هذا التغيير فى السلطة مرحلة جديدة فى تاريخ الشرق الأوسط ، فقد انتهى تفوق وسيادة بلاد ما بين النهرين ولمدة ألف عام إلى أن وصل العرب المسلمون وفقد الساميون حقوقهم السياسية . وظلت سوريا لمدة قرنين من الزمان تتمتع بفترة طويلة من السلام فى السيطرة الفارسية وفى أحضان أكبر إمبراطورية وفرضت لغتها كلغة دبلوماسية ولغة الثقافة . وقد امتزجت فى بادئ الأمر مع بلاد ما بين النهرين وكونت إقليماً يحكمه حاكم واحد . وبعد الإصلاحات الإدارية العظيمة التى قام بها دارا الأول

(٥٢٢ - ٤٨٦) ، كونت فينيقيا وقبرص الإقليم الفارسى الخامس وصار إقليمًا خارج النهر وسمى بالفارسية "أثورا" (أشور) . ظهرت فى سوريا جماعات مختلفة وغير متجانسة منها الحضر والقبائل العرقية الأخرى كالآراميين واليهود والسامريين والعمونيين (وهم شعب سامى كان يقطن شرقى الأردن) وقبائل عربية ... إلخ.

حيث خضعت تلك الجماعات لحد ما تحت سيطرة الحكومة المركزية وبعضهم تحت سيطرة الأسرات المحلية أو حكام الأقاليم التى تمتعت بحكم ذاتى أو الفرس الذين فرضهم ملك الملوك .. كان الجميع يتمتعون بحكم ذاتى داخلى ظل فترة طويلة طالما كانوا يدفعون الجزية حيث لم تهتم الإدارة الفارسية بشئونهم الداخلية . أما فى الجنوب فكانت توجد مدينة بترا العاصمة ، وهى مدينة كبيرة لقوافل العرب النبطيين وتشهد على الجهود الضخمة التى بذلها خلفاء الإسكندر المقدونى بعد وفاته لكى يستولوا على طريق القوافل . وعلى الساحل كانت المدينة عبارة عن وحدة سياسية مثل : أرواد وجبيل وصور وصيدا وعكا حيث كان يحكمها حكام بالوراثة ويساعدهم مجلس أعيان . بسط هؤلاء الحكام نفوذهم على مدن أخرى مجاورة تدفع لهم الجزية . كما كانوا يتمتعون بقدر كبير من الاستقلال إذ كانوا يقومون بصك النقود باسمهم .

وفى بداية ربيع عام ٣٣٤ ق.م. ، قام الإســـكندر الأكبر على رأس جيش مكون من ٣٢ ألف إغريقى ومقدونى بعبور مضيق الدردنيل . وقد ساعد الانتصار الذى حققه بعد عبوره نهر جرانيك (وهو حاليا نهر كوكاباس قرب بحر مرمرة) وتحطيمه الخط الذى أقامه الفرس أن يفتح أمامه طريق الشرق ، ثم اتجه إلى سوسة عاصمة دارا الثالث ، واتجه بطول الساحل وضم المدن البحرية الواحدة تلو الأخرى متجنبا الاشتباك مع الفرس فى معارك بحرية نظرا لتفوقهم البحرى . وبعد أن عبر ممر أضنة بتركيا استولى على سهل إيوز (قرب الإسكندرونة حاليا بتركيا) وحقق نصرا حاسما فى أكتوبر ٣٣٣ ق.م ، ثم واصل طريقه نحو الجنوب واحتل سوريا ووضع يده على خزائنها وثرواتها واستولى على نساء دارا واستسلم له كبار رجال الدولة واستولى على صور بعد حصار دام سبعة أشهر ثم أخذ غزة ومنها اتجه إلى مصر حيث رحب به المصريون

انتقاما من الحاكم الفارسى ، ومن هناك عبر الصحراء الشرقية ونهر الفرات ونهر دجلة وهزم دارا عند مدينة جوجاميل (قرب مدينة أربيل الحالية بالعراق) ، وفر دارا نحو الأقاليم الشرقية وعين الإسكندر نفسه ملكا شرعيا على فارس وعين حكاما إيرانيين على الأقاليم ليكسب ودهم .

وفى ١٣يونية ٣٢٣ ق.م وبعد عودته من السنة الثامنة للحملات المظفرة فى أسيا ، توفى الإسكندر فى بابل بلدغة بعوضة حاملة للملاريا وتوزع خلفاؤه على الحكومات المحلية ،فعلى مصر كان هناك بطلميوس بن لاجوس . تكونت الأسرة السلوقية فى شمال سوريا وهى أسرة أغريقية والبطالمة فى الجنوب فى مصر . ونظرا لتواجد دمشق قرب خط التقسيم ، فقد تغير الحكام عليها عدة مرات . ومن المحتمل أن تكون قد انضمت إلى سلطة البطالمة منذ بداية تكوين مملكة البطالمة فى مصر . ثم قام (أنطيوخوس) الأول بن سيلوقس بطرد البطالمة فى عام ٢٥٩ ق.م ، وفيما بعد أمر بصك النقود باسمه عام ٢٤٣ ق.م قبل أن تسقط دمشق نهائيا فى يد السلوفيين الإغريق حيث بسطوا نفوذهم إلى حدود مصر . وقسمت سوريا بعد ذلك إلى أربعة أقاليم عُرف منها اثنان فقط هما : حماة وأنطاكية .

ظل سيلوقس الأول وخلفاؤه يتولون زمام الأمور بسوريا إلى أن وصل الرومان . وأثناء حكمهم وضعوا سياسة إغريقية قوية قائمة على تطوير العمران وغرس المستوطنات الإغريقية والمقدونية وبصفة خاصة تلك الحضارة اليونانية التى نشرها الإسكندر الأكبر على نطاق واسع إلا أنها لم تكن معروفة فى الشرق الأوسط وخاصة على سواحل سوريا . ومنذ القرن الخامس ، قامت غزة بصك النقود الإغريقية وهى الدراخمة تقليدا بما كان يتم فى أثينا .

وفى منتصف القرن الرابع نشأت علاقات تجارية بين اليونانيين وموانئ عكا وصور وصيدا وغزة حيث قدموا لشراء الدقيق والمنسوجات والزجاج والمعادن المشغولة والمنتجات العربية الثمينة كالذهب واللبان والمر . وعلى صعيد الفن اشتهرت صيدا بصناعة التوابيت الحجرية للملوك ويوجد منها الآن فى متحف إسطنبول .

وفـى شـمـال سـوريا ، أسس سـيلوقس الأول مـدينتـين على نـهر العـاصى : أنطاكية حيث اتخذها عاصمة له وسماها باسم والده : (أنطيوكس) وأباميه تخليدا لذكرى زوجته .

ولم يكن انتشار الثقافة فى اليونان إلا ظاهرة سطحية ، فلم تؤثر إلا فى الطبقات الميسورة التى تعيش فى المدن والتى يتم منها اختيار كبار موظفى الإدارة ويتمتعون بمزايا حقيقية اقتصادية وثقافية . وعلى النقيض من ذلك ، لم يكن لها تأثير على الطبقات الفقيرة من سكان المدن أو الريف .

وقد استخدمت اللغة اليونانية فى القصور والإدارة والمحاكم والتجارة ولم تنتشر فى أوساط الشعب الذين ظلوا متمسكين بلغتهم القديمة وهى الآرامية . وفى المقابل أظهر بعض اليونانيين – لكنهم قلة – اهتمامهم بالثقافة المحلية . فالشاعر ملياجر دوجادا – كان يتقن الآرامية واليونانية .

ولد عام ٦٤ ق.م. من أب وأم من دمشق . كما تلقى تعليمًا متكاملاً فى قواعد اللغة اليونانية وفن الشعر والبلاغة والموسيقى والرياضيات والفلسفة بالإسكندرية وروما وروdس .

وقد أدى نمو الحياة العمرانية بالمدن فى كل أنحاء الشام إلى وضع سياسة للاهتمام بالريف ، وذلك للتمتع بالمناخ والهواء المنعش من المزروعات مما ساعد على زيادة العائد من الأراضى الزراعية وتقليل الواردات ، وتحسنت الوسائل المستخدمة فى الزراعة وظهرت طواحين المياه ومعاصر الزيوت وعصارات النبيذ .

وتحسنت وسائل الرى فزادت رقعة الأرض الزراعية وبرعت الصناعة فى المواد الكمالية : المنسوجات الراقية ، الصباغة ، صناعة الزجاج . وكانت البضائع القادمة من الشرق الأقصى وشبه الجزيرة العربية تنقل إلى سوريا قبل أن تصل إلى اليونان ومدن حوض البحر المتوسط . ولم تكن هناك أية مدينة تضارع أنطاكية حتى الإسكندرية ذاتها فى جمال شوارعها واتساعها وعدد ممراتها المكشوفة (Portiques)

وتنظيم خدماتها العامة وروعة ضواحيها مثل دفنة التى كانت موضع شهرة فى الشرق بأكمله .

أما عن دمشق ، ففى الأزمنة الأولى للسيطرة المقدونية ظلت تواصل مسيرتها كمركز اقتصادى محلى . ولكن بسبب إقامة حاكم سلوتى داخل المدينة مثلما كان فى حلب سلجوقي وحماة أو حمص ، أقيمت مستعمرة إغريقية - مقدونية خارج المدينة الآرامية .

وطبقًا للأسس التى وضعها المهندس المعمارى هيبودا موس دو ميليه والتى كانت تطبيقاتها تتفق وتوصيات أرسطو ، فإن الأحياء الجديدة بنيت حسب تخطيط منتظم عبارة عن شوارع متعامدة محددة بخطوط مستقيمة وعرضها يتراوح ما بين ثلاثة إلى خمسة أمتار وفى وسط كل شارع مجموعة منازل مستطيلة طولها ١٠٠ × ٤٥ مترًا متلاصقة ولها فتحات على الطريق العمومى . كان يوجد فى ذلك الوقت مدينتان متجاورتان : فى الشرق مدينة إغريقية مقدونية حول الساحة العامة (agora)، وفى الغرب المدينة الآرامية القديمة حول معبدها . ولم يكن من السهل إيجاد سور يوحد المدينتين ، ولكن أقيمت تحصينات حديثة قادرة على صد أكبر عدد من آلات الحرب المخصصة لمهاجمة المواقع . وقد شيد قصر جديد اتخذ مركزًا للسلطة الملكية وحل محل المقر القديم للملوك الآراميين .

وفيما يتعلق بالنواحى الدينية ، فقد احترمت الحضارة اليونانية الديانات المحلية . وقد تشابهت المقدسات الدينية اليونانية مع تلك التى كانت موجودة فى الشرق القديم ؛ هذا بخلاف اندماج زيوس مع حدد وهرقل مع ميلكار وأفروديت مع عشتارت وأثينا مع اللات وهيليوس مع شمس . وابتداء من القرن الثانى كانت مدينة صور تحتفل بألعاب لصالح هرقل - ميلكار . كما وجد رسم لزيوس - حدد لعبادته فى المعبد الكبير بدمشق .

وأثناء الربع الثانى من القرن الثانى ، قام إبيفان (١٧٥-١٦٣ ق.م) بنهب معبد أورشليم مما أحدث رد فعل عنيفًا من جانب الجالية اليهودية . واستمرت حركات

العصيان والتمرد تتزايد ولم تتوقف إلا بوصول الرومان وخاصة ضد الحاكم اليونانى ديميتريوس الثانى (١٤٤ - ١٢٥ ق.م) . وكان العصيان اليهودى دليلا على ضعف السلطة السلوقية اليونانية . وانتهز الجميع فرصة الانشقاق والفتن الداخلية والاضطرابات الخارجية للأسرة ، فبدأت السلطات المحلية تقوى من نفوذها ، وسيطر العرب على لبنان وجبال لبنان ووادى الأردن الأعلى واحتل العرب الأنباط جنوب البحر الميت . امتدت الحرب الأهلية بين أنطيوكس الثامن وأخيه أنطيوكس التاسع مما عجل بالتفكك . وحصلت أغلب المدن الساحلية على اعتراف بالحكم الذاتى . وبدأت صيدا عهدا جديدا عام ١١١ ق.م وطرابلس الشام عام ١٠٥ ق.م وعسقلان فى ١٠٤ ق.م واللاذقية عام ٨٢ ق.م وبيروت عام ٨١ ق.م . أما المدينة الوحيدة التى ظلت تعترف بحكم السلوقيين فهى دمشق حيث جاء أنطيوكس التاسع حولى عام ١١١ ق.م واتخذها عاصمة له . وفى النصف الأول من القرن الأول الميلادى تأجج صرا ع الأخوة وازداد اشتعالا فخسر أنطيوكس التاسع المعركة أمام أخيه أنطيوخس العاشر الذى انهزم بدوره من قبل الدولة البارثية . وانتهز ديميتريوس الثالث الفرصة وبمساعدة مصر فى بسط نفوذه على الجزء الأكبر من سوريا لكنه وقع فى أيدى البارثيين عام ٨٨ . وأصبح فيليب الأول حاكما على أنطاكية لكن أخاه أنطيوكس الثانى عشر استقر بدمشق عام ٨٧ ق.م وصك النقود باسمه وظل بها لمدة عامين إلى أن أصيب إصابة قاتلة عام ٨٥ ق.م فى صحراء النقب أثناء اشتباك مع أبوداس الأول ملك العرب الأنباط . قدم بطلميوس ابن مينا يوس العرش إلى أريتاس الثالث بن أبوداس الأول الذى دخل المدينة عام ٨٤ ق.م . إلا أن أريتاس الثالث أجبر على التقهقر أمام تيجران ملك أرمينيا حيث مل سكان أنطاكية من المنافسة المميتة للسلوقيين . سيطر تيجران على دمشق وساد حكمه السلام والرخاء حتى عام ٦٥ عندما دخلها الجنرال الرومانى لوقولس فانهارت السلطة السلوقية وعمت الفوضى فى كل مكان . وعلى أطراف الصحراء وجهة الشرق ، بدأت تدمر تزدهر . ولكن قطاع الطرق ضاعفوا هجماتهم على كل الأرجاء وازدادت أوكار القرصنة على الساحل وانهارت الزراعة وتوقفت تجارة القوافل .

وفى أعقاب التهديد الرومانى ، بدأ آخر فصل من المأساة التى لحقت بمملكة السلوقيين اليونانية ، وأصبح بإمكان تيجران Tigrane أن يرحل بعد الاتفاق الذى تم بينه وبين الجنرال الرومانى لوقولس Lucullus وتثبيت أنطيوخس (أنتيوخوس) الثالث عشر بن انطيوكس العاشر ملكا على سوريا .

اشتدت الاضطرابات بصورة أكثر عنفا وأسر سامبسيجرام أنطيوكس الثالث عشر بينما نجح فيليب الثانى بن أنطيوكس الثالث عشر فى الاستقرار فى أنطاكية .

وفى خلال تلك الفترة جاء الوالى الرومانى بومبى Pompee للتشاور حول بسط نفوذه الممتد لتسوية قضية الشرق بطريقته الخاصة أى مشكلة أرمينيا وتهديد البارثيين وثورة اليهود . وفى عام ٦٤ نزل إلى سوريا ومنح سلطات لقادة الجيش ، فاحتل نيبوس Nepos دمشق واندفع نحو الداخل لطرد النبطيين بقيادة أريتاس الثالث Aretas III وهرب أنطيوكس الثالث عشر من أنطاكية وحكم عليه بالموت . وبذا انتهت أسرة السلوقيين اليونانية ،ولم يتبق من العالم الاغريقى القديم سوى مملكة البطالمة فى مصر والتى اندحرت فى اليوم التالى لمعركة أكتيوم .

وبمجرد وصول بومبى إلى أنطاكية ، جعل من سوريا إقليما رومانيا واستقبل فى كل مكان استقبال الأبطال المحررين . فقد نظرت روما إلى سوريا على أنها ذات أهمية خاصة ، وبذا فقد وضعت تحت الحكم المباشر للوالى الرومانى .

أجبر أريتاس الثالث ملك النبطيين على أن يصير خاضعا للرومان وانتزع بومبى الحصون القوية من أيدى المكابيين اليهود واستولى على معظم مدنهم وأجبرهم على دفع الجزية .

استشعر بطلميوس الثانى عشر حاكم مصر الخطر الذى سوف يحل بعرشه فأرسل وفدا رسميا إلى دمشق للسعى لشراء العطف والتسامح من قبل الوالى الرومانى القوى . وفى دمشق التقى بومبى بالشقيقين الأعداء : أرسطو بولس وهيركان

اللذين كانا يتنازعان السلطة على أرض دولة يهودا . وفى خريف ٦٣ق.م ، ظهر بومبى بنفسه فى أورشليم . وقامت حرب أهلية بين بومبى ويوليوس قيصر أجبر على أثرها بومبى على ترك الشرق وعهد إلى قائده أميليوس سكورس بتولى السلطة فى سوريا . أما القبائل العربية المجاورة فكانت تعاود هجماتها بين الحين والآخر . وفى القرن الأول الميلادى سعت روما إلى ضم سوريا ضمن حدود الإمبراطورية . وانضمت مملكة كوماجين Comagene وهى البلاد الواقعة شمال شرق سوريا نهائيا إلى الإمبراطورية الرومانية عام ٧٢ ق.م وكذلك إميز Emese (حمص حاليا) عام ٧٨ ق.م. حافظت المدن على نوع من الحكم الذاتى حتى إن بعضها قام بضرب العملة . توقف إصدار العملة البرونزية فى دمشق بعد حكم تيبير Tibere (١٤ - ٣٧) أما فى عهد كاليجولا (٣٧-٤١) فقد أصبحت دمشق مستعمرة نبطية عندما كان على رأسها أريتاس الرابع . كما لوحظ وجود جالية ضخمة من اليهود فى دمشق عام ٦٦ .

ارتفع شأن دمشق وامتد نفوذها إلى حدود ضخمة وصارت عاصمة فى عهد هادريان (Hadrien) .

وفى عهد ألكسندر سيفير ،تبوأت دمشق مركزا ممتازا كمستعمرة رومانية حتى أنها كانت معفاة من الضرائب العقارية . وفى عهد الإمبراطور الرومانى ديوقلسيان Diocletion قام بإصلاحات إدارية وعسكرية وقضائية لكنه اضطهد المسيحيين . وكذلك فى عهد الإمبراطور جوليان (٣٦١-٣٦٣) أدت محاولة إصلاح عبادة الأصنام إلى زيادة اضطهاد المسيحيين فى دمشق وفى هذه المرة على يد اليهود وأضرموا النيران فى كاتدرائيتين .

وباستثناء معبد حدد الذى بقى من الآثار القديمة ، نجد أن دمشق فى العصر الرومانى ظلت محتفظة بآثارها التى تعتبر من أقدم الآثار وذلك بفضل بعض العناصر المعمارية والرسومات مع الاهتمام بالخطوط العمرانية العريضة والدقة الطوبوغرافية . وتوجد داخل المدينة الرومانية وخارج الباب الشرقى ، ثلاث كوات تمت المحافظة عليها بسبب الوسائل الجيدة المستخدمة فى تقوية الآثار الرومانية والإبقاء عليها . وهى عبارة

عن مستطيل طوله حوالى ١٥٠٠متر وعرضه ٧٥٠متراً والجوانب ذات خطوط مستقيمة باستثناء الجانب الممتد إلى الشمال حيث مجرى أحد روافد نهر بردى ويمتد ليشمل وادياً صغيراً يضم المدينة الآرامية القديمة والأساس الإغريقى والحى النبطى ، وقد بنيت من الحجر الكبير ولها سبعة أبواب موجهة ناحية الكواكب ثلاثة على الجبهة الشمالية واثنان على الجبهة الجنوبية وواحد على الجبهة الشرقية وواحد على الجبهة الغربية . وباستثناء الباب الشرقى ، فقد أعيد بناؤها فى العصر الاسلامى . فى الجنوب باب الصغير يوجه إلى كوكب المريخ وباب قيسان إلى زحل وإلى الغرب باب الجابية موجه للمشترى وفى الشمال باب الجنيق موجه إلى القمر وباب الفرادس إلى عطارد وباب توما إلى الزهرة . ومن الباب الغربى إلى الباب الشرقى ، يوجد شارع رئيسى بممرات مكشوفة بطول ١٥٠٠متر وعلى جانبيه محلات . أما " الطريق المستقيم " الشهير والذى يبلغ عرضه ٢٦متراً منها ١٤متراً لنهر الطريق حيث يعبر المدينة من الغرب إلى الشرق لتسهيل المواصلات بين الأجزاء الثلاثة الآرامية والإغريقية والنبطية وفى الوقت نفسه يربطها بالأجزاء الخارجية .

ازدهرت دمشق كمركز تجارى عند ملتقى طرق القوافل الصحراوية ووجه الرومان عناية خاصة لتقوية المدينة وذلك بتطويقها بسور على شكل مستطيل ولايزال بعض بقاياه مصوناً . وكان فى الزاوية الشمالية الغربية منها قلعة أصبحت تعرف بقلعة دمشق . ولا زالت الآثار الرومانية باقية . وداخل سور المنطقة الرومانية توجد أفاريز من النمط المصرى ولا زالت موجودة فى الجامع الأموى كذلك باب البريد والباب الغربى للجامع الكبير المزين جبهته بأوراق وزخارف نباتية .

وفى الزاوية الشمالية من المدينة الإغريقية وعلى بعد قليل من باب توما توجد الساحة العامة وفى هذه المنطقة يوجد أحد الشوارع الذى لا يزال يحمل هذا الاسم " زقاق الساحة " . ويساعد فى الاحتفاظ بالوضع القديم للأماكن حيث الساحة الإغريقية كانت خالية من أية إنشاءات وذلك طبقًا لوصف دمشق فى العصور القديمة إذ ورد فى القرون الأولى من الوجود الإسلامى تواجد ساحة بجوار باب توما وساحة خالد .

وكانت هذه الساحة عبارة عن مركز تجارى للمدينة ، وهى فناء فسيح مستطيل الشكل محاط بمحلات ومظلة بممرات مسقوفة على جوانبها الأربعة وتتصل بالخارج بعدة أبواب منها باب توما لتسهيل دخول القوافل .

ويعتبر معبد جوبيتر كبير آلهة الرومان من أهم المعالم الأثرية وأكبرها فى سوريا حيث كان يتكون من مقصورة الرب (وهى موضع تمثال الإله فى عبادة الرومان والإغريق) ومحاطة بسورين مستطيلين بحيث يتجه المحور الكبير من الشرق إلى الغرب . والسور الخارجى عبارة عن شكل رباعى الأضلاع أطواله حوالى ٣٨٠ × ٣١٠ مترات ومحاط من الداخل برواقين مزدوجين لتحديد المنطقة المقدسة ، كما توجد بقايا آثار متناثرة ومخربة . وفى الجانب الشرقى يوجد جزء كبير من جدار مزين بأعمدة خاصة فى محور شارع الساحة الإغريقية وباب تذكارى ذو ثلاث فتحات وحاليا مدفون فى الأرض إلى منتصفه حيث كان يفتح علب البناء من الأمام على جدار السور .

ويوجد فى الجانب الشمالى بعض قواعد أعمدة وأجزاء من جدار . أما فى الجانب الجنوبى وقرب الزاوية الغربية ، فيوجد باب بفتحة واحدة . وفى الجانب الغربى بقايا من بنايات وخاصة فى محور شرق – غرب حيث توجد بقايا رواق أثرى يشتمل على زخارف للمدخل وعتبة محنية محمولة على أربعة أعمدة ودعامتين تكون إطارا يندمج فى سلسلة الأعمدة الداخلية للرواق المزدوج .

أما السور الثانى فهو عبارة عن ساحة تحيط بالمعبد من الداخل ويحظر دخول أى شخص إليها سوى الكهنة والمتدينون ، وهم فى حالة نقاء وطهر وقد تمت المحافظة عليه خاصة فى الجزء الغربى منه ، وهو أيضاً مستطيل الشكل أطواله ١٦٠٠ × ١٠٠ متر ومبنى بالحجر الكبير مع فواصل منتظمة من أعمدة بارزة قليلاً تعلوها حلوق مصرية .

ويوجد فى كل زاوية برج مربع الشكل يحتوى على درج يصل لأعلى الجدار . أما البرج الجنوبى الغربى فترتفع فوقه هذه الأيام مئذنة قايتباى ، ولا زالت سليمة

وبحالة جيدة . أما باقى الأبراج ، فقد تهدم منذ القرون الوسطى . كانت توجد أربعة أبواب فى السور الذى يحيط بالمعبد من الداخل . ولا يزال الباب الغربى المسمى بباب البريد بحالة جيدة ويستخدم هذه الأيام كمدخل رئيسى للجامع الأموى . أما الباب الجنوبى والذى سُدَّت فتحاته عند إنشاء المسجد ، فقد ظهر من جديد أثناء عمليات هدم المحلات عام ١٩٨٣ .

أما الباب الشمالى فقد اختفى تماما . وكان الباب الشرقى وهو باب جيرون ، المدخل الرئيسى لمحراب الكنيسة . والفتحات الثلاث التى تستخدم إحداها كمدخل للمسجد الأموى ، كانت تفتح تحت رواق يبلغ عمقه ستة عشر متراً وعرضه ثمانية وعشرين متراً وبه درج أثرى للنزول على الطريق المزدان بأعمدة ويؤدى إلى الساحة الإغريقية وقد هدم هذا الرواق بالكامل ، إلا أن بورتر يذكر أن "ستة أعمدة تسند دعامات على هيئة أقواس نصف دائرية " كانت موجودة حتى منتصف القرن التاسع عشر . وفى القرن الثانى عشر ذكر الرحالة المسلم ابن جبير هذه الأعمدة الست . كما أن "مقصورة الرب " قد دمرت وسويت بالأرض عند إنشاء المسجد بعد أن تحول المعبد إلى كنيسة فى العصر البيزنطى وكان عبارة عن بناية مستطيلة الشكل متجهة ناحية المدخل الرئيسى أى جهة الشرق : وقد أمكن تحديد الشكل النهائى لمعبد دمشق وكذلك معبد بل فى تدمر ومعبد جوبيتر هيليو بوليتان فى بعلبك قبل نهاية القرن الأول الميلادى . وقد أعطى هذا المعبد لدمشق طابع المدينة العظيمة فى الإمبراطورية الرومانية . وجعل الإمبراطور جوليان من دمشق تلك المدينة المقدسة والفسيحة الشهيرة بجمال احتفالاتها وعظمة معابدها فهى مدينة جوبيتر الحقيقية وعن الشرق بأكمله " . كما كان يوجد بدمشق معابد أخرى لا يعرف مكانها حتى الآن . فكان هناك معبد قرب نبع الفيجة .

وقد ذكر فلافيوس جوزيف أن دمشق كان بها قبل نهاية القرن الأول قبل الميلاد مسرح وساحة للألعاب الرياضية هدية من هيرود (٤٠ - ٤) ملك اليهود . وقد ساعد قرب دمشق من فلسطين على ظهور المسيحية وانتشارها منذ السنوات الأولى للقرن

الأول الميلادى وربما لوجود دمشقيين بين اليهود حيث تحولوا إلى النصرانية فى عيد الخمسين أو عيد الحصاد عند اليهود بمساعدة بطرس الرسول أحد تلاميذ المسيح الاثنى عشر . وبعد ثلاث سنوات من موت المسيح ، كانت الجالية المسيحية فى دمشق مهمة بدرجة كبيرة حتى إن السنهدريم وهو المجلس الأعلى عند اليهود القدماء أرسل أحد المتظاهرين بالتقوى من الشباب ويدعى شاول الطرسوسى وهو يهودى ساذج يتكلم اليونانية المتأثرة بالعبرية لا يتنفس إلا التهديدات والقتل لتلاميذ السيد المسيح ، وإذا وجد فى طريقه أى مؤيد أو مشايع يسير على دربه ، رجالاً كانوا أو نساءً ، فسوف يجرهم فى سلاسل إلى القدس فى منتصف نهار اليوم الخامس من سفره على ظهر جواد ومعه مرافقه الخاص ، وعندما اقترب شاول من حدائق دمشق ، إذا بنور من السماء يغمره بضوئه الساطع فوقع من على ظهر جواده وفقد بصره ، وأحدث هذا التحول دويا هائلاً فى تاريخ الأديان ، فقد تغير هذا الإنسان المليء بالرغبة فى الانتقام والاضطهاد إلى رسول وأصبح بولس الرسول . نهض شاول وأخذه مرافقه واصطحبه إلى دمشق حيث بقى فاقد البصر ثلاثة أيام دون طعام أو شراب فى منزل أحد اليهود المقيمين فى " الطريق المستقيم" ثم جاء حَنَانْيا وهو رجل ورع يحترمه جميع اليهود وتضرع إلى الرب بأن يرد لشاول بصره ، وقام بتعميده . وفجأة " أعلن شاول فى المعابد اليهودية أن المسيح هو ابن الله ! " .

تعرض للانتقام من جانب اليهود الذين استنكروا ارتداد بطل الأمس وكفره . فانسحب شاول المتحمس لهذا الدين الجديد واتجه إلى شبه الجزيرة العربية أى إلى حوران وبلاد ما وراء الأردن . ثم عاد إلى دمشق حيث تآمر عليه اليهود لقتله وقام الوالى الرومانى للملك النبطى أريتاس الرابع باحتجازه ليلاً ونهارًا ومراقبة أبواب المدينة حتى لا يهرب . أنزله تلاميذه من خلال نافذة من سلة إلى خارج سور المدينة وهرب من دمشق عام ٣٨ . وكان بداية لنشاط محموم وإصرار ونشاط دون كلل وأخذ يدعو وينادى بأن خلاص البشر على يدى المسيح ابن الله !

ومن القدس إلى أنطاكية إلى حمص إلى روما . وكلمة من السماء بدأت تجوب أرجاء الإمبراطورية " وتعلن عن الإنجيل وتبشر بالمسيح الذى عذب بصلبه والذى كان

بمثابة وصمة عار على اليهود وهوس بالنسبة للوثنيين " ففتح الطريق " أمام جميع الوثنيين إلى الامتثال والخضوع للإيمان " . فصل شاول تعاليم المسيح عن اليهودية وأوجد دينا جديداً . وفى نظره أن الإيمان هو اليقين بأمور لا ترى حيث أعطانا سيدنا إبراهيم " أبانا جميعًا " المثل الأعلى على ذلك وأن الدين الجديد لم يعد يستقر فى اجتثاث غلفة الذكر التى تقطع فى الختان وإنما فى استئصال الخطايا . كما أن الإيمان ليس فى طرف قضيب الرجل ولكن فى أعماق القلب . وبالنسبة لمذهب خلاص البشر على يد المسيح بالموت وبعثه مرة أخرى ، فإن البشر جميعًا يهود وغيرهم مدعوون على رجاء المسيحية وبعث الجسد والحياة الأبدية ورؤية الله . والجانب السيئ من هذه التجربة هو الإحباط الجذرى للعالم الدنيوى متمثلاً فى سيطرة الشيطان .

وعن العلم ذكر شاول أن العلم الضار والمفسد الذى يغذى الكبرياء مرفوض ولا جدوى من ورائه . واستشهد المؤلف بحديث لمحمد (عليه الصلاة والسلام) حيث ذكر أن الإسلام يحض على البحث والمعرفة حيث قال " طلب العلم فريضة على كل مسلم ومسلمة ".

وعلى الصعيد السياسى ، فيوصى شاول "بالخضوع بلا ضعف لأنه لا توجد سلطة على الأرض إلا وتكون مستمدة من الله وأن الذى يقاوم السلطة آثم ومتآمر ضد النظام القائم " . ومع ذلك فإن الدين الجديد تعرض للاضطهاد من جانب الإمبراطورية وأصبح شاول شهيداً فى عهد نيرون عام ٦٧ وحنانيا فى عهد فيسبا سيان عام ٧٠ . ورغم الاضطهادات أو بفضلها انتشرت المسيحية ودخل عدد ضخم من الرومان فى المسيحية وربما عن اقتناع أو من المؤكد بسبب دوافع سياسية . واعتنقها قسطنطين Constontin (٣٠٦ - ٣٣٧) ومنح الحرية التامة وحرية العبادة بالنسبة للديانات الأخرى . وشهد القرن الرابع انتقال العاصمة من روما إلى القسطنطينية وتحول الإمبراطورية من دولة تؤمن بتعدد الآلهة إلى إمبراطورية مسيحية تؤمن بإله واحد حيث حرية المعتقدات مباحة . ودخلت الكنيسة المسيحية إلى عقر دار الإمبراطورية وأصبحت تشكل عاملا من عوامل وحدتها .

لكنها رغم ذلك دخلت فى صراع دون رحمة سواء ضد الذين يرفضون عقائدهم أو الذين يعتنقونها بصورة سيئة .

وفى عهد تيودوز Theodose (٣٧٩ - ٣٩٥) ظهرت ثلاثة أحداث تاريخية كان لها وقع محزن فى العالم القديم : فى عام ٣٨٠ أعلنت المسيحية كدين دولة ، عام ٣٩١ إبطال عبادة الأصنام ، عام ٣٩٤ منع الألعاب الأوليمبية . فى عام ٣٩٠ ، بعد أن أمر الإمبراطور بنفسه بذبح عدة آلاف من سكان مدينة سالونيك ، فُصل وأجبر على الاعتراف بذنبه وبصورة علنية على يد أسقف ميلانو سانت أمبريوز .

تمت ممارسة نظرية بولس الخاصة بالذات الإلهية للسلطة بالكامل لصالح السلطة الكنسية . فى ٧ ديسمبر ٤١٦ طرد الوثنيون من الجيش والإدارة والقضاء . وفى عام ٤٣٥ حكم بالإعدام على كل من يمارس العبادات القديمة . قام الغوغاء المتعصبون فى أماكن عدة بهجوم على المعابد واعتبروها مأوى للشياطين وقاموا بهدمها ، أما الطعنة القاتلة فقد حدثت عام ٥٢٩ فى عهد جستنيان ، حيث أغلقت المدرسة الأفلاطونية بأثينا وصودرت جميع ممتلكاتها . وبقيت مدرسة أفلاطونية أخرى فى حران شمال بلاد ما بين النهرين حتى مجىء الأتراك السلاجقة فى القرن الحادى عشر . وبقيام تحالف بين رجال الدين المسيحى والدولة ، ضعفت الإمبراطورية وتحولت إلى دولة تيوقراطية ، وهيمنت الكنيسة ورجال الدين على السلطة وأصبح الإمبراطور يحمل اسم " سيد العالم " . قسمت البشرية فى نظرهم إلى قسمين :

القسم الأول : الذين يجاهرون بالعقيدة المسيحية ويعلمونها ويعترفون بالإمبراطور بأنه سيد العالم وحاكم الأرض التى عليها سكان .

القسم الآخر : الشعوب البربرية وهم بقية سكان العالم . وداخل الحدود التى تعيش فيها شعوب متنافرة محرومة من الوحدة العرقية واللغوية ، فإن الوحدة الدينية تعتبر بديلاً عن أى شىء آخر لأن تبنى العقائد أسهل من تعلم اللغة واعتبر ذلك الضمان الوحيد لتلاحم الإمبراطورية .

فكرة العقيدة الخاصة بألوهية المسيح وتجسده والثالوث . فقد أعلن أريوس أن المسيح غير مساوٍ فى الجوهر أو الطبيعة مع الأب وأنه مولود ولكن لم يخلق وهو " قرار غير مفهوم عبر عنه فولتير وأثار تهكمه ، لكنها إرادة سامية أعلى من تفكيرنا البشرى " ، وبدلاً من تهدئة الخواطر فإن المجمع الدينى أثار النفوس بالمشاحنات المتعلقة بدراسة المسيح من حيث شخصيته وتعاليمه وذلك فى القرن الخامس الميلادى وجزأ المسيحية الشرقية بصورة حاسمة الأمر الذى سهل الغزو الإسلامى فى القرن السابع الميلادى . والمسألة الأساسية التى كانت موضع خلاف وهى الطبيعة الحقيقية للمسيح ، وكنتيجة لمجيئه وهل العذراء أم إنسان أم أمُّ الله ؟

أيد نستوريوس Nestorius بطريرك القسطنطينية عام ٤٢٨ إلى عام ٤٣١ بصورة علنية أن المسيح يجمع بين الطبيعة الإلهية والطبيعة البشرية بصورة مميزة وأن مريم تعتبر أم المسيح وليست أم الله . إلا أن سيريل Cyrile بطريرك الاسكندرية كان يؤيد المناداة بوحدانية الإله وهى العقيدة المصرية فى ذلك الوقت . رفض مبدأ نستوريوس فى مجمع إيفيز Ephese الواقعة على بحر إيجه واتهم بأنه ينكر ألوهية المسيح وحكم عليه بالهرطقة وأنه ينشر البدع . ورغم أن نستوريوس كان يتمتع بتأييد سلطة الإمبراطورية ، فقد تم نفيه وهرب تلاميذه إلى حدود الغساسنة . وفى أكتوبر عام ٤٥١ ، أدان المجمع الدينى بشالسيدوان – والمكون من ستمائة أسقف معظمهم شرقيون – المبدأ المنادى بوحدانية الإله واقترح صيغة نهائية للعلاقات التى أوجدها سر التجسد بين الطبيعة البشرية والطبيعة الإلهية للمسيح . وفى ٢٥ أكتوبر ، وبعد مناقشات عنيفة بحضور الإمبراطور مارسيان والإمبراطورة صدر " مرسوم عقائدى" وألقى بيان عن النظرية الأرثوذكسية حول تجسد المسيح : " ليكن معلوماً للجميع أن الرب يسوع المسيح هو واحد وأيضاً ابن وأنه كامل من الناحية الألوهية ومن الناحية البشرية وأنه إله حقيقى وفى الوقت نفسه إنسان حقيقى مساوٍ ومشارك فى الجوهر معنا بشريا ويشبهنا فى كل شىء ما عدا الآثام والخطايا وأنه ولد من أب قبل كل الدهور .

أما عن ألوهيته وعن كونه بشرا فقد ولد من أجلنا وتأنس من مريم العذراء . إننا نعترف بيسوع المسيح الابن الوحيد ونقر بأنه من طبيعتين دون أى خلط أو تحول أو انقسام أو انفصال بينهما لأن اختلاف الطبيعتين لا يلغى وحدتهما بل إن شخصية المسيح تجمع الطبيعتين الإلهية والبشرية . وأخذ "المرسوم العقائدى " قوة القانون وأضاف النص الذى صدر عن المجمع الدينى :

" بالنسبة لهؤلاء الذين لا يلتزمون بالمرسوم ، فإذا كانوا أساقفة أو رجال دين ، فإنهم يطردون كنسيا . وإذا كانوا متدينين أو علمانيين فقد حلت بهم لعنة الحرمان. انقسمت الإمبراطورية منذ ذلك الوقت إلى معسكرين لعدوين لدودين ، فمن ناحية الخلقيدونيون وهم الموالون للمذهب الأورثوذوكسى وللمقر الرومانى . ومن ناحية أخرى الذين تجمعوا حول مقرى أنطاكية والإسكندرية وهم ضد الخلقيدونيين ، فهم موحدون متشبثون برأيهم . وكتب ميشيل السورى بطريك أنطاكية فى نهاية القرن الثانى عشر "أن مدينة خلقيدونية خرقت سلام الكنيسة " . ازدادت الفجوة عمقًا بين السلطة البيزنطية والولايات الشرقية للإمبراطورية وهى سوريا ومصر حيث استخدم مبدأ التوحيد لأغراض سياسية .

وبتحريض من شخص يدعى يعقوب زانزالاس أقيمت كنيسة التوحيد وتقام فيها الطقوس الدينية باللغة السريانية أى الشكل المعاصر للغة الآرامية وذلك فى مواجهة الكنيسة الرسمية . ولكن منذ مجىء الإمبراطور جوستان (٥١٨ – ٥٢٧) أصدر مرسوما بأن الإيمان حسب الطقوس الخلقيدونية أصبح إجباريا على جميع رعايا الإمبراطورية . واضطر الأساقفة إلى اللجوء إلى صحراء الشام للنجاة بأنفسهم من السجن أو القتل . وعندما جاء جستنيان للحكم (٥٢٧) أصبح التحالف بين السلطة والكنيسة وثيقًا وتجسدت السلطة فى شخص الإمبراطور رئيس الدولة ورئيس الكنيسة فى الوقت نفسه وأصبح السيد الأعلى للمعتقدات وأنه يتلقى الإلهام من السماء والحق الإلهى . ونص القانون الأول لجستنيان الخاص " بالثالوث الأقدس " . على أن هؤلاء الذين يدخلون البدع والهرطقة لابد أن يختفوا من الوجود وتمحى آثارهم من على وجه

الأرض " . زادت الاضطهادات الدينية إلى أقصى درجة وأقيمت المحارق فى كل مكان وكانت رائحة شواء الأجساد المحترقة للشهداء تفوح فى كل مكان . وجاء إفرام بطريرك أنطاكية والذى كان يلقب بـ "جلاد المؤمنين " وحرص على اضطهاد الشرق بأكمله دون رحمة وطارد المخالفين دون هوادة وأجبرهم على الارتداد عن عقائدهم حتى الذين فروا إلى الصحراء تعقبهم وعذبهم بقسوة حتى الموت .

وفى مصر كانت كاتدرائية القديس مرقص بالإسكندرية مسرحا لمذابح الموحدين والذين نجوا من الموت انتقص من قدرهم وطردوا من الوظائف العامة أو الأعمال الخاصة وحرموا من حرية العبادة ومن حق الميراث . وصدر قانون عام ٥٤٤ بمنع الموحدين من الاحتفال بإقامة القداس أو التعميد أو إنشاء كنائس وأطلق عليها " مغارات الكفر والإلحاد" ولم يذكر التاريخ إلا قدرا يسيراً من التسامح . أغلقت الأديرة وخربت الكنائس وألقى القبض على الأساقفة وأضرمت النيران فى المحارق ولم يفلت إنسان من الاضطهاد .

وفى القسطنطينية وفى عهد جستينان ، جمع أتباع مانى الفارسى صاحب عقيدة الصراع بين النور والظلام فى قوارب وأحرقوا أحياء فى عرض البحر وصودرت أملاكهم حيث كان بينهم نساء شهيرات ونبلاء وكبار موظفين فى الدولة .

وفى عهد هرقل (٦١٠ - ٦٤١) وفى الوقت الذى احتدمت فيه المعركة على الغساسنة ظهرت الكراهية العميقة من جانب الموحدين السوريين والمصريين تجاه الإمبراطورية . ولذا فقد حاولوا إيجاد صيغة توفيقية لجمع المنشقين عن أرثوذوكسية الإمبراطورية تضم جميع الأرثوذوكسيين فى كيان واحد لتأكيد وجود إرادة واحدة وطاقة واحدة لشخصية المسيح التى تجمع الطبيعتين الإلهية والبشرية . ولكن هذا الكيان لم يكتب له النجاح وفشل أمام تشبث الراديكاليين وأدين من قبل المجمع الدينى السادس الذى عقد بالقسطنطينية عام ٦٨١ ولم يعد له مبرر للوجود لأن سوريا ومصر كانتا فى أيدى المسلمين منذ عقود طويلة واختفى هذا الكيان دون أن يترك أثرا إلا فى شمال سوريا حيث نشأ مذهب المارونيين . وكتب إدمون رباط قائلا : " لم يكن أمام

العرب إلا الظهور لقطف سوريا ومصر كما تقطف الفاكهة الناضجة " . كما ذكر ميشيل السورى بطريرك أنطاكية من ١١٦٦ إلى ١١٩٩ من أجل ذلك وجب الانتقام لما عانوه من شرور الرومان الذين كانوا يسيطرون فى كل مكان وينهبون كنائسنا وأديرتنا دون رحمة ويدينوننا بقسوة ، الأمر الذى جعل أبناء إسماعيل (العرب المسلمين) يأتون من الجنوب ليخلصوننا من أيدى الرومان من آثامهم وغضبهم وشرورهم . وقد أعرب ميشيل السورى عن تقديره وامتنانه للتعايش السلمى الذى عاشه السوريون والمصريون بعد ستة قرون عاشوها مع المسلمين فى طمأنينة .

ورغم تلك المشاحنات ذات الطابع المسيحى . فقد عاشت سوريا فترة من الرخاء العظيم أيام الدولة البيزنطية تمثلت فى صناعة النسيج وآثار أبنية الماضى فى كل مكان ، كما ساعدها موقعها على طريق التبادل التجارى مع الشرق الأقصى على أن يكون لها دور عظيم فى الحركة التجارية للإمبراطورية . وفى الشمال كانت نسيب وكالينيكوم (مدينة الرقة حاليا) مركزا من المراكز التجارية المهمة فى الحرير حيث تنقل من الجنوب البضاعة ذات القيمة والقادمة من الجزيرة العربية والهند كالمر والبخور عبر الخليج ووادى نهر الفرات . يعتبر السوريون تجارا مهرة . كذلك ازدهرت الصناعة وبصفة خاصة المنسوج الموشى المعروف بالديباج والمصنوع من الحرير ومطرز بصور الثمار والأزهار والحيوانات والحقول الزاهرة وبالذات فى مدينة صور وبيروت وكذلك صناعة الزجاج الذى اشتهرت به دمشق . وفى عهد جستنيان أرسلت بعثات إلى الشرق لجلب بيض دودة القز وزراعة أشجار التوت وازدهرت صناعة الحرير فى داخل الإمبراطورية وخاصة فى سوريا ومنطقة بيروت ، كما كانت مدن الساحل تتمتع برخاء كبير نتيجة التبادل التجارى وكذلك فى الداخل فى كل من حلب وحمص ودمشق .

وفى القرن الرابع شهدت أنطاكية رخاء ونشاطا وكان عدد سكانها خمسمائة ألف نسمة ولم تتوقف حركة التجارة فيها ليلا أو نهارا .

وفى القرن السادس كتب المؤرخ بروكوب عن أنطاكية وذكر أنها المدينة الرومانية الأولى فى الشرق بثروتها واتساعها وعدد سكانها وجمالها وآثارها .

وعلى الصعيد الإدارى تمت المحافظة على التقسيم الإقليمى الذى أوجده ديو قليسيان حتى أواخر عهد تيودوز . أما ابنه أركاديوس فقد أدخل تنظيما جديدا استمر فترة طويلة دون تعديل .

ظلت أنطاكية عاصمة لسوريا التى قسمت إلى خمس عشرة أبرشية وقسمت كل واحدة منها إلى عدة أحياء . كانت دمشق المركز الرئيسى والعاصمة الدينية لفينيقيا اللبنانية التى كانت تضم جبال لبنان الشمالية ووادى البقاع وتمتد إلى الشمال حتى تدمر .

وابتداء من القرن الرابع تم إدخال نظام إدارى جديد أكثر قهرا أدى إلى تراجع واضح فى الحكم الذاتى والإقليمى .

وبالنسبة لإدارة الإمبراطورية كان حكام الولايات ومندوبى السلطة المركزية يتجهون إلى أن يصيروا سادة المدن بصورة فعلية مما أثار حفيظة المواطنين ضدهم . ولم يظهر لبنان أى تعاطف معهم . فمنهم من كان يثير رعب وفزع المتقاضين ومنهم من يبدد ثروة لا بأس بها على شهواته . ووصل السوء إلى منتهاه وساد عصر من الغضب والعنف والرعب والخوف وسوء استخدام السلطة . باختصار حل الطغيان محل القوانين . استبدلت اللغة اليونانية باللغة الرومانية فى مجال الإدارة المدنية ، وأصبح التقدير والاعتبار والسلطة فى يد من يعرف اللغة الإيطالية .

وعلى صعيد الضرائب فقد أدى جشع المحصلين إلى أن يتجهوا بأنفسهم إلى القرى ويجرون مسحا دقيقا ويحاسبون الفلاحين حسابا عسيرا مما أرهقهم وأدى بهم إلى العنف المنظم حتى إنهم كانوا يهربون من دفع الضرائب .

وبالنسبة للغة اليونانية فقد انتشرت ببطء وحلت محل اللاتينية وأصبحت اللغة الرسمية للإمبراطورية فى عهد هرقل . ومع ذلك فقد عارض الشعب فى سوريا اللغة

اليونانية وأصر على استخدام اللغة الآرامية القديمة . وظهر الأدب الآرامى فى الأوديسا فى القرن الثانى .

اشترك أسقف دمشق فى المجمع الدينى الذى عقد فى نيسة عام ٣٢٥ . وفى عهد تيودوز ،وجهت طعنة قاتلة لعبادة الأصنام وتحول معبد جوبيتر كبير الإلهة الرومان هدد إلى كاتدرائية سميت باسم يوحنا المعمدان . وذكر العمرى فى القرن الرابع أن الكاتدرائية كانت محاطة بأروقة من الجهات الأربع . وقد حفر باليونانية على عتبة الفتحة الرئيسية للباب الجنوبى للسور " ملكوتك أيها المسيح ملكوت أبدى وسلطانك يمتد مدى الأدوار " . وقد انسد الساكف العلوى للكوة الجانبية اليسرى فيما بعد بمحراب المسجد . وكان بدمشق أربع عشرة كنيسة اختفى بعضها والبعض الآخر تم ترميمه عدة مرات . وقد اكتشفت كنيسة المصلبة أثناء أعمال التنقيب عام ١٩٢١ فى مواجهة الجدار الغربى لقبو الكنيسة الحالية وكانت تقام فى وسط المدينة بين الباب الشرقى وباب توما فى مكان منزل حنانيا . وقد هدمت فى عهد صلاح الدين وأقيم مكانها مسجد ثم تحول مرة أخرى إلى كنيسة . واليوم توجد مكانها كنيسة صغيرة تسمى كنيسة القديس حنانيا . كما توجد كنيسة أخرى فى وسط المدينة تسمى كنيسة المقصلة بالقرب من كنيسة مريم العذراء ، حيث كان الناس يتبركون بها فى شفائهم من احتباس البول ومكانها حاليا الكنيسة المريمية ، كما توجد كنيسة القديس بولس بالقرب من سوق الخياطين الحالى وكنيسة اليعقوبيين قرب باب توما وكنيسة القديس نيقولا غرب المدينة وكنيسة يوحنا المعمدان الجديدة .

انتشرت المحلات التجارية على جانبى الطرق الأثرية خاصة " الشارع المستقيم " .

وبسبب موقع دمشق على طريق الشرق فقد دخلت فى صراع استمر فترة زمنية طويلة بين الإمبراطورية الرومانية والغساسنة وذلك من أجل محاولة احتلال المضيق الإستراتيجى للتجارة العالمية وهو الخليج الفارسى والساحل السورى والبحر الأحمر . وظلت سوريا فى أمان وسلام لمدة قرنين من الزمان قبل مجىء جستنيان للحكم عام ٥٢٧ ووصول المسلمين عام ٦٣٤ .

وفى أقل من قرن من الزمان خربت سوريا بسبب الحروب التى استمرت أربعة وستين عاما . وتم احتلال جميع المدن وهجرها سكانها وهى نصف مدمرة . وقد غزا ملك الفرس مدينة أنطاكية وخربها وأحرقها ونهبها وهدمها ، بل وقام بخلع ألواح الرخام من جدران منازلها ثم عاد إلى بلاده .

ولم تنج دمشق من هذا الخراب عندما استولى عليها ملك الفرس عام ٦١٢ واحتلها حتى عام ٦٢٧ وأخذ عددا كبيرا من سكانها عبيدا إلى بلاده . وفى العام التالى استولى على القدس بعد حصار دام ثلاثة أسابيع وأضرم فيها النيران وقام بذبح سكانها لعدة أيام . وأحرقت كنيسة سان سيبونكر التى بناها الإمبراطور قسطنطين . ولم يتوقف هذا الصراع إلا فى عام ٦٢٧ بعد انتصار هرقل فى موقعة نينيف فى بلاد ما بين النهرين . استنزفت وأنهكت الإمبراطوريتان الرومانية والفارسية وأصبحتا عاجزتين عن إيقاف تقدم العرب المسلمين . وعشية الغزو الإسلامى كانت المسيحية واليهودية قد توغلتا إلى أعماق شبه الجزيرة العربية وحاولت الديانة اليهودية أن تحل محل المسيحية خاصة فى يثرب (المدينة المنورة فيما بعد) وخيبر وتيماء ونجران واليمن وهم بنو إسرائيل كما سماهم القرآن الكريم . كما كانت تيماء وتبوك بها جالية صغيرة . وعلى طول الطريق من دمشق والمدينة كانت تنتشر الأديرة وكانت عقيدة الموحدين المسيحيين هى المنتشرة فى بادية الشام والحجاز ونجران وعقيدة نستوريوس فى وسط الجزيرة العربية وعلى الحدود الإيرانية والخليج الفارسى .

وفى قلب الحجاز وفى مدينة مكة الغنية التى تقع على طريق القوافل وحول الكعبة وبئر زمزم والتى تحيط بها جبال متفرقة على شكل دائرة ، تتجمع قبيلة قريش مكونة عدة عشائر : هاشم وأمية ونوفل وتميم وغيرها لتشكل نوعا من التجار الأغنياء يعيشون على تجارة القوافل . تتمتع قبيلة قريش بالشجاعة والجرأة والإدراك وعملت من خلال رعايتها وحمايتها للكعبة على تجميع العرب من كل أنحاء الجزيرة العربية للحجيج . ويوجد داخل الكعبة ٣٦٠ صنما يتجمعون حول ثلاثة أصنام كبرى هى : اللات ومناة والعُزى حيث تحولوا تدريجيا إلى مزارات قومية يزورها العرب فى أثناء الحج رغم

اختلافاتهم القبلية المزمنة التى مزقت الجزيرة العربية . وكانت السمة السائدة أن تلك الأصنام يعبدونها كواسطة تقربهم من إله واحد هو الله رب إبراهيم وإسماعيل .

ورغم أن سكان شبه الجزيرة العربية مقيمين ومستقرين ، فإنهم يتبعون قبيلة أو تجمع قبلى . ولذا فإن كل عربى للمحافظة على وجوده وكيانه لابد أن ينتمى لقبيلة . والقبيلة عبارة عن مجموعات متجانسة تتخذ اسما لها وتتحد بروابط قوية من التضامن ويرأسها السيد أو الشيخ ويتميز بالحلم والقدرة على التعامل مع الرجال . فهو الذى يختار أماكن نصب الخيام ومناطق الرعى والبحث عن أماكن تواجد المياه وهو الذى يقرر الحرب ويشكل المصدر الرئيسى لحياة البدو . فالحياة القاسية التى يعيشونها فى الصحراء منذ أمد بعيد خلقت فيهم نظما تتسم بالقيم والمبادئ الأخلاقية تغنى بها الشعراء العرب : معنى الشرف ، احترام الكلمة والوفاء بالعهد والاستقلالية وكراهية التبعية لأى سلطة مركزية ، الشجاعة فى الحرب ، المحافظة على حرمة البيت وهى الخيمة فى أغلب الأحيان وملجأ الأسرة والملاذ المقدس للضيف واللاجئ ومقت الزنا الذى يدنس دماء المجموعة ويفسد نسب الأبناء إلى الأب . كما يتميزون بحماية المظلومين وحق الالتجاء والكرم وكرم الضيافة وفوق كل ذلك وقف القتال فى الأشهر الحرام وأثناء الحج .

فى هذه البيئة المكاوية التى تتميز بالتجارة الدولية الضخمة ومن بين أسرة متواضعة من قبيلة قريش العظيمة ولد شخص يدعى محمد عام ٥٦٩ وأمه آمنة من عشيرة بنى زهرة وأبوه عبدالله من عشيرة عبد مناف وهى تنقسم إلى قسمين : هاشم وعبد شمس . وعندما توفى عبدالله أثناء رحلة فى يثرب ، كانت زوجته الحامل قد وضعت طفلها محمد ولم يكن لها من الميراث سوى عبد وخمسة جمال وبعض الخراف، وبعد ست سنوات توفيت آمنة فكفله جده عبدالمطلب . وبعد عامين توفى جده فتولى تربيته عمه أبو طالب شقيق عبدالله من الأم ورئيس عشيرة الهاشميين . عاش محمد طفولة غير مستقرة عبر عنها القرآن الكريم ﴿ مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ ﴿٣﴾ ... أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَآوَىٰ ﴿٦﴾ وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَىٰ ﴿٧﴾ وَوَجَدَكَ عَائِلًا فَأَغْنَىٰ ﴿٨﴾ ﴾ . وعندما

كان عمره خمسة وعشرين عاما ، تزوج من خديجة التى كان عمرها أربعين عاما وصاحبة أعمال وأنجب منها أبناء كثيرين توفوا جميعا فى سن صغيرة وأربع بنات : زينب ورقية وفاطمة وأم كلثوم .

وتبنى عبدا شابا وأعتقه وهو زيد بن حارثة .

وفى عام ٦١٠ وعندما كان عمره أربعين عاما اختاره الله نبيا . عندما كان يتعبد فى غار حراء ونزل عليه الوحى وسمع صوتا يناديه إنك سوف تغير مسار العالم : " أنت رسول الله " ومن المبادئ التى نادى بها الإسلام : وحدانية الله والرحمة وقدرة الله وأنه الحكم العدل والخالق لكل شئ وأن المخلوقات جميعًا إلى زوال وقد خلق الله الإنسان من ماء مهين يخرج من الصلب والترائب " وإنه على رجعه لقادر " وسوف يكون هناك حساب بعد الموت وثواب وعقاب . وكذلك الزهد فى الدنيا وعدم التكالب عليها أو لما فيها والإحسان والكرم نحو الفقراء واليتامى والسائل والمحروم . أول من آمن به خديجة وعلى بن أبى طالب وأبو بكر ، ثم اتجهت دعوته إلى كل العشائر والقبائل الضعيفة والقوية وخاصة بين شباب الطبقة المتوسطة وأيضًا بين العائلات الأكثر نفوذا فى مكة : خالد بن سعيد بن العاص وأخيه عمرو بن العاص من عشيرة عبد شمس وكذلك من ذوى النفوذ القوى طلحة بن عبيد الله وعثمان بن عفان الذى تزوج رقية بنت رسول الله وحمزة بن عبدالمطلب عم الرسول من بنى هاشم والزبير من بنى أسد وأبى سلمة والأرقم من بنى مخزوم وبلال وهو عبد حبشى وكان مؤذن الرسول . بلغ مجموع من آمنوا بالرسول حوالى أربعين شخصًا .

هاجم محمد الأصنام وآلهة السابقين واتخذ موقفا معارضا وعنيفا وشعر الرجال الأقوياء من ذوى النفوذ فى قبيلة قريش أن هيمنتهم السياسية والاقتصادية والدينية كانت موضع تهديد . أما بنو هاشم فقد قاطعوا النبى والمسلمين وحاصروهم فى شعب قاحل من شعاب مكة ومنعوا عنهم الأكل والشرب لمدة أكثر من عامين . توجهت مجموعة من المؤمنين إلى الحبشة وظل الباقى فى مكة وعددهم حوالى ستين شخصا

منهم عشرون امرأة . وبدخول عمر بن الخطاب الإسلام قويت شوكة المسلمين ، وكان عمره فى ذلك الوقت خمسة وعشرين عاماً وأصبح فيما بعد خليفة للمسلمين .

وفى عام ٦١٩ توفى عم الرسول أبو طالب الذى كان يحميه من أذى الكفار . كما توفيت زوجته خديجة . وبعد فترة تزوج إحدى من آمنً برسالته سودا بنت زمعة . أما أبو لهب شقيق أبو طالب وزعيم الهاشميين ، فقد تنصل من حمايته للرسول بل وناصبه العداء ونزلت عدة آيات تتوعد أبا لهب وزوجته بنار جهنم . انسحب محمد بعد ذلك إلى الطائف . وأمام المعارضة الشديدة التى قوبل بها هناك وما لحقه من أذى قرر اللجوء إلى يثرب على بعد ٣٥٠ كيلو مترا من مكة وقد ذكرها القرآن باسم المدينة وهى عبارة عن واحة مياهها وفيرة وتنافس مكة وكانت تعيش فيها جالية يهودية جنبا إلى جنب مع قبائل عربية أهمها الأوس والخزرج وهما من أصل يمنى . وكان والد النبى قد دفن بالمدينة كما كان له أتباع هناك يؤيدونه . خرج المؤمنون فى مجموعات صغيرة من مكة متجهين إلى المدينة وكان ذلك أول أيام الهجرة حيث حدد التاريخ يوم ١٦ يوليو ٦٢٢ واعتبر بداية التقويم الهجرى . وصل محمد ومعه أبو بكر إلى المدينة فى ٢٤ سبتمبر ٦٢٢ . ولد دين جديد وبدأت " أركانه" تتضح ، وهى الصوم والزكاة والإيمان بالله وحده وإقامة الصلاة والحج ووضعت أسس الدين متمثلة فى الإيمان بالله وحده لا شريك له والإيمان باليوم الآخر وبالجنة والنار وإرسال الرسل .

وظهرت كلمات تعبر عن التضامن بين المؤمنين باستخدام كلمة " أمة" بعد أن كانت تستخدم كلمة " قوم " .

وفى المدينة أُعطى محمد قطعة أرض وبنى عليها منزلاً متواضعًا من الطوب اللبن وسقفه بجريد النخل . وكان عبارة عن فناء بسيط مستطيل الشكل محاط بجدار من الطوب اللبن . وفى الشمال مأوى مكون من صف من جذوع النخل ومغطى بالصلصال وسقف النخل .

وفى الشرق مسكن لكل من زوجتيه سودا وعائشة ، الزوجة الجديدة بنت أبى بكر ، وكان المسلمون يؤدون الصلاة خلفه فى منزله . وبعد وفاته أصبح مسجد المدينة .

كان المسلمون فى المدينة يتكونون من مجموعتين : الأنصار وهم أهل المدينة الذين دخلوا فى الإسلام والمهاجرين الذين قدموا من مكة . عندما دخل محمد المدينة عقد اتفاقا ضم جميع سكان المدينة مؤمنين وغيرهم وذلك كخطوة أولى لكى تصبح دولة بالتدريج . انتشر الإسلام فى المدينة وزاد عدد المسلمين وكونوا قوة مقاتلة وعلى طريقة الغزوات العربية قاموا بالهجوم على قوافل قريش . وفى مارس عام ٦٢٤ كانت قافلة ضخمة عائدة من الشام بقيادة أبى سفيان وتنقل بضاعة بخمسين ألف دينار . كان عدد المسلمين ثلاثمائة مقاتل منهم تسعون من المهاجرين تطوعوا للقتال . إلا أن أبا سفيان أحيط علماً بذلك فغير طريقه وتسلل إلى طريق الساحل ووقعت معركة قرب آبار بدر وطلب الكفار نجدة وصلتهم من مكة .

ورغم الفارق الكبير فى قلة عدد المسلمين بالنسبة للكفار ، فقد انتصر المسلمون ووزعت الغنائم بالتساوى بين جميع المقاتلين المسلمين وأخذ حوالى سبعين أسيرا من أهل مكة وأطلق سراحهم مقابل دفع فدية . وكتب الطبرى يقول إن "هذا النصر الكبير للنبى (عليه الصلاة والسلام) على الكفار قوى من عزيمة أهل المدينة ورفع من شأنها فى أعين المسلمين بل وفى أعين البدو المحيطين بالمدينة .

لم يشترك فى غزوة بدر أى من اليهود واستمروا فى مقاطعة الرسول . وقد شعر الرسول بإهانة إزاء صمتهم وتجاهلهم له وأحيانا إبداء الضغينة والعداء ، كما نزلت آيتان فى الوقت المناسب تطلب من النبى (عليه الصلاة والسلام) أن يتوجه فى الصلاة جهة الكعبة فى مكة بدلا من بيت المقدس ويقول الطبرى إنها المركز الجديد للعالم وإنها "قبلة" إبراهيم وإسماعيل . وبعد غزوة بدر نزلت آية تفرض صوم رمضان على المسلمين وهو الشهر الذى وقعت فيه غزوة بدر ، كما فرضت زكاة عيد الفطر . وطردت قبيلة قينقاع اليهودية من المدينة .

وخصص خمس الغنيمة للرسول لينفق منها على الفقراء والمحتاجين والأيتام ومن هم على سفر . وكان ذلك نواة لبيت المال فى المستقبل .

شعر المسلمون بالرخاء . وبعد فترة قصيرة تزوج سيدنا محمد بزوجة ثالثة هى حفصة بنت عمر وكان عمرها ثمانية عشر عاما، ووضعت ابنته فاطمة التى تزوجت بعلى ابنهما الأول الحسن .

وقد أدى اعتراض طريق القوافل وتوقفها إلى تدهور الموارد المالية وبدأت مكة تعد لحملة عسكرية قوامها ثلاثة آلاف مقاتل انتقاما لما لحق بها فى غزوة بدر منهم مائتا فارس بقيادة خالد بن الوليد قبل أن يدخل الإسلام حتى إنه بعد أن أسلم ذاعت شهرته وسمى "سيف الإسلام" . كما اشتركت معهم أعداد غفيرة من البدو ، واتجهوا جميعا صوب المدينة بقيادة أبى سفيان وزوجته هند التى قتل والدها فى غزوة بدر . وفى ٢٣ مارس عام ٦٢٥ وعلى بعد أربعة كيلو مترات شمال المدينة وقرب جبل أحد هُزم المسلمون وجُرح الرسول وفرت من المعركة أعداد غفيرة واستشهد حوالى سبعين مسلماً وعلى رأسهم حمزة عم الرسول وعاد القرشيون إلى مكة .

وفى المدينة نزلت آيات فى الموعد المحدد الذى حدثت فيه هزيمة المسلمين لتعلمهم بأسباب الهزيمة وأخذ الرسول يدير الأمور بنفسه ويدعو قبائل البدو إلى الدخول فى الإسلام لزيادة حلفائه وتزوج من أم سلمة وزينب وهما أرملتان لشهيدين قتل أحدهما فى بدر والثانى فى أحد . وضعت فاطمة مولودها الثانى الحسين . استمرت الحملات وازدادت ثروة المسلمين . وعرف المؤمنون فى ذلك الوقت باسم المسلمين . فالمسلم هو الذى يخضع لإرادة الله وأصبح الإسلام هو اسم الدين الجديد .

وفى مكة فكر أبو سفيان فى وضع نهاية لتهديدات أهل المدينة ،فجهز جيشا وتحالف مع اليهود وحصل على تأييد ومساندة قبائل البدو الرحل ومنها قبيلة غَطَفَان . وفى نهاية مارس عام ٦٢٧ اتجه إلى المدينة على رأس جيش قوامه عشرة آلاف مقاتل قام محمد بحفر خندق بطول الجهة الشمالية من المدينة ، وهى الجهة الوحيدة التى لم تكن محمية بصورة طبيعية . حاصر المهاجمون المدينة وحاولوا دون جدوى إقناع قبيلة بنى قريظة اليهودية - وهى آخر قبيلة يهودية ظلت بالمدينة - الهجوم على مدافعى

الخندق من الخلف . وخلال ستة وعشرين يوما من المناوشات قام الحلفاء برفع الحصار عن المدينة . وتوجهت حملة أخرى إلى جنوب شرق المدينة ضد بنى قريظة ، حيث اشترك فريق منهم فى حصار المسلمين . ذبح الرجال القادرون على حمل السلاح . أما النساء والأطفال فقد بيعوا عبيدا وأخذت ممتلكاتهم .

شكلت المقاومة الباسلة التى انتصر فيها المسلمون فى معركة الخندق تحولا حاسما فى تكوين دولة حقيقية .

تولدت لدى المسلمين عقيدة راسخة بأن من يحكمهم ليس فقط المتحدث من العالم الآخر أو وسيط أو شفيع أو مقرر الإرادة الإلهية وإنما رجل سياسى محنك وقائد حربى ونبى مشرع .

كان يستشير كلا من أبا بكر وعمر . وأصبحت المدينة دولة ثيوقراطية تنتمى فيها السلطة التنفيذية إلى الله سبحانه وتعالى بينما السلطة التشريعية على هيئة أصول وقواعد ومبادئ وأخلاق على لسان الرسول ، تعكس أحاديثه الوعظ والإرشاد بالإضافة إلى الظروف والأحداث التى تتم آنيا .

تطور الأسلوب وأصبحت الآيات القرآنية أطول وغطت القواعد الجديدة جميع جوانب الحياة والسلوك الفردى والعلاقات بين المسلمين وبعضهم ، وبينهم وبين العالم الخارجى وسلوكهم نحو الله . حرص الإسلام على تحسين أحوال النساء واليتامى والضعفاء بصفة عامة والحد من الإباحة الجنسية وتقوية الروابط الزوجية والاهتمام بالأسرة والزواج وتمت تسوية الأمور المتعلقة بالطلاق والميراث وحددت الزوجات بأربع كحد أقصى بشرط العدل من جانب الزوج بما فى ذلك ما يتعلق بالملذات الجسدية حيث اهتم بها الإسلام اهتماما كبيرا خلافا للتقاليد المسيحية . ورغم أن المرأة ينظر إليها على أنها أقل من الرجل - وهو المبدأ الذى كان سائدا عبر العصور القديمة وأرسطو والقديس بولس . إلا أن الإسلام منحها حق الملكية . وبالنسبة للعبيد فقد أوصى الإسلام بمعاملتهم بالحلم واللين والعمل على إعتاقهم . كما حرم الإسلام الخمر والميسر

والربا . ولكى يكسر الإسلام الحلقة الجهنمية فى الأخذ بالثأر التى كانت موجودة بين القبائل ، فلابد من دفع الدية فى حالة القتل غير المتعمد . كما حرم وأد البنات . وفى نداء مؤثر لتجاوز الحياة الدنيا واتباع فرائض وعبادات دينية ، وأن يستشعر ويستعد لليوم الآخر - يوم الحساب - ليفوز بالجنة . كما ينادى الإسلام بالمساواة بين البشر جميعًا " كلكم من أدم وآدم من تراب " . "إن أكرمكم عند الله أتقاكم " .

وعن الله سبحانه وتعالى الواحد الأحد العلى القدير الجبار وأيضًا الرحمن الرحيم المعبود ذى الفضل ، والإيمان المطلق هو الخضوع التام لله سبحانه وتعالى وهو يعطى معنى الإسلام .

وبموجب الإسلام انقسم العالم إلى قسمين : العصر الإسلامى ، والقسم الآخر عصور ما قبل الإسلام وسميت بالجاهلية . ولا يمكن الادعاء بأن ما جاءت به الدعوة المحمدية دينا جديداً وإنما ببساطة تجديد الرسالة القديمة التى نزلت على إبراهيم عليه السلام والأنبياء السابقين موسى وعيسى وغيرهم . ولكن محمد يعتبر خاتم الأنبياء والمرسلين ، وهذه الرسالة نزلت على العرب ولكنها للعالم أجمع . لقد اكتمل الإسلام وأخذ الشكل الحقيقى والسامى والنهائى لوحدانية الله .

وتعتبر الأمور المتعلقة باليوم الآخر كالبعث والحساب أكثر دقة وتحديدا فى الإسلام . ففى يوم الحساب والبعث حيث لا يعرف الإنسان مصيره ، سيبعث عندما ينفخ فى الصور ومن زادت سيئاته فسيلقى فى نار جهنم ومن زادت حسناته وأعماله الصالحة فمثواه الجنة خالدا فيها .

ولا شك أن تلك النظرة تشجع على الاستشهاد والموت فى سبيل الله . وفى نهاية السنة السادسة للهجرة وفى مارس عام ٦٢٨ قرر الرسول عليه الصلاة والسلام التوجه إلى مكة لأداء الحج ومعه من ٧٠٠ إلى ١٦٠٠ رجل ووصلوا إلى الحديبية على بعد خمسة عشر كيلو مترا إلى الشمال الغربى من مكة .

وتم صلح الحديبية مع وفد من قريش . وعقدت هدنة لمدة عشر سنوات وتنازل المسلمون مؤقتًا عن التوجه إلى مكة ، ولكنهم تلقوا تاكيدا بأنه يمكنهم أداء الفريضة

فى العام التالى خاصة وأنه فى تلك الفترة دخل الإسلام اثنان من قريش ممن لهم نفوذهم وهما خالد بن الوليد وعمرو بن العاص الذى غزا مصر . أما خالد بن الوليد فهو الذى انتصر على المسلمين فى غزوة أحد ، وأحد أبطال غزوات الشام .

وبعد شهر من صلح الحديبية سار محمد (عليه الصلاة والسلام) إلى خيبر على رأس قوة من ألف وستمائة رجل حيث كان بها سبع قلاع وسط الحدائق التى طورها اليهود وزرعوها بالنخيل . حاصر القلاع فسقطت الواحدة تلو الأخرى وحصل المسلمون على غنائم كثيرة واستولوا على الأراضى التى ظل اليهود يعملون بها بموجب عقد استئجار يتقاسمون غلتها مع المسلمين . أما باقى المستعمرات اليهودية مثل فاداك ووادى القرى وتيماء فقد أعربت عن ولائها وخضوعها مقابل دفع ضريبة مع المحافظة على ممتلكاتها . وفى سبتمبر ٦٢٩ ، بدأت مرحلة جديدة من الجرأة الحربية . فقد دخل ثلاثة آلاف من البدو فى الإسلام على يد زيد بن حارثة وهو الذى كان يرعاه محمد وعبروا الحدود البيزنطية ووقعت معركة عند مؤتة فى الجنوب الشرقى للبحر الميت واستشهد فيها زيد وجعفر شقيق على وابن عم الرسول .

وبعد هزيمة الجيش أخذ طريقه نحو المدينة . وبعد فترة قصيرة أرسل النبى جيشاً بقيادة عمرو بن العاص نحو الشمال لدعوة القبائل العربية المتاخمة للشام للإسلام . وفى الأول من يناير عام ٦٣٠ حدث خرق لصلح الحديبية وتوجه الرسول إلى مكة على رأس جيش ضخم يضم عناصر من قبائل تميم وقيس وأسد بلغ عددهم عشرة آلاف مقاتل . وقد وصل الضعف منتهاه فى صفوف القرشيين وفى يوم الخميس ١١ يناير عام ٦٣٠ دخل جيش المسلمين إلى مكة دون قتال وذلك بعد واحد وعشرين عاما من نبوة الرسول تلك المدينة التى كانت تعتبر عاصمة الكفر والوثنية العربية حيث دخلت فى الإسلام . وتلقى محمد عليه الصلاة والسلام عهدا بالإخلاص والتبعية . وأمنهم الرسول على حياتهم وممتلكاتهم وحطمت الأصنام ولكن لم يجبر شخص على اعتناق الإسلام بالقوة . وعمل رباط الدم على القيام بدور كبير فى داخل الأمة . فأبو سفيان – شيخ بنى أمية وعدو الأمس – صار موضع ثقة الرسول عليه السلام ، وعين ابنه يزيد حاكماً

على تيماء ، ومعاوية الابن الثانى لأبى سفيان الخليفة القادم ومؤسس الدولة الأموية وكان موضع سر الرسول عليه الصلاة والسلام . وإذا كانت العودة إلى رباط الدم قد لوثت المثل العالمية للإسلام ، فإنها أكدت نجاح الأوضاع السياسية فى العالم . وعلى ذلك تخطت القوة الجديدة الصراعات الكامنة بين الفئات المؤمنة المختلفة من البدو الرحل والمسلمون الأوائل والصراعات الكامنة التى وجهت التاريخ الإسلامى فيما بعد .

وخلال العامين اللذين سبقا وفاة الرسول (صلى الله عليه وسلم) فى المدينة التى كانت المركز والقوة الإسلامية عمل على بسط نفوذه على جميع أرجاء شبه الجزيرة العربية . وحسب التقاليد كانت الوفود من جميع القبائل تصل إلى العاصمة الجديدة لعمل ميثاق الإخلاص للدين الجديد . حتى نجران واليمن الشهيرتين بالجالية المسيحية الغنية ، أرسلتا وفداً بزعامة أحد أساقفتهما ووضع نفسه تحت " حماية المسلمين مقابل دفع جزية سنوية مع تأمين الممتلكات وحماية الأشخاص والإبقاء على ديانتهم . وقامت عدة قبائل من المنطقة الوسطى العربية واليمامة ومنهم قبيلة حنيفة التى يدين جزء منها بالمسيحية ومتحالفين مع الغساسنة بعقد معاهدات مع محمد . أما قبائل الموحدين من بكر بن وائل وتغلب القريبتين من الحدود الفارسية فقد عقدوا اتفاقا سياسيا . كانت القوات العسكرية يحسب حسابها . فحول المهاجرين والأنصار كانت العشائر والقبائل مترابطة : مزينة وجهينة وسليم وكيرانا وقريش وثقيف تشكل الكتائب الضخمة لجيش إسلامى دائم ومنظم . وبعد أقل من عام على دخول مكة توجه محمد نحو الشام بجيش ضخم للانتقام من هزيمة مؤتة . وعلم فى تبوك أن الجيش البيزنطى انسحب إلى دمشق فأرسل خالد بن الوليد واستولى على دوما ومدينة الجوف الحالية وهى من مراكز القوافل القديمة وأحد أبواب الشام .

وفى مارس عام ٦٣٢ توجه الرسول (صلى الله عليه وسلم) ومعه زوجاته والصحابة للحج إلى مكة بعد أن طهرها من جميع الأصنام . وبعد انتهاء مراسم الحج عاد إلى المدينة . وبعد شهرين مرض الرسول وكان هناك جيش للمسلمين يغادر المدينة متوجها للقاء البيزنطيين بقيادة أسامة للانتقام لاستشهاد والده . وفى ٨ يونية عام ٦٣٢

أسلم الروح دون أن يحدد من يخلفه . اشتدت المنافسة بين فئات المسلمين المختلفة من المهاجرين والأنصار والبدو واشتدت نعرة الجاهلية حتى كادت تسبب انهيار الدولة الإسلامية ، فالكل يريد أن يرث لصالح عشيرته أو قبيلته . وعمت الفوضى والاضطرابات فى الشارع وذلك قبل أن يوارى جثمان الرسول ، وفى المساء وبعد مناقشات حامية ومريرة بين على وعباس عم الرسول وأبى بكر تم اختيار أبى بكر خليفة لرسول الله .

استمرت خلافة أبى بكر عامين حدثت فيها الردة بين معظم القبائل العربية عن الإسلام ، كما امتنع البعض الآخر عن دفع الزكاة فقط كبنى تميم وهوازن . وظهر فى هذه القبائل كذابون يدعون النبوة ، ولم يبق على الإسلام إلا قريش فى مكة ، وثقيف فى الطائف ، وأهل المدينة . أراد العربى البدوى أن يتحرر من القيود السياسية التى تفرضها الدولة العربية الإسلامية . وكما أراد أن يتحرر من الطقوس الدينية التى يفرضها الإسلام أراد أن يتحرر من القيود الأخلاقية والاجتماعية ، فقد كبح الإسلام جماح شهواتهم فحرم عليهم الخمر ، والميسر ، والزنا ، والأخذ بالثأر ، وقيَّد حرية الزواج .

إلا أن أبا بكر جهز أحد عشر جيشا بقيادة صناديد المسلمين ، فأرسل خالد بن الوليد لمحاربة طلحة بن خويلد الأسدى ومالك بن نويرة التميمى ، وأرسل عكرمة بن أبى جهل وشرحبيل بن حسنة لمحاربة مسيلمة الكذاب فى اليمامة ، وأرسل عمرو بن العاص إلى قبائل قصاعة فى نجد .

كان أكثر القواد بلاء فى هذه الحرب خالد بن الوليد الذى هزم أتباع طلحة فى براخة بنجد فخضعت قبائل غطفان وسليم وأسد . توجه خالد بعد ذلك لمساعدة شرحبيل وعكرمة فى حرب مسيلمة ، فانتصر عليه فى معركة اليمامة ، وفيها قتل عدد كبير من حفظة القرآن الكريم .

كما أرسل جيوشًا لفتح الشام واستمرت عجلة الحرب دائرة عشر سنوات وكان ذلك بداية الجهاد الذى استمر ما يقرب من قرن من الزمان حيث كان الهدف منها

إقامة شعائر الله فى الأرض وانتشار الدين الإسلامى من المحيط الأطلنطى حتى الهند والسند ولم تصل إليها أى إمبراطورية بهذا الاتساع حتى فى عهد الإسكندر الأكبر أو بونابرت ، فى ٣٠ يولية عام ٦٣٠ تم تجهيز جيش قوامه عشرين ألفا قسم إلى عدة فيالق بقيادة عمرو بن العاص وشرحبيل بن حسنة وخالد بن الوليد وأبى عبيدة ويزيد ومعاوية أبناء أبى سفيان حيث أغاروا على القوات البيزنطية بقيادة تيودور شقيق الإمبراطور هيراقليوس وحققوا أول نصر فى معركة أجنادين بفلسطين . وفتح أمامهم الطريق إلى الشام . وتخلى محاربون من قبائل الغساسنة عن ولائهم للإمبراطورية البيزنطية وانضموا إلى الجيوش العربية . وبعد أقل من شهر أى فى ٢٣ أغسطس ، لفظ أبو بكر أنفاسه الأخيرة ، وفاضت روحه إلى بارئها . وجاء عمر بن الخطاب وهو من صحابة الرسول ووالد زوجته حفصة ، وصار خليفة للمسلمين وأمير المؤمنين .

تواصلت الفتوحات الإسلامية بنشاط متزايد وكانت موضع الاهتمام الأكبر لعمر بن الخطاب طوال فترة حكمه التى امتدت عشر سنوات أسس خلالها النظام السياسى والذى بموجبه استقر نظام الخلافة لمدة تزيد عن قرنين من الزمان . وتعتمد فكرته الأساسية على أن العرب يلبون النداء الإلهى للجهاد بينما الشعوب الخاضعة مصونة فى أرضها ، وعليها أن تؤمن احتياجاتها بدفع ضريبة على الأرض تسمى الخراج وضريبة الرأس (الجزية) ، وتؤخذ عن الرجال القادرين على حمل السلاح من أهل الذمة وإعفائهم من الالتزامات العسكرية مع حمايتهم ضد أى عدوان خارجى . طبق هذا النظام على أهل الكتاب من اليهود والمسيحيين ، أما الوثنيون فقد خيروا بين الدخول فى الإسلام أو أخذهم عبيدا أو الموت .

احتل جيش المسلمين غزة بعد انتصاره فى معركة أجنادين ، وتعقب الجيش الرومانى إلى خارج حدود الأردن حتى طبرية . وفى ٢٥ فبراير عام ٦٣٥ هزم البيزنطيون مرة أخرى عند ضواحى دمشق ، عند مرج الصُفَّر . وبعد خمسة عشر يوما وبعد احتلالهم الغوطة بالكامل حاصر جيش المسلمين دمشق ، واستقر خالد بن الوليد بالقرب من الباب الشرقى ، وأبو عبيدة قرب باب الجابية ، ويزيد بين الباب الشرقى

وباب قيسان ، وعمرو بن العاص قرب باب توما ، وشرحبيل عند باب الفرادس . وبعد حصار دام ستة أشهر ، نجحت الحامية البيزنطية فى الفرار ، وجاء أحد أعيان دمشق ويدعى الأسقف منصور بن سرجون وعرض تسليم المدينة لخالد بن الوليد . ودخلت قواته من الباب الشرقى وتقابلت مع قوات أبى عبيدة التى كانت تدخل من باب الجابية فى "الشارع المستقيم" قرب كنيسة المقصلة مقابل دفع الخراج والجزية وحافظ سكان دمشق والغوطة على الكنائس الأربعة عشرة إضافة إلى أحد المعابد اليهودية . وبالإضافة إلى حرية العبادة التى وفرها لهم المسلمون ، فقد عينوا فى وظائف عامة كانت الإمبراطورية البيزنطية تحرمهم منها بحجة اتهامهم بالبدع والهرطقة . وبعد خمسة عشر عاما من الفتوحات الإسلامية أشاد أحد الأساقفة المسيحيين النستوريين بروح التسامح من جانب المسلمين تجاه المسيحيين فهم لا يحاربون ديانتهم بل يدافعون عنها ويحترمون رجال الدين المسيحى ويقدمون هبات وتبرعات للكنائس والأديرة . وبعد تسليم المدينة غادر عدد كبير من رجال الإدارة البيزنطيين ليلحقوا بهيرقليوس فى أنطاكية . وشغلت الوظائف الشاغرة بكبار العسكريين المسلمين . وذكر ابن عساكر المؤرخ الدمشقى فى القرن الثانى عشر أن الذين قاوموا المسلمين كانوا قلة لم يتجاوز عددهم اثنا عشر أسقفا بيزنطيا ، ثم هربوا بعد ذلك تاركين مساكنهم وديارهم فسكنها المسلمون . وفى المكان الذى أقام فيه خالد بن الوليد الصلاة أثناء الحصار أقيم مسجد عند مقبرة باب توما قرب نهر مجدل ، وهو أول مسجد أقيم بدمشق . وقد هدم وتحول الآن إلى زاوية صغيرة عند قبر الشيخ أرسلان . كما أن مقابر باب توما هى أول مقابر لمسلمى المدينة حيث دفن فيها المقاتلون أثناء فترة الحصار .

استقر معظم جيش المسلمين فى دمشق ، بينما قامت حملات للمناطق المجاورة فى الجولان وحوران .

علم المسلمون أن جيشا بيزنطيا قوامه عشرون ألفا غادر أنطاكية متجها إلى دمشق فغادر المسلمون دمشق وانتشروا فى الجنوب الشرقى من بحيرة طبرية على ضفاف نهر اليرموك . وفى ٢ أغسطس عام ٦٣٦ ورغم قلة العدد الواضحة فى جيش

المسلمين ، فقد حققوا انتصارا ساحقًا . وعندما علم هيرقليوس بهزيمة جيشه ، توجه إلى القسطنطينية ، فتقدم جيش المسلمين بسرعة نحو دمشق وبعد مقاومة قصيرة مع الحامية البيزنطية قام باحتلال دمشق للمرة الثانية . وبمجرد دخول خالد بن الوليد اهتم بإيجاد مكان ملائم للصلاة ، فأقام مسجدا استمر حتى القرن الثامن سمى مسجد الصحابة . وكان المسلمون والمسيحيون يدخلون من باب واحد لأداء الصلوات ، يتجه المسلمون جهة اليمين للتوجه للمسجد والمسيحيون جهة اليسار للذهاب إلى كنيستهم حيث تم بناء المسجد فى الجزء الجنوبى الشرقى من سور الكنيسة وهو المحراب الحالى لمسجد الوليد وسُمى أيضًا محراب الصحابة . كان المكانان قريبين جدا من بعضهما . وأضاف ابن شاكر أن المسيحيين احتراما للصحابة وبدافع الخشية والتقدير كانوا لا يرفعون أصواتهم عند القراءة ولا يقرعون الأجراس " .

بعد الاستيلاء على دمشق أكملت جيوش المسلمين الفتوحات . وعين أبو عبيدة حاكما على الشام وتوجه إلى حمص ووصل إلى مانبيج Manbij على نهر الفرات واتجه عمرو بن العاص إلى القدس لمحاصرتها التى لم تستسلم إلا فى عام ٦٣٨ بعد مقاومة لمدة عامين ، بينما توجه يزيد وشقيقه معاوية للاستيلاء على المدن الساحلية : صيدا وبيروت وجبيل . وبمجرد استسلام القدس ، حول يزيد جيوشه إلى قيصرية وهى معقل حصين للمسيحيين ومدينة ساحلية . وفى عام ٦٣٩ توفى أبو عبيدة متأثرا بوباء الطاعون والذى أودى بحياة خمسة وعشرين ألفا من الشام . ودفن بدمشق وحل محله يزيد الذى أصيب بالمرض نفسه ولم يعش طويلا . وجاء شقيقه معاوية وعين حاكما على الشام وواصل حصاره لقيصرية ولم يتمكن من دخولها إلا فى عام ٦٤١ حيث كانت تحصل على إمدادات عن طريق البحر . وبعد فترة قصيرة تم الاستيلاء على عسقلان . وأصبح المسلمون يسيطرون بالكامل على الشام . جاء الخليفة عمر بن الخطاب لاستلام مفاتيح بيت المقدس وهو يرتدى جلبابا بسيطا من القماش الخشن الممزق من الخلف نتيجة الاحتكاك فترة طويلة على الدابة بعد أن قطع المسافة فى أربعة أشهر .

بعد فترة قصيرة من تعيين معاوية حاكما على الشام ، أنشأ فى دمشق (فى وسط مسجد الصحابة) مقرا له تعلوه قبة خضراء ، وأطلق على المبنى اسم "الخضراء" . ويطلق على الحى الموجود فيه هذا المبنى الاسم نفسه حتى اليوم . وبعد أن خضعت بلاد الشام وأصبحت تحت سيطرة المسلمين ، اتجهت جيوش المسلمين إلى إمبراطورية الغساسنة واحتلت الحيرة عام ٦٣٣ . وفى يونية ٦٣٧ وبعد الانتصار فى موقعة القادسية ، فتح الطريق أمامهم لدخول العراق وأسس المسلمون أول مدينة لهم وهى البصرة ، ثم أسسوا مدينة ثانية هى الكوفة . وفى عام ٦٤٢ وبعد انتصارهم فى نهاوند كان الطريق سهلا أمامهم إلى أصفهان والهضبة الإيرانية . ولكى يحافظ الأعيان والنبلاء على ثرواتهم وممتلكاتهم خضعوا وفضلوا البقاء مقابل دفع الجزية . ولم يكن يعترض تقدم الجيوش الإسلامية أى عائق . وفى عام ٦٤٣ احتلت سنافر المقر الصيفى للغساسنة . وفى عام ٦٥١ سقطت خراسان فى أيدى المسلمين ، وقتل يزديجرد آخر حكام الغساسنة .

بدأت العمليات العسكرية نحو الغرب فيما بعد . ففى ديسمبر ٦٣٩ توجه عمرو بن العاص إلى مصر على رأس قوات من الشام ليبدأ بها فتوحاته فى شمال أفريقيا . وفى أبريل عام ٦٤١ احتل مدينة بابل الحصينة والإسكندرية فى العام التالى. وفى عام ٦٤٥ حقق المسلمون أول انتصار بحرى لهم ضد الأسطول البيزنطى . وبالتدريج صار البحر المتوسط بحرا عربيا بحيث أصبحت الدول المسيحية تخشى تسيير أى مركب فيه . وفى عام ٦٤٧ هزم البيزنطيون فى إفريقية التى صارت فيما بعد تونس فى مدينة قرطاج .

وفى ٣ نوفمبر عام ٦٤٤ سقط الخليفة عمر بن الخطاب على إثر طعنة خنجر من عبد لدى حاكم البصرة . تصدرت الشورى عملية اختيار خليفة جديد . وبعد مناقشات مريرة وحادة ضد رأى الهاشميين ، تم اختيار عثمان بن عفان خليفة للمسلمين .

كان عثمان من الأغنياء الموسرين ، ومن عائلة بنى أمية الشهيرة بمكة ، وأول من دخل الإسلام من العائلات الكبيرة ذات المكانة الاجتماعية المرموقة ، وتزوج بنتين من

بنات الرسول محمد (عليه الصلاة والسلام) رقية أولاً وبعد وفاتها تزوج بأم كلثوم . وفى عهده تزايد السخط وتأججت شدة المعارضة فى أرجاء الأمة الإسلامية حيث اتهم بتعيين رؤساء المدن وحكام الأقاليم من أفراد أسرته ، وعدم تخصيص غنائم الحرب للجنود ، ولكنه كان يحتجز جزءا منها للمقربين وللحكام ، وعمل على تطوير وتشجيع نظام الإقطاع . وباختصار ساهم فى تحويل سلطة المسلمين إلى ملكية مطلقة ذات طابع شرقى " ووقف منه صحابة الرسول موقف العداء والكراهية " ، وتولدت حركات التمرد والتآمر فى العراق وبالذات فى الكوفة ثم فى مصر . وفى عام ٦٥٥ جاء متآمرون من مصر وتسللوا إلى المدينة واتسع نطاق الاضطرابات فى المدينة وحوصر منزل الخليفة الذى رفض أن يتخلى . وفى يونية ٦٥٦ تقدمت جماعة من المتآمرين بزعامة ابن أبى بكر واقتحمت المنزل وقتلت الخليفة بينما كان يقرأ القرآن . وتكونت مجموعة ادعت أن لها الحق فى الشورى وجعلت على بن أبى طالب على رأس الأمة . عاشت من جديد الوحدة السياسية والدينية للإسلام . إلا أن الفتنة الكبرى بدأت بعصر الانقسامات والحروب الأهلية وأدت إلى انتصار بنى أمية فى شخص معاوية واغتيال الخليفة ونقل مقره من المدينة إلى دمشق .

رفض على فى البداية أن يتولى السلطة لكنه غير رأيه بعد خمسة أيام وتولى الخلافة فى ٢٤ يونية ٦٥٦ فى مسجد الرسول بالمدينة . تميزت فترة ولايته القصيرة بالصراعات المتواصلة .

وبعد أن هزم فى ٩ ديسمبر عام ٦٥٦ فى البصرة فى "موقعة الجمل " على يد قوات طلحة والزبير وعائشة أرملة الرسول توجه لمقابلة معاوية الذى طالب بالانتقام لمقتل عثمان ابن عمه . والتقى الجيشان بالقرب من الرقة فى سهل صفين حيث امتدت المناوشات لمدة مائتى يوم أثناء صيف ٦٥٧ . وفى الوقت الذى كان علىٌ على وشك الانتصار ، إلا أن خديعة عمرو بن العاص الماكرة غيرت مجرى الأحداث حيث علقت خمسمائة نسخة من القرآن الكريم على أسنة رماح الجنود السوريين ونادوا بوقف القتال وتحكيم كتاب الله . قبل على التحكيم ، وفى إطار مناورات التسويف والمكر من

جانب عمرو بن العاص أعلن صراحة أن معاوية مؤهل للانتقام لمقتل عثمان واتهم على بالاشتراك فى قتله وعُزل من منصبه وغدرت به مجموعة من قواته ، فانسحب إلى الكوفة بينما أعلن أن معاوية صار الخليفة بواسطة جيشه .

شهد سهل صفين تمزق المسلمين إلى ثلاث مجموعات لا زالت العداوة والبغضاء ماثلة بينهم حتى يومنا هذا . فالخوارج كانوا فى الأصل أنصار على إلا أنهم رفضوا حيلة عمرو بن العاص الماكرة وأعلنوا أن الحكم لله وحده وتركوا ميدان القتال وبعد مقتل على استمروا فى الصراع ضد الأمويين . أما الشيعة فكانوا ينادون بأن تَوَجُّه المسلمين لنسل سيدنا على فقط الذى يعتبر أهم شخصية مقدسة فى الإسلام . وأخيرا السنة . فى ٢١ يناير عام ٦٦١ أصيب على إصابة قاتلة فى مسجد الكوفة بطعنة سيف فى وجهه على يد أحد الخوارج فى الوقت الذى كان يستعد فيه للتوجه الى الشام . وبعد ثلاثة أيام من إصابته أسلم الروح إلى بارئها وحمل الشيعة ابنه الحسن خليفة للمسلمين . لكنه تنازل عن ادعائه بأحقيته فى الخلافة بسهولة ويسر بعد تلقيه مبلغا ضخما من المال من معاوية ودخلاً مدى الحياة وإقطاعية كبيرة فى بلاد فارس . وبذا انتهى عصر الخلفاء الراشدين . استمر معاوية فى الحكم حتى عام ٧٥٠ ويعتبر مؤسس الدولة الأموية وهو أول خليفة من غير الصحابة .

وطوال فترة حكمه لمدة عشرين عاما جعل من دمشق عاصمة لإمبراطوريته وأحاط نفسه بجيش قوى وإدارة حاسمة وذلك تحسبا لعودة البيزنطيين لمهاجمته فنقل معسكر الجابية إلى دابق شمال حلب ووضع فيه معظم جيش الشام وأعاد الأقاليم التى اعترفت بعلى إلى صوابها وكرس كل جهده لتنظيم جيش قوى يدين له بالإخلاص حيث كانت أغلبيته من اليمنيين . كما نظم جيشا بحريا بامتلاكه ترسانات الإسكندرية وعكا وصور وطرابلس احتل قبرص ورودس وقام ابنه يزيد بمحاصرة القسطنطينية مرتين . وفى كل عام كانت قواته تتوغل إلى داخل الحدود البيزنطية . وفى عام ٦٦٨ ظهرت جيوش المسلمين لأول مرة على الشاطئ الشرقى للبوسفور . وعلى الصعيد الإدارى تجنب الأخطاء التى وقع فيها عثمان ، فعين حكاما للمدن على أعلى مستوى من الكفاءة

وبعيدين عن عشيرة بنى أمية ، والتزم جانب الحياد تجاه الأسرة النبوية والهاشميين . كما أولى الحجاز اهتماما كبيرا ونظم البريد بين المدينة ودمشق . وبالنسبة للمسيحيين اتبع سياسة متفتحة ومتسامحة خاصة اليعقوبيين . قام بمراقبة كبار الموظفين عن طريق شبكة حقيقية من الجواسيس .

ولعدم ثقته التامة فى أفراد عائلته ، اعتمد على الطبقة المتوسطة من بنى قريش وتقرب من قبائل البدو المقيمين فى صحراء الشام وتزوج ميسون من قبيلة كلب .

اتسعت رقعة الأرض الزراعية وبالتالى زاد الدخل للدولة . وعرف الشام فى عهده مستوى كبيرا من الرخاء .

وبخلاف قصر الخضرا ، شيد مكتبة بدمشق سميت ببيت الحكمة وضعت فيها الكتب التى حصلوا عليها أثناء الفتوحات وكذلك المذكرات التى كتبها العلماء العرب وتخصص حفيده خالد بن يزيد فى دراسة الفلك والطب والفلسفة ومؤلفات الكيمياء . كان يوجد مضماران لسباق الخيل .

وفى نهاية عهده أراد معاوية أن يؤكد الخلافة ضمانا لاستقرار الإمبراطورية ولتجنب الفتنة . وخلافا لمبدأ الانتخاب فى الإسلام وعلى الرغم من الاحتجاجات العديدة فإنه نجح فى إقناع القادة العسكريين ورؤساء القبائل والأعيان والمحيطين به بالاعتراف بابنه الأكبر يزيد ليخلفه فى الحكم . ولكن كان هناك كثير من المسلمين يعترضون على تولية يزيد . فإلى جانب غضبهم من أن الخلافة أصبحت ملكية وراثية ، فقد كانت صفات يزيد وأخلاقه لا ترضى المسلمين ولا يمكن لهم مقارنتها بما كان عليه الخلفاء الراشدون بل معاوية نفسه .

يعتبر معاوية المؤسس الحقيقى للدولة العربية – الإسلامية وأحد كبار الحكام فى التاريخ الإسلامى . تميز بالفصاحة والمكر والذكاء والحلم والسيطرة على نفسه عند الغضب . ولكن يؤخذ عليه تحويله نظام الحكم من انتخاب أيام الخلفاء الراشدين إلى الملك ليكون وراثيا فى أسرته كما كان موضع لوم شديد لقسوته مع على بن أبى طالب وسبه من فوق المنبر وسجنه الحسن بن على لإتاحة الفرصة لابنه يزيد بتولى السلطة

كان معاوية قد بنى لنفسه مقصورة داخل مسجد الصحابة لدوافع الأمن وليصلى فيها ويستقبل الناس على اختلاف درجاتهم . وقد امتدح المسعودى دماثة خلقه وذكر كيف يقضى يومه فى قصره بدمشق . بعد صلاة الفجر كان يستمع إلى التقارير التى ترد إليه ثم يقرأ عدة سور من القرآن الكريم ويستقبل أقرباءه ثم وزراءه . ثم يتوجه إلى سكنه ويتناول طعام الإفطار " وهو عبارة عن بقايا عشاء الليلة السابقة " وبعدها يتوجه إلى المسجد ، وبعد أن يتوضأ " يسند ظهره على المقصورة ويجلس فى المنبر محاطا بحراسه يسمح لمن يريده الاقتراب منه : الفقراء وعرب الصحراء والنساء أو الأطفال والمحرومين من أى موارد " . ثم يعود ويجلس على كرسى العرش ويستقبل كبار الزوار مع مراعاة التدرج فى المناصب ويتناول طعام الغداء ويعود إلى المسجد لأداء صلاة الظهر وبعد ذلك يستقبل المقربين إليه وبعدهم الوزراء ثم يصلى العصر وبعدها يخصص موعدا آخر للمقابلات ويتناول طعام العشاء ، يتوجه بعده إلى المسجد لصلاة العشاء وأخيرا يتجه إلى سكنه ولا يستقبل أحداً حتى صلاة التهجد التى يؤديها بالمسجد وبعدها يستقبل المقربين إليه والوزراء والضباط . يعمل الوزراء معه حتى الساعات الأولى من الليل ويقضى جزءا من الليل فى قراءة تاريخ العرب "أخبار العرب " ، وكل ما يتعلق بتاريخ الماضى . ثم يحضرون له الحلوى التى قامت بإعدادها نساؤه وأخيراً يتجه للنوم .

وعندما توفى معاوية كان ابنه يزيد فى حملة ضد الإمبراطورية البيزنطية فعاد فوراً إلى دمشق وتوجه إلى مسجد الصحابة وصعد على المنبر وأقسم يمين الولاء وأعلن توليه الحكم على الأمصار . ساعد حلم والده على السيطرة على مشاعر الناس . ولكن بمجىء يزيد انفجرت طاقات الحقد والضغينة من الأنصار والعلويين والخوارج والقبائل المختلفة . ولم تدم فترة حكمه سوى ثلاث سنوات كانت كلها سلسلة متلاحقة من الأحداث المؤسفة والدامية التى أثرت على مشاعر المسلمين إلى الأبد. لقد انفجر رد الفعل فى اليوم التالى لحفلات التتويج فى العراق أولاً حيث حرص العلويون أهل الكوفة وأغلبهم من الشيعة على المناداة بالحسين خليفة فهو الابن الثانى لعلى وأمه فاطمة بنت رسول الله .

فغادر مكة متوجها إلى الكوفة يرافقه عدد قليل من الحراس ومعه نساؤه وأطفاله . وفى ١٠ أكتوبر عام ٦٨٠ وفى كربلاء على بعد ٧٥ كيلو مترا إلى الشمال من الكوفة التقت القوة الصغيرة وجها لوجه مع جيش عبيد الله بن يزيد الذى عين مؤخرا واليا على العراق . ويذكر الطبرى أنها لم تكن معركة بل مجزرة حقيقية قتل فيها الحسين بعد أن تلقى أكثر من ستين طعنة وكانت هناك عشرات الجثث من العلويين الذين قتلوا دون مقاومة وتركت جثثهم فى العراء لمدة ثلاثة أيام وإمعانا فى الإذلال قطع يزيد رأس الحسين واحتفظ بها فى الكوفة ثم أرسلها إلى دمشق حيث أودعت فى ضريح ضخم وهو المشهد الحسينى حاليا للمسجد الأموى حيث يأتى الشيعة للحج إليه من كل مكان ، وقد أحدثت مذبحة كربلاء هوة عميقة بين الشيعة والسنة . وأصبح المكان الذى قتل فيه الحسين مزارا شهيراً يحتفل بذكراه كل عام .

أما الخصم الثانى ليزيد فهو عبد الله بن الزبير - ابن أحد صحابة رسول الله المشهورين وحفيد أبى بكر من جهة الأم ويمت بصلة قرابة للرسول (عليه الصلاة والسلام) ، كما أن له مؤيدين كثيرين من الأنصار والقرشيين والمهاجرين - رفض الولاء ليزيد . ونادى به أهل الحجاز أميرا للمؤمنين وطرد الأمويين من المدينة ، الذين كانوا يقيمون بها ومنهم مروان وابنه عبد الملك وكل منهما سيكون خليفة فى المستقبل ولكى يعيد يزيد المتمردين إلى رشدهم أرسل جيشا إلى الحجاز بقيادة مسلم بن عقبة . وفى نهاية أغسطس عام ٦٨٣ توغل جيش الأمويين إلى المدينة وعمل على نهبها وسلبها لمدة ثلاثة أيام ووقعت مذبحة رهيبة قتل فيها الآلاف وترك مسلم حامية صغيرة فى المدينة وتوجه بعد ذلك إلى مكة حيث كان عبدالله بن الزبير يحتمى بها ولكنه مات فى الطريق لمرضه ولكبر سنه فحل محله أحد اليمنيين الذى كان واليا فى السابق على حمص وهو الحصين بن نمير . استمر حصار المدينة المقدسة لمدة ٦٤ يوما . من ٢٥ سبتمبر إلى ٢٧ نوفمبر عام ٦٨٣ .

وقد دك السوريون مكة المكرمة ولم تنج الكعبة بل أطلقت عليها قذائف من اللهب . وجاء خبر موت يزيد فى ١١ نوفمبر عام ٦٨٣ فى مقره بحوران بين دمشق وتدمر

فتوقف الحصين بن نمير عن تدمير مكة ورجع بقواته إلى الشام بينما انحاز جزء كبير من الإمبراطورية إلى صف عبد الله بن الزبير واعترفوا به خليفة فى العراق والجزء الجنوبى من الجزيرة العربية بل وفى بعض مناطق من الشام .

عُرف يزيد بالعبث والمجون . وقد وصفه ابن الزبير : "يزيد الخمور ، ويزيد الفجور ، ويزيد الفهود ، ويزيد القرود ، ويزيد الكلاب ، ويزيد النشوات " .

لكنه مع ذلك قام بإصلاحات كثيرة . ففى دمشق تحسنت أحوال الرى فى الغوطة وحفر قناة جديدة وتسمى لليوم باسمه : نهر يزيد . كما لم يتوقف الجهاد فى عهده وتواصلت الحملات إلى شمال أفريقيا بقيادة عقبة بن نافع مؤسس القيروان حيث دفع بجيوش المسلمين إلى المحيط الأطلنطى .

وقد أدت وفاة يزيد إلى حالة من الفوضى والصراعات الدموية على السلطة . توفى يزيد وهو فى الرابعة والثلاثين من عمره وخلفه ابنه معاوية الثانى ولم يتجاوز بعد الثامنة عشر وكان شابا ضعيفًا غلب عليه الزهد والتقشف كما كان يحتقر السلطة ولزم بيته ولم يخرج منه حتى وافاه الأجل وبقى فى الحكم أربعين يوما . ولد من أم بدوية من قبيلة الكلب . عقد السوريون اجتماعًا فى جابيا جنوب دمشق لاختيار أمير للمسلمين يجمع شملهم ولكنهم كلما عرضوا الخلافة على واحد منهم تهرب منها . وقال بعضهم لبعض : إن المُلك كان فينا أهل الشام أفينتقل ذلك إلى أهل الحجاز ؟ لا نرضى بذلك ! فعرضوا الخلافة على خالد بن يزيد بن معاوية فرفض وعمرو بن سعيد فرفض هو الآخر ومروان بن الحكم الذى وافق وقبل .

فى ٢٢ يونية عام ٦٨٤ تولى مروان بن الحكم الخلافة وصار أمير المؤمنين . وقد أدت معركة مرج راهط فى تثبيت دعائم الدولة الأموية ولكنها أدت فى الوقت نفسه إلى إثارة روح العصبية التى حاربها الإسلام فظهرت العصبية بين القيسيين واليمنيين واستمرت طوال العصر الأموى وكانت أبرز أسباب سقوط الدولة الأموية .

لم يستمر حكم مروان بن الحكم سوى عام واحد عمل خلاله على تثبيت سلطة الأمويين على الشام . كما وجه همه إلى استرداد الأمصار التى انتزعها ابن الزبير فبدأ بمصر فسار بنفسه على رأس جيش وهزم عامل ابن الزبير وأخذ بيعة المصريين وولى على مصر ابنه عبدالعزيز وحاول انتزاع الحجاز ولكن وافته منيته وعهد بالخلافة من بعده لولديه عبدالملك ثم عبدالعزيز .

تولى عبد الملك بن مروان الخلافة والدولة العربية تموج بالاضطرابات . فقد كانت سلطته مقصورة على الشام ومصر فقط . ووجد نفسه أمام عدة مشاكل :-

أولاً) مشكلة القيسيين ، بعث جيشا بقيادة عبيد الله بن زياد تمكن من القضاء عليهم . ثم استمالهم فتزوج منهم فتاة أنجبت الوليد .

ثانيًا) مشكلة البيزنطيين : كان البيزنطيون يواصلون غاراتهم على أطراف الشام منتهزين فرصة النزاع الداخلى ولكن عبد الملك استطاع أن يرجعهم إلى ما وراء حدودهم .

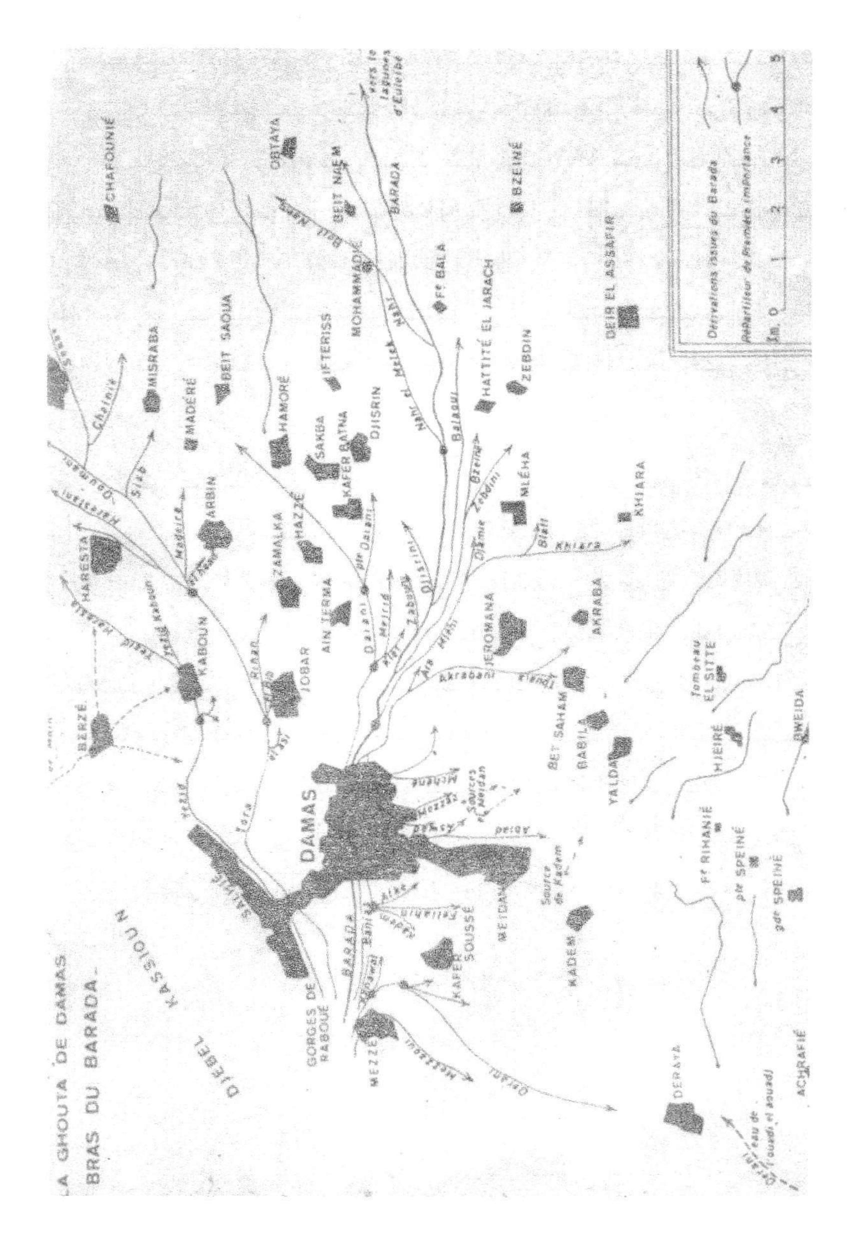
ثالثًا) مشكلة إخضاع الحجاز : بعث عبدالملك جيشًا بقيادة الحجاج بن يوسف الثقفى قضت على عبدالله بن الزبير .

رابعًا) ثورات الخوارج والموالى : بعد نجاح الحجاج فى الحجاز ولاه عبدالملك على حكم العراق والولايات الشرقية ولدى وصوله وقف على منبر الجامع الكبير بالكوفة وقال جملته الشهيرة : " يا أهل العراق ، يا أهل الشقاق والنفاق ، إنى أرى رءوسًا قد أينعت وحان قطافها " .

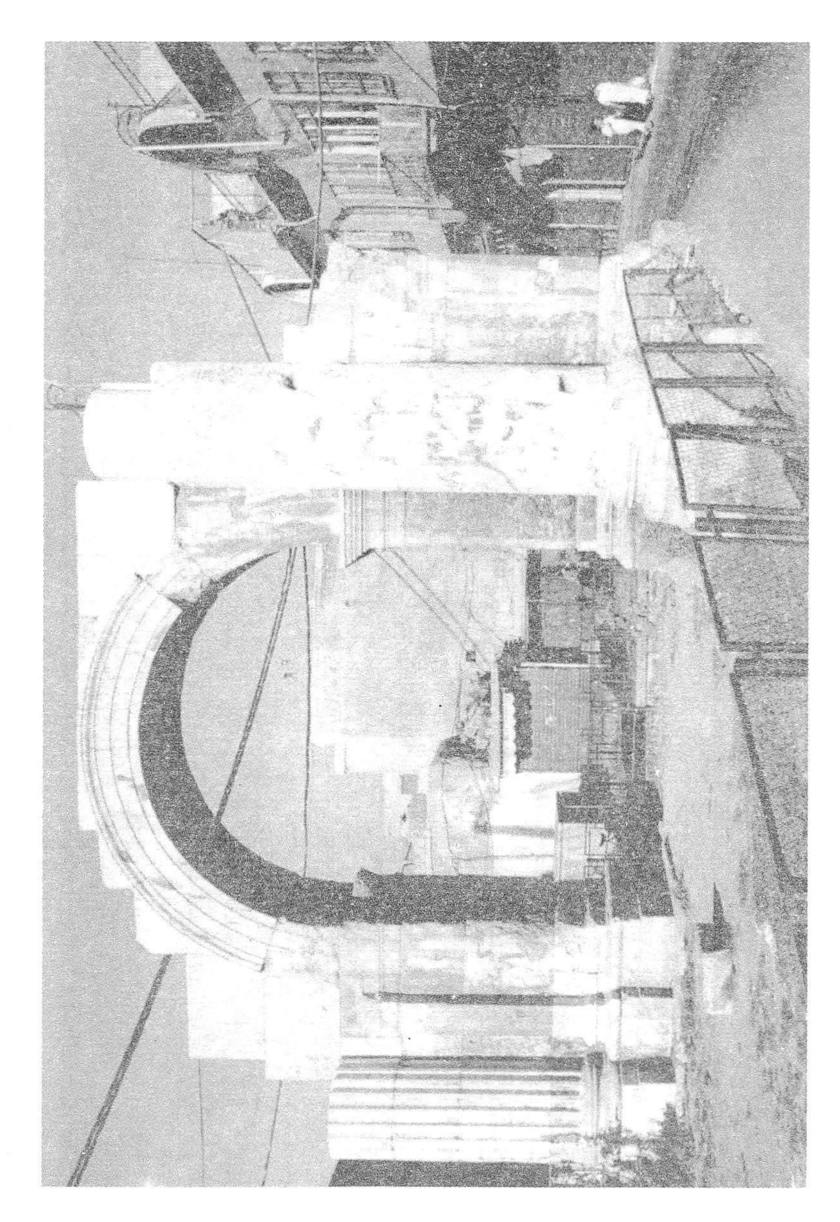
وفى عهد عبد الملك تمت إصلاحات إدارية كثيرة . فقد صبغ الدولة بصبغة عربية وجعل اللغة العربية اللغة الرسمية ونقل الدواوين من اليونانية (فى الشام) والفارسية (فى العراق وفارس) إلى العربية وأصبح جميع موظفى الدولة من العرب وصك عملة عربية فى دمشق منها الدينار الذهب والدرهم الفضى . وفى عهده بدأت دراسة القرآن فى مسجد الصحابة . حاول عبد الملك كما حاول قبله معاوية أن يستميل المسيحيين

للتفاوض معهم من أجل تحويل كنيسة يوحنا المعمدان إلى جامع كبير ولكن دون جدوى . وفى داخل فناء معبد ببيت المقدس ، أنشأ قبة الصخرة وهو أقدم أثر إسلامى لازال موجودا حتى اليوم ، حيث تم بناؤه عام ٦٩١ ثم أوحت إليه بالشروع فى هذا البرنامج المعمارى الطموح : منها منافسة المبانى المسيحية الفخمة التى كانت تزدان بها مدن الرها واللد والقدس ودمشق والبصرة ... إلخ . وجعل الإسلام الديانة التى تخلف بحزم الديانتين السابقتين الداعيتين إلى التوحيد وتثبيت ذكرى تضحية إبراهيم وليلة الإسراء بمحمد (عليه الصلاة والسلام) من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى وصعوده للسموات .

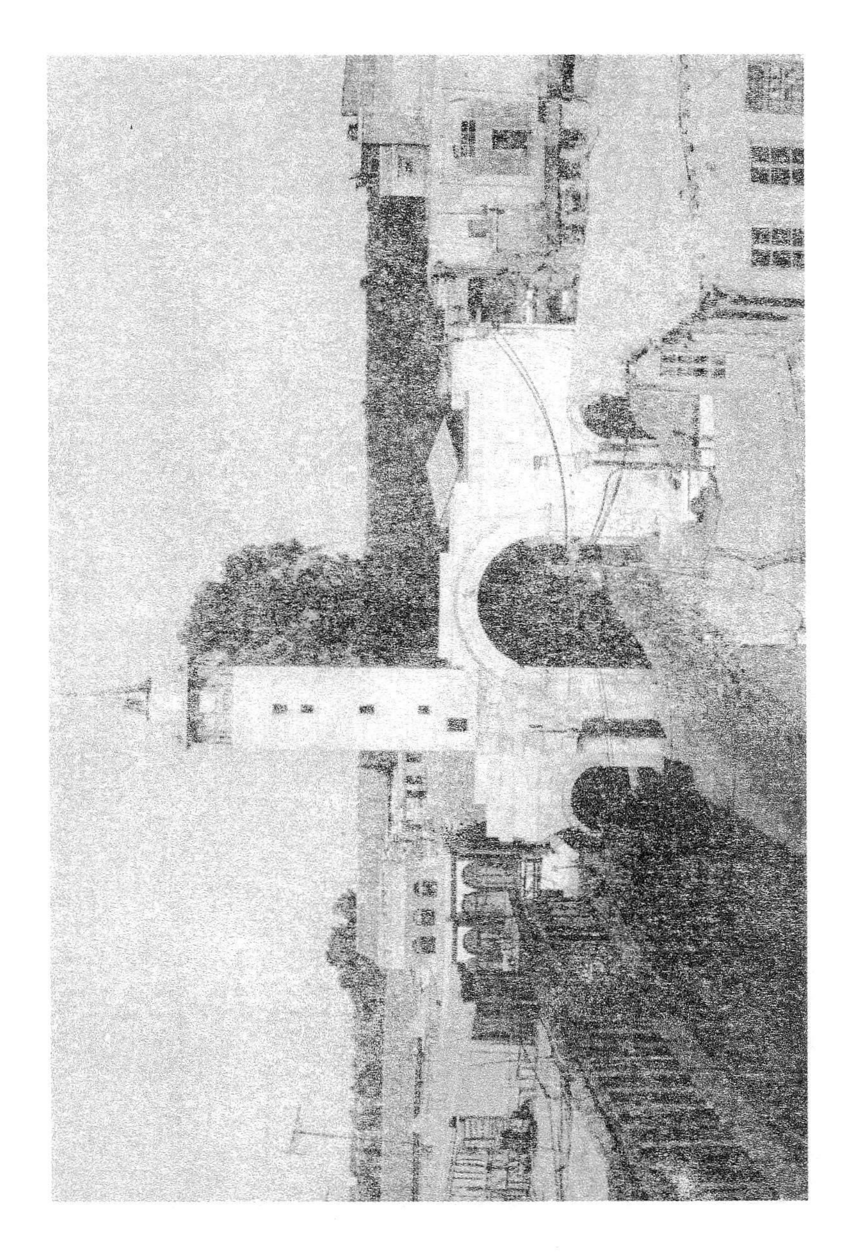
وعندما توفى عبدالملك عام ٧٠٥ ، خلفه ابنه الوليد . يعد عصر الوليد بن عبد الملك من ألمع العصور التاريخية . فقد ترك له أبوه خزانة عامرة وإمبراطورية شاسعة يديرها ولاة قديرون ، فصرف همه إلى ناحيتين هما التوسع فى الإمبراطورية والقيام بأعمال عمرانية باهرة . وذكر ابن الفقيه أن الوليد عمل على إنشاء آبار بطول الطريق المؤدى إلى مكة لخدمة الحجاج كما أنشأ مستشفيات للمرضى وقام بتوسعة الحرم المكى ومسجد المدينة وأتم بناء المسجد الأقصى بالقدس وأنشأ قصرا بمنية شمال شرق بحيرة طبرية . وفى دمشق أمر ببناء دار الضيافة وأخيراً الجامع الكبير الذى نشاهده الآن . وعلى الصعيد الإدارى أتم صبغ الدولة بالصبغة العربية ، إذ عمل على إقصاء الأجانب عن الجهاز الإدارى ونقل الدواوين من القبطية إلى العربية فى مصر ، فتم بذلك تعريب الدولة .


LA GHOUTA DE DAMAS
BRAS DU BARADA.
DJEBEL KASSIOUN
DAMAS
GORGES DE RABOUÉ
MEZZÉ
KAFER SOUSSÉ
MEIDAN
KADEM
DERAYA
ACHRAFIÉ
BERZÉ
KABOUN
HARESTA
ARBIN
MADÉRÉ
MISRABA
BEIT SAOUA
CHAFOUNIÉ
JOBAR
AIN TERMA
ZAMALKA
HAZZÉ
HAMORÉ
SAKBA
KAFER BATNA
DJISRIN
IFTERISS
MOHAMMADIÉ
BEIT NAEM
OTAYA
BARADA
HATTITÉ EL JARACH
ZEBDIN
MLÉHA
DEIR EL ASSAFIR
BZEINÉ
KHIARA
JEROMANA
AKRABA
BET SAHAM
BABILA
YALDA
HJEIRÉ
BWEIDA
Tombeau EL SITTE
Dérivations issues du Barada
Répartiteur de Première importance

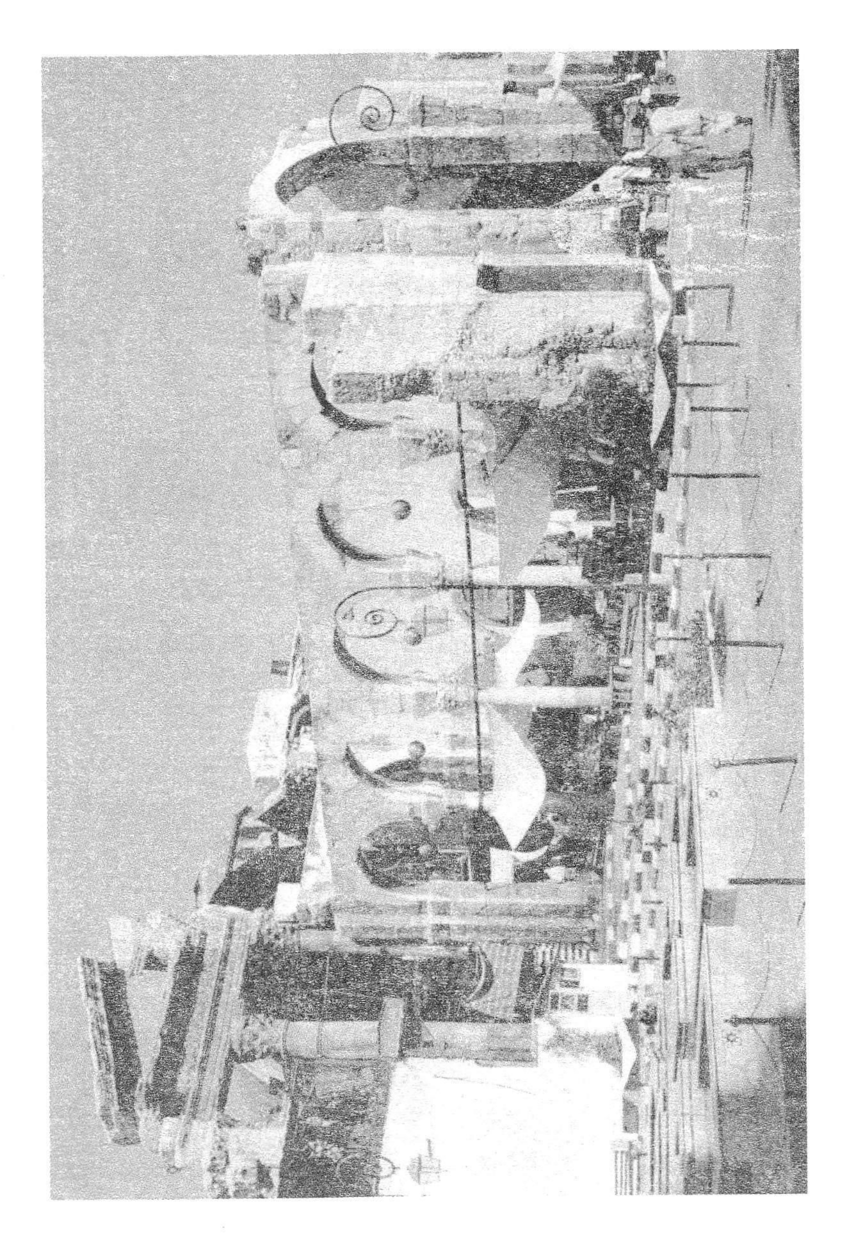
شكل رقم (١)



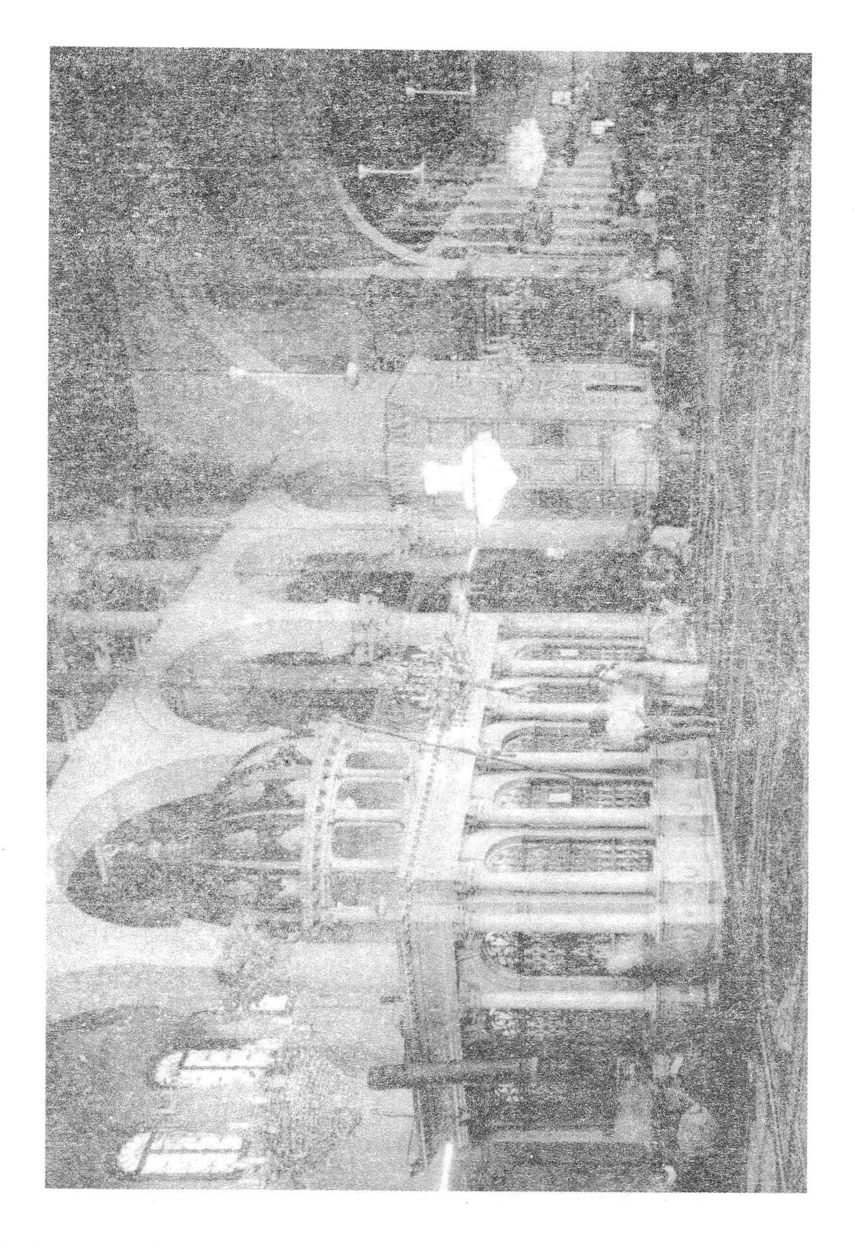
شكل رقم (٢) الشارع المستقيم وأطلال القوس الرومانى الأثرى



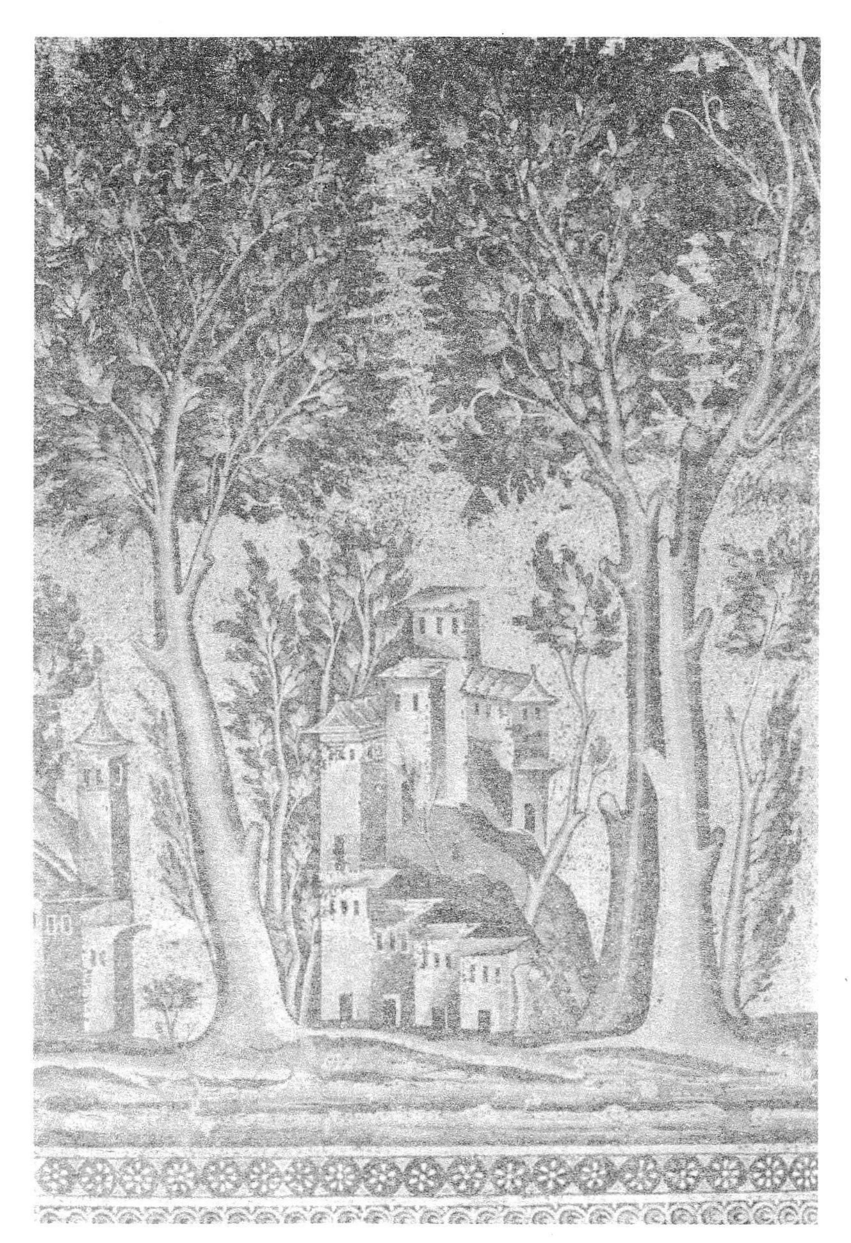
شكل رقم (٣) الباب الشرقى - المئذنة التى تعلو الباب



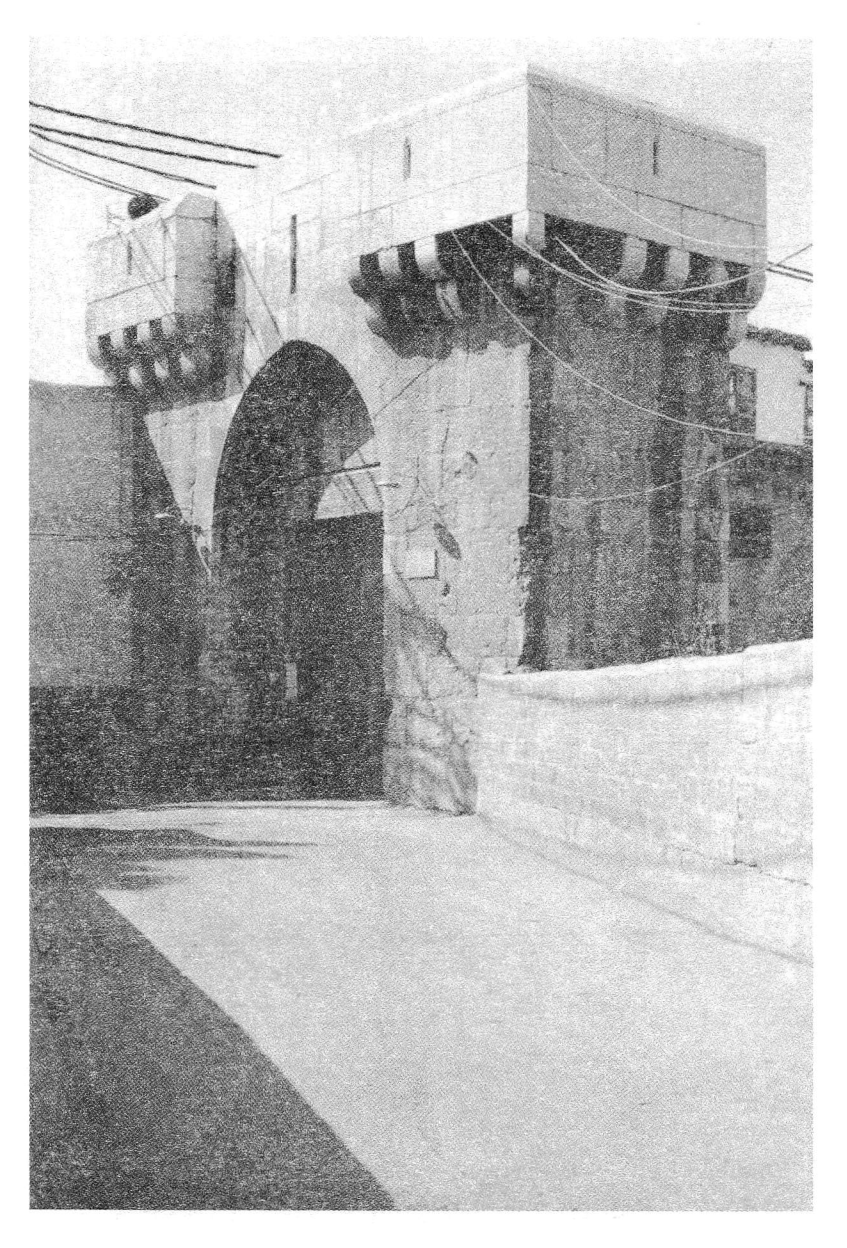
شكل رقم (٤) ساحة معبد جوبيتر - أطلال رومانية وبيزنطية



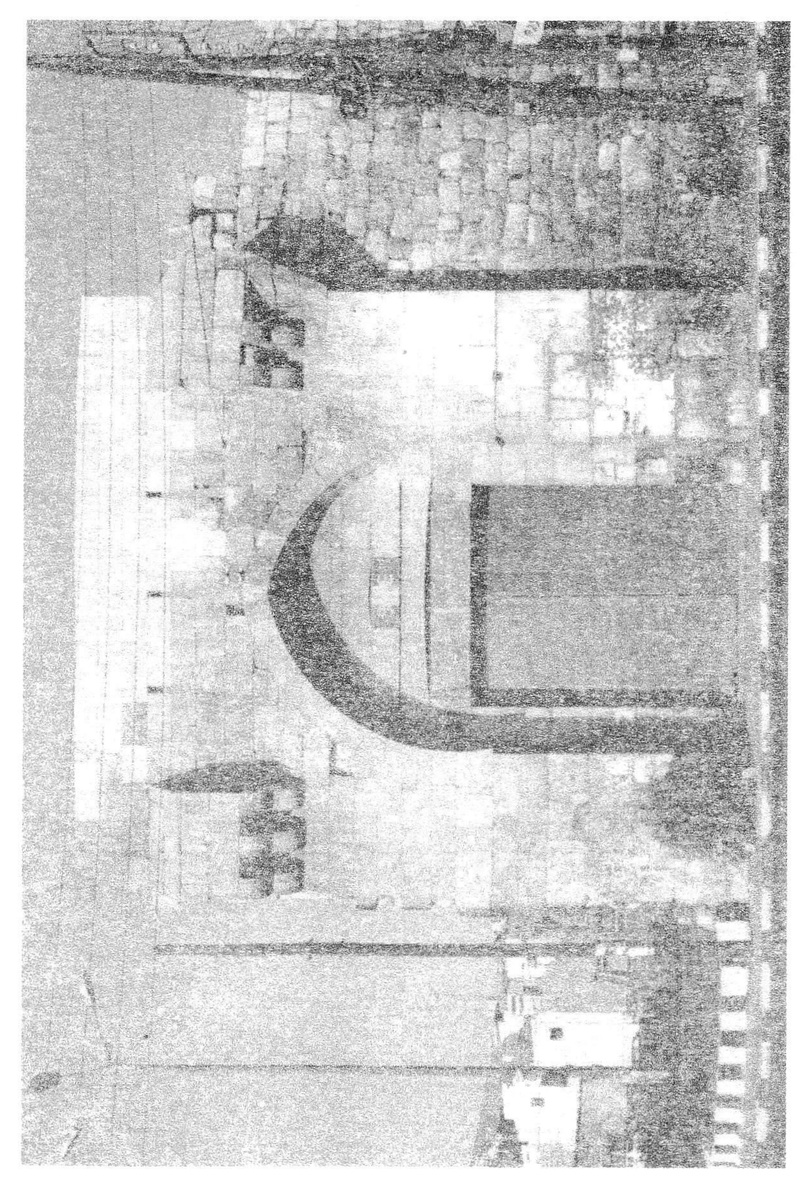
شكل رقم (٥) الجامع الأموى من الداخل . على اليسار قبر بولس الرسول (يوحنا المعمدان)



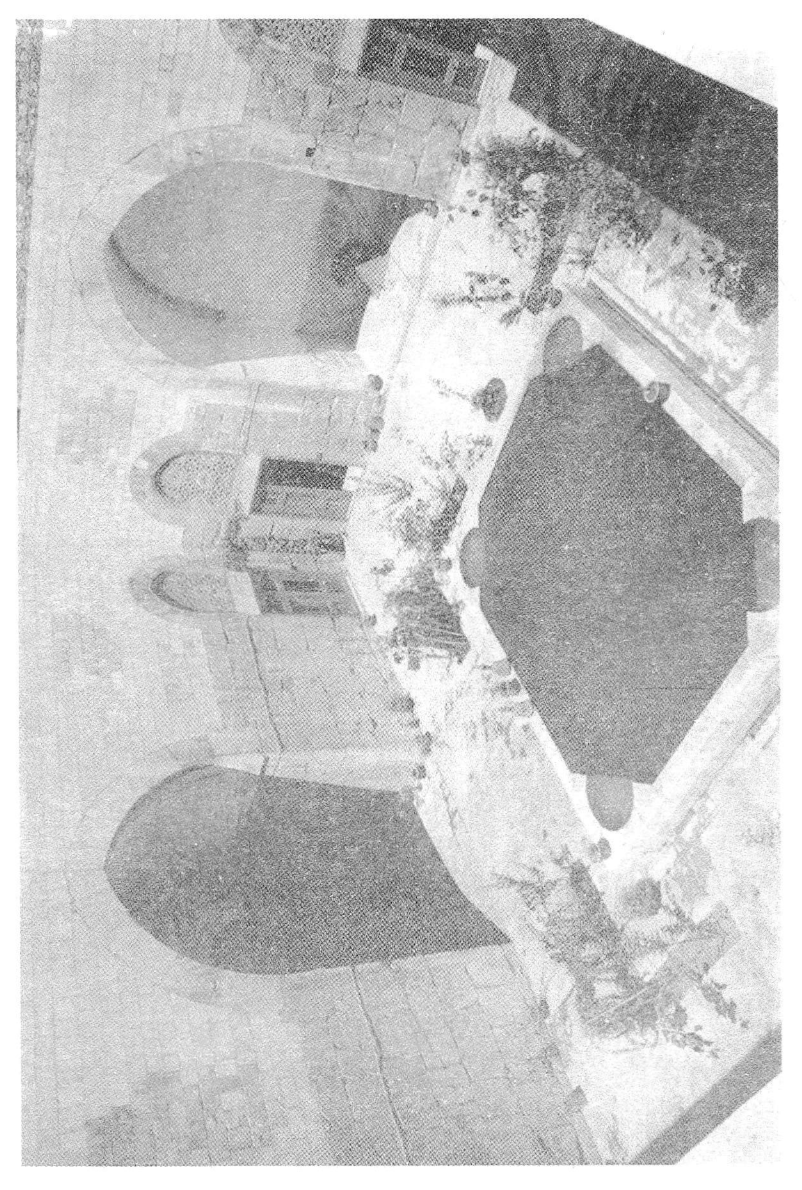
شكل رقم (٦) خزف في الصحن الغربي للجامع الأموي



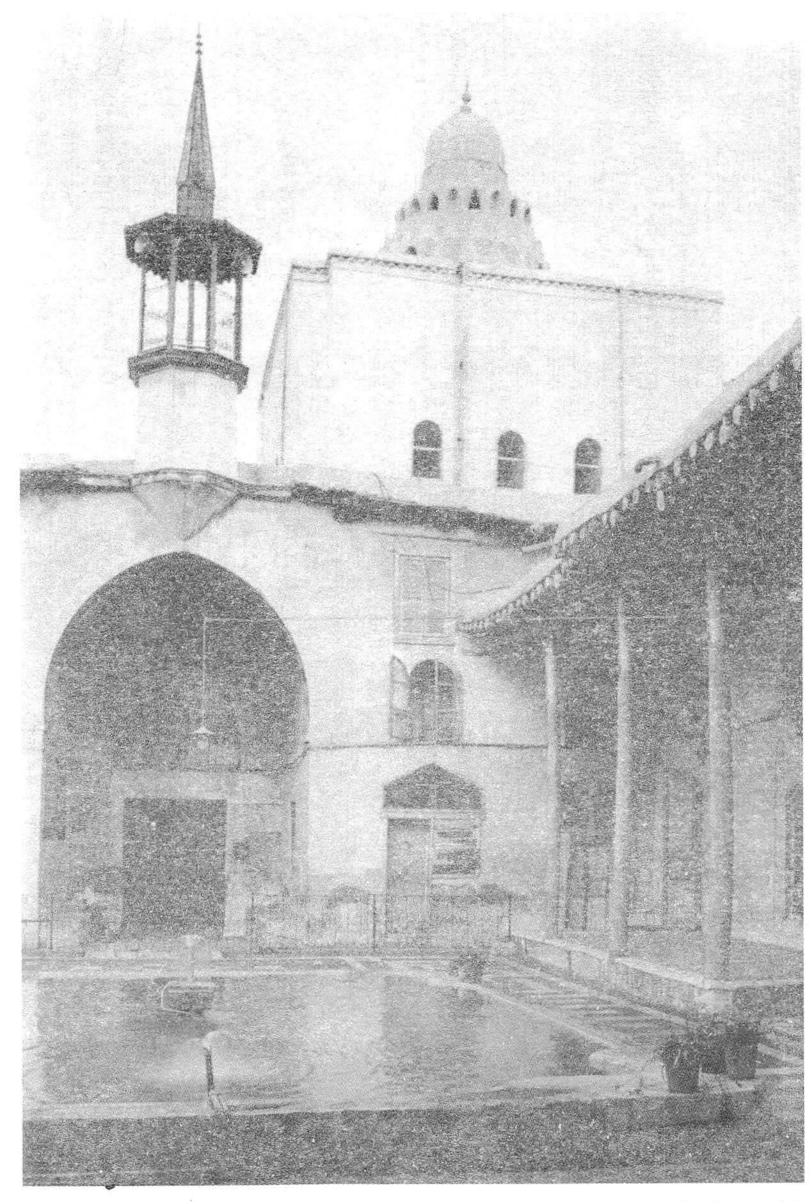
شكل رقم (٧) باب السلام



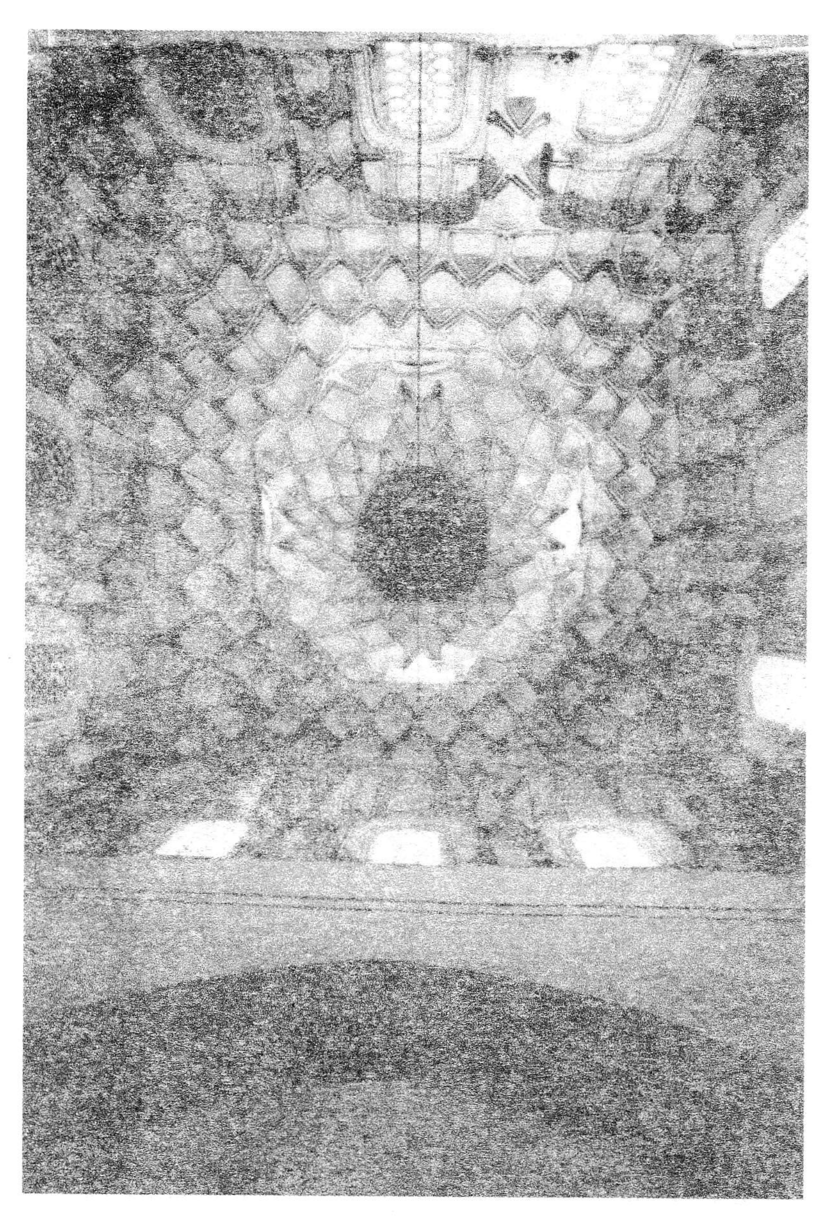
شكل رقم (٨) باب توما



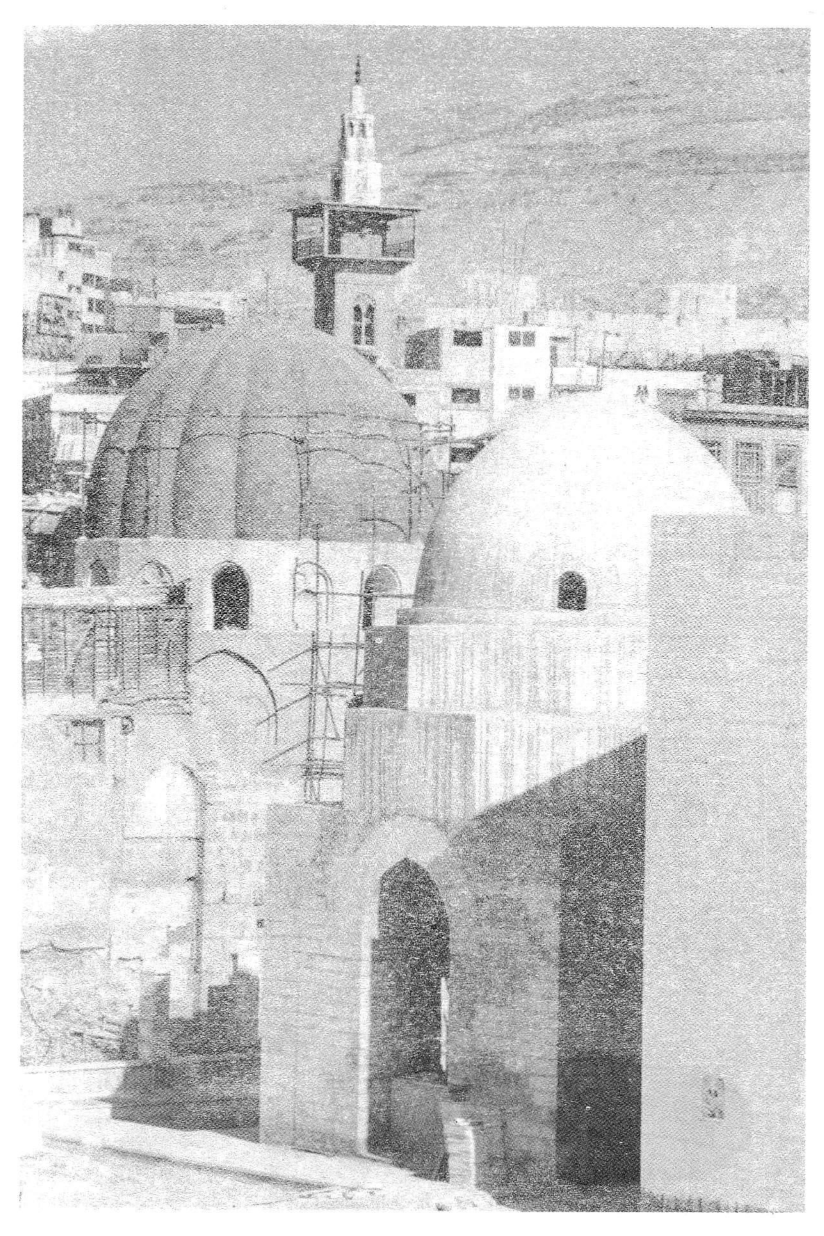
شكل رقم (٩) بيمارستان نور الدين



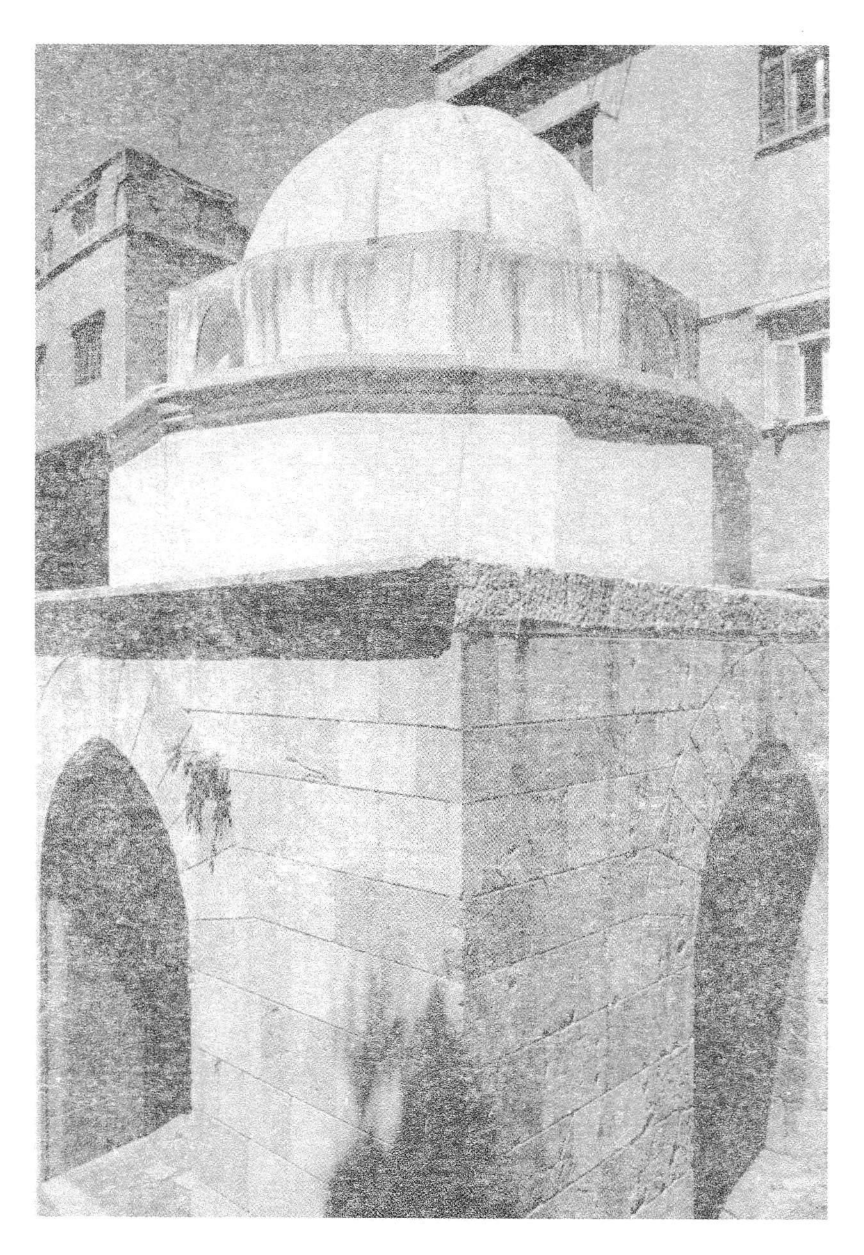
شكل رقم (١٠) مدرسة نور الدين الجنائزية وفى الخلف المقبرة يعلوها القبة الخاصة بها



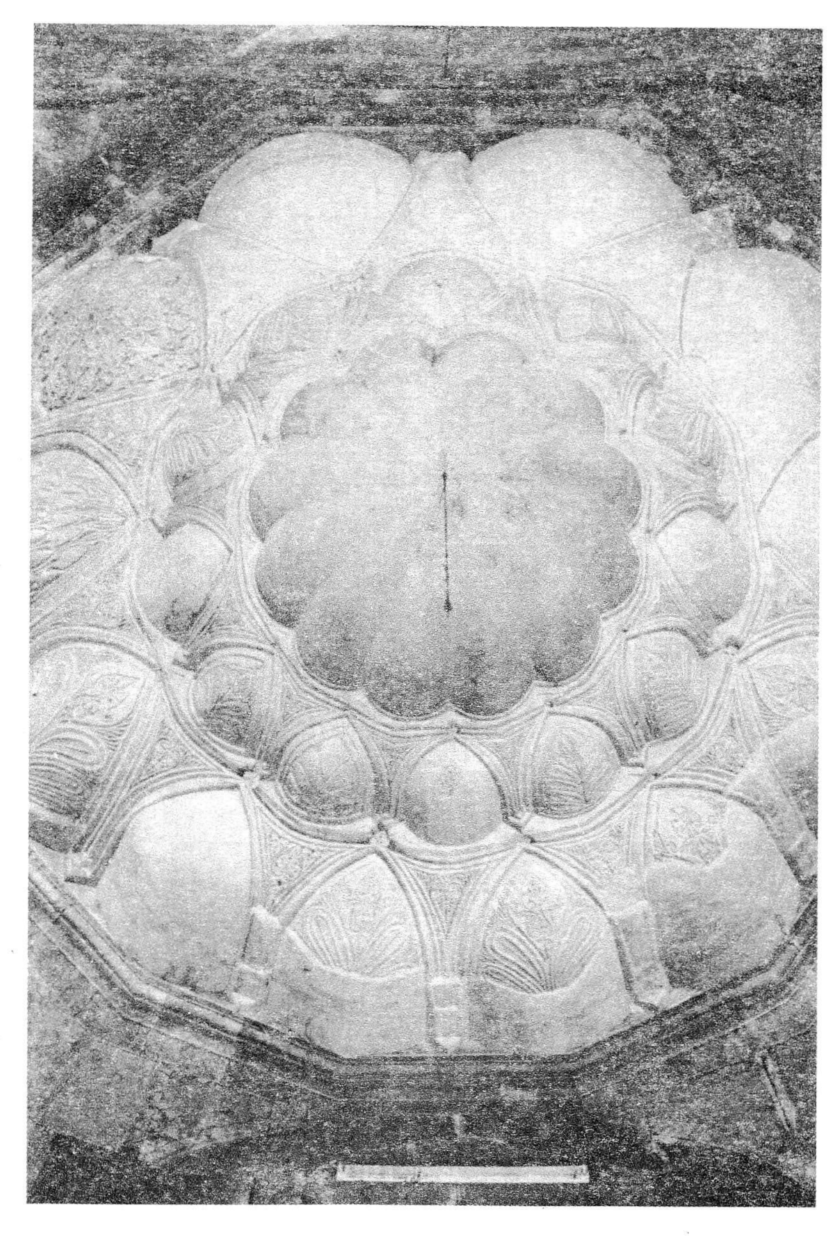
شكل رقم (١١) قبة مقبرة نور الدين من الداخل



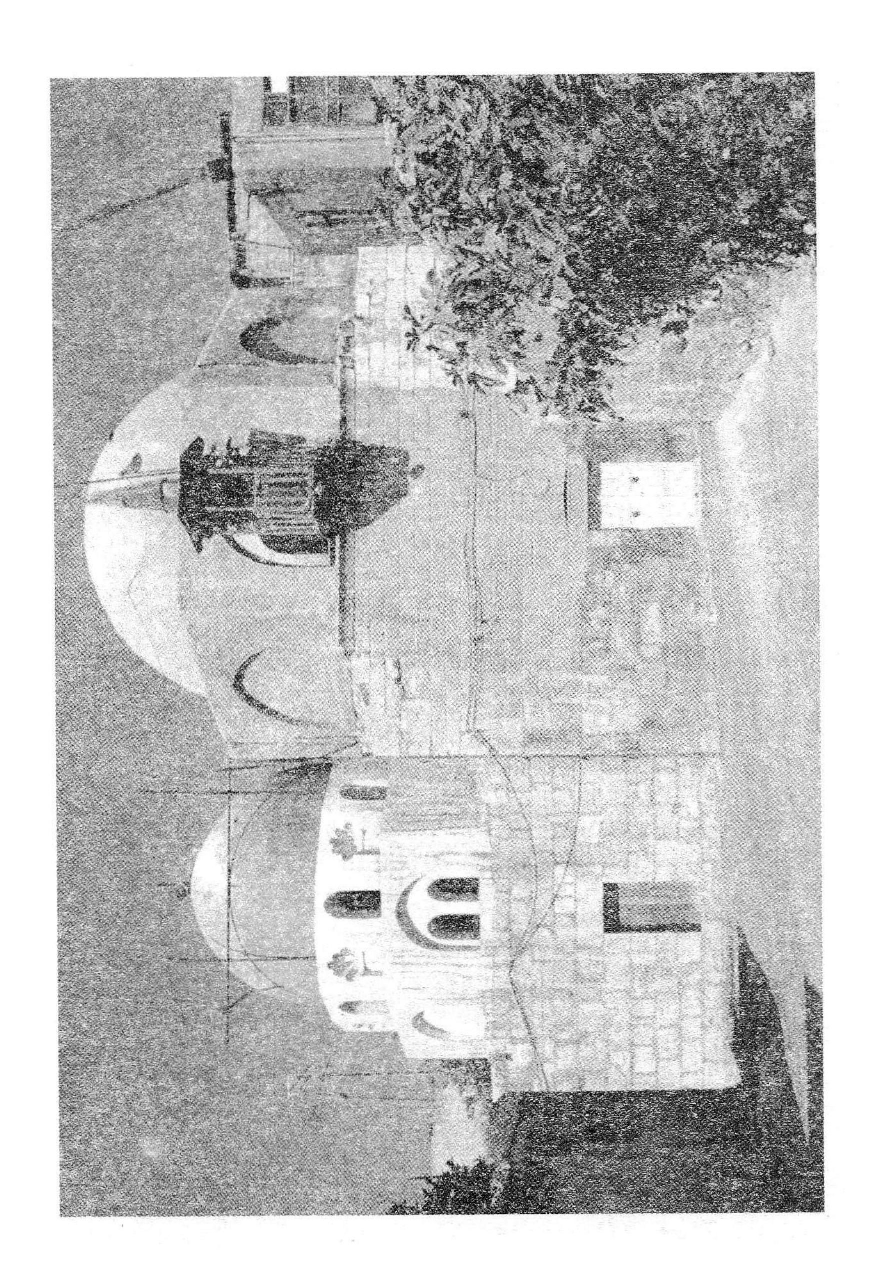
شكل رقم (١٢) مقبرة الأمير التركماني علاء الدين ومقبرة الملك المنصور أحد أبناء صلاح الدين



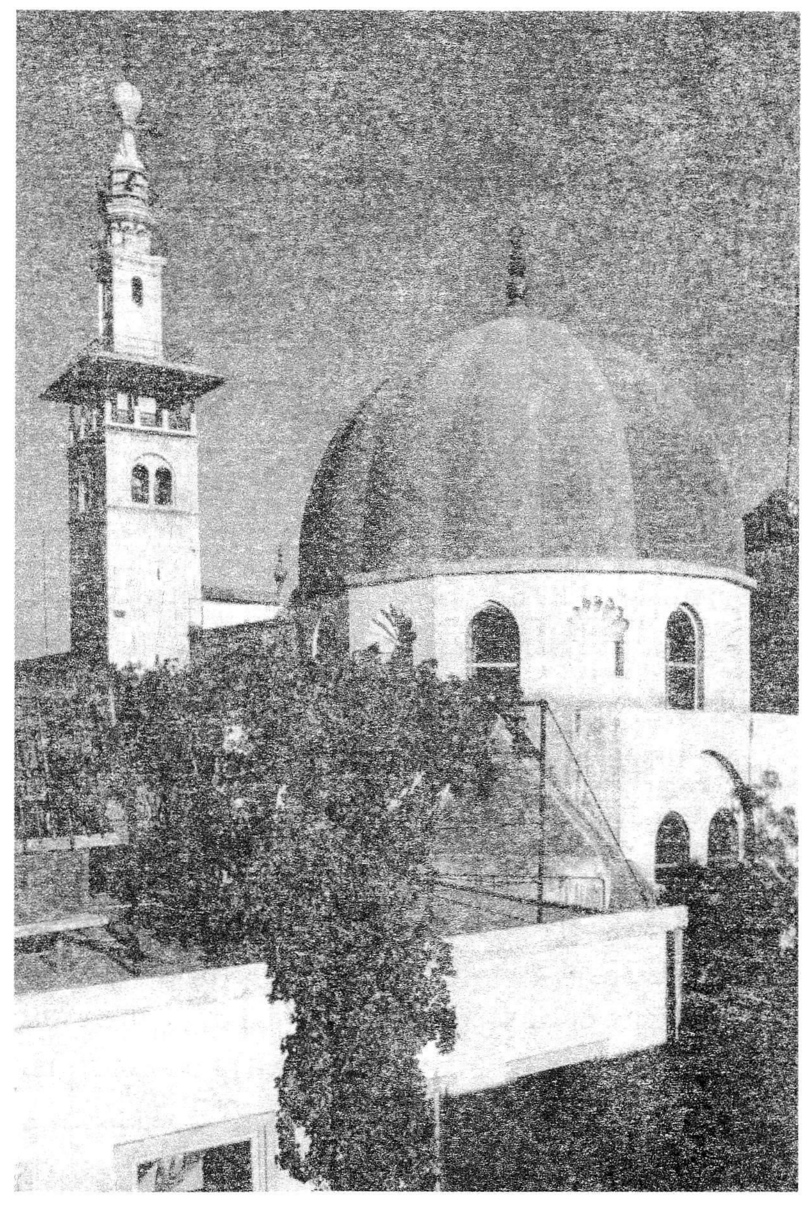
شكل رقم (١٣) مقبرة ابن المقدم (١٢٠٠ - ١٢٠١)



شكل رقم (١٤) قبرة مقبرة ابن المقدم من الداخل



شكل رقم (١٥) مقبرة فاروق شاه ١١٨٤ وعلى اليسار مقبرة ابنه باهرم شاه ١٢٣٠



شكل رقم (١٦) قبر صلاح الدين ١١٩٥ . وفى الخلف مئذنة العروس بالجامع الأموى

وعلى الصعيد العسكرى :

تواصلت الفتوحات ففى الشرق كان للحجاج الفضل الأكبر فى الفتوحات الشرقية . ضمت طخارستان والسند ثم فتحت بخارى وسمرقند وفرغانة . وفى الغرب عبرت الجيوش الإسلامية جبل طارق فى ٢٤ إبريل عام ٧١١ وتم إخضاع المغرب الأقصى إخضاعًا نهائيا وفتحت طنجة وضمت الأندلس ووصلوا إلى سراجوسا وبرشلونة بأسبانيا . اشتهر الوليد أيضًا بالتدين ، فكان ينهى قراءة القرآن مرة كل ثلاثة أيام وتوفى فى دير موران قرب دمشق فى ٢٣ فبراير عام ٧١٥ وخلفه شقيقه سليمان .

ولكى يضفى الوليد مزيدا من الهيبة والنفوذ على الإسلام ، فقد قرر منذ اليوم الأول لتوليه العرش العمل على تنفيذ المشروع الذى بدأه معاوية ثم عبدالملك وفشلا فيه وهو منح دمشق جامعًا كبيرًا . ونظرًا لعدم تواجد مساحة كافية لإنشاء هذا المسجد ، فكانت العقبة الكبرى تواجد كنيسة يوحنا المعمدان . حث الوليد المسيحيين على التنازل له عن كنيسة يوحنا المعمدان . وفى مقابل ذلك يمنحهم أملاكًا شاسعة وأراضى وإنشاء أربع كنائس أخرى لم يكن منصوصًا عليها فى معاهدة الاستسلام عام ٦٣٥ .

لكنهم رفضوا . عندئذ هدد الوليد بهدم كنيسة توما وتحويلها إلى مسجد خاصة وأنها أكبر وأوسع من كنيسة يوحنا المعمدان ، فقبل المسيحيون الصفقة على مضض . وذكر ابن شاكر أن الخليفة أعطى إشارة البدء وقام بنفسه باستخدام معول الهدم فى قمة البرج الشرقى والذى كان صومعة يسكنها راهب . وأفاد ابن عساكر أن العمال المسيحيين وقد ملأهم الرعب خوفا من التطير والخرافات لم يجرءوا على حمل المعاول وإعطاء الضربة الأولى للهدم وقالوا " إنا نجد فى كتبنا أنه لا يهدمها أحد إلا خنق أو جن فقال الخليفة فأنا أول من يجن فى الله تعالى وأعطى المثل بإمساكه المعول وقام بضربات متلاحقة على مذبح الكنيسة . وتم هدم كل ما كان داخل ساحة الكنيسة : المذابح والأروقة . وجه الخليفة نداء إلى عدة مئات من الصناع البيزنطيين ، وكان طلبه حاسما كما ذكر ابن عساكر وخاليًا من الدبلوماسية فى خطاب أرسله إلى نظيره البيزنطى : " أرسلوا لى مائتى عامل من روما لأنى أريد إنشاء مسجد لم يشيد مثله فى

أى عاصمة من العواصم ولن يبنى مثيل له بعدى . وإذا لم ينفذ طلبى سأقوم بغزو بلادكم بجيوشى وسوف أهدم جميع الكنائس الموجودة ببلادى وأيضاً الآثار البيزنطية الأخرى " . وتحدث الرحالة الأندلسى ابن جبير (١١٤٥ - ١٢١٧) قائلاً إن " اثنى عشر ألفا من الحرفيين والفنيين أرسلوا من القسطنطينية . كما كان هناك فنيون واختصاصيون من فارس والهند والمغرب وبيزنطة " شاركوا فى الأعمال الخاصة ببناء هذا المسجد . وذكر المسعودى أن عمر بن عبدالعزيز باح بسر أن ابن عمه الخليفة " خصص دخل الضرائب العقارية للشام بالكامل لمدة سبع سنوات إضافة إلى حمولة سفينة ذهبا وفضة وثمانى عشر سفينة محملة بمواد قادمة من قبرص بخلاف المواد والخزف التى أرسلها ملك الروم . وحسب أحد الشهود الذين ذكرهم ابن شاكر أن الإنشاء تكلف ملء "مائتى صندوق ضخم يحتوى كل صندوق على عشرين ألف دينار أى أن المبلغ الإجمالى للتكاليف صار خمسة ملايين وستمائة ألف دينار " . وحكى أنه بلغ ثمن "البقل " الذى أكله الصناع فيه ستة آلاف دينار . وضج الناس استعظاما لما أنفق " ، وقالوا " أخذ أموال بيوت المسلمين وأنفقها على من لا فائدة لهم .

وذكر ابن شاكر أن الكتابة التى كانت على حجر الأساس قد محيت أثناء رحلة الخليفة العباسى المأمون (٨١٣-٨٣٣) إلى دمشق . إلا أن المسعودى أكد أنها كانت موجودة وبشكل واضح عام (٩٤٣ -٩٤٤) فعلى الجدار الجنوبى لصحن المسجد كتب بالذهب على حجر لازوردى من الأحجار الكريمة: "مولانا هو الله ولا نعبد إلا الله ، تم بناء هذا المسجد وهدم الكنيسة التى كانت فيه بأمر من العبد لله الوليد أمير المؤمنين فى شهر ذى الحجة عام ٨٧ هـ "

هدمت الكنيسة وسدت الفتحات الثلاث التى كانت فى الجدار الجنوبى للسور ، وفتح صف من الشبابيك فى الجزء العلوى من صحن المسجد المستطيل الشكل بطول ١٣٦مترا × ٣٧ متراً ويشغل الجزء الجنوبى بالكامل وهو الخاص بالمنطقة المقدسة الأثرية فى المعبد .

وحسب الطريقة التى كانت سائدة فى مصر القديمة وبلاد فارس ، ولكن دون ذكر بيت الرسول محمد (صلى الله عليه وسلم) فى المدينة الذى كان مبنيا بدعامات من جذوع النخيل ، فقد أمكن تصوره على أنه كصحن أو فناء يرتكز سقفه على أعمدة ومكون من ثلاثة فراغات مسقوفة موازية لجدار القبلة ويفصلها صفان من "البواكى" المقنطرة .

ومغطاة بسقف مائل ومزدوج . تتكون كل باكية من عشرين عامودا أثريا بقاعدة مربعة وتاج عامود كورنثى وكلها مأخوذة من المعبد الرومانى ومتصلة بأقواس متجاورة على هيئة حزام .

ولزيادة ارتفاع الدعامات ، أضيفت أعمدة مستطيلة أقل ارتفاعا مكونة من دعامات صغيرة مستطيلة الشكل .

وبعد الحريق الكبير الذى حدث عام ١٨٩٣ ، استبدلت بأعمدة صغيرة لتعطى مزيداً من الارتفاع وكدعامات باستخدام أجزاء حجرية . ويتعامد الجزء الرئيسى من المسجد مع القبلة ويقطع صحن الصلاة فى وسطه ويؤدى إلى المحراب الرئيسى حيث توجد الفتحة الغربية لباب السور الداخلى للمعبد القديم . تعود إلى الوليد أول مبادرة لبناء واحدة من أعظم روائع الفن والهندسة المعمارية الإسلامية . وصحن المسجد مغطى بسقف ذى أقواس مائلة مزدوجة تبرز منه قبة ترتفع فوق الصحن الأوسط ، وقد انهارت تلك القبة التى بنيت أيام الوليد التى كانت ترتفع إلى عنان السماء وذلك بعد الانتهاء من بنائها مباشرة . دمرت القبة مرة أخرى عام ١٠٦٩ عقب حريق كبير شب بالمسجد .

كانت القبة فى البداية من الخشب مثل قبة الصخرة بالقدس . وقد وجدت نقوش كوفية محفورة على ألواح رخامية جمعها العالم الأثرى « ماكس فان برشيم » باسم السلطان السلجوقى ملك شاه (١٠٧٢ - ١٠٩٢) يسجل عليها إنشاء "القبة والمقصورة والسقف والبواكى والدعامات " (١٠٨٢ - ٨٣) . وقد ذكرت تلك الإصلاحات أيضًا فى النصوص التى كتبها ابن عساكر والماوى . وقد تمت تقوية الدعامات الأربع الرئيسية أثناء تلك الإصلاحات لزيادة مقاومتها ، وقد انتقلت القبة لتصير فوق

الصحن الرئيسى . كانت القبة فى البداية من الخشب ، فأمر الوليد أن تسقف بالرصاص . وكانت القبة تبدو وكأنها مزدوجة ، ولكن كانت إحدى القبتين داخل الأخرى ، والتى تبدو من الخارج هى القبة المغطاة بالرصاص ، وذات يوم عبر أحد الزائرين البيزنطيين عن دهشته وإعجابه ، ووصفها أحد الشعراء بأنها " كانت مرتفعة وعالية لدرجة يصعب على الطيور الوصول إليها إلا بشق الأنفس " .

وعبر ابن بطوطة عن إعجابه بالقبة التى سميت بقبة النسر وليس فى دمشق أعلى ولا أبهى منظراً منها . إنها إحدى عجائب الدنيا فى فن التشييد وفى ارتفاعها الشاهق . وكانت تسمى قبة النسر لأنهم شبهوا المسجد بالنسر والقبة برأس النسر .

وفى القرن الثانى عشر استبدلت القبة المزدوجة بقبة بسيطة من الحجر ، بعد الحريق الذى شب عام ١٤٠٠ . أما القبة الحالية فقد أنشأها المهندس المعمارى الانجليزى أبيرى عقب حريق شب عام ١٨٩٣ .

دعمت واجهة الصحن الرئيسى بدعامتين تمت تقويتهما بقبة صغيرة مغطاة بالرصاص مع ملاحظة أن تناسقها لا زال متأثرا بالتقاليد البيزنطية .

يتكون المدخل الرئيسى لصحن الصلاة من باكية صغيرة بثلاث فتحات وعمودين ولا يستخدم إلا فى المناسبات الرسمية . وفى أعلى المدخل وضعت زخارف زجاجية مختلفة الألوان تسمح بإدخال ضوء النهار إلى صحن الصلاة . ولم يتم إنشاء الهياكل ذات الانحناء الشديد إلا بعد حريق عام ١٤٠٠ وقام ببنائها المهندس الإنجليزى أبيرى عام ١٨٩٣ ، حيث أخذ من وصف ابن جبير ما يفيد أن السطح الخارجى كان مغلفا بطبقة رقيقة من الرصاص . أما الأجزاء الداخلية للأسقف فكانت مزدانة بقشرة من الذهب والفصوص اللازوردية . كان المسجد مزوداً بستمائة مصباح مثبتة بسلاسل ذهبية حيث ينبعث منها ضوء يخطف الأبصار ، إذ كانت أضواؤها تصل إلى جبل لبنان وشاطئ البحر ، كما عبر بذلك أحد الشعراء . وقد حدد الدمشقى أنه فى عام ١٣٠٠

كانت أضواء الجامع الأموى تصل إلى مسجد الربوة الذى يبعد سبعة كيلو مترات إلى الغرب من دمشق . كما أن إضاءة الجامع الأموى كانت تحتاج سنويا إلى ألف قنطار دمشقى من زيت الزيتون النابلسى ، وأنه فى منتصف شهر شعبان ، كانت تضاء اثنى عشر ألف مصباح تستهلك خمسين ألف قنطار دمشقى من زيت الزيتون .

وفى محور الصحن المتعامد يدل المحراب الرئيسى على القبلة ، والذى كان من أكثر الأماكن فى المبنى زينة وبهاء . وعبر ابن الفقيه عن ذلك قائلاً : " كان مغطى بالجواهر الرائعة والأحجار الكريمة " . وأضاف المقدسى عليه قائلاً : "مزدانا بقطع كبيرة من العقيق الأحمر والفيروز الأزرق التى لم نشاهد فى حياتنا قطعا فى مثل حجمها .

وذكر ابن جبير أنه كان إحدى عجائب الإسلام بجماله وندرة زخرفته . ويعد محرابه من أعجب المحاريب الإسلامية حسنا وغرابة فى صنعته ، فهو يتقد ذهبًا كله وقامت فى وسطه محاريب صغار . يوجد فى الجزء الشرقى من القبلة المحراب الذى كان يطلق عليه محراب الصحابة تخليداً لذكرى مسجد الصحابة الذى شيد أثناء فتح دمشق . وكان هذا المحراب طوال فترة الدولة الأموية مخصصًا فقط لأعضاء الحكومة . وفيما بعد ، وفى القرن الرابع عشر ذكر ابن بطوطة أنه كان محجوزًا لأفراد مدرسة الشريعة المالكية . وعلى يسار المحراب الرئيسى يوجد محراب ثالث لأفراد المدرسة الحنفية التى شيدها الإمام أبو حنيفة فى القرن الثامن . أما المحراب الرابع ، فيوجد فى الطرف الغربى وقد بنى حديثًا . عدد شمسيات الجامع الزجاجية المذهبة الملونة أربعة وسبعون ، وهى عبارة عن النوافذ فى أعلى الجدران لإضاءة ساحة المسجد والقبلة تسمى "القمرية" أو "الشمسية" . وكانت تغلق لاستخدامها كستائر . وقد شاهدها الشاعر الفرنسى لامارتين عند زيارته لدمشق فى بداية القرن التاسع عشر . وكانت تلك الطريقة شائعة فى العصر البيزنطى وكذلك استخدام الفسيفساء الذى انتشر هذه الأيام فى مساجد الهند وباكستان وأغلب دور العبادة الإسلامية وكذلك فى المدينة والكوفة والبصرة والفسطاط والقيروان وسامراء .

وقد ترجم ذلك فكرة توحيد المكان الدينى : فناء واسع ، جزء منه مغطى وهو الصحن المخصص لأداء الصلاة وأحيانًا يطلق عليه اسم "الظلة" أى الجزء "المحمى من الشمس " .

أما الصحن فهو مغطى بالكامل بالرخام الأبيض فى عصر المقدسى وهو عبارة عن مستطيل كبير طوله ٢٢٢ مترًا × ٥٠ مترًا ومحاط من جوانبه الثلاثة بأروقة تعلوها سلسلة عقود صغيرة ومغطاة بسقف مستو يميل بشكل مخفف نحو الداخل . وتوجد فى الجهة الشمالية دعامات مبنية . أما فى الشرق وفى الغرب ، فإن التنسيق الثلاثى للأروقة تم بشكل تبادلى بين دعامة وعمودين وهكذا . ويبدو أن هذا التنسيق فى المبانى قد حدث فى عصور سابقة . بنى الجزء الشرقى من الجدار عام ١٠٨٩ والجزء الغربى عام ١١٠٩ وقد وجدت نقوش على لوحة جبسية توضح الترميمات والإصلاحات فى بناء الرواق عام ١٤١٦ على يد المهندس المعمارى القادم من الإسكندرية.

وقد أكد (الماوى) وهو أحد البنائين فى عصر الوليد قائلا: سنضع دعامة بين كل عمودين . كما وصف كثير من المؤرخين أمثال ابن جبير وابن بطوطة وأبو الباقة المبنى بدقة كبيرة قائلين إنه كانت توجد أربع عشرة دعامة لرواق الصحن مما يشكل وحدة وتناسقا ثلاثيا . كما أن هذا التناسق كان موجودا فى الصحن المخصص لأداء الصلاة ، وقد ذكر ابن جبير بدقة كبيرة أن "المسجد يقام على ٦٨ دعامة منها ٥٤ عامودا ، وثمانى دعامات مغطاة بالجبسوواثنتان مغلفتان بالرخام وملتصقتان بجدار الصحن ، وأربع دعامات أخرى يغطيها الرخام بشكل رائع وتوجد فى وسط الصحن الرئيسى وتستخدم كسند للقبة الرصاص والتى تغطى المحراب . وفى منتصف القرن التاسع عشر، حدد أحد رجال البعثة التبشيرية الأمريكية ويدعى بورتر أن الحائط الشمالى للصحن المخصص لإقامة الصلاة كان محمولاً على أعمدة ولكن كان "أغلبها يحتوى على دعامات " . ويمكن الوصول للصحن عن طريق ثلاثة أبواب : فى الغرب باب البريد ، وهو الباب الرومانى القديم للسور وتمت المحافظة عليه دون تعديل بكواته الثلاث . وفى الجهة المقابلة ، باب جيرون وهو أيضًا باب رومانى ظل سليما ، وكان مقرا لعلماء الفلك

ومساعديهم . أما الباب الثالث فيسمى باب الفراديس أو باب تجار النوجة والحلويات وله كوة واحدة ومخصص للدخول من الجهة الشمالية . كما يوجد بابان فى حائط القبلة يؤديان مباشرة إلى الدخول لصحن المسجد لأداء الصلاة . وفى الطرف الغربى يوجد "باب الزيادة" يسبقه باب يشبه الأبواب الثلاثة الأخرى للخروج منه للتوجه إلى قصر الخضراء ودار الخيل . وفى الطرف الشرقى يوجد باب الساعات . وقد ذكر المقدسى أن هذا الباب له مصراعين وبدون زخرفة ويوجد قبله رواق يستخدم "كمقر لكتاب العدل" . وفى القرن الثانى عشر ، نسبت تسمية هذا الباب باسم باب الساعات إلى باب جيرون ، لأن أحد علماء ميكانيكا الساعات تمكن من معرفة جميع ساعات النهار وخاصة مواقيت الصلاة وثبتها . " فكانت تشتمل على صور صغيرة لطيور كما ذكر ابن عساكر ، وثعبان وغراب ينعق وحصوة تسقط فى حوض صغير " . وفى القرن العاشر كان فى كل باب مكان للوضوء " مبلط بالرخام وإنشاءات يتدفق منها الماء وينساب فى أحواض كبيرة من الرخام " .

يضم المسجد حاليا ثلاث مآذن ، ففى الشمال توجد منارة (مئذنة) العروس ، وفى الشرق منارة عيسى ذات الطابع العثمانى ، وفى الغرب المنارة الغربية – ذات الطابع المملوكى – والتى أنشئت عام ١٤٨٨ . وحالتها الحالية تختلف عن الحالة التى كانت عليها عند إنشائها . وفى عصر الوليد ذكر بعض المؤلفين الذين شاهدوا تلك المنارات أنها كانت تشبه الأبراج القديمة ذات الزوايا كما كانت فى المعبد الرومانى القديم . وعندما أنشأ الوليد المسجد ، ترك تلك الأبراج على حالتها القديمة ، وأكد ذلك المسعودى عندما ذكر فى عام ٩٤٣ أن "أبراج الكنيسة القديمة تمت المحافظة عليها سليمة واستخدمت كمآذن يؤذن من فوقها المؤذنون للنداء على الصلاة " . وفى عام ٩٨٥ ، ذكر المقدسى أنه أنشئت حديثا مئذنة (منارة) عند المدخل الشمالى ومغطاة بالفسيفساء . أما البرجان الشماليان فكانت حالتهما سيئة فى بداية القرن الثامن ثم انهارا بعد ذلك. بقى البرجان الجنوبيان فترة طويلة محرومين من التجديد والترميم واستخدما كملاذ للنساك المغاربة حتى عام ١١٨٤ . حيث ذكر ابن جبير أنه حتى ذلك

التاريخ كانت توجد ثلاث منارات : الغربية والتى كانت البرج الرومانى حيث استخدم أبو حامد الغزالى الغرفة العليا للاعتزال والتعبد ويسكنها حاليا أحد النساك الزاهدين والمنارة الشرقية تشبة تماما المنارة الغربية ، كما توجد منارة جهة الشمال فوق باب تجار النوجة .

وقد هدم البرج الشرقى على أثر زلزال أرضى عام ١٢٠٢ واحترق عام ١٢٧٤ وأعيد بناؤه واحترق مرة أخرى عام ١٣٣٩ - ١٣٤٠ وتم إصلاحه .

وقد ورد فى الأثر الإسلامى أنه قبل يوم القيامة سينزل عيسى إلى الأرض من فوق المنارة الشرقية ليحارب المسيح الدجال ويقتله .

أما البرج الغربى فهو الوحيد الذى ظل سليما وتم إصلاحه وترميمه عام ١١٨٤ وحتى نهاية القرن الرابع عشر ، حيث دمر عام ١٤٠١ عقب حريق شب بعد احتلال قوات تيمور لنك لدمشق ثم أعيد بناؤه عام ١٤٨٨ بأمر من السلطان المملوكى قايتباى . تلك هى المنارة الغربية التى لازلنا نشاهدها هذه الأيام.

بنيت عدة بنايات صغيرة بالتتابع داخل الصحن ، ويرجع تاريخ تلك البنايات إلى عصر الوليد وهو بيت المال ، الذى يطلق عليه أحيانا اسم قبة الخزنة ، وهو مخصص حسب التقاليد السورية إلى حماية مال الشعب . وقد ذكر المقدسى أن هذا النظام كان معمولاً به فى جميع المدن السورية الكبرى . بنى بيت المال وفق تقنيات فنية بيزنطية جيدة وهو مكون من غرفة ثمانية الأضلاع قائمة على ثمانية أعمدة ضخمة ومغطاة بقبة ولا يوجد بها سوى فتحة صغيرة فى الجانب الشمالى الشرقى أما الغرفة التى جدرانها الخارجية مغطاة بالكامل بالفسيفساء فلا يمكن الدخول إليها إلا باستخدام سلم . يوجد فى الجزء الشرقى من الصحن مبنى آخر صغير يحمل اسم "قبة عائشة " .

أما الحوض المخصص للوضوء والموجود حاليًا فى هذا المكان فهو حديث . وبخلاف اتساعه والأفكار المبتكرة فى إنشائه ، أخذ مسجد الوليد اسما جديداً "جامع

الأمويين " حيث اشتهر بروعة وجمال الزخرفة وكما قال ابن عساكر أن ما لا يقل عن ١٢ ألف رجل كانوا يقطعون الرخام فى كل يوم . وذكر ابن جبير أنه "كان إحدى عجائب الإسلام بجماله وندرة زخرفته " . وقالوا : "عجائب الدنيا أربع : قنطرة سنجة ومنارة الإسكندرية وكنيسة الرها ومسجد دمشق " .

وقال ابن حوقل : "لقد تجاوز بجماله المعمارى وبنائه جميع المساجد الأخرى فى العالم الإسلامى " . أما الشاعر الفرزدق فقد وصفه بأنه قصر من قصور الجنة . وقال الإدريسى : " يوجد فى دمشق المسجد الأكثر اتساعًا والأكثر جمالاً والأكثر متانة فى البناء وأروع تصميم ظهر على وجه الأرض وازداد جمالاً بتنفيذ الزخرفة فيه " . وعبر ابن عساكر عن رأيه حين قال إن زائراً من منتصف القرن الحادى عشر أخذ يتأمله فوجد فيه " منظراً تجاوز كل الأوصاف والتخيلات غير المألوفة " وأنه " جوهرة القرن وتحفة العصر والزمان " وقال ابن بطوطة أنه لم ير مثيلاً له فى كل البلاد التى زارها .

كانت جميع تيجان الأعمدة مغطاة بطبقة كثيفة من الذهب ، وأن القبة من الداخل "بأكملها منقوشة بحروف من الذهب رسمت بفن ووضوح رائعين " . وحسب التقاليد الرومانية – البيزنطية ، فإن الجزء الأسفل من جميع الجدران كان يتم زخرفته بأحجار ملونة ، حتى إن المقدسى اعتبر ذلك أجمل شىء فى المسجد إذ يأخذ كل حجر مكانه بجانب الحجر الآخر مما يعطى رونقًا وصورة جميلة ومتجددة على مدار العام . ومع ذلك فعندما ظهرت الفسيفساء واستخدمت على نطاق واسع وغطت اللوحات الجدارية جميع الحوائط الداخلية والخارجية للمبنى ، مما جعل مسجد الوليد يعطى انطباعًا عالميا بالإعجاب ، مما جعل ابن عساكر يعتبر مسجد الوليد الخامس ضمن عجائب الدنيا . كما رسمت الكعبة فوق المحراب حيث المركز الرئيسى للمبنى لكى تتطابق وسُرة الكون ، كما كانت جميع الدول المعروفة ممثلة كأشجار مميزة بثمارها أو أزهارها .

وكان هدف الوليد من وراء ذلك إعطاء صورة لهذه الإمبراطورية الشاسعة التى يسيطر عليها والتى تمتد من المحيط الأطلنطى حتى بلاد الهند والسند ، وقد جمعها فى دار الإسلام ومرتبة حول مركزها الغامض : الكعبة الموجودة فى مكة . وقد دمر الجزء الأعظم من هذه الزخرفة أثناء الحرائق التى شبت أعوام ١٠٦٩ ، ١٤٠١ ، ١٨٩٣ ، ولم يتبق فى مطلع القرن العشرين سوى بعض قطع متناثرة على واجهة الصحن الرئيسى وعلى الواجهة الخارجية لأروقة الصحن وعلى السطح السفلى لبعض الأقواس. كما توجد بقايا متناثرة ومتيبسة من الفسيفساء .

ومنذ عام ١٩٢٤ جرت عمليات سبر وجس تحت طبقات الجص الذى يغطى جدار الرواق الغربى للصحن ، فاكتشفت بقايا مهمة من لوحة كبيرة مستطيلة الشكل بطول ٣٤متراً وعرض سبعة أمتار .

وبين إفريزين مزدانين بورود لهذه اللوحة الضخمة وجدت عمليات مختلفة لإفراط معمارى : بيوت صغيرة من عدة طوابق ، أجنحة دائرية الشكل ومزودة بأعمدة ، مبان صغيرة بواجهات مقوسة ومنتشرة فى وسط طبيعة خلابة وأشجار باسقة على ضفاف نهر ينساب : بناية نصف دائرية مدعمة ببرجين مربعين يعلوها سقف مستو محمول على ستة أعمدة مضلعة الشكل ومزدانة بحواجز من الرخام الأبيض وقد يكون إحياء لذكرى أحد مضامير السباق بدمشق . وخلف تلك البناية مباشرة يوجد منزل به شرفه ووراءه رواق به ثلاثة أعمدة وحوله خضرة كثيفة . وهناك جبل يعلو هذا المنزل . كما تبرز مجموعة من النباتات وبرجان مرتفعان أحدهما مغطى بقبة على هيئة بصيلة مدهونة بالقطران . وإلى اليمين مباشرة من هذه اللوحة وعلى ضفاف النهر نفسه ، توجد مجموعة من المنازل المتداخلة على حافة تل . كما يوجد على شاطئ النهر جناحان جميلان كل منهما سداسى الشكل ومزودان بأعمدة كورنثية وأسقف مائلة مزدانة بزخارف نباتية . تصل بين هذين الجناحين شرفة مزدانة بدرابزين ، كما يتصلان بمبنى فاخر مكون من طابقين لإعطاء صورة عن قبة كنيسة يوحنا المعمدان بمدينة سالونيك الإغريقية كما توجد مجموعة من المنازل أكثرها ارتفاعاً قد يعلوها صليب .

رسمت هذه اللوحة لتخليد ذكرى أحد أحياء دمشق القديمة حيث يجتاز أحد الجسور رافدا من روافد نهر بردى .

وبالإضافة إلى المهارة الفائقة التى تميزت بها تلك اللوحة حيث نفذت بصورة أكثر تلقائية وعفوية من تلك التى رسمت فى قبة الصخرة ، فإن الشعور العميق بالطبيعة نابع من التقليد اليونانى وأحياه بدون شك منظر حدائق وبساتين الغوطة وقراها . وقد أضفت الفسيفساء بألوانها وصبغاتها الحية طابعًا شعريا وفنا رقيقًا فى توزيع الألوان بدرجاته المتعددة .

وقد قام فنانون بيزنطيون بتنفيذ لصق وتوزيع الفسيفساء ، ورسم الصور الخاصة به وذلك بناء على أمر من الخليفة وأغلبها مأخوذ من التقاليد القديمة أو من الغساسنة . وكان الفنانون المختصون بالفسيفساء ينهلون من الرسم المسيحى فى القسطنطينية ، إلا أن هذا الفن اختفى الآن وحل محله الفن المستخدم فى مدن الإمبراطورية الإسلامية ، حيث ساد الفن القائم على الطبيعة وما بها من أشجار مورقة ومثمرة . وصارت كالزمرد المزروع فى أرض مغطاة بالذهب الصافى . وتقع عينيك على أشجار مثمرة يخيل إليك أن ثمارها قد نضجت وحان قطفها .

كما كان هناك الرسم البارز . وفى القرن الثالث عشر تمت عدة إصلاحات وترميمات فى عهد السلطان المملوكى بيبرس خاصة فى الجزء الأيمن من اللوحة .

تطور فن الزخرفة الإسلامى وأصبح على هيئة تشبيك زهرى . ومنذ بداية الإسلام سواء فى المدن التى دخلها الإسلام أو المدن التى أنشئت حديثًا كالكوفة والبصرة والوسيط والفسطاط أصبح المسجد بمعناه الحرفى المكان الذى يسجد فيه المسلمون .

فالمسجد فى الأصل عبارة عن مبنى يرتبط بالطراز الأساسى نفسه . صحن كبير يُغطى جزء منه للحماية من أشعة الشمس ويسمى (الظلة) ويستخدمه المسلمون لأداء الصلاة ويكون مفتوحًا للتهوية . يقام الصحن إما على دعامات أو أعمدة . ولم تستمر طويلاً المساجد البدائية ولا نعرف عنها شيئًا إلا من خلال النصوص التى كتبت .

وفى القرن الثانى عشر زار ابن جبير مسجد الكوفة وأعطى وصفًا مختصراً عنه : "يحار المرء ولا يستطيع أن يركز بصره على ارتفاع الأعمدة . ولا أعرف أبدًا فى الكرة الأرضية مسجداً أعمدته بهذا الارتفاع الشاهق أو سقفًا بهذا العلو " .

وبالإضافة إلى أن المساجد مخصصة للعبادة والصلاة ، إلا أنها كانت أيضًا من الأماكن التى تناقش فيها الشئون السياسية والعسكرية حيث تمت فيها احتفالات تنصيب الخليفة والحكام ويُقسم فيها يمين الولاء . كما كانت تعقد فيه الندوات واللقاءات .

وذكر أبو البقا أن "الصحن كان مكانًا يجتمع فيه سكان المدينة كل مساء وأيضًا للتنزه. وقد شوهد الناس يأتون ويخرجون من باب جيرون إلى باب البريد ، ولا يتركون هذا المكان قبل منتصف الليل " .

وهذا النموذج المثالى للمسجد والذى يرجع أصله إلى منزل الرسول (صلى الله عليه وسلم) فى المدينة ، إنما ينسب بصفة عامة إلى القاعات الكبرى الأثرية للمعابد فى مصر القديمة أو بلاد فارس ، وسوف يتطور هذا النموذج نحو الإثراء والاختلاف الواضح للأماكن .

فقد ذكر ابن الفقيه أنه ظهرت المقصورة داخل المسجد وأن معاوية نسب إليه أنه حوَّل السلطة الروحية إلى ملك أى نوع من الملكية المؤقتة حيث إنه أول من وافق على هذا النظام داخل مسجد الصحابة وفى الوقت نفسه أدخل الشرطة والحرس والأغوات لدواعى الأمن . وقد أكد ابن خلدون هذا التجديد الذى يميز الخلفاء عن عامة الشعب من المصلين " ولم يكن ابن خلدون على وفاق مع معاوية فى هذا الصدد واعتبره أول من أدخل كرسى العرش داخل المسجد وذلك لبدانته أو كنوع من التفاخر وقد مات ثلاثة من الخلفاء الراشدين الأربعة مقتولين . وقد نجا معاوية فترة قصيرة من محاولة اغتياله . وبخلاف المقصورة ذكر ابن جبير أنه كان يوجد باب حديدى بجوار محراب الصحابة " يتمكن من خلاله معاوية من المرور للوصول إلى المقصورة . وقد حدد أبو البقا ثلاثة

داخل صحن الصلاة : واحدا لمعاوية وهو الأول والثانى جهة الغرب وقد بناه الوليد والثالث فى المكان الذى كان الحنفيون يجتمعون فيه للتدريب .

يعتبر مسجد الوليد أقدم مسجد تمت المحافظة عليه باستثناء المسجد الأقصى بالقدس ذلك أنه أول مسجد بنى فى سوريا ، فبالإضافة إلى اتخاذه مكانًا للعبادة أدخل تطويراً مهما فى طبيعة السلطة الإسلامية ، فالمحور الطولى للصحن المخصص للصلاة جعل المصلين يقفون فى صفوف متوازية أمام القبلة الموجهة نحو مكة . غير أن الملاحظ أن المهندس المعمارى الذى بنى المسجد جاء أصلاً من العاصمة البيزنطية . فالمبنى به أكثر من سمة توضح التأثر بالعمارة المسيحية : الصحون الثلاثة المتوازية وصف الأعمدة الخارجية والمكان المخصص للمصلين والذى ينتهى بباب خارجى بثلاث فتحات كما فى الكنائس ، والواجهة والقبة . ولكن كل هذه العوامل تم تحديدها حسب تركيب جديد ومواصفات خاصة غيرت من المعنى الأصلى لما كان فى الكنائس ، فمن ناحية : الفراغات الكبيرة الثلاثة المغطاة أصبحت على ارتفاع موحد واتساع متساو وفى هذه الحالة لم تعد تشبه المدخل والقاعة الكبيرة الموجودة فى الكنائس وكذلك جوانبها المنخفضة ، كما أن الصحن المركزى ليس جناحًا على هيئة صليب كما فى الكنائس لأن المحراب الذى يمتد ليس صدر كنيسة هزيل وكذلك المئذنة ليست برجًا يوضع فيه جرس، وبرغم وجود الصحن المركزى الذى يتجه نحو المجموع الرمزى والزخرفى للمسجد ، فإن المحراب والمنبر والمقصورة والقبة لا تحدث أى عائق وتتم الصلاة فى صفوف متوازية متجهة نحو القبلة .

ومع ذلك فإن أغلب الزوار ورجال الآثار الأوروبيين قد خدعوا بالتشابه الشكلى وبالتفسير الخاطئ لمقولة ابن عساكر الذى كان يدعى فيها حتى بداية القرن العشرين أن مسجد الوليد لم يكن سوى كنيسة يوحنا المعمدان . وقد ذكر ابن عساكر أنه فى القرن الثامن كان المتبع عند حدوث الغزو أن تقتسم الكنيسة بين المسلمين والمسيحيين . واستنتج من ذكر أن الوليد ربما يكون قد استولى على النصف الثانى من المبنى المنسوب إلى تيودوز . كان التقسيم سليمًا تمامًا بشرط أن يشمل السور الداخلى

للمعبد وليس الكنيسة نفسها . وكان ابن عساكر منطقيا تماماً عندما أضاف أن الوليد " أمر بهدم الكنيسة واستخدام موادها للمسجد " .

وفى القرن الثامن عشر زار الرحالة البريطانى ريتشارد بوكوك ولم يفعل سوى ملاحظة الأماكن وكان أول شخص يثير الشكوك .

وكان لابد من الانتظار حتى عام ١٨٧٢ لنفى تلك الشكوك نفياً تاما ، كتب أوجين ميلشيو يقول : إنها لم تكن سوى كنيسة صغيرة قديمة ولا تقارن بأى حال من الأحوال بطراز المساجد الموجودة فى القاهرة .

ثم جاءت اللحظة الحاسمة فى تطور الطراز المعمارى عندما أكد المستشرق الفرنسى جان سوفاجيه أن "مسجد الوليد يعتبر تحفه معمارية فى جميع الأزمنة والعصور ، وليس له مثيل فى أى بلد من بلدان العالم " .

عندما أراد عبدالرحمن الأول (٧٣١ – ٧٨٨) بناء مسجد فى قرطبة عام ٧٨٦ سعى إلى أن يكون شبيها لمسجد دمشق . وفى سوريا أيضاً عندما أسس سليمان بن عبدالملك – شقيق الوليد وخليفته فى الحكم – مسجد حلب كان نسخة من مسجد دمشق فى زخارفه والرخام والفسيفساء وكذلك فإن مسجد قصر الحى الشرقى وهو أحد القصور الأموية فى صحراء الشام والذى كان مخصصا للحنابلة فى الصالحية إحدى ضواحى دمشق ، اقتبست خطوطه الرئيسية من مسجد دمشق .

وبسبب سعته وضخامته وقدم بعض أجزائه الأصلية التى ضاعت عبر التاريخ وانمحت من ذاكرة المعاصرين ، فإن مسجد الوليد احتل مكانة خاصة فى خيال المسلمين وفى قدرة الإسلام المبدعة . ويقال إن أول من وضع جداره القبلى هود عليه السلام من قوم عاد . وفى أثر أنه يعبد الله تعالى فيه بعد خراب الدنيا أربعين سنة .

وأحياناً أخرى ينسب هذا الجدار إلى الصابئة حيث يقال إن قبة النسر تنسب أيضاً إليهم . كما أن باب جيرون الذى يعرفه المسلمون بالباب الشرقى غير معروف

مصدره . وذكر المسعودى أن شخصًا مجهولاً يدعى جيرون بن سعد بن عاد جاء إلى الشام وأسس عاصمتها دمشق بعد أن جمع عددا من الأعمدة الرخامية وشيد قصره " إرم ذات العماد " المذكورة فى القرآن الكريم . وقد وصف الشاعر كعب الأحبار المبنى قائلاً : " بناية رائعة مغطاة بالذهب والفضة ومملوءة بالمسك والطيب " .

وفى القرن التاسع كتب ابن خردازبة أن " دمشق التى كانت تسمى ذات العماد ، كانت توجد قبل نوح عليه السلام " . وقد أضاف ابن الفقيه معلومة عقدت الأمور وزادت من الغموض وذلك عند ربط وفرة الأعمدة الموجودة فى دمشق بأسطورة سيدنا سليمان قائلاً : " عند باب دمشق يرتفع الجيرون وهو أحد الإنشاءات التى شيدها سليمان بن داود وهو عبارة عن مغارة ممتدة تستقر على أعمدة تمتد حولها المدينة " . وهكذا يمكن القول أن جيرون هو الاسم الذى أعطى لمعبد أثرى بأعمدته وأبوابه وهو ما أكده الدمشقى بأن دمشق كان يطلق عليها سابقًا " ذات العماد " . ويقال إن مسجد دمشق كان فى الأصل معبد جوبيتر الذى بناه جيرون بن سعد بن عاد .

ذكر المسعودى أنه أثناء عملية بناء المسجد تم العثور على شاهد قبر وعليه كتابة باليونانية لم يتمكن اليهود أو النصارى من فك رموزها .

وفى النهاية أمكن معرفتها : كتابة من عصر سليمان أوضحت مدى ربط المعبد القديم بالملكة اليهودية التى أضفى عليها القرآن الكريم عظمة وإجلالا وإعادة الصلة المقطوعة بالماضى وإظهار أن الإسلام ينسب إليه فضل معرفة تاريخ البشرية .

روى الحافظ بن عساكر عن زيد بن واقد قال : " رأيت رأس يحيى بن زكريا حين أرادوا بناء مسجد دمشق أُخرج من تحت ركن من أركان القبلة الذى يلى المحراب مما يلى الشرق فكانت البشرة والشعر على حاله لم يتغير كأنما قتل الساعة " . وذكر فى بناء مسجد دمشق أنه جعل تحت العمود المعروف بعمود السكساكة . وفى القرن الثانى عشر ذكر ابن جبير أنه فى شمال باب جيرون " ارتفع بناء كبير كان به رأس الحسين

قبل أن ينقل إلى القاهرة " واليوم عبارة عن مشهد يمكن الوصول إليه عبر باب موجود تحت الباب الشرقى لصحن المسجد وبه متعلقات شهيد كربلاء .

كان مسجد الوليد أيضًا بمثابة مركز للحياة السياسية ومكان للعبادة والتنزه وأيضًا لتلقى العلم وكتب ابن جبير : " كان يضم عددا من "الزوايا" يتردد عليها المثقفون لنسخ الكتب لإلقاء الدرس أو للابتعاد عن الجمهور .

وبصفة عامة ظل المسجد المكان الوحيد للتعليم حتى القرن الثانى عشر حيث نشأت المدرسة .

عندما توفى الوليد كان شقيقه سليمان فى فلسطين حيث كان حاكما فى مدينة الرملة التى أسسها واتخذها عاصمة . وأنزل نقمته على كل من وافق الوليد على عزله فعزل محمد بن القاسم ثم قتله . أما قتيبة فقد أعلن العصيان لكنه قتل أيضًا . كما انتقم أيضًا من موسى بن نصير . لم يقم سليمان بفتوحات واسعة عدا فتح جرجان وطبرستان على يد يزيد بن المهلب . وأهم أعماله غزو القسطنطينية حيث حاصرت جيوشه عمورية ثم القسطنطينية عاما كاملاً بقيادة مسلمة بن عبدا الملك . ويرجع سبب فشل الحملة لأسباب عدة منها شدة الشتاء وعدم إمداد سليمان لها ومناعة أسوار القسطنطينية . فى الوقت نفسه زادت حدة الانقسام فى الدولة الأموية باختفاء الحجاج الرجل المخلص ذو القبضة الحديدية ، وزادت المؤامرات ولم تتوقف فى شتى أنحاء إيران وناصبوا السوريين العداء والكراهية وبدأت حركة ضخمة تبرز فى الشرق لصالح العباسيين وتضع حدا فى أقل من نصف قرن للدولة الأموية . وفى عهد سليمان ، زاد نفوذ رجال الدين وتدخلوا فى الشئون السياسية مما سهل مجىء عمر بن عبدالعزيز ابن عمه . وذكر المسعودى أن سليمان كان " ميالا لحب الشهوات بصورة تخطت كل الحدود " . وأكد الطبرى "عشقه للنساء وحبه للملذات والولائم " . توفى سليمان فى أكتوبر عام ٧١٧ فى دابق بشمال سوريا .

تولى عمر بن عبد العزيز الخلافة على الرغم من معارضة يزيد وهشام أبناء عبدالملك . كان عمر قبل توليته الخلافة واليا على المدينة ، ويتصل نسبه من جهة أمه

بعمر بن الخطاب وشابهه في زهده وعدله . ما كاد عمر يتولى الخلافة حتى أمر بعودة الجيوش الإسلامية المحاصرة للقسطنطينية .

كوّن عمر مجلسا استشاريا وعمل على إزالة المظالم ونال عطف الشيعة لأنه منع السب على المنابر وبالذات اسم على . وفي عهده بدأت الدعوة العباسية ، واستمال النصارى لأنه عوضهم عن كنيسة القديس يوحنا المعمدان التى أدخلها الوليد فى الجامع الأموى وخفف الجزية المفروضة على قبرص وأيلة وساوى بين الموالي والمسلمين فى الحقوق ، كما ألغى ضريبة الرءوس التى فرضها الحجاج على من أسلم من أهل الذمة لمعارضتها للدين . مات عمر فى فبراير عام ٧٢٠ وعمره ٣٩ سنة ويقال إن الأمويين سموه لشدته عليهم .

تولى يزيد الثانى الحكم وكان أيضا ميالا إلى الصحراء والصيد وأقام فى البلقاء شرق الأردن . وذكر المسعودى أنه أدمن شرب الخمر واتجه إلى حياة المجون والفسق . قضى يزيد على جميع الإصلاحات التى أقامها عمر وضيق على النصارى وترك شئون الدولة . وفي عهده ثار يزيد بن المهلب الذى فر إلى البصرة حيث حرض قبيلة الأزد اليمنية على مناصرته ضد الخليفة وانضمت إليه فارس وكرمان واستولى على البصرة والأهواز فأرسل الخليفة أخاه مسلما فهزمه ثم قتله وفر آل المهلب إلى كرمان فتعقبهم الأمويون وقتلوهم . ولكن هذه المعارك أدت إلى عداء اليمنيين للدولة الأموية مما أضعفها . مات يزيد الثانى فى ٢٦ يناير عام ٧٢٤ وعمره أربعون عاما .

هشام بن عبدالملك : كانت الدولة العربية قبيل توليه الخلافة فى حالة ضعف ، إذ كان الترك يهاجمون خراسان وهاجم الخزر أذربيجان وأرمينيا وهجم الروم على الثغور الإسلامية إلى جانب النزاع الشديد بين المضريين واليمنيين . واستطاع هشام أن ينقذ الدولة من هذه الأخطاء فسمى المؤسس الثالث للدولة . وذكر المسعودى أن طباعه كانت عنيفة وفظة وجافة ، وكان شرها لجمع المال . شجع صناعة الملابس والسجاد والأسلحة وعمل على تقوية الحدود وحفر عدة قنوات وآبار على طريق الحج . وفى دمشق وجه

عناية إلى أعمال الرى وأقام فى الرصافة على الشاطئ الأيمن لنهر الفرات واتخذها عاصمة له .

ثارت الخوارج الصفرية فى شمال أفريقية وانضم إليهم البربر وهاجموا القيروان فهاجمهم ابن حبيب بجيش صغير من أشراف العرب فأبادوه وتمردت قبائل إفريقية والأندلس فولى هشام كلثوم بن عياض ، لكنه فشل فى إخضاع الثورة فولى هشام حنظلة بن صفوان فدخل القيروان وهزم الخوارج والبربر .

وفى الأندلس اختار الجند عبد الرحمن الغافقى أميرا فظل واليا حتى ولى هشام عنبسة بن شحيم الكلبى ، فاجتاز جبال البرانس واحتل كركسون لكنه قتل . وبمقتله بدأ الاضطراب فى الأندلس وقوى الثوار الإسبان فى الجبال ، وزاد الحال سوءاً العصبية القبلية بين العرب ووحشية البربر فى معاملة السكان الأصليين والفوضى الناتجة عن عزل الولاة . وظلت الحالة على هذا المنوال حتى ولى الأندلس عبد الرحمن الغافقى فأعاد الأمن والهدوء وأراد الثأر لهزيمة تولوز ، فعبر البرانس واحتل إرن على نهر الرون ثم بوردو وهزم دون أكتين وفتح نصف جنوب فرنسا واستنجد الدوق بشارل مارتل الذى حشد جيشا ضخما هزم به عبدالرحمن بين تولوز وبواتييه . وكانت تلك المعركة فاصلة فى التاريخ الإسلامى إذ نتج عنها وقف التوسع العربى فى أوروبا وبقاء المسيحية .

وفى الكوفة قامت الثورة الشيعية الأولى عام ٧٤٠ بقيادة زيد بن على بن الحسين. يطالب بالخلافة فأسرع العراقيون إلى بيعته إلا أنهم خذلوه فى قتاله مع الأمويين فقتل وفر ابنه يحيى إلى خراسان حيث بذر بذور الثورة .

وفى دمشق وفى العام نفسه ثار العراقيون وأشعلوا حرائق فى عدة أحياء من المدينة.

توفى هشام بن عبدالملك فى الرصافة فى فبراير عام ٧٤٣ ، وكان قد تنازل عن الحكم إلى الوليد بن يزيد بن عبدالملك . كان هشام يكره الوليد الثانى لفسقه وفجوره .

وقد فكر هشام فى خلعه لكن المنية عاجلته وآلت الخلافة إليه لكنه انغمس فى الملذات واللهو وطرد أسرة هشام من دمشق مما أوغر صدور الأمويين عليه .

أغضب الوليد بسوء تصرفاته جميع رعاياه وخاصة الأمويين اليمنيين فاتصل زعماء اليمنيين بيزيد بن الوليد بن عبدالملك وكان تقيا وبايعوه بالخلافة وانتهى القتال بين الخليفتين بمصرع الوليد فى ٢٧ أبريل ٧٤٤ ، وكان مصرعه إيذانا بسقوط الدولة الأموية إذ انتشرت دعوة الخوارج كما فقد الأمويون هيبتهم لانقسامهم .

لم يبق يزيد بن الوليد بن عبدالملك أكثر من ستة أشهر فى الحكم حيث مات مسموما على يد أخيه إبراهيم ، وبدأت حرب أهلية حقيقية فى سوريا حيث لم يتجاوز سلطانه دمشق وضواحيها ، ولم يدم حكمه أكثر من شهرين إذ لم يعترف بخلافته مروان بن محمد والى الجزيرة وأرمينيا ، كما لم يعترف من قبل بخلافة أخيه يزيد الثالث فتقدم بجيش كبير مطالبا فى الظاهر بحق أبناء الوليد فى الخلافة فاحتل قنسرين وحمص وزحف نحو دمشق ، فقابله جيش إبراهيم بقيادة سليمان بن هشام شمالى دمشق فانتصر مروان وتراجع سليمان وقتل ولدى الوليد الثانى ونهب أموال الدولة وهرب فتقدم مروان ، ودخل دمشق وأخذ بيعة أهلها بل بايعه إبراهيم نفسه . كان مروان بن محمد بن مروان أو مروان الثانى واليا على الجزيرة وأرمينيا قبل توليه الخلافة اتخذ مروان حوران عاصمة له ليكون قريبا من أنصاره القيسيين فأغضب بذلك قبيلة كلب فى سوريا .

وفى العراق عمل على سحق ثورة الخوارج . اتحدت بعد ذلك سوريا والعراق ومصر والجزيرة العربية . ولكن فى يونية عام ٧٤٧ انفجرت ثورة فى خراسان بقيادة أبى العباس وشقيقه جعفر زعماء الدعوة العباسية . يرجع نسب أبى العباس إلى العباس عم النبى (عليه الصلاة والسلام) . وقد عرف العباسيون كيف يوجهون السخط لصالحهم .

فى خراسان : شغلت الثورات المستمرة فى الشام والعراق مروان عما يحدث فى خراسان . وقد كتب إليه عامله فيها نصر بن سيار يطلب النجدة للقضاء على الدعوة

العباسية قبل أن تستفحل لكن مروان لم يستطع إنجاده وتمكن أبو مسلم من استمالة اليمنيين ومسلمى فارس وأن يحتل مرو عاصمة خراسان واستطاع قائده قحطبة بن شبيب الطائى أن يفتح فارس ويذم يزيد بن عمر بن هبيرة والى العراق وتمكن دعاة العباسيين من احتلال العراق والبيعة لعبد الله العباسى بالخلافة فى الكوفة وجمع مروان جيشا تقدم به إلى العراق فقابلة العباسيون بقيادة عبدالله بن على فهزموه فى معركة الزاب الأعلى فهرب إلى فلسطين ثم مصر حيث لاحقه صالح بن على وقتله فى قرية «أبو صير» بصعيد مصر فتم القضاء على الدولة الأموية .

وحسب التقاليد التى كانت سائدة فى ذلك العصر أرسلت رأس الخليفة إلى أبى العباس . قام أبو العباس بذبح جميع الأمراء الأمويين بدم بارد ولم ينج من تلك المذبحة سوى عبد الرحمن بن معاوية حفيد هشام الذى هرب إلى الأندلس حيث أسس إمارة قرطبة عام ٧٥٦ وتدفق عليها السوريون .

الفصل الثانى

العباسيون والسلاجقة

أحدثت الثورة العباسية منعطفا حاسما فى تطور العالم الإسلامى . فالدولة الأموية كانت من دول البحر المتوسط التى يغلب عليها الطابع العربى وتأثرت بالنفوذ اليونانى كما كانت قريبة من العالم البيزنطى حيث أبقت على نظامها الإدارى . أما الدولة الجديدة فعلى النقيض من ذلك ، إذ اقتربت من تقاليد الغساسنة وحولت الأهمية الاقتصادية للبحر المتوسط إلى آسيا وعملت على مسح العنصر العربى بالتدريج لصالح الإيرانيين أولا ثم لصالح شعب يعيش فى آسيا الوسطى وهم الأتراك . نقل مركز الجاذبية للإمبراطورية نحو الشرق ، إلى الكوفة أولا ثم بغداد التى تأسست عام ٧٦٢ على يد الخليفة المنصور شقيق العباس ووريثه فى الخلافة . فقد الشام وضعه الرئيسى فى قلب الإمبراطورية لكنه ظل كإقليم يتوسط بين العراق والولايات الغربية وميدان مواجهة مستمرة مع العدو وهو الدولة البيزنطية . وتحولت دمشق إلى مجرد عاصمة إقليمية .

وأثناء حكم الخلفاء العباسيين الأربعة الأول : أبوالعباس (٧٥٠ -٧٥٤) ، والمنصور (٧٥٤-٧٧٥) ، والمهدى (٧٧٥-٧٨٥) ، والهادى (٧٨٥-٧٨٦) ظل الشام مقسما إلى سبع دوائر إدارية ومالية : الجند ، وخمس دوائر من أيام العصر الأموى وهى قيناسرين وحمص ودمشق وفلسطين والأردن ثم أضيفت دائرة سابعة فى الشمال الشرقى هى الجزيرة والموصل . وفى عهد هارون الرشيد (٧٨٦ - ٨٠٩)

أضيفت دائرة ثامنة هى العواصم . ونظرا لأن دمشق كانت تحتل مكانة عظيمة فى العصر الأموى فقد حرصت بغداد على إرسال موظفين لها على أعلى درجة من الكفاءة . وكان الحكام الأوائل والقادة العسكريون من أفراد الأسرة العباسية . وابتداء من عهد هارون الرشيد زادت العناصر غير العربية من الفرس . وفى عهد الخليفة الواثق (٨٤٢-٨٤٧) جاء الأتراك . وقد حضر المنصور مرتين إلى دمشق عندما تولى الحكم . كما قام الخليفة المهدى بجولة تفتيشية إلى الشام وواصل مسيرته إلى المناطق الشمالية وأسس قاعدة عسكرية فى الرقة على نهر الفرات . وفى عهده قام شخص يدعى السفيانى مدعيا أنه أموى بعصيان وتمرد وسانده القيسيون . ولكن الرشيد كان يعتبر الشام مقربا إلى قلبه . أما المأمون فكان أكثر الخلفاء العباسيين تعلقا بدمشق وقال فى إحدى المرات : " إنه لأمر يدعو للدهشة الشديدة أن يتمكن المرء من العيش خارج دمشق ، فكيف يعيش الإنسان سعيدا وهو بعيد عن تلك المناظر الرائعة التى لا يوجد لها مثيل فى أى مكان آخر" . وفى رأيه أن أشجار الغوطة كانت " الأكثر جمالا ووفرة على سطح الأرض " ، وعندما حضر الخليفة المتوكل إلى دمشق عام ٨٥٨ ، أقام بها فترة قصيرة " بسبب الجو الثقيل والرطوبة العالية غير الصحية " واستقر فى المرتفعات فى قصر المأمون .

فى عام ٨٥٤ لقى حاكم دمشق حتفه على أثر انقلاب عنيف ولكن قوات الخليفة وصلت وأعادت الأمور إلى نصابها . وبعد أربع سنوات فكر الخليفة المتوكل (٨٤٧ - ٨٦١) فى نقل عاصمة الخلافة إلى دمشق وأعدت القصور لاستقباله هو وحاشيته والمثقفين والعلماء المرافقين له . لكن إقامته لم تدم أكثر من ثمانية وثلاثين يوما واضطر للعودة إلى العراق لوضع حد للفوضى التى نشأت من حرسه التركى .

أضفى طول عهد خلافة المأمون أهمية كبرى فى تاريخ الإسلام . فكانت بغداد مركزا كبيرا للحياة الثقافية للإمبراطورية فى مجالات الفلسفة والأدب والعلوم . وبلغت الحماسة الفكرية أوجها حتى إن الخليفة ذكر أن أرسطو جاءه فى المنام ويأمره بأن

يترجم مؤلفاته إلى العربية . وقامت حركة قوية نحو الترجمة شجعها الحكام والمثقفون حيث اهتموا بإحياء مؤلفات أفلاطون وأرسطو وغيرهما وأنشئ " بيت الحكمة " فى بغداد لإكمال ترجمة المؤلفات اليونانية من الأصول .

نشأ فى البصرة فى أواخر العصر الأموى تيار فكرى لم يلبث أن صار المدرسة الأكثر أهمية فى الأمور العقائدية ، وهم المعتزلة الذين كانوا شيعة معتدلين فشاركوا الشيعة فى وقوفهم فى وجه الأمويين واعترفوا بشرعية الخلفاء الراشدين الثلاثة وإن كانت المعتزلة قد عملت على إسقاط الدولة الأموية إلا أنهم لم يقدموا على ذلك لإحلال ذرية على محلهم لكن لإحلال العباسيين . أما المسائل التى كانت موضع شك وأحدثت صراعًا عميقًا فى التاريخ الإسلامي عندما أثار المعتزلة مواضيع للمناقشة منها :

رؤية الله يوم القيامة وموضوع خلق القرآن أو عدم خلقه وأنه أخذ من كتاب محفوظ فى سر مغلق منذ الأزل . ولأسباب سياسية ودينية اعتنق بعض خلفاء العصر العباسى الأول مذهبهم كالمأمون والمعتصم والواثق وحاولوا جعله مذهبا رسميا للدولة . ولكن ظهرت حركة معارضة شديدة ضد المعتزلة تزعمها أحمد بن حنبل وهو آخر الأئمة الأربعة مؤسس المدارس السنية القائمة حتى يومنا هذا . فقد رفض بإصرار الخضوع لمذهب مناهض للقرآن والسنة النبوية . وقد وجد مذهب أحمد بن حنبل مؤيدين له فى الشام خاصة فى الأوساط الشعبية حيث عارض القبول المطلق لجميع العلوم النظرية المتضاربة بما فى ذلك علم الكلام ، بل يجب على المؤمن أن يمتثل ويخضع فى خشوع وبساطة إلى المعنى الواضح لكلام الله الخالد وللتفسير الذى جاء على لسان نبيه الكريم .

كانت بغداد مركزا سياسيا وثقافيا ودينيا فى ذلك العصر كما كانت أيضا أكبر مدينة فى العالم . وكتب اليعقوبى قائلا إنها " قلب العراق وسرة الأرض وهى المدينة التى لا يوجد لها مثيل لا فى الشرق ولا فى الغرب " ، عاصمة إمبراطورية تمتد من المحيط الأطلنطى إلى الصين ، ومساحتها أربعة أضعاف مساحة القسطنطينية وعدد سكانها حوالى المليون نسمة وحماماتها ومساجدها وآثارها تعد بالآلاف .

كانت بابل الجديدة مركزا رئيسيا لشبكة تجارية ضخمة تمتد فروعها إلى أركان العالم الأربعة . وبسبب معرفتهم عدة لغات : اليونانية واللاتينية والعربية واللغات الإسبانية والسلافية فقد كانت الخدمات تتم على أكمل وجه وكان اليهود هم الذين يقومون بذلك . فكانوا يتحركون من الغرب إلى الشرق ومن الشرق إلى الغرب أحيانا بالبر وأحيانا أخرى بالبحر . فمن الغرب كانوا يجلبون " أغوات وعبيد ! – من النساء والأولاد – والحرير والجلود والفراء والسيوف " ووصلوا إلى السند والهند والصين سواء عن طريق قلزم "السويس حاليا " وجدة والبحر الأحمر أو عن طريق بغداد وعُمَان حيث يجلبون المسك والصبر والكافور والقرفة ومنتجات شرقية أخرى . " وكان التجار الروس يأتون إلى بغداد ومعهم جلود وفراء القندس والثعالب والسيوف" . أما التجار الفرنجة فكانوا يصلون عن طريق المغرب ومصر إلى الرملة والكوفة وبغداد والبصرة .

وفى عهد المأمون ازداد دور الإيرانيين فى الحياة السياسية وظهرت اتجاهات للحكم الذاتى فى محيط الإمبراطورية . ففى الشرق ظهرت أولا فى خراسان دولة التهريدس التى أسسها قائد فارس استقلت عن الخليفة ثم تبعها سيجيستان وسفاريد وسمانيد. وفى الغرب كان الأمويون فى إسبانيا وأفريقيا الشمالية والفاطميون تصدعت كل أجزاء البناء وتضاعف عدد الإمارات المحلية حتى إنه فى القرن العاشر ، كان هناك ثلاثة من الخلفاء ينافسون بعضهم : فى بغداد والقاهرة وقرطبة . وقد حرم هذا التمزق فى السلطة الخلافة من إيرادات الأقاليم وازدادت الفوضى المالية بشكل خطير ، حتى إن الخلفاء عالجوا الأمر بصورة سيئة .

وبعد أن كان الخلفاء يعتمدون فى مساندتهم على الإيرانيين ابتداء من عهد المعتصم (٨٣٣-٨٤٢) ، فإنهم بدأوا يعينون الأتراك مرتزقة لحراستهم الشخصية لما لمسوه فيهم من مهارة وكفاءة حربية وإخلاص . وبالتدريج أخذ الأتراك السلطة السياسية والحربية للإسلام فى أيديهم واستمر هذا النفوذ حتى بداية العصر الحديث . ولا يعنى ذلك نهاية الهيمنة السياسية والحربية للعرب . وقد وصفهم ميشيل الشامى قائلا : " عندما تحرك الأتراك وخرجوا إذا بهم يملأون الأرض ويغطونها " . وقبلوا

الديانة التى جاء بها محمد واتحدوا مع العرب وكونوا شعبا واحدا وقبل المسلمون من سيأتى من الأتراك ليحكم ونادوا به " أمير المسلمين " وعلى هذا الشرط أصبح زعيمهم الدينى الذى أطلقوا عليه اسم خليفة بمثابة ملك " .

صاحب هذا الانهيار فى الخلافة العباسية صحوة فى الغرب ، صحوة عسكرية أولا مع محاولات غزو ينسفور وفوكاس فى شمال الشام ثم صحوة تجارية مع ازدهار الموانئ الإيطالية مثل البندقية وأمالفى . وفى نهاية القرن العاشر لم تعد بغداد سوى ظل . وكتب ابن حوقل يقول " إن أغلب الأحياء قد أصابها الضعف وهجرها السكان وخربت معظم البنايات . وظهرت عاصمة أخرى جديدة فسطاط - القاهرة عاصمة الخليفة الفاطمى المنافس وهى " مدينة كبيرة وغاية فى الجمال " ومزدحمة بالسكان وأرضها خصبة وبها أسواق عديدة ومراكز تجارية مهمة وأراض شاسعة يملكها الناس ، حدائقها مزهرة ومنتزهاتها خضراء دائما فى جميع الفصول " وذكر المقدسى قائلا : فسطاط المصرية اليوم هى بغداد الأمس .

وفى عام ٨٦١ تم اغتيال الخليفة المتوكل الذى قاد حملة رهيبة ضد المعتزلة . وباغتياله بدأت فترة جديدة من الاضطرابات وبدأت الدولة تسير بخطى سريعة نحو الانهيار . وشهدت فى أقل من عشر سنوات مجىء أربعة خلفاء ، بينما فى مصر كان هناك ضابط تركى يدعى أحمد بن طولون (٨٦٨-٨٨٤) تولى أمر مصر بقوة واقتدار. ولم تلبث هذه الولاية أن أصبحت مستقلة بالفعل عن الخلافة ، واستمر حكم الطولونيين لمدة ربع قرن تناوب فيها خمسة حكام حتى عام ٩٠٥ . وفى عام ٨٧٨ تعرضت حدود الشام لهجمات البيزنطيين فهب أحمد بن طولون لنجدتهم. كانت الفترة الأولى من هذا العهد فترة ازدهرت فيها مصر ازدهارا كبيرا . ولا ينطبق هذا القول تماما على بلاد الشام لأنها كانت أكثر من مصر تعرضا لهجمات الأعداء . أما دمشق فكان يتبعها خمسة موانئ : صيدا وبيروت وطرابلس وعرقا وصور ، وارتفع الخراج فيها إلى أربعمائة ألف دينار وذلك لوفرة مياهها ورخائها الشديد .

وفى عام ٨٨٦ عقد خمارويه بن أحمد بن طولون معاهدة مع الخليفة المعتمد يدفع بموجبها إتاوة سنوية مقدارها ثلاثمائة ألف دينار مقابل الاعتراف بسلطته على مصر والشام والجزيرة ماعدا الموصل .

ولم يمنع حكم الطولونيين من حدوث فترة من الاضطرابات السياسية فى الشام استمرت لعدة قرون تعرض فيها لتقسيم الحدود ومعارضات عقائدية وثورات عدة ووصول غزاة مثل البيزنطيين والصليبيين والمغول . وابتداء من القرن العاشر أفل نجم الطولونيين واقترنت هذه الفترة الثانية من حكمهم بغارات مخربة شنها القرامطة الذين كانوا دائبين على الظهور عند أبواب دمشق منذ عام ٩٠٢ واحتلت حمص وحماة ومعرة النعمان وبعلبك والسلمية وذبح سكانها ، وقضى جنود الخليفة عليهم ، ثم قضى هؤلاء الجنود على الحكم الطولونى بعد ذلك .

جاء الإخشيد وحكم مصر عام ٩٣٥ ، وكان له فى مصر والشام ما كان للطولونيين من شأن . وقد كانت الشام دائمًا ولاية تحف بها المخاطر . وانهار الإخشيديون آخر الأمر أمام دولة كانت هى أيضًا تناضل فى سبيل الحصول على اللقب الدينى الذى كان يحمله الخليفة المجرد من أى سلطة ، ذلك أن دولة الفاطميين الشيعية كانت منذ أمد بعيد متأهبة للانقضاض على مصر .

فى ٢٥ نوفمبر عام ٩٦٩ غادر القاهرة جيش فاطمى بقيادة جعفر بن فلاح وهو ملازم لدى الجنرال جوهر بهدف التوجه لبغداد للقضاء على الخليفة العباسى ، وكانت القاهرة قد أنشئت حديثًا مكان الفسطاط القديمة . إلا أن التحالف " ضد الطبيعة" قد ازدهر فى عصر الحروب الصليبية . فالحمدانيون بحلب يهمهم المحافظة على عرشهم ، لذلك فقد طلبوا مساعدة البزنطيين . وفى ١٧فبراير ٩٧٠ حقق جعفر النصر على جيش الإخشيديين قرب الرملة ، ثم احتل طبرية حيث عقد اجتماعا مع أعيان قدموا من دمشق.

وفى يوم السبت ١٤ أكتوبر وصل إلى مشارف المدينة وأقام معسكرا له فى جنوب دمشق فى الشماسية على مسافة غير بعيدة من مسجد القدم . نشبت معركة حامية

الوطيس وشبت الحرائق فى العديد من منازل الضواحي . ونجح المهاجمون فى اقتحام باب الجابية لكن مدنيين مسلحين ردوهم على أعقابهم . وفى أثناء الليل قام من تبقى من جنود الإخشيد وبمساندة الشعب بتقوية أبواب المدينة وحفر فنادق وإقامة متاريس . وعندما حضر وفد للتفاوض أعرب جعفر عن نيته بحرق المدينة وقتل جميع السكان بالسيف، ثم عدل عن رأيه بشرط أن تخرج جميع النساء من المدينة بدون حجاب وقد تركن شعورهن تنسدل على وجوههن ويتذللن له وقد تلطخن بالطين ومرغن وجوههن بالتراب . وما إن تمت تلك المهزلة حتى هدأ جعفر وأعلن بعدئذ أنه سوف يضمن لهم حياة آمنة ويحمى ممتلكاتهم ، وأنه فى يوم الجمعة التالى سيتوجه إلى الجامع الكبير ليؤم المصلين . وما إن انتهت الصلاة ، إذا بالجنود المغاربة التابعين للجيش الفاطمي والذين وصلوا حديثًا من جبال البربر بأفريقيا ، ينتشرون فى المدينة وينهبون الأسواق .

وقد قتل عدد كبير منهم على أيدى دمشقيين مسلحين . وكان رد الفعل الانتقامى سريعًا وعنيفًا . فقد هدد جعفر مرة أخرى بهدم المدينة ثم عدل عن رأيه وفرض غرامة مالية باهظة . وألقى القبض على القادة وأعدموا وتركت رءوسهم معلقة على أبواب المدينة ، وجثثهم على المشانق . وقبض على الشريف العباسى ابن أبى العلا وهو الرأس المدبر للمقاومة وكان يعتبر رئيسًا للمدينة وأعيد إلى دمشق من تدمر بعد أن هرب إليها ومثل به تمثيلاً فاضحًا ثم اقتيد إلى المعسكر الفاطمى حيث قام أحد الجنود بفعل الفاحشة معه . استولى الجنود الفاطميون على بنايات فى الأحياء الشمالية الغربية من دمشق فى الدكة على نهر يزيد وأقام جعفر لنفسه قصرا بين نهر يزيد ونهر التورة .

تشجع جعفر بالنجاحات التى حققها ، فأرسل جيشًا جهة الشمال ، وبعد أن استولى على حمص ، عبر حدود الدولة الحمدانية وحاصر أنطاكية . واستمر الحصار خمسة أشهر ، ولكن أمام تهديد تحالف مكون من وحدات عديدة من البدو بقيادة القرامطة الذين قاموا بهذا العمل باسم الخليفة ببغداد اضطر إلى العودة إلى دمشق فى يوليه ٩٧١ .

وفى ٣١ أغسطس هزم الفاطميون وقتل جعفر فى ميدان القتال . وفى ديسمبر وصل القرامطة إلى أبواب القاهرة حيث فوجئوا بمقاومة شرسة من جوهر الذى نجح فى استعادة جزء من جنوب سوريا . استمر الصراع طويلاً بين الفريقين المتحاربين ولم تتمكن الجيوش الفاطمية بقيادة الجنرال أبى محمد إبراهيم بن جعفر من استعادة دمشق إلا فى ١٨يونية عام ٩٧٤ . إلا أنه فى تلك الفترة ألقى القبض على الشيخ ابن النابلسى المعروف بآرائه المعارضة للفاطميين . وأرسل إلى القاهرة فى قفص خشبى وسلخ حيا فى ميدان عام وحشيت جثته المسلوخة بالقش وظلت فترة طويلة معلقة على إحدى المشانق. وبالنسبة للأسرة الحاكمة التى استقرت بالقاهرة . فقد كانت المدينة بمثابة حاجز إستراتيجى مهم بين طريقين مهمين للغزو : الأول القادم من العراق عن طريق الرهبة وتدمر ، والثانى من شمال سوريا عن طريق حمص . كما كانت أيضًا بمثابة ورقة رابحة من الناحية الدينية لأنها تتحكم فى طريق الحج القادم من شمال سوريا والجزيرة العربية.

ووجد المعز أن الفرصة جاءت عندما عاود القرامطة نهب الشام فاستولى على مصر عام ٩٩٩ وعلى دمشق فى العام نفسه ولكن دمشق خرجت عن طاعته بعد ذلك مباشرة فأخذها القرامطة أولاً ، فلما قضى عليهم عمت الفوضى المدينة وأحرق كثير من أحيائها . وحكم الفاطميون بعد ذلك قرنا لم تكن فيه أسعد حالاً . وقد حدثت فتن وانقلابات كثيرة ومن ضمن أسبابها ما فطر عليه أهل الشام من شغب . وقد أدت إحدى هذه الفتن إلى إحراق المسجد الأموى عام ١٠٦٨ ، كما حدث تبديل للولاة بصورة متكررة ، ففى الفترة من ١٠٠٢ إلى ١٠١١ تغير أكثر من اثنى عشر واليا .

يبدأ تعيين الوالى بقيام احتفال كبير ويقرأ مرسوم التعيين بصوت عال من فوق منبر الجامع الكبير وبحضور أعيان المدينة والعسكريين ومن بين هؤلاء القاضى الذى يشغل مكانة مرموقة ويعتبر الشخصية المدنية الأولى فى المدينة ولكنه لا يستطيع عزل الوالى وإنما كبير القضاة المصرى . لم يكن القضاة مؤهلين للقضاء أو لأحكامه

وإنما مجموعة من التجار زادت ثروتهم واحتكوا بقدر يسير بالقوانين واستغلوا ثروتهم في شراء الوظيفة مما جعلهم منقادين للسلطة التى عينتهم ، كما كان همهم الأكبر زيادة ثروتهم دون أى اعتبارات أخرى . أما الوالى العسكرى قائد الحامية فكان مكلفا بمقاومة أى محاولات للغزو من جانب البيزنطيين أو البوريين أو الحمدانيين وإعادة النظام والأمن فى حالة حدوث فتن أو مؤامرات . كما كان يؤازر جابى الضرائب ويقدم له المساعدة اللازمة ليتمكن من أداء مهمته .

ويعتبر الوالى العسكرى ممثلا للخليفة المقيم بالقاهرة وفى الوقت نفسه رمزا للسلطة الفاطمية فى سوريا . ويحضر صلاة الجمعة فى الجامع الكبير من الأعيان والشيوخ والعلماء ورؤساء العشائر .

أما المحتسب فكان يراقب تطبيق النظم والقوانين الخاصة بالتجارة والعمل . وصاحب الشرطة مكلف بإدارة الأمن والنظام .

وابتداء من عام ١٠٠٢ بدأ الخليفة الفاطمى الحاكم (٩٩٦-١٠٢٠) يبدى إشارات تنم عن جنون وميل لسفك الدماء ويتفاخر بأنه يقلد نيرون وكاليجولا السفاحين وقد أهلك أعداداً غفيرة بالتعذيب الرهيب . وقيل عنه إنه كان يشعر بلذة لا مثيل لها وهو واقف أعلى جبل المقطم يتأمل حريق الفسطاط الذى قامت به قواته بناء على أوامر منه . ولكى يخفف حالة الإحباط والمعاناة لدى السكان السنة بدأ يضايق القبائل العربية المسيحية ، فى الضفة الغربية لنهر الأردن ويضع حدا للوضع المتميز للقبائل اليهودية والمسيحية ؛ إذ أجبرهم على ارتداء حزام أسود ووضع علامة مميزة لكل منهم حول العنق ، كما منعهم من شرب النبيذ حتى أثناء القداس وحرم عليهم السير بموكب الزعف أو حمل الصليب وصادر ممتلكات الكنائس والأديرة وانتهك حرمات المقابر واستبدل الموظفين المسيحيين أو اليهود بمسلمين . وقد أدى هذا الإجراء الأخير إلى خلق صعوبات لأن عدد الموظفين المسيحيين كان ضخمًا فى الإدارة الفاطمية ولديهم الكفاءة والمقدرة . فالأطباء والموظفون أغلبهم من المسيحيين ويثق بهم المسلمون لإتقانهم اللغات . أما عن اليهود فقد وصل بعضهم إلى الوظائف العليا فى

الإدارة ، أما الأغلبية فكانت تشغل وظائف متواضعة : صرافون ، دباغون . وفى سبتمبر عام ١٠٠٩ وبناء على أمر مباشر من الخليفة ، دمرت كنيسة القيامة بالقدس وهو الحدث الذى ذكره عدد من المؤرخين الغربيين أنه كان من بين الأسباب التى أدت إلى قيام حروب صليبية . وفى العام نفسه لقيت كنيسة السيدة العذراء بدمشق المصير نفسه .

وعلى المستوى الدينى فإن عهد الحاكم شهد مولد الديانة الدرزية الذى لعب دوراً كبيراً فى تاريخ الشام . وخلال عام ١٠١٧ تنبأت مجموعة من المبشرين بإمامين : الإمام الأول فارسى : حمزة ، والثانى تركى : دارازى الذى نشر فى القاهرة مذهباً معقدا أخذه من أحد المؤلفات الشرقية القديمة وله صلة بالعقيدة اليهودية ومذهب إدراك الأسرار الربانية والمسيحية ، وكذلك القرآنية . وحسب تلك العقيدة أنه بعد عدة تجسدات قتالية فى آدم وفى على وفى السلالة الفاطمية ، فإن الإله قد تجسد الآن فى شخص الخليفة الحاكم . ولم يلق هذا المذهب صدى كبيراً فى مصر لكنه انتشر بين السكان الجهلة والبسطاء الذين يعيشون فى جبال الشام .

وفى ٢٧ أكتوبر ١٠١٩ وصل إلى دمشق عبد الرحمن بن إلياس والى دمشق الجديد وولى عهد الخليفة الحاكم . وأقيم له استقبال على شرفه بالمزة ولكن الجنود لاحظوا بخله الشديد فانقلبوا عليه ونهبوا قصره الموجود خارج المدينة ، ونجح شخص يدعى محمد بن أبى طالب الشهير " بالجزار " بمساعدة عصابته المسلحة فى طرد القوات المغربية . وأنهكت عمليات النهب والقتل والحرائق المدينة التى لم يكن يرأسها سوى الجزار . وخوفاً من تطور الأحداث وقف الأعيان وجزء من السكان فى وجهه وسجنوه ثم قتل وعلقت جثته عند باب الجابية وتمت مطاردة رجاله وقتلهم دون شفقة . عاد ابن إلياس إلى دمشق ولكن لم تلق سياسته استحسانا لدى الشعب وفى الوقت نفسه توفى الحاكم وحل محله شقيقه الظاهر مما أضعف موقف ابن إلياس الذى وضع فى صندوق وأرسل إلى القاهرة على ظهر جمل حيث أجبر على الانتحار فى ظروف مؤلمة .

وفى عهد الظاهر (١٠٢٠ - ١٠٣٥) دخلت الدولة الفاطمية مرحلة الانهيار . فقد تدهورت الميزانية العامة للدولة وازداد نفوذ كبار الضباط الأتراك داخل الجيش الممزق نتيجة المنافسات بين فرقه المختلفة وأيضًا بسبب الخلافات العرقية . ولم تتمكن الدولة من تدبير الطعام أو الرواتب للقوات التى قامت بالهجوم على المخازن وفى عام ١٠٢٥ شوهد جنود سود يدخلون إلى القصر ويتوجهون إلى قاعة الولائم الرسمية ويلتهمون الأطعمة ويهربون ومعهم أوانى الطبخ .

وفى عام ١٠٥٥ دخل السلطان السلجوقى طوغرل بيج إلى بغداد ومعه جيش ضخم ليضع نهاية للحماية التى فرضها البوريون منذ عام ٩٤٥ على الخليفة العباسى وحصل على لقب "ملك الشرق والغرب" ويعتبر ظهور الأتراك السلاجقة الذين قدموا من آسيا الوسطى وعبروا إيران حدثا رئيسيا فى تاريخ الشرق الأوسط . كما تميز بإنهاء التفوق العربى بصورة حاسمة وأعطى لدول شرق البحر المتوسط طابعها المميز . وظلت جميع الدول التى جاءت بعد ذلك تعتنق ولمدة أربعة قرون تنظيمهم نفسه وموقفهم السياسى ، وهو المحافظة على السلطة أكبر فترة ممكنة وذلك بالتمسح بشعار : المحافظة على الإسلام السنى ضد الشيعة " الكفرة وأصحاب البدع " .

وبينما كان السلاجقة مستقرين فى بغداد ، حلت بالقاهرة أزمة خطيرة سياسية واقتصادية وعسكرية فى الفترة من عام ١٠٦٤ إلى عام ١٠٧٢ . وفى اليمن نودى بالخليفة العباسى عام ١٠٦٧ وفى الحجاز عام ١٠٧٠ . وفى الفترة من ١٠٦٩ إلى ١٠٧٠ نادى الأمير ميرداسيد حلب بخليفة بغداد وسلطانه السلجوقى حلب أرسلان . وفى جنوب الشام أغارت قبائل الكلب والطائى على حدود المدن التى يسكنها الحضر وبسطت نفوذها على حوران والأردن . وفى دمشق توالت الثورات والفتن . وفى عام ١٠٦٨ تم تدمير وحرق مقر الولاة الفاطميين وهو قصر السلطانة الموجود فى الربوة خارج مدينة دمشق . كما قام الجنود المغاربة بنهب جزء من المدينة وحرقه وانتهى الأمر بالاستيلاء عليها .

وفى عام ١٠٧١ استولى التركمان بقيادة الأمير قطز على القدس والرملة وفلسطين بالكامل ومنها هاجموا دمشق .

فقاوم الوالى الفاطمى المُلاَّ بن مانزو هجوم الأتراك الذين خربوا المدينة والغوطة وقطعوا أشجارها وأتلفوا المزروعات ودمروا القرى وعاشت دمشق مرة أخرى فى مجاعة وقحط ورحل سكانها .

وفى عام ١٠٧٣ قتل السلطان ألب أرسلان وتحالف قطز مع خليفته مالك شاه (١٠٧٣ - ١٠٩٢) الذى أرسل له دعما . وأصبحت أيام الفاطميين فى دمشق معدودة . وفى عام ١٠٧٥ زادت حدة مقاومة الدمشقيين ضد ابن مانزو وتوجهوا إلى مخيم أتشز وطلبوا منه مهاجمة المدينة .

وفى عام ١٠٨٦ استولى القائد السلجوقى قطز على دمشق وبذلك خسر الفاطميون المدينة إلى الأبد وخطب باسم الخليفة العباسى مرة أخرى على منابرها . ولم يدم حكم قطز إلا أعواما واضطر إلى إخلاء المدينة للأمير السلجوقى تتشْ ، وبمجرد وصوله إلى دمشق عمل تتش على بسط ودعم السلطة السلجوقية على الشام . وفى عام ١٠٨٥ احتل حلب وعهد إلى أق سنقر وهو مملوك قديم لمالك شاه ووالد الأمير عماد الدين زنكى أحد الأبطال الذين سيقفون ضد الصليبيين .

وبموت مالك شاه عام ١٠٩٢ دخل فى صراع مع السلطان باركياروك بن سنقر ووريثه فى الحكم (١٠٩٤ - ١١٠٥) لكنه مات فى ميدان القتال فى ٢٥ فبراير عام ١٠٩٥ حيث قام أحد مرافقيه بقطع رأسه وطاف بها فى صفوف الجنود الأعداء قبل أن ترسل إلى بغداد .

ترك تُتُشْ ولدان : رضوان ودقاق . خيم الأول على ضفاف الفرات استعدادا لعبوره لمساعدة والده لكنه رجع على عاقبيه عندما علم بوفاة والده وبادر بالاستيلاء على حلب بينما أسرع الثانى إلى دمشق للاحتماء بأتابك وهو الرجل الذى كان موضع ثقة السلطان وكان مربيا لابنه . حكم طغكين البلاد باسم دقاق . وفى عهده ازدهرت

الأحوال فى دمشق بسبب مهارته السياسية وانخفضت الأسعار وزادت محاصيل الحبوب وانتشر العدل بين الناس .

وفى عام ١٠٩٦ اعتبر رضوان أن أخاه اغتصب منه الحكم وصور له الطمع أن يجمع الشام بأكمله تحت سلطته فحاصر دمشق ولكن طغتكين دافع عنها فى غياب دقاق . وعندما علم رضوان بعودة دقاق انسحب وتراجع إلى حلب . وهناك أعلن رضوان ولاءه للسلطان الفاطمى المستعلى (١٠٩٤ - ١١٠١) .

ظهر العالم الإسلامى فى حالة تفكك وتفتت سياسى ؛ فهناك خليفتان ينافس كل منهما الآخر : الأول شيعى فى القاهرة والثانى سنى فى بغداد ، والسلاجقة - الذراع القوى للخليفة العباسى - مزقتهم الصراعات الدموية من أجل توارث الحكم . فحلب ودمشق فى أيدى شقيقين كل منهما يعادى الآخر وفى الوقت نفسه ظهرت على الحدود الشمالية للشام حشود صليبية . وكتب ابن القلنيسى " فى هذه السنة ١٠٩٧ ظهرت فى دمشق معلومات تفيد بظهور جيوش الفرنجة قادمين من بحر مرمرة وبأعداد لا حصر لها . وفى الأول من يولية عام ١٠٩٧ تقدموا نحو الأناضول ونشروا الموت فى كل مكان وأحرقت المدن بمن فيها من السكان كما أبيد اليهود ونهبت جميع الممتلكات . وفى نهاية أكتوبر ١٠٩٧ حاصروا أنطاكية ، واستغاث الوالى التركى ياغى سيان بأمير الموصل ، بينما تفاوض وزير الخليفة الفاطمى الأفضل شاهنشاه مع الغزاة الذين عارضوا اقتسام الشام . أما دقاق ورضوان فلم يبادرا بالتدخل وقاما بمحاولات منفصلة انتهت بهزيمتهم . وبعد سبعة أشهر من الحصار تمكن الفرنجة من التوغل فى المدينة بفضل خيانة أحد الأشخاص ويدعى فيروز وهو من أصل أرمنى . وأرشد الأرمن عن ياغى سيان حيث قطعت رأسه وقامت مذبحة رهيبة وأصبحت جميع الميادين فى المدينة مكتظة بالجثث" . وفى ٢٨ يونيه سقطت المدينة نهائيا فى أيدى الفرنجة وأصبح الطريق للشام مفتوحًا وانتهز الفاطميون الفرصة لاستئناف الهجوم خصوصًا وأن الفرنجة رفضوا اقتسام الشام فاحتلوا بيت المقدس فى ٢٦ أغسطس ١٠٩٨ .

وفى دمشق شعر دقاق بأنه مهدد بسبب تقدم الفاطميين ، فلم يبد أى مقاومة توقف تقدم الفرنجة . وفى الوقت الذى كان الصراع على أشده للخلافة فى منزل السلاجقة ، توغل الفرنجة إلى داخل الشام حقق أسطول جنوا تقدما كبيراً وقدم مساعدة حاسمة وحاصر السواحل . وفى ١١ ديسمبر سقطت معرة النعمان . وقامت أعمال النهب والقتل من جانب الفرسان الذين يحملون الصليب وفاق الفزع والرعب كل الحدود وتوغلوا داخل المدينة ونهبوا كل ما وجدوه فى المنازل أو المخابئ وامتلأت المدن بالجثث رجالاً ونساءً وكان من الصعب السير فى الشوارع لكثرة ما بها من جثث القتلى . ثم قاموا بنشر الجثث لأنهم علموا أن دنانير بيزنطية موجودة داخل أحشائهم وآخرون مزقوا الجثث وقطعوها إربا لشيها وأكلها . اكتسحوا طرطوس وطرابلس وجبيل وبيروت وصيدا وصور وعكا والقيسارية والرملة ثم وصلوا إلى أسوار القدس فى ٧ يونية ١٠٩٩ . وبعد خمسة أسابيع من الحصار وفى ١٥ يولية توغلوا داخل المدينة وقاموا بذبح المسلمين إلى أن وصلوا إلى معبد سليمان (قبة الصخرة) ، وبدأت معركة ضارية طوال اليوم حتى إن قبة الصخرة بالكامل كانت تجرى فيها الدماء للركبتين وفى النهاية وبعد أن حطموا الوثنيين (المسلمين) ، قام الفرنجة باعتقال أكبر عدد من الرجال والنساء داخل المعبد (قبة الصخرة) ثم قتلوا أكبر عدد وتركوا من يعجبهم أحياء . بعد ذلك قام الصليبيون بنهب المدينة وجمعوا كل ما فيها من ذهب وفضة وخيول وبغال وتركوا البيوت خاوية من كل شىء . وصباح اليوم التالى صعد الصليبيون إلى سطح قبة الصخرة (المعبد) وهاجموا المسلمين رجالاً ونساءً وقطعوا رءوسهم جميعاً بالسيف وبعضهم ألقى به من فوق السطح .

ويروى أحد الشهود منهم قائلاً : " لم نر أو نسمع فى حياتنا بمثل تلك المذبحة من جانب الوثنيين (المسلمين) . ويضيف ابن القلنيس قائلاً : " قام الصليبيون بعمل الشىء نفسه مع اليهود حيث جمعوهم داخل معبدهم وحرقوهم أحياء .

انتخب جودفروادى بويون أميرا على بيت المقدس وسار الفرنجة نحو عسقلان حيث انتصروا على الفاطميين الذين كانوا يستعدون لشن هجوم مضاد . استقر

الفرنجة على الساحل وأنشأوا عدة إمارات عرفت باسم الدول اللاتينية للأرض المقدسة : مملكة القدس ، وإمارة أنطاكية ؛ وكونتيسة الرها ؛ وكونتيسة طرابلس .

ولم يتم احتلال دمشق على الرغم من محاولتين من جانب الفرنجة إلا أنهما فشلتا . بدأت البقاع وحوران فى اتباع لعبة دبلوماسية حيث أعربوا عن رأيهم بأن الاعتبارات الدينية ليس لها أى اعتبار وإنما ضغطوا على الوتر الواقعى حيث لاحظو أطماع الأمراء فى الاستحواذ على السلطة . وأكد المؤرخ كمال الدين هذه المعانى بقوله : " أراد أمراء ذلك العصر إطالة فترة احتلال الفرنجة من أجل دعم سلطتهم" .

ولم يكن هناك بد من إنقاذ البلاد من حملة الفرنجة سوى إعلان الجهاد العام ضد الغزاة . وفى عام ١١٠٤ أسر شوكورميش والى الموصل بوهيموند أمير أنطاكية وبودوان الثانى أمير الرها وأصبحت تلك الدولتان تحت رحمته . أما دمشق فقد نأت بنفسها بعيداً عن الصراع .

وفى ١٨ يونية عام ١١٠٤ أصيب دقاق بحمى ويقال إن أمه وضعت له السم وتوفى وخلفه ضغتكين واستقل بأمر دمشق حتى وفاته عام ١١٢٨ .

دفن دقاق فى حكر الفهدين على الشاطئ الأيسر لنهر بردى غرب المدينة وضرب قبره عام ١٢٢٩ عندما التهمته النيران .

وذكر ابن عساكر أنه غطى بقبة سميت "قبة الطاوس " بالقرب من مسجد شيدته أمه صفوى الملك . وينسب إلى الدقاق بناء بيمارستان (أى مستشفى) وخانقاه الطواويس حيث يوجد داخلها قبره وأول مدرسة أنشئت بدمشق . توفيت صفوى الملك أول سبتمبر ١١١٩ . وذكر ابن قلنيسى "أنها دفنت بالقرب من ابنها فى القبر (القبة) التى بنيت على ارتفاع بحيث تطل على مضمار الخيل ذى الخضرة . وقد نقل إلينا جان سوفاجيه وصفا تفصيليا فى كتابه " الآثار الأيوبية" قائلاً إنه يتكون من قاعة مربعة الشكل مغطاة بقبة تمتد داخل محور شرق غرب بواسطة دعامتين يغطى كل منهما نصف قبة ترتكز على منطقة متعددة الزوايا " . وقد أخذ التصميم من الأقاليم الشرقية

للإمبراطورية والعراق وفارس . توجد فى بيمارستان نور الدين التى بنيت منذ أقل من نصف قرن بعد هذا التاريخ، وفوق الباب المفتوح فى وسطه بالجانب الشمالى ، أربعة أسطر بالخط الكوفى مزدانة بالزهور لتخليد ذكرى الإنشاء بواسطة "السيد" نقاء المملكة ، مجد نساء العالم ، أم الملك دقاق عام ٥٠٤هـ (١١١٠-١١١١).

صنع عقد الساكف الموجود أعلى الباب من البازلت الأسود ، وهو أحد النماذج القديمة والمعروفة بتعدد الألوان ، وهى تقنية سادت وانتشرت فى العصر المملوكى (١٢٥٠-١٥١٦) .

استخدم الجبس فى الداخل والخارج لعمليات لياسة وتغطية البناء بالدبش غير المصقول . تميزت الزخرفة بالبساطة ، إذ استخدمت شرائط التشبيك الزهرى والحليات الحلزونية للأغصان وأوراق الشجر وسلسلة عقود صغيرة ونقوش بذيول طويلة ومجدولة ومرسومة بلون أزرق الكوبلت .

اكتشفِ القبر التذكارى الذى شيد تكريمًا لسكينه ابنة الحسين وحفيدة على وكذلك قبر فاطمة فى مدافن باب الصغير فى الوقت نفسه الذى أنشئ فيه قبر صفوى الملك . وقد توفيت سكينة ودفنت بالمدينة عام ٧٣٥ .

وقد حفرت آية قرآنية بحروف صغيرة على الجزء الأعلى من الصندوق الخشبى المصنوع من خشب الجوز " الله لا إله إلا هو الحى القيوم " ويرجع الأسلوب الزخرفى للقبر التذكارى لسكينة ، إلى العصر العباسى . كما ظهر فى الجص بسامراء حيث وجد فى محراب الجامع الكبير الذى بناه نور الدين فى الموصل .

أما فى دمشق فالعنصر الوحيد للمقارنة هو لوحة المقصورة لمسجد باب المصلى ، وهو اليوم متحف دمشق ، ويرجع تاريخه إلى ١١٠٣ .

أما القبر التذكارى الذى بنى تخليداً لذكرى بلال ، والذى صنع من الخشب ، فيقع داخل ضريح ضخم فى مدافن باب الصغير وهو شبيه بالنموذج السابق . يعتبر بلال من الصحابة وهو حبشى ، وكان رفيقا لأبى عبيدة أثناء الحملة على دمشق حيث توفى

ودفن عام ٦٤١ . وقد أقيمت مقابر تذكارية كذلك للشاعر كعب الأحبار وأبى الدرداء وهو من الصحابة وقاضى دمشق أثناء خلافة عثمان .

وفى العصر السلجوقى أيضًا شرع أحد الأمراء فى إصلاح وترميم مسجد خالد بن الوليد إحياء لذكراه وذلك بحفر كتابة بالخط الكوفى فوق الباب . إلا أنها برزت هذه الأيام بالخط الأسود : "هذا مسجد خالد بن الوليد الصحابى الجليل وسيف الله المسلول " .

وبعد اختفاء الدقاق أسس ضغتكين الدولة البورية التى حكمت دمشق نصف قرن من الزمان حتى مجىء نورالدين عام ١١٥٤ الذى تميز عهده بتعاقب المناوشات والهدنة مع الفرنجة. ففى ديسمبر عام ١١٠٥ هزمهم بالقرب من طبرية واستولى على حصن وقام بتدميره ووصل إلى دمشق ومعه "رءوس متطوعة للأسرى وغنائم بكميات ضخمة". وفى عام ١١٠٨ عقد هدنة مع بودوان ، ولكن فى السنة التالية استولى الفرنجة على طرابلس وبيروت وصيدا وسيطروا على ساحل سورية بالكامل باستثناء صور وعسقلان ، وبمجرد سقوط طرابلس اضطر ضغتكين فى سبتمبر عام ١١٠٩ إلى التنازل لبودوان عن ربع إيراد بعلبك وعين ابنه تاج الملوك واليا عليها .

وفى ١٧ فبراير عام ١١١١ توجه شريف هاشمى ومعه مجموعة من الصوفيين والتجار ورجال الدين إلى مسجد السلطان فى بغداد . وناشدوا المسلمين للدفاع عن الإسلام وأوقفوا الخطبة وأنزلوا الإمام من فوق المنبر وأخذوا يصرخون ويبكون بسبب المصائب التى حلت بالإسلام وما فعله الفرنجة من قتل الرجال وسبى النساء والأطفال . عندئذ أمر السلطان الأمراء والقادة العسكريين بالعودة إلى أقاليمهم للاستعداد لبدء "الجهاد ضد الكفرة أعداء الله " وكلف الأتابك (مربى ابن الملك) شرف الدين مودود والى الموصل بتنظيم القتال . ولم يعطه ضغتكين فى البداية سوى مساعدة محدودة .

وفى ٢٨ يونية توحدت جيوش المسلمين وهزموا قوات بودوان قرب بحيرة طبرية . وأرسلت أعداد ضخمة من الأسرى ورءوس مقطوعة وخيول ودروع وخيام من كل

الأنواع إلى أصفهان للسلطان السلجوقى غياث الدين . وفى يوم الجمعة ١٨ أكتوبر وبينما الجمهور محتشدا لرؤية طغتكين والمودود ومظاهر الأبهة والعظمة تشع منهما وإذا بشخص يخرج من بين الصفوف دون أن يلتفت إليه أحد ويقترب من الأمير المودود ويطعنه طعنتين مات على أثرهما . حزن طغتكين على فقد حليفه القوى وبدأ يمارس سياسته المتوازنة فعقد هدنة مع بودوان عام ١١١٤ .

وتوجه طغتكين إلى بغداد لتقديم يمين الولاء إلى الخليفة المستظهر . وفى عام ١١٢٤ نجح بودوان الثانى من الاستيلاء على ميناء صور رغم المقاومة العنيفة من جانب طغتكين لمنعه من التقدم صوب دمشق وأوقفه عند مرج الصوفر جنوب دمشق . وفى عام ١١٢٦ تخلى طغتكين عن قلعة بانياس التى كان يحتلها الإسماعيليون الحشاشون والتى لم يكن بها سوى عصابة من النصابين والمساكين والمختلين عقليا والفلاحين والفرق السوقية . ومن هذا المكان الحصين بدأوا يضاعفون نشاطهم . وفى نوفمبر - ديسمبر ١١٢٦ سقط أمير الموصل على أثر طعناتهم له . وعين الخليفة المسترشد عماد الدين زنكى والى بغداد وأتابك (مربى ابن السلطان محمود) حيث استولى على الموصل فى سبتمبر ١١٢٧ وحلب فى شهر يناير ١١٢٨ . توفى طغتكين فى ١١ فبراير عام ١١٢٨ وخلفه ابنه تاج الملوك . واشتد الصراع ضد الحشاشين حيث ازداد نفوذهم فى دمشق فى عهد طغتكين . وتم ذبحهم بلا هوادة أو شفقة .

واصل زنكى اتباع سياسة التوازن بينه وبين الفرنجة لكنه لم يخف أطماعه توطئة لبدء الجهاد والذى لا مفر منه من أجل بسط نفوذه على الشام بأكمله وخاصة دمشق ، ويعتبر زنكى المحرك الأول لصد الحروب الصليبية وقائداً حربيا لا نظير له . وذكر زنكى فى التاريخ الإسلامى أنه أحد الأبطال الذين استطاعوا صد الغزو الصليبى . ويعلق ابن الأثير قائلاً : " لو لم ينشر الله العلى القدير رحمته وعفوه على المسلمين بأن أتاح للأتابك زنكى بغزو سوريا ، لكان الفرنجة قد استولوا عليها بالكامل " .

اتبع الفرنجة سياسة حمقاء . فبدلاً من التعاون مع تاج الملوك ، خرجوا من القلعة الحصينة التى سلمها لهم الحشاشون الإسماعيليون وساروا نحو دمشق فى جيش

قوامه ستون ألفا إلى أن وصلوا إلى قرية داريا فى غوطة دمشق على بعد حوالى عشرة كيلو مترات إلى الجنوب الغربى من المدينة . ولكن مفرزة من قواتهم تركتهم وتوجهت إلى حوران للحصول على مؤن ودواب و فاجأتهم قوات تاج الملوك وأبادتهم وانسحبوا تاركين فى مواقعهم كميات ضخمة من العتاد . انتظر زنكى حتى العام التالى ليشن حملة على نطاق واسع ضد الدول اللاتينية . وأرسل له تاج الملوك أفضل ضباطه وخمسمائة فارس وابنه سيفنج والى حماة . لكن فجأة تم اعتقالهم وإرسالهم إلى حلب وتمكن زنكى بذلك من الاستيلاء على حماة التى لم يكن بها مدافعون ، لكنه فشل أمام حمص فاتجه إلى الموصل وأخذ سيفنج والضباط الدمشقيون رهائن وطلب فدية مقدارها خمسون ألف دينار مقابل الإفراج عنهم ووافق تاج الملوك على دفعها . وفى يوم ٧ مايو عام ١١٣١ هاجم ثلاثة من الإسماعيليين تاج الملوك وتوفى فى ٦ يونية عام ١١٣٢ متأثراً بجراحه وخلفه ابنه شمس الملوك إسماعيل حيث واصل القتال ضد الفرنجة . وبعد أن نجا من محاولة قتله فى فبراير ١١٣٤ بدأ ينهب الأموال المخصصة لرؤساء المناطق ويرتكب أعمالاً حقيرة محرمة تنم عن جشع متزايد كما استولى على ممتلكات الأعيان عن طريق التعذيب وانهارت شعبيته تماماً . ولكى يتجنب حاجبه يوسف بن فيروز التهديدات هرب بسرعة إلى تدمر بصورة سرية وطلب مساعدة زنكى . ولكن فى ٢٠ يناير ١١٣٥ اغتيل شمس الملوك وحاصر زنكى دمشق حيث جاء شهاب الدين محمود شقيق المتوفى ينادى بالخلافة . وبعد عدة مناوشات انتهت بالتفاوض وانسحب متوجها إلى المنطقة الواقعة بين حمص وحلب ليحتل القلاع الموجودة فى تلك المنطقة .

فى عام ١١٣٧ توغل القيصر جان كومين إلى الشام على رأس قوة كبيرة وفرض سلطته البيزنطية على ريمون حاكم أنطاكية ووحد جيوش الفرنجة فى أنطاكية والرها وهاجم حلب ولكن أمام شدة المقاومة من المدينة انسحبت القوات المتحالفة من الفرنجة والبيزنطيين واتجهت لمحاصرة شيزار فى وادى أورنت (نهر العاصى) . كان الموقف عصيبا بالنسبة للأمراء المسلمين فى الشام . ولابد من وضع حد للمنافسات

والصراعات فقرر كل من زنكى وشهاب الدين أن يوحدا قواتهما وأبرمت معاهدة على عجل فى ٣١ مايو عام ١١٣٨ يتم بموجبها أن يستولى زنكى على حمص ويتزوج زمردة أم شهاب الدين ويزوج زنكى ابنته لشهاب الدين . وبموجب هذه المصاهرة أمكن الاعتراف لزنكى بالسيطرة على دمشق . وفى ٢٢ يونيه عام ١١٣٩ اغتيل شهاب الدين وهو نائم فى مضجعه ، ووصل جمال الدين محمد شقيقه من الأب قادما من إمارته فى بعلبك وحاول الاستيلاء على دمشق إلا أن السلطة فى الواقع كانت من حق معين الدين أونور المربى السابق لشهاب الدين . وقد دفعت زمردة زنكى إلى اتخاذ موقف معاكس من جمال الدين . وفى ٩ ديسمبر أقام زنكى مخيمه فى داريا جنوب دمشق وهزم مفرزة أرسلت لقتاله ودفع بفرقة من الميليشيات قرب مصلى مضمار الخيل واستعد لحصار المدينة حيث كان عملاؤه يعملون على إثارة السكان لصالحه . وقد لجأ أونور إلى فولك أمير القدس وتعهد بتمويل المساعدات التى يقدمها له وأن يسلمه مدينة بانياس الحيوية لموقعها الإستراتيجى للدفاع عن دمشق . وكانت الفرصة متاحة بشكل رائع إذ حرك فولك قواته وأجبر زنكى على التقهقر إلى حماة شمالا واستولى على بانياس .

لم يظهر زنكى على أبواب دمشق إلا فى فجر يوم السبت ٢٢ يونيه ١١٤٠ حيث وجد مجير الدين عبق الذى حل محل والده محمد الذى توفى فى ٢٩ مارس وعرض عليه الاعتراف بسيادته المطلقة والدعاء له فى خطبة الجمعة . وقد أدرك زنكى عدم قدرته على الاستيلاء على المدينة بالقوة فقبل مبادرة مجير الدين وتوجه إلى أعالى بلاد ما بين النهرين (شمال العراق) حيث أخضع التركمان والأكراد بالقوة قبل أن يتوجه لحصار مدينة الرها التى فى أيدى الفرنجة حيث كان الأساقفة يتولون الدفاع عنها فى غياب جوسلين الثانى . دكت المدينة بعنف حيث أطلق عليها المنجنيق سبع مرات خلال ثلاثة أسابيع . وفى ٢٤ ديسمبر ١١٤٤ وليلة عيد الميلاد اقتحم جيش المسلمين المدينة وذبح كل من هو من الفرنجة دون هوادة ونهبت الكنائس اللاتينية ودمرت وكتب ابن القلنيسى يقول : " أخذ المنتصرون يجمعون الغنائم ويقتلون ويعتقلون ويربطون الأسرى بالسلاسل وينهبون ، كانت النفوس مفعمة بالبهجة والفرح يشرح الصدر والأيدى مليئة بالأموال

والأشياء النفيسة والأثاث والخيول " . وهكذا محيت من الخريطة أول دولة لاتينية بعد ستة وأربعين عاما على تأسيسها . ومنح زنكى الألقاب التالية : " زين الإسلام " ، " الملك المنصور" ، " نصير أمير المؤمنين " ، وتلقى هدايا قيمة : خيولاً مسومة بالذهب وسيوفًا من ذهب وعمامة العباسيين ذات اللون الأسود . سبب غزو الرها صدمة عنيفة للمسيحية الغربية وترتب على ذلك الإعداد لحملة صليبية ثانية على الشام وهذه المرة كانت بقيادة كونراد الثالث إمبراطور ألمانيا ولويس السابع ملك فرنسا حيث لم يصلا إلى أنطاكية إلا فى شهر مارس عام ١١٤٨ .

وبعد عامين من الاستيلاء على الرها ، اغتيل زنكى فى ١٥ سبتمبر عام ١١٤٦ على يد أحد أغواته أثناء حصاره لقلعة جبار على الشاطئ الأيمن لنهر الفرات فى مواجهة جبهة القتال لمعركة صفين الشهيرة ، خلفه ابنه الأكبر سيف الدين فى الموصل أما ابنه الثانى نور الدين الذى كان عمره تسعة وعشرين عاما فقد استقر فى حلب . سار نور الدين على نهج والده ونجح فى مد نفوذه على دمشق ووجه ضربات حاسمة للفرنجة .

وما إن علم أونور بموت زنكى حتى بادر بالذهاب إلى بعلبك لاحتلالها حيث كانت تحت سلطة زنكى منذ أكتوبر ١١٣٩ ويتولى ولايتها الأمير الكردى نجم الدين أيوب والد صلاح الدين . وضع نجم الدين شروطه : تستقطع عدة قرى من الغوطة وتخصص كملكية له وكذلك مبلغ ضخم من المال وأن يخصص منزل ضخم للأمير البورى فى دمشق بالقرب من الجامع الكبير وهو حاليا مقر المدرسة الظاهرية .

كان صلاح الدين مهتما بفصل دمشق عن القدس فعمل على التقرب من البوريين بل وصل الأمر بأن تزوج إحدى بنات أونور .

ومنذ ذلك الحين ، قاد الأميران عمليات مشتركة ضد قوات بودوان الثالث الذى كان يهدد بصرا وصلخد وهما من القلاع الحصينة فى حوران .

وفى ربيع عام ١١٤٨ تلقى الفرنجة دعما عسكريا عن طريق صور وعكا وانضما إلى ما تبقى من قوات لويس السابع وكونراد الثالث .

وفى ٢٤ يونية عقدت اجتماعات فى عكا ولم تشترك الرها وشكلت السهول الدمشقية الخصبة مطمعا أسال لعاب نبلاء الفرنجة . وتم خرق الهدنة التى استمرت طويلاً والتى عقدها الملك فولك وسارت الجيوش نحو دمشق . وفى يولية ارتدى الصليبيون دروعهم وكان عددهم حوالى الخمسين ألفا ما بين فرسان ومشاة ومعهم قوافل من الإبل والجاموس وتجمعوا فى طبرية ثم عبروا الجليل وانطلقوا يوم ٢٤ تجاه بساتين داريا جنوب غرب دمشق .

استعد أونور للمعركة وجمع المؤن وسمم الآبار وحصن النقاط الأكثر تعرضا من جانب العدو ووضع رجالا على الطريق للاستكشاف وأرسل كتيبة لحماية مضيق الربوة التى يتفرع منها قنوات الرى الرئيسية . وطلب مساعدة سيف الدين ونور الدين فحضرا فوراً ولكنهما طلبا بمجرد وصولهما إلى حمص حكومة مؤقتة لدمشق فى مقابل مساعدتهما ولكن طلبهما رفض . قطع الفرنجة أشجار الغوطة لإنشاء خنادق ودمروا الجسور .

لم يشأ لويس أن يعرض جيشه لخطورة الحرب على الزنكيين واستعادة الرها من أيديهم فاتجه بقواته تحت تأثير أمراء بيت المقدس إلى مهاجمة دمشق فى أوائل يولية ١١٤٨ ولكن بمجىء النجدات والمساعدات الإسلامية على دمشق من الموصل وحلب أدى إلى تخوف الصليبيين من هذا التجمع الإسلامى فقرروا رفع الحصار عن دمشق والانسحاب . ولم يلبث الإمبراطور كونراد أن أبحر عائداً إلى أوروبا من عكا بينما بقى لويس السابع ستة أشهر وغادرها إلى أوروبا فى سنة ١١٤٩ بعد أن تأكد من فشل حملة الصليبيين فى تحقيق أغراضها التى جاءت من أجلها . ولقد أدى فشل هذه الحملة إلى انحطاط هيبة ومكانة الصليبيين بالشام وازدياد نفوذ المسلمين وارتفاع أرواحهم المعنوية وعندئذ تشجعت القوى الإسلامية فى الشرق وبدأت تغير على ما جاورها من أملاك الصليبيين وتسترد ما سبق أن فقده المسلمون .

ورث نور الدين محمود أملاك أبيه وتولى حكمها بعد موته . كما ورث عنه جهاده ضد الصليبيين . ولقد وضع نور الدين نصب عينيه منذ توليه الحكم خطة توحيد الجبهة الإسلامية للإطباق على الصليبيين من كل مكان . وقام سنة ١١٥٤ بالاستيلاء على دمشق بعد وفاة حاكمها السلجوقى واتخذها قاعدة له ، ورفع من شأن المذهب السنى فى الإسلام وشجع الفقهاء والصوفيين لمحاربة الهرطقة الشيعية وأنشأ عدة مؤسسات تعليمية ولكى يقضى على دار العلم التى أنشأها الشيعة أسس " دار الحديث " لنشر السُّنة النبوية . وسمى نور الدين " ببطل الإيمان " و "الملك العادل ".

ففى عام ١١٥٤ كان يوجد بدمشق ١١ مدرسة وهى مبنى تعليمى أنشأه الخاصة فى البداية . وأول إنشاء لهذه المدارس كان فى نيسابور ومرو بخارى فى عهد محمود غاز نقيد (٩٧٠ - ١٠٣٠) . وفى عهد السلاجقة أصبحت المدرسة مؤسسات تابعة للدولة ، ثم استبدلت ببيت الحكمة ودار العلم حيث تدرس فيها جميع العلوم الدينية والشرعية وقراءة وتجويد القرآن والسنة والفقه . أما العلوم البحتة ، فكانت تدرس بالمستشفى على أيدى أساتذة معروفين بالكفاءة . وكان الهدف تكوين درع قوى للدفاع عن السنة ، بإعداد مجموعة من الفقهاء والعلماء والمتخصصين والأوفياء .

كانت المدرسة شأنها شأن الأعمال الخيرية أو المنشآت التى تؤدى منفعة عامة ، تتمتع بدخل غير محدد المدة من بعض الممتلكات التى أوقفها أهل الخير للاتفاق على هذه المدارس . وقد سميت فى اللغة العربية بالوقف لأنها خصصت لوجه الله ، ولا يمكن مصادرتها أو اغتصابها أو الاستيلاء عليها .

كانت المدرسة عبارة عز مخطط يشبه المنزل ، به فناء فسيح غير مغطى وفى الجهة الجنوبية صحن مسقوف لإقامة الصلاة . وفى الجهة المقابلة إيوان ذو قاعة عالية عليها قبة وتؤدى إلى صحن الصلاة . وفى الجوانب الأخرى توجد صوامع لسكن الطلاب والمدرسين ، بالإضافة إلى قاعات الدرس والمكتبات والمطابخ ودورات المياه .

أدخلت المدرسة إلى دمشق فى نهاية القرن الحادى عشر عن طريق الأمراء السلاجقة . وأول مدرسة أنشئت هى المدرسة الصديرية عام ١٠٩٨ حيث أنشأها الأمير دقاق قرب باب البريد وهو الباب الغربى للجامع الكبير . وبعد ذلك أنشئت المدرسة الأمينية عام ١١٢٠ جنوب الجامع الكبير حيث أنشأها الأتابك كوموشاكين والمعينية التى تأسست عام ١١٢١ فى حى الجيرون ، والخاتونية عام ١١٣٤ على الشاطئ الأيسر لنهر بردى ووهبت للوقف من قبل الأميرة السلجوقية زمرد خاتون الأخت غير الشقيقة لدقاق ، والمجاهدية التى تأسست عام ١١٣٥ جنوب غرب الجامع الكبير والتى أنشأها الأمير الكردى مجاهد الدين ، والشرفية وهى أول مدرسة شرعية حنبلية وتأسست قبل عام ١١٤١ فى الجيرون ، والجاروكية عام ١١٤٨شمال الجامع الكبير ، والمسمارية عام ١١٥٢ شرق الجامع الكبير .

كما أنشئت عدة أماكن للتعبد (خانقاه) يتعبد فيها المتصوفون ، وفى الوقت نفسه مراكز استقبال للزوار الذين يريدون مزيداً من التعبد والتعمق الروحانى ، وقد أنشأها السلاجقة : خانقاه الدويرية ، وتقع قرب باب البريد ، وخانقاه صفوى الملك والتى أنشئت فى الشرف الأعلى ، وخانقاه شمس الملوك إسماعيل وأنشئت فى الميدان الأخضر على الشاطئ الأيمن لبردى .

أما عن المساجد فقبل مجيء نور الدين كان يوجد ٢٤١ مسجداً داخل المدينة و ١٤٨ خارج المدينة .

والقصور ومنازل الأغنياء كان عددها حوالى ثلاثين ويسكنها صحابة رسول الله (صلى الله عليه وسلم) ، ويقع أغلبها شمال الشارع المستقيم ، وما كان يوجد فى الغوطة فقد تعرض للنهب والسلب-، كما تعرض أغلبها للخراب أثناء الاضطرابات .

بدأت عدة ضواحى فى النمو خارج أسوار المدينة فى وسط الحدائق . أقيمت ضواحى العقيبة ، والصادف ، والعوزة ، والفرادس ، وستيرا ، وهى التى يوجد فيها مسجد الأقصب حيث يوجد بها رءوس الصحابة الذين قتلوا بناء على أمر من معاوية ، كما ذكر ابن عساكر .

وفى خارج باب توما توجد ضاحية بيت لاهيا ، والمصيعة الصفوانية ، وهى التى يوجد بها ضريح الشيخ أرسلان بالقرب من مسجد خالد بن الوليد . وفى الزاوية الجنوبية الغربية من سور المدينة توجد ضاحية قصر الحجاج . وعلى طريق حوران جنوب مضمار الحصى ، وبالقرب من مسجد فلوس توجد ضاحية السيفيان وضاحية قدم حيث يوجد مسجد القدم .

تطلع نور الدين إلى مصر وضمها إلى دولته وخاصة حين استهدف الصليبيون مصر وانتهزوا فرصة ضعف الحكم الفاطمى بها والاضطرابات الواقعة بها وتوجه بودوان ملك بيت المقدس بقواته إليها لكن بودوان توفى وهو فى طريقه إلى القاهرة فاضطرت قواته إلى العودة إلى بيت المقدس . وكرر عمورى الذى خلف بودوان على عرش مملكة بيت المقدس محاولة غزو مصر مستغلا الصراع بين وزراء الفاطميين فأرسل نور الدين محمود ثلاث حملات إلى مصر لوقف وقوعها فى أيدى الصليبيين بقيادة قائده أسد الدين شيركوه وابن أخيه صلاح الدين . واستطاع شيركوه أن يحسم الأمر فى مصر لنور الدين ، وأن يتولى الوزارة للخليفة الفاطمى العاضد آخر خلفاء الفاطميين وتحقق بذلك حلم نور الدين ، إلا أن المنية وافته قبل إنجاز مشروعه الذى تم إنجازه على يد صلاح الدين .

كان حكم نور الدين لدمشق فاتحة عهد جديد من الرخاء أصاب المدينة وكان عهده وعهد صلاح الدين أزهى أيامها . ويختلف مجدها عنه أيام الأمويين . وقد تأثر هذا العهد كله بالجهاد الدينى فأصبح لزاما أن يعنى أولاً وقبل كل شىء بتحصين المدينة والنهوض بعلوم الدين . ومع ذلك لم تهمل علوم الدنيا إهمالاً تاما . ويمثل هذا العهد ابن عساكر مؤرخ دمشق . ثم اقتصر شيئًا فشيئًا على تدريس علوم الدين . وكان للاضطراب الذى شاع أيام الحروب الصليبية نصيب كبير فى ازدياد نعرة التعصب الدينى فى دمشق فأصبحت بذلك أعظم حصون الإسلام . أسبغ نور الدين على المدينة طابعها الذى عرفت به . فقد زاد فى تحصينها بتجديد أسوارها بأبراجها وأبوابها وشيد مسجدا فى شمال قلعتها وفتح فى هذه الناحية منها بابا جديدا هو باب الفرج

وبنى بالقرب منه باب العدل أو دار السعادة . ولكن أشهر هذه الأبنية هى التى أقامها للسير والتقوى ، ثم البيمارستان المشهور المعروف ببيمارستان نور الدين . ولا يزال قبره قائماً فى المدرسة النورية التى نسبت إليه .

كان الجيش يتكون أساساً من أمراء أكراد وجنود أتراك ويضم من ستة آلاف إلى عشرة آلاف فارس بما فى ذلك التركمان والبدو . يتقاضى كل جندى راتبه العسكرى ، أما الأمراء فكانوا يتمتعون بدخول من الإقطاعيات التى تخصص لهم من قبل السلطة المركزية مقابل خدماتهم .

وبخلاف الإصلاحات والترميمات فى المتاريس وأسوار المدينة ، عمل نور الدين بمجرد وصوله إلى دمشق على إنشاء بيمارستان (مستشفى) جديد فى حى الذهب فى المنطقة الواقعة بين القلعة والجامع الكبير بتمويل من فدية دفعها له أحد أمراء الفرنجة . ويرجع أصل هذا النوع من البناء إلى الغساسنة الذين أدخلوه فى العالم الإسلامى فى عهد الخليفة الأموى الوليد حيث أنشأ مستشفى من هذا النوع فى دمشق عام ٧٠٧ . وقد ظل المستشفى الذى بنى فى عهد نور الدين بحالة جيدة حتى عام ١٨٩٩ عندما تحول إلى دار للفتيات اليتامى ولا يزال باب الدخول الرئيسى تعلوه قبة صغيرة موجودة حتى الآن . أما البهو فمربع الشكل ومغطى بقبة ارتفاعها أحد عشر طابقًا ويشبه إلى حد كبير ضريح صفوى الملك الذى شيد قبله بنصف قرن ، وهو من النمط الفارسى مثل الذى يشاهد فى بغداد فى مقابر زبيدة أو سهرا وردى . خصص هذا المستشفى لعلاج الفقراء والمحرومين .

أما الفناء المستطيل فعلى كل جانب من جوانبه يوجد إيوان مغطى بقنطرة نصف أسطوانية . وعلى الحلية المموجة للإيوان الشرقى وهو الأكثر اتساعا نقشت آيات قرآنية توحى بشفاء المرضى .

وعندما زار ابن جبير دمشق بعد عشر سنوات من وفاة نور الدين كتب يقول :
" يوجد فى دمشق مستشفى قديم (وهو الذى بناه دقاق) وآخر جديد وهو الأكثر أهمية والأكثر اتساعا ويدر دخلا يوميا حوالى خمسة عشر دينارا .

وتسجل الإدارة أسماء المرضى وكذلك المصاريف الضرورية لعلاجهم وتغذيتهم . يأتى إليها الأطباء كل صباح ، ويفحصون المرضى ويكتبون لهم العلاج اللازم . المستشفى الجديد بالنظام نفسه ولكن التنظيم فيها أفضل وتتميز بوجود قسم لعلاج المجانين المربوطين بسلاسل .

يأتى المرضى إلى البيمارستان سواء للاستشارة أو للإقامة من أجل العلاج وينقسم إلى قسمين منفصلين تماما عن بعضهما : القسم الأول مخصص للنساء والقسم الآخر للرجال . وبخلاف الغرف المغلقة الخاصة بالمجانين ، فإنه يوجد فى كل قسم قاعات خاصة لعلاج الأمراض الباطنية والجراحة والعيون والعلاج الطبيعى . كما كانت هناك قاعة مخصصة لعلاج حالات الإسهال . وكان العلاج المتبع فى حالات نوبات انفصام الشخصية الطريقة المتبعة فى الغرب القوة والسوط. وفيما بعد استخدمت وسائل أكثر إنسانية : جرعات من شراب اللوز بعد مزجه بمخدر الأفيون . كانت ميزانية المستشفى السنوية تتجاوز خمسة آلاف دينار .

كما كان البماريستان أيضًا مؤسسة تعليمية للعلوم البحتة والطب حيث يتدرب فيها الممارسون ويحصلون على دبلوم بعد انتهاء الدراسة كما زودت المؤسسة التعليمية بمكتبة تضم مؤلفات متخصصة وتعليقات حول البول أو دراسات وبحوث حول عملية الجماع ، وقد استحوذ هذا الموضوع فى ذلك الحين على أفكار المجتمع الإسلامى وتجاوز بحثه إطار المؤلفات المتخصصة فيه حتى إن ابن الجوزى من أنصار مذهب ابن حنبل ويتميز بالذكاء الحاد وباحث فى مواضيع شتى ومؤلف كتاب " صيد الخاطر" الذى يعتبر منجما للمعلومات حول الأخلاق والمجتمع خصص له مكانا فى أبحاثه مؤكدا أنه بذلك يعمل على ردم الهوة بين الأفكار الإسلامية والأفكار المسيحية حول هذا الموضوع . فبينما أكد ابن الجوزى أنه ضرورة فسيولوجية لابد منها لحفظ توازن الجسد والروح ، ذكر القديس بولس " من يخلصنى من هذا الجسد الذى وهبته للموت " فهذا الإحباط وهذا الكبت غير الصحى هما من أسس الديانة المسيحية .

ذكر ابن عساكر أن دمشق قبل مجيء نور الدين كان بها ٢٨٩ مسجداً " وهذا يدل على تمسك الناس بالعبادة " . وقد أضاف نور الدين عدة مساجد أخرى فى أماكن متفرقة من المدينة .

وقد أدخلت تحسينات وإصلاحات كثيرة على الجامع الكبير .

وفى مجال التعليم أضاف نور الدين ١٢ مدرسة جديدة غير تلك التى كانت موجودة وقدرها إحدى عشرة مدرسة لم يتبق منها الآن سوى مدرستين إحداهما تحمل اسمه : المدرسة النورية والثانية لم تكتمل إلا فى عام ١٢٢٣ فى عصر الدولة الأيوبية وسميت باسم : المدرسة العادلية .

اقترن رد فعل الجماعات السنية التى شجعت ظهور المدارس باتجاه قوى لتيار التصوف حيث يرتدى الصوفيون ملابس بسيطة من الصوف وتحركهم رغبة عميقة لتطهير نفوسهم وأبدانهم والتفرغ للعبادة حتى يشعرون أنهم اتحدوا بالخالق سبحانه وتعالى . كان الصوفيون يعيشون كجماعة تحت سلطة أحد الشيوخ فى مكان يعتكفون فيه ويتعبدون بعيداً عن الناس يسمى بالخانقاه . وتصميم الخانقاه واحد فى كل مرة ، فحول صحن رئيسى به حوض أو مغطس يوجد مكان كبير لإقامة الصلاة وإيوان وقاعات اجتماعات وغرف للنوم ، وفى إحدى زوايا المبنى توجد مستودعات ومراحيض ومطابخ .

وفى عهد نور الدين كانت توجد سبعة أماكن من الخانقاه فى دمشق واحدة منهم شمال الجامع الكبير وكانت مخصصة بالكامل للنساء .

وفى عام ١١٦٩ - ٧٠ عمل نجم الدين أيوب على إنشاء خانقاه النجمية فى حى باب البريد وذلك قبل رحيله مباشرة إلى القاهرة كما قام أسد الدين شيركوه ببناء خانقاه سميت الأسدية . وقام الأمير سيف الدين جروخ ببناء خانقاه . وفى خارج المدينة بنيت واحدة أخرى سميت الخاتونية نسبة إلى الأميرة عصمت الدين خاتون ابنة منير الدين أونور وزوجة نور الدين . وعلى سفح جبل قاسيون بنيت خانقاه لأتباع

المذهب الحنبلى . وقد أعرب ابن جبير عن دهشـته لكـثرة ما بنى من هـذه الأماكن بل وتهكم بأنها أقرب ما تكون لقصور مزدانة من الداخل يجرى فيها الماء وتطل على منظر رائع وأضاف قائلاً : " هؤلاء المتصوفة هم ملوك فى هذه البلاد لأن الله سبحانه وتعالى قد أبعد عنهم هموم الحياة فى هذا العالم وتفرغوا تماماً للعبادة . وهم يسكنون فى قصور وعدتهم بالجنة " . ولكن ابن الجوزى الخبيث وصفهم بأنهم غشاشون ودجالون وهجاهم بألفاظ قاسية : " يوجد مطبخ فى كل خانقاه وبالتالى لم يحدث أن قضوا فيه أى ليلة فى التأمل والخشوع والمغطس ممتلئ دائماً والمغنى يدق على الدف وهو يختال ويتمايل وزميله يعزف على الناى وتوجد فتيات فى الغناء " .

تمت الإنشاءات والإصلاحات للمبانى الدينية لتشجيع الناس على الورع الدينى وأيضاً للسيطرة عليها والمحافظة عليها فى أضيق الحدود حسب السنَّة . وأقام نور الدين عدة أماكن للمزارات كالمشهد والمقام لتكريم ذكرى الأنبياء : آدم وإبراهيم وموسى وعيسى ، وصحابة الرسول الكريم .

وبعد دخول نور الدين دمشق بفترة قصيرة ، أنشأ فى حى الأروان سوق الحميدية الموجود حاليا ودار العدل وهو بمثابة محكمة عليا . وقبل إنشاء دار العدل كان كبير القضاة يحكم فى القضايا المعروضة عليه فى الجزء الغربى من الجامع الكبير . كان كبير القضاة يشرف أيضاً على بيت المال والورش الخاصة بصك النقود . وفى الناحية الدينية كان يؤم الصلاة ويلقى خطبة الجمعة ويتولى إدارة المساجد والأوقاف .

أجريت إصلاحات وتعديلات كثيرة فى الجامع الكبير بدمشق . وقد اكتشف عام ١٩٣٥ نقش غير سليم للوحة من الفسيفساء تسجل الأعمال والإصلاحات التى تمت عام ١١٥٩ : إصلاح السقف الخاص بالصحن المستعرض ، وضع تكسية من الرصاص على غطاء الرواق الشمالى ، تحويل قاعتين تقعان فى الجانب الغربى إلى مصلى للصلاة على الأموات ، وحاليا بهو الدخول للزوار غير المسلمين . كما تم إصلاح الزاوية الشمالية الشرقية للفناء وتركيب ساعة مائية عند باب جيرون ، وهى أحد

اختراعات مؤيد الدين الحارثي ، الطبيب ونجار الأثاث بالمستشفى . وقد تغير اسم باب جيرون إلى باب الساعات واحتفظ باسم باب حائط القبلة كما ذكره لنا ابن جبير .

ورغم حدوث تعديلات فيما بعد ، ومنها إصلاحات مدمرة حدثت عام ١٩٩٠ ، فإن المخطط والطابع العام للمبنى ظل كما هو عند تأسيسه .

وعلى صعيد الآثار التذكارية فإن القرن الذى قضته الأسرة الأيوبية ، كان فترة تميزت بالزيادة الرهيبة فى العمران . فقد أنشئت عدة مئات من المبانى المدنية والتجارية والدينية وحوالى مائة منها لازالت موجودة حتى اليوم . أما الباقى فقد عرفناه من النصوص ، مما جعل دمشق اليوم من أكثر المدن الإسلامية التى أقيمت فيها مبان أيوبية . ففى عام ١٢٥٩ ، وليلة الغزو المغولى قام ابن شداد بحصر ٨٤ حمامًا داخل المدينة أى أكثر من ضعف ما ذكره ابن عساكر قبل قرن . أما عن المدارس فكان يوجد بها ٢١ مدرسة عندما دخل صلاح الدين المدينة عام ١١٧٤ . وفى عهده أضيفت تسع مدارس أخرى . وفى عهد خلفائه صار عدد المدارس حوالى ستين فى الفترة من ١٢٢٠ ، ١٢٦٠ وهى فترة الرخاء للإمارة الأيوبية لدمشق . وحسب التقاليد التى تميزت بها سوريا الأيوبية كانت أغلب المدارس التى أنشئت مدارس مآتم تشمل قبر مؤسس المدرسة حيث يتمتع بقراءة القرآن على روحه . كما أن إنشاء المدارس كان وسيلة سهلة لوضع ممتلكاته بعيداً عن أى استيلاء أو مصادرة .

أما الهندسة المعمارية العسكرية فقد قامت نتيجة التنافس مع الفرنجة وحظيت بأحدث الابتكارات التكنولوجية . فقد تم إصلاح وتعديل العديد من أبواب السور مع إجراء تعديل فى السور والحفرة : باب الجابية والباب الخارجى لباب الفرادس فى القرن الثالث عشر ، وباب توما عام ١٢٢٧ ، والباب الداخلى لباب الفرج عام ١٢٣٩ ، وباب السلام عام ١٢٣٤ .

أما عن القلعة فهى العمود الفقرى للدفاع عن المدينة وحماية الأمير . فقد أعيد بناؤها بالكامل ابتداء من عام ١٢٠٦ وأدخلت عليها عدة تحسينات فى الهندسة

المعمارية العسكرية . وبذا أصبحت أكبر المبانى فى سوريا وتأخذ شكلاً مستطيلاً ومزودة ببابين ومحاطة بثلاثة عشر برجا ضخماً .

وقد كتب الرحالة الأندلسى ابن جبير الذى أقام بدمشق عام ١١٨٤ بعد عشر سنوات من دخول صلاح الدين لها وقبل دخوله حطين بثلاث سنوات معبراً عن إعجابه الشديد لما لمسه وقال : " إنها جنة الشرق والأفق الذى يصعد إليه الجمال المضيء والرائع . إنها عروس المدن الإسلامية التى كشفت عن بهائها . فهى مزدانة بالزهور والورود والرياحين ، وتكون البساتين حولها هالة لتلك التى تحيط بالقمر . وفى جهة الشرق تمتد الغوطة الخضراء إلى أبعد من مدى البصر . وتقول الخضرة عنها : " لو كانت الجنة على الأرض ، فإن دمشق - بلا شك - جزء منها . وإذا كانت فى السماء ، فإن دمشق تكون ضعفها " . فالمدينة كلها مليئة بنوافير المياه . ومن النادر أن تجد أيا من شوارعها أو أسواقها يخلو منها . حفظها الله من كل شر وأبقاها ذخراً للإسلام " .

وإلى الشمال من الجامع الكبير ، وفى حى الكلاسة أقيم قبر صلاح الدين الذى يرقد فيه جثمانه بعد أن دفن مؤقتا فى القلعة حسب التقاليد فى ٤ مارس ١١٩٣ . حمل النعش المماليك والأغوات والمقربين من المتوفى وأقيمت صلاة الجنازة عليه فى الجامع الكبير . صمم القبر حسب النمط المعمارى السائد فى ذلك العصر : صالة مربعة تعلوها قبة ذات ستة عشر ضلعا وترتكز على عمودين أسطوانيى الشكل .

وبجانب المقبرة التى بنيت من الرخام الأبيض ، كهدية من الإمبراطور غليوم الثانى ، فإن القبر التذكارى الذى صنع من الخشب المنحوت، والذى أقيم فى وسط غرفة المأتم عام ١٩٠٣ ، لا يوجد منه سوى جانبين فقط من الأجزاء الأصلية التى صنعت فى القرن الثانى عشر . توجد لوحات مزدانة بمجموعات من الزهور المنحوته بشكل بارز وبزوايا متعددة ، وفى كل زاوية يوجد إفريز رأسى عليه زخرفة من قرون كثيرة وزهور وعناقيد عنب . وقد صنف جان سوفاجيه هذه الأعمال الفنية بأنها من أجمل ما صنع فى القرن الثانى عشر فى الشام وخاصة التشبيك الزهرى الذى

يدل على تحـفـة فنيـة رائعـة . أمـا الزجـاج المدعـم بالجـص والتكسـيـة بالخـزف المزخرف فقد أعيد إصلاحها وترميمها عام ١٦٢٧ على يد أحد الباشوات العثمانيين تـقديراً منه لصلاح الدين وعرفانا له بالجميل على ما بذله من تخليص بيت المقدس من " دنس الكفار " .

وبعيدا عن باب الفرادس أقيم قبر ابن المقدم الذى بناه الأمير فخر الدين إبراهيم الذى توفى عام ١٢٠١ ودفن فيه ابن شمس الدين محمد بن المقدم الذى كان حاكما لدمشق فى عهد نور الدين فخر الدين حاكم بارين ثم منبج .

يتميز البناء بأنه تأثر بالطراز المعمارى الحلبى ، إذ يختلف عن الطراز الذى كان سائدا فى دمشق بالنسبة للأضرحة . فغرفة الضريح (الدفن) مربعة الشكل وتفتح على الخارج بأربع كوات مقوسة عالية فى منتصف كل ركن من الأركان الأربعة للغرفة ، ويعلوها من الخارج حلق على الطريقة المصرية ، وفى الداخل إفريز بارز. غطيت غرفة الضريح بقبة ترتكز على أسطوانتين ومبنية من الحجر ، وتحتوى على أضلاع عمودية الشكل تبدو من الخارج على أنها نصف دائرية . كما أن حجر العقد مكون من كتلة حجرية واحدة والزخرفة مركزة أساساً على الواجهة الداخلية للأسطوانات وهى عبارة عن زهور موزعة بطريقة متناسقة حول المحور الرأسى .

أسست مقبرة الأميرة عصمة الدين خاتون (هانم) ابنة معين الدين أونور وكانت قد تزوجت نور الدين عام ١١٤٧ . وبعد عامين من وفاته أى فى عام ١١٧٦ تزوجها صلاح الدين الأيوبى لمحاولته بكل الوسائل مساندة ادعائه فى أن يرث آل زنكى وقد تزوجها فى زواج خامس . تميزت الأميرة عصمة الدين بالطهر والنقاء وتمسكها بالتقاليد الإسلامية . توفيت فى ٢ إبريل عام ١١٨٥ . تم تكسية قاعة المأتم بالجص المنقوش وهو الوحيد الذى ظل على حالته الأصلية .

أما الأماكن الأخرى الملحقة فقد تحولت إلى مسجد عام ١٣٨٨ وسمى بالمسجد الجديد وتم ترميمه وتوسعته فى العصر العثمانى عام ١٥٦٨ .

تأسست المدرسة البدرية فى نهاية القرن الثانى عشر على يد الأمير بدر الدين حسن شقيق الأمير نور الدين فى الرضاعة .

وفى الجهة الجنوبية من شارع الصالحية الكبير تقع مقبرة الحسن بن سلامة والتى تعلوها قبة مضلعة ومحفور على الساكف الموجود أعلى الشباك اسم المرحوم وتاريخ وفاته ١٢١٣ ، وتسبقهما أيتان من القرآن الكريم : ﴿ كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ (٢٦) وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ (٢٧) ﴾ .

وإلى الشرق من مقبرة عصمة الدين خاتون (هانم) وشمال نهر يزيد ، توجد مقبرة الأمير سابق الدين مثقال الذى كان يشغل منصبا رفيعًا فى عهد صلاح الدين حيث كان حاجبه الأمين . وعلى ساكف الشباك كتب اسم المتوفى وتاريخ وفاته . وعلى واجهة المقبرة ذكرت الآيات القرآنية التالية : " إن الموت الذى تفرون منه فإنه ملاقيكم ثم تردون إلى عالم الغيب والشهادة فينبئكم بما كنتم تعملون " . وعلى الواجهة الغربية للمقبرة كتبت الآية التالية : " يبشرهم ربهم برحمة منه ورضوان وجنات لهم فيها نعيم مقيم " .

وفى الطرف الشرقى – الصالحية – أقيمت مدرسة المآتم للأمير ركن الدين منكويريش الذى كان حاكما لمصر وحاكم دمشق فى عهد الملك العادل .

وإلى الغرب قليلاً من مقبرة عصمة الدين خاتون ، أقيمت مدرسة المآتم للأميرة تاركان خاتون حفيدة زنكى وشقيقة حاكم الموصل نور الدين أرسلان شاه وزوجة الأشرف موسى الذى حكم دمشق فى الفترة من ١٢٢٨ إلى ١٢٣٧ وسميت بالمدرسة الأتابكية . توفيت الأميرة تاركان فى سبتمبر عام ١٢٤٢ ، ودفنت فى مدرستها ووهبتها للوقف ليلة وفاتها . وترجع عمارتها إلى العصر المملوكى وهدم الجدار الفاصل بين قاعة المآتم وقاعة الصلاة .

وعلى مقربة من مقبرة ابن سلامة أنشئت مدرسة مآتم لشقيقة أخرى لصلاح الدين ، حيث تزوجت سعد الدين مسعود بن معين الدين أونور . وبعد وفاته تزوجت

بأمير تركمانى هو مالك مظفر الدين أمير أربيل وعاشت معه أكثر من أربعين عاما . وبعد وفاته عادت إلى دمشق وعاشت فى منزل العقيق الذى يمتلكه والدها نجم الدين أيوب ، وماتت فى دمشق عن عمر يناهز الأربعة والثمانين عاما ودفنت بمدرستها المعروفة حاليًا باسم المدرسة الصاحبية حيث أوقفتها لصالح المدرسة الحنبلية .

لا يزال البيمارستان الذى بناه نور الدين قائما حتى اليوم فى دمشق .

أما التصميم المعمارى للمبنى الذى حافظ على الطراز الأيوبى فى دمشق فهو المدرسة الصاحبية وهو مستوحى أيضًا من بيمارستان النورى . ويتميز بتناسق كامل : مدخل ورواق وصحن مربع به بركة ماء مركزية وإيوان كبير وإيوانان صغيران وحوالى عشر قاعات تفتح على الصحن . غطى المدخل والقاعات بقنطرة نصف أسطوانية . يتميز التصميم بالوضوح والمساحات الكبيرة والبساطة التى تصل إلى حد التقشف . أما قبة الإيوان فهى مغطاة بطبقة من الجص وزخارف بشكل سعف النخل أو بشكل الزهرة . وعلى القبة نفسها حفرت الكلمات التالية باللون الأحمر على أرضية خضراء وبالخط النسخ : " لا إله إلا الله محمد رسول الله " .

وقد أدت زيادة السكان فى الضواحى واتساع رقعتها إلى إنشاء عدد آخر من المساجد الكبرى بخلاف جامع الحنابلة بالصالحية : مسجد التوبة فى العقيبة ومسجد الجارة فى الشاغور ومسجد المصلى فى ميدان .

كما كان يوجد فى ضاحية العقيبة خان يعرف باسم الزنجارى مخصص لاستمرارية التقاليد الخاصة بمتع الحياة من لهو وخمر ، ويرتكب الناس فيه كل صنوف الخطايا وجميع الأعمال غير المشروعة من جانب المغنيات . وكان الخان ذا طابع تجارى محض يمارس فيه البغاء مقابل مبالغ معينة يدخل جزء منها فى خزانة الدولة .

فى عام ١٢٢٨ صار الأمير الأشرف موسى حاكما على دمشق وكان يتميز بالورع والأخلاق الحميدة والتقوى .

وفى عام ١٢٣٢ أمر بهدم الخان - الحانة وأنشأ مكانه مسجداً كبيراً يشبه الجامع الأموى .

أما عن الحمامات فى العصر الأيوبى فلم يتبق منها إلا عدد قليل جدا يشبه تماما حمامات عصر نور الدين .

أنشأت الأميرة أدرا خاتون ابنة أخ صلاح الدين حماما سمى حمام الست آدرا عام ١١٩٦ بالقرب من مدرسة المأتم : المدرسة الأدراوية والتى هدمت أثناء القصف على دمشق عام ١٩٢٥ ، ثم دمرت تماما عام ١٩٣٦ أثناء إعادة بناء الحى .

وفى مجال الهندسة المعمارية العسكرية ، فقد اهتموا أولاً بإصلاح وترميم وإعادة إنشاء بعض أبواب المتاريس والأسوار الواقية .

وابتداء من عام ١٢٠٦ كانت القلعة نفسها موضع اهتمام كبير من جانب الملك العادل حيث بدأ فى إعادة إنشائها لأنه كان مشغولاً بحماية نفسه من هجمات أبناء أخيه أكثر من اهتمامه بحماية نفسه ضد الفرنجة . وفى الركن الشمالى الغربى منها لا يزال يوجد ستة أبراج من ثلاثة عشر . أما فى الجهة الجنوبية فلا زالت الأبراج بحالة جيدة حيث يصل سمك جدار كل برج أكثر من ثلاثة أمتار .

يوجد للقلعة بابان رئيسيان وهناك باب ثالث يطلق عليه باب السر يستخدم لمغادرة القلعة سرا أو الدخول إليها باجتياز جسر خشبى مقام على حفرة ويقع هذا الباب فى الواجهة الغربية .

وقد استخدمه العثمانيون كباب رئيسى فى الدخول إلى القلعة . قام المماليك بإدخال تعديلات وإضافات لكنها لم تغير الطابع العام للقلعة .

ورغم أن القلعة جزء أساسى فى الدفاع عن دمشق ، إلا أنها كانت قبل أى شىء آخر مركز السلطة السياسية ومقر الأمراء والسلاطين حيث كانت تستخدم كمقر خاص للأمير وحاشيته وأيضًا قاعة العرش ، أى إيوان لإيواء الذين يحضرون للمقابلات

الرسمية والولائم ويضم كذلك مكاتب الإدارة المدنية والعسكرية ومقر البريد باستخدام الحمام الزاجل وثكنات الحرس ومستودع الأسلحة والخزانة ودار صك النقود وحديقة وسجن الدولة بل وصل الأمر إلى استخدامها كمدفن للعائلة المقيمة . لقد كانت القلعة عبارة عن مدينة داخل مدينة كما كان بداخلها السوق الخاص بها وحماماتها وجامعها الكبير ليتمكن جميع المقيمين بداخلها من أداء صلاة الجمعة بعيداً عن إزعاج الدمشقيين لهم .

وبالإضافة إلى إنشاء عدة مئات من المبانى الجديدة لم تتوقف حركة الترميم والإصلاح وإعادة البناء للمبانى التى تضررت بالحرائق أو بالزلازل الأرضية ، مثل مدرسة الكلاسة والمئذنة المجاورة للعروس التى احترقت وأعيد إصلاحها فى عام ١١٧٤ بعد فترة قليلة من اعتلاء صلاح الدين حكم سوريا . وبالتأكيد كان الجامع الكبير موضع الاهتمام الدائم لأمراء الأسرة الأيوبية .

وفى عام ١١٧٩ أمر صلاح الدين بإعادة تكسية عمودى القبة بالرخام . كما تم إصلاح مسجد خالد بن الوليد . أما اليوم فقد دمر بالكامل ولم يتبق منه سوى محرابه الجميل حيث تم إصلاحه فى عام ١٩٨٤ .

وفى دمشق وكما ذكر ابن عساكر من قبل أن جبل قاسيون "هو أحد أربعة جبال من الجنة " حيث كان يوجد فى قمته مغارة أدم التى كانت موضع تبجيل واحترام فترة طويلة واتخذت كمصلى ، وعلى بعد مسافة قصيرة منها " مغارة الدم " قرب المكان الذى قتل فيه قابيل أخاه هابيل " وترك أثر جريمته حيث توجد علامات حمراء على الحجر " وفى عصر ابن جبير كانت المغارة تضاء بمصابيح بفتيل . وهناك مغارة أخرى يطلق عليها مغارة الجوع لأنه كما ذكر فى الأسطورة أن أكثر من سبعين نبيا لم يكن لديهم من طعام سوى الخبز الجاف وماتوا جميعا من الجوع . وفى ١١٨٤ وفى أسفل المنحدر الغربى لجبل قاسيون يرتفع "التل المبارك " تل نيراب القديم والذى أصبح يسمى باسم الربوة حيث أقام المسيح وأمه كما ورد فى الآية التالية :

﴿ وَجَعَلْنَا ابْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُ آيَةً وَآوَيْنَاهُمَا إِلَىٰ رَبْوَةٍ ذَاتِ قَرَارٍ وَمَعِينٍ (٥٠) ﴾[1] وفى المغارة التى أقام بها المسيح حيث يهرول المؤمنون للصلاة هناك توجد نافورة عدلت لتصير كحوض للوضوء ومزودة بالماء الجارى . ويقال إن قبر مريم موجود على هذه الربوة . كما أن إلياس لجأ إلى هذا المكان هربا من ملوك قبيلته وعلى سفح هذا الجبل المبارك توجد قرية برزا حيث تذكر التقاليد الإسلامية أن إبراهيم ولد فيها . وهناك قرية بيت لاهيا وتقع بين دمشق وبرزا والتى أمضى إبراهيم فيها طفولته وحطم الأصنام التى كلفه والده ببيعها ، وأقيم مسجد صغير فى هذا المكان إحياء لذكرى العصيان الطفولى واعتبر هذا العمل أساساً لوحدانية الله .

وبخلاف مقابر الأنبياء الذين ذكرهم ابن جبير لم يتردد فى أن يذكر أيضاً قبر موسى عليه السلام وأن العدد سوف يزداد بمرور الزمن ، فهناك الخلفاء الأمويون والصحابة وزوجة الرسول الكريم أم حبيبة شقيقة الخليفة معاوية والتى أطلق عليها اسم " أم المؤمنين " . كما يقال إن قبر بلال مؤذن الرسول موجود هناك .

يبالغ الدمشقيون فى تبجيل الحجاج القادمين من مكة ويلمسون أياديهم تبركا بهم ، وتقدم لهن النساء الخبز وما إن يقضموا منه لقمة حتى ينتزعونها من فم الحجاج لتأكلها النسوة تبركا .

ومن عادات أهل دمشق : أولاً طريقة تبادل التحية " إنها نوع من انحناء الرأس والجسم حيث ترتفع الرقبة وتنخفض وقد يستغرق ذلك وقتاً طويلاً . ينحنى الأول ويرفع الثانى رأسه .

ويذكر المغربى أن هذه العادة قبيحة ولا يقوم بها إلا النساء من الطبقات الدنيا والعبيد".

---

(١) سورة المؤمنون الآية ٥٠ .

الفصل الثالث

حكم الأتراك

وهكذا وفى المنصورة وتحت سمع وبصر لويس التاسع وجيشه تم ارتكاب الجرائم ، ففى ٢مايو ١٢٥٠ اغتيل توران شاه المؤسس الفعلى لدولة المماليك والتى ستمتد سلطتهم على الشام ومصر حتى مجىء الأتراك العثمانيين عام ١٥١٦، وهكذا نشأت دولة لم تكن فى الأصل سوى نزوة واندفاع من قبل عسكر غير منظمين كانوا مهددين بإجراء غير منطقى من جانب سلطان شاب عديم الخبرة . وفى الأعوام التى تلت هذه الأحداث استمر التهديد الصليبى كما تقدمت القوات المغولية فكان على المسلمين مواجهة هذا الخطر الصليبى المغولى المشترك فى وقت واحد والحيلولة دون قيام اتحاد بينهما . فإذا كان الأيوبيون قد تصدوا للغزو الصليبى فإن سلاطين المماليك تصدوا للغزوين الصليبى والمغولى معا .

تمكن الخليفة وسلاطين الشام من توحيد قواهم وخلق الظروف المواتية لصعودهم للسلطة العليا . إلا أن ولادة هذه الدولة المملوكية مرت بعقبات وصعوبات وثورات واضطرابات واغتيالات . ففى ١٢ أبريل ١٢٥٧ أمرت شجرة الدر بقتل زوجها الأمير المعز أيبك ، وبعد ثلاثة أيام قتلت هى أيضا بالقباقيب واعتلى الحكم المنصور على بن المعز أيبك . ولكن فى ١٢ نوفمبر ١٢٥٩ نودى بالأمير سيف الدين قطز الذى كان مملوكا لوالد المنصور على سلطانا باسم الملك المظفر . وبعد أقل من عام انتصر على المغول وحقق انتصارا ساحقا عليهم فى عين جالوت بفلسطين فى ٣ سبتمبر ١٢٦٠ .

احتل قطز دمشق لينطلق منها فى مد نفوذه وتدعيم سلطته على الشام . وللمرة الأولى منذ وفاة صلاح الدين تتم الوحدة من جديد بين مصر والشام تحت سلطة واحدة . وتغيرت ظروف الصراع ضد ما بقى من إمارات وممالك صليبية تغيرا كبيرا . فعندما وصل قطز إلى القاهرة قتل أثناء قيامه برحلة صيد عند القصير على يد جماعة من المتآمرين بقيادة مملوك قديم للملك الصالح وهو الأمير التركى بيبرس الذى كان يشعر بالسخط لعدم تعيينه حاكما على حلب . قام الأمراء الذين اشتركوا معه فى المؤامرة بتعيينه سلطانا باسم الملك الظاهر . ودخل بيبرس إلى القاهرة التى كانت تنتظر قطز لكن القاهريين لم يتأثروا كثيرا بالتغيير . كانت القاهرة مزدانة بالأعلام ابتهاجا بوصول قطز ولكن أصواتا عالية كانت تنادى : « اطلبوا الرحمة للملك المظفر وتمنوا الخير للسلطان الملك الظاهر » ، وهكذا تمت اللعبة كما عبر بذلك ابن السقاعى الذى كان معاصرا للأحداث وموظف مسيحى فى الإدارة المملوكية .

أرسى بيبرس قواعد وأسس الدولة الجديدة التى أصبحت من أقوى الدول فى التاريخ الإسلامى ، فعمل على تقليل نفوذ الإمارات التى تتمتع بالحكم الذاتى ووحد الشام تحت سلطته . وابتداء من عام ١٢٦٨ لم يتبق سوى حماة التى كانت مستقلة بقيادة أحد الأمراء الأيوبيين أعد بيبرس جيشا قويا لملاقاة المغول الذين كانوا يهددون الحدود الشمالية للشام وينتزعون مدينة تلو أخرى والأماكن المحصنة .

وأعلن الجهاد الذى نادى به من قبل صلاح الدين .

تميز بيبرس بخبرته الحربية والإستراتيجية وبأنه محارب شرس وعنيف وصلف لا يكل وعديم الذمة وقاسى القلب ، كما يتمتع بذكاء سياسى لا يجاريه أحد وبطاقة لا حدود لها ووصل إلى السلطة بعد أن قتل حاكمين : توران شاه وقطز ولذا فهو يستحق اسمه عن جدارة ذلك أن " بيبرس" معناها فهد أو نمر شرس .

كانت سياسته العسكرية مكلفة للغاية ، إذ اعتمدت على سياسة ضريبية عنيفة وشرسة لم يعمل بها أحد من قبل .

وذكر المقريزى أنه "كان يهوى ممارسة أعمال الابتزاز لصالح خزانة الدولة ويفرض ضرائب باهظة على الأفراد ، واخترع وزيره غرامات وضرائب جديدة وقام بمسح أراضى الملاك وفرض عليهم غرامات باهظة وهلك الكثيرون منهم بسبب المعاناة والعذاب الذى حل بهم . كما قام بمضاعفة الخراج المفروض على أهل الذمة (وكان يجبرهم على ارتداء ملابس خاصة بهم) وطالبهم بدفع ضرائب أخرى كان يحصلها منهم بعد تعذيبهم بالسياط . واعتبر أن أراضى الغوطة ملك له وقرر ابتداء من عام ١٢٦٧ إجبار الملاك القدامى على دفع إتاوات . وعندما توجه إلى الأناضول فى حملة تصنع التمسك بالشريعة الإسلامية وجامل العلماء ، ورفع عن الشعب ضرائب استثنائية كانت مفروضة على المدينة والقرى المحيطة بها بمقدار مليون درهم . ورغم كل ذلك ، لم يتردد المقريزى فى الكتابة عنه قائلاً إنه كان أفضل الحكام الذين حكموا المسلمين وأنه لابد أن نذكر انتصاراته على الفرنجة والمغول وأنقذ بذلك مصر وسوريا من الانقسامات وحمى سكانهما من العبودية والإذلال .

بدأ بيبرس بتنظيم دولته المترامية وتدعيم سلطته ، فعمل على تحديث الترسانة والأسطول وبدأ بتصنيع أعداد كبيرة من السفن الشراعية الحربية فى موانئ دمياط والإسكندرية ونظم البريد وأوجد مواقف للإبدال على كل الطرق بحيث تصل الأخبار من دمشق إلى القاهرة فى غضون أربعة أيام .

كان همه الشاغل حماية الشام ضد أى هجوم مغولى وفى الوقت نفسه الاستعداد لمحاربة الصليبيين فأوجد عدداً ضخماً من القلاع المحصنة فى عجلون وصلخد وبصرا وبعلبك .

اتبع بيبرس سياسة التملق لأشراف مكة . ففى عام ١٢٦٣ أرسل بطريق البحر عددا كبيرا من البنائين والنجارين ومعهم كميات من المواد لإصلاح وترميم المسجد النبوى بالمدينة . وفى العام التالى أرسل كميات من الشمع والطيب والعطور والزيوت . وفى عام ١٢٥٦ سلم أمير الحج مبلغ عشرة آلاف قطعة فضية لإعادة إنشاء المحراب النبوى . وفى عام ١٢٦٩ قام بأداء فريضة الحج .

ولجأ إلى رجال الشرطة مدعيا تطبيق الشريعة فمنع بيع المشروبات الكحولية أو تعاطيها ، وفى عام ١٢٦٤ منع البيرة . وفى عام ١٢٧٠ أمر بعدم حظر النبيذ وألغى الضرائب المفروضة على بيعه . وفى عام ١٢٧١ نفذ إصلاحات مهمة فى الجامع الكبير بدمشق .

وعلى الصعيد العسكرى قاد حربًا لا هوادة فيها ضد الإسماعيليين والمغول والصليبيين والأرمن وحقق عدة انتصارات وأوقف توغل المغول فى الشام . وبالنسبة للصليبين وجه ضربات حاسمة وقلل من الممالك التى كانوا يسيطرون عليها وتقلصت إلى مجرد شريط ساحلى صغير . وفى عام ١٢٦٥ استولى على القيسارية وحيفا وأرسوف وتبنين . وفى عام ١٢٦٦ استولى على صفد . وبعد عامين تمكن من إخضاع الإسماعيليين .

وفى عام ١٢٦٦ أمر بيبرس ببناء قصر له فى الميدان الأخضر سمى بقصر الأبلق وهو المكان الحالى للتكية السليمانية . ثم قام بتشييد قصر بالاسم نفسه فى القاهرة .

وفى يونية ١٢٧٧ وبعد عودته من حملة قادها ضد المغول عاد إلى دمشق للإقامة فى قصر الأبلق ابتلع بطريق الخطأ كأس السم الذى كان مخصصا لأحد الأمراء الذى كان يرغب فى التخلص منه فأصيب بحمى شديدة وإسهال حاد ومات بعد بضعة أيام وعمره خمسون عاما بعد أن حكم سبعة عشر عاماً .

وفى القاهرة ذكر المقريزى أن أحد أبنائه - الملك السعيد - شعر ببهجة عارمة لدى سماعه نبأ وفاة والده واعتلائه الحكم .

نقل جثمان بيبرس مؤقتا إلى القلعة إلى أن يتم تجهيز مقبرة له ودفن بالمدرسة الظاهرية بدمشق التى أمر ابنه السلطان سعيد ببنائها .

وعندما اكتمل بناء المقبرة نقل جثمانه ليلاً من القلعة إلى الجامع الكبير وأقيمت الصلاة عليه ، ثم توجهوا به إلى المدرسة التى أنشئت له ودفن تحت القبة بحضور نائب

سوريا . والمدفن له باب دخول وقاعة مربعة الشكل يعلوها قبة ترتكز على عمودين أسطوانيي الشكل كل منهما ذو ثمانية أضلاع . والجدران الداخلية للقاعة الجنائزية مغطاة بلوحات من الفسيفساء الذهبية ذات التقنية البيزنطية . ويوجد محراب بين عمودين صغيرين فى منتصف لوحة متعددة الألوان ومزدانة بتشبيك زهرى بخطوط متعددة الزوايا . وفى الخارج ازدانت الواجهات الغربية والجنوبية بحليات محفورة حول كوة بيضاوية الشكل . أما الباب فهو الجزء الأكثر أهمية فى المبنى ، فقد ثبت داخل حائط مستطيل الشكل من الحجر الأسود والأصفر مع تكسية بالرخام ، كما يوجد إفريزان عليهما كتابة بالخط النسخ المملوكى . تتكون القبة من أربعة صفوف من الزركشة المقرنسة Muqarnas يعلوها صدفة .

وفى عام ١٢٧٨ وصل الملك السعيد ووالدته والأمراء والحاشية إلى دمشق وألغى الضريبة السنوية التى فرضها والده على حدائق الغوطة . وفى العام التالى أجبر على التنحى وعزل فى قلعة كيراك وأعطيت له كإقطاعية . وخلفة شقيقه الأصغر سلاميش البالغ من العمر سبع سنوات بوصاية الأمير قلاوون الذى كان يحكم بمفرده . وبعد مائة يوم ، أبعد سلاميش بدوره ولحق بشقيقه فى قلعة كيراك وأخذ قلاوون لقب الملك المنصور وتولى الحكم . وفى دمشق وما إن خلع السعيد بن بيبرس وتولى قلاوون السلطان حتى ثار سنقر الأشقر ١٢٧٩ حاكم الشام مؤيدا بفتوى من قاضى القضاة ابن خلكان . ولكن هذه الثورة أخمدت فى العام التالى .

وفى القاهرة عين السلطان قلاوون ابنه علاء الدين وليا للعهد وسار على رأس جيش قوامه خمسون ألفا متجها إلى دمشق وانضم إلى وحدات عسكرية من التركمان والعرب وبينما كان الجيش يسير بمحاذاة نهر العاصى لملاقاة المغول كان الناس فى دمشق قد انتابهم الرعب والفزع وأخذوا يتضرعون إلى الله لنصرتهم على العدو . وفى ٢٩ أكتوبر ١٢٨١ وفى سهل حمص ، وعند أول ضوء من الصباح وجد جيش المسلمين نفسه أمام خمسين ألفا من المغول وثلاثين ألفا من جورجيا واليونان وأرمينيا

والفرنجة . جهز قلاوون جيشه للمعركة ، وضع على الجناح الأيمن عرب القبائل وعلى الجناح الأيسر التركمان وفى الوسط الأمير تورونتاى نائب مصر ومعه السلطان قلاوون محاطا بالمقربين إليه وثمانمائة مملوك وأربعة آلاف فارس كحرس شخصى له ويشكلون القوة الرئيسية للجيش .

ومنذ اللحظات الأولى للاشتباك تحطم الجناح الأيسر للجيش المملوكى وتشتت المنهزمون ووصل بعضهم إلى دمشق واستعد سكان دمشق للهرب إلا أن المعركة تحولت فى النهاية لصالح المماليك ووصل الخبر بالنصر عن طريق الحمام الزاجل واطمأن الناس وعزفت الموسيقى . وفى ٧ نوفمبر وصل قلاوون إلى دمشق فى احتفال رسمى ثم عاد السلطان إلى القاهرة حيث وصلها فى ٦ ديسمبر .

وفى عام ١٢٨٦ قام تحالف بين المغول والفرنجة فخرق قلاوون الهدنة التى عقدت عام ١٢٨١، وجهز حملة فى دمشق وهاجم حصن المرقب وفى ١٧ أبريل ظهر أمام الحصن جيش قوى يضم وحدات عسكرية مزودة بنقابين وعمال حفر وصناع الأسهم النارية ومجهزين بعتاد حربى وأسهم للرماية ونفط وقاذفات لهب ومجموعة أدوات للحصار وأجهزة للحرب . وفى ٢٥ مايو وبعد حصار دام ثمانية وثلاثين يوما ، استسلم رجال الدين المسيحى . وبعد عامين سقطت اللاذقية وتخلص شمال الشام من أى وجود صليبى ، وفسر رجال الدين المسيحى أن الكارثة التى وقعت هى عقاب من الله أنزله على المسيحيين لاختلاف آرائهم وبعدهم عن الإيمان .

وفى ٨ فبراير ١٢٨٩ وصل قلاوون إلى دمشق واستعد للتوجه إلى طرابلس لحصارها . وفى ٢٦ أبريل وبعد حصار دام أربعة وثلاثين يوما ، توغل جيش المماليك فى المدينة .

وبعد أن عاد إلى القاهرة عجل من استعداداته العسكرية للهجوم على عكا وهى مركز ورمز ما تبقى من الفرنجة فى الشام . وفرضت ضرائب باهظة على سكان دمشق وعلى قرى المرج والغوطة . وتوفى قلاوون فى ١٠ فبراير ١٢٩٠ .

وفى سبتمبر عام ١٢٩١ بدأت أعمال الإصلاح فى قلعة دمشق تحت إشراف النائب الأمير سنجرشوجاى ، فقد أعيد بناء قصر السلطان والقبة الزرقاء . وتم جلب الرخام من جميع مناطق الشام . أما فى دمشق فقد ذكر الجزارى " نُزع الرخام من الأعمدة الرومانية الضخمة " . نفذت الزخرفة بعناية فائقة . ولتزيين الأسقف استخدمت كمية مقدارها أربعة آلاف مثقال من الذهب . اتسعت مساحة المضمار الأخضر باتجاه الشمال وخصصت أماكن للاستحمام بطول القنوات . وحسب ما ذكر الجزارى أن جميع الأمراء والقادة والجند وعدد كبير من سكان دمشق اشتركوا فى هذه الأعمال الخاصة بالتجميل .

تولى قيادة الجيش ابنه الملك الأشرف خليل الذى عين خلفا لأبيه . وبعد أن أرسل نساءه إلى دمشق ظهر أمام عكا فى بداية أبريل ١٢٩١ ومزوداً بآلات كثيرة للحرب . واشترك فى الدفاع عن المدينة رجال الدين وفرسان فى خدمة الكنيسة وفرسان الأرض المقدسة وجنود من قبرص وصليبيون وصلوا مؤخراً من أوروبا وتجار إيطاليين وسكان المدينة .

بدأ النقابون عملهم فورا وكذلك رجال المنجنيق والمختصين بعملية الحصار . وفى ١٨ مايو ، وعند الفجر أمر الأشرف بدق الطبول التى كانت موضوعة على ظهر ثلاثمائة من الجمال إيذانا ببدء الهجوم الكبير . كانت المعركة ضارية ومخيفة .

وكتب أبو الفدا يقول : "قام المسلمون بقتل ونهب أعداد كبيرة " أما المقريزى فكان أكثر تحديداً : " فى اللحظة التى استولى فيها المسلمون على الموقع تقدم الفرنجة وكان عددهم حوالى عشرة آلاف يطلبون العفو عنهم فوزعهم السلطان على الأمراء الذين قاموا بذبحهم جميعًا " . وتبددت مغامرة الصليبيين وغرقت فى دماء آخر المدافعين عن عكا . وبدأ الهدم والتخريب المنظم للمدينة .

ووصلت أنباء الانتصار إلى دمشق عبر البريد الذى يحمله الحمام الزاجل ، وعمت الفرحة التى استمرت شهراً كاملاً واعتبر الأشرف محرر البلاد وبعد ذلك سقطت صور وبيروت وصيدا وعتليت وطرطوس دون قتال عندما رحل الفرنجة منها . ومحيت الممالك

والإمارات الصليبية نهائيا من خريطة الشام . وكتب أبو الفدا قائلاً : " وهكذا تطهرت أرض الشام بالكامل والمناطق المجاورة لها من الفرنجة الذين كانوا على وشك غزو مصر والاستيلاء على دمشق " .

وإذا كان الفرنجة أبعدوا نهائيا ، فقد عاودوا الظهور مرة أخرى فى عام ١٩٢٠ ولكن فى شكل آخر . ودخل المغول فى الإسلام وعاودوا استئناف الهجوم . وفى عام ١٢٩٢ هددوا مدينة الرقة . ولكن الأشرف أصر على لقائهم .

وفى ٩ ديسمبر عام ١٢٩٤ اغتيل الأشرف داخل خيمته عندما كان فى رحلة صيد وذلك على يد مجموعة من الأمراء ، وكما ذكر المقريزى أنهم اشتركوا جميعا فى قتله بسيوفهم .

أدى اختفاء الأشرف إلى بداية فترة من الثورات الدموية فى القصر . وطوال السنوات الخمس التى تلت وفاته حدثت أربعة تغييرات فى الحكم . وأعلن المتآمرون يمين الولاء للأمير بيدارا الذى قتل بعد أن اختار الأمراء ابن قلاوون من أميرة مغولية وكان عمره تسع سنوات وسمى الملك الناصر محمد الذى بدأ بمطاردة قاتلى الأشرف وعذبهم جميعا بقسوة بالغة .

وفى الأول من ديسمبر ١٢٩٤ وبعد أن قضى عاما فى الحكم أبعد الملك الناصر وحل محله فى اليوم نفسه الأمير كتبغا النائب السابق على دمشق وأخذ لقب الملك العادل واستمر عامين فى الحكم . وذكر المقريزى (أنها كانت من أحلك الفترات التى مرت بدمشق حيث انتشر القحط والمجاعة والأمراض الخطيرة) . وفى ٧ ديسمبر ١٢٩٦ انتهز أحد المتآمرين على الأشرف وهو الأمير لاشين والذى كان حاكما سابقا على دمشق غياب كتبغا وأعلن نفسه سلطانا بلقب الملك المنصور . واستمال السكان إليه بورعه وحبه للخير لمرءوسيه .

وبمجرد اعتلائه السلطة منع شرب الخمر ولعب الميسر وألغى العديد من الضرائب غير القانونية .

وفى ١٦ يناير ١٢٩٩ انتشرت إشاعة بأن المغول سيهاجمون مصر وسقط المنصور بعد أن حكم لمدة عامين ضحية مؤامرة دبرها أمراء حاقدون (وطعن بالسيف فى كل جزء من أجزاء جسده بحيث لم يعد سوى كتلة مشوهة من اللحم وغير محددة المعالم) كما ذكر المقريزى . ولما بلغ الملك الناصر سبعة عشر عاما وضعه الأمراء على رأس الحكم بحيث لا يتخذ قرارا إلا بموافقتهم ، فكانت السلطة الفعلية بأيدى أميرين هما سالار المنصورى مدير الحكومة وبيبرس الجاشنكير القائد العام للقوات .

كان القائد غازان بن أرجوم يخيم على شواطئ نهر الفرات على رأس جيش ضخم قوامه مائة ألف رجل كما قال المقريزى وأخذ الملك الناصر طريقه إلى الشام ووصل إلى دمشق فى ديسمبر ١٢٩٩ فى الوقت الذى تجاوز فيه المغول حلب متجهين إلى دمشق . ووقع أول اشتباك قرب حمص وانتهت المعركة لصالح المغول عندما ناوش دروز كسروان الجيش المصرى وكذلك قبائل البدو الذين نهبوا أمتعتهم فرجعوا إلى دمشق .

استولى غازان على خزائن السلطان الموجودة بحمص وواصل مسيرته إلى دمشق وهرب نائبها أكدش الأفرم إلى القاهرة ليلحق بالسلطان هناك . وانتاب الناس ذعر وهلع شديدان " وخرجت النساء إلى الشوارع سافرات الوجوه وترك الرجال حوانيتهم وممتلكاتهم وفروا إلى خارج المدينة ولجأ عدد ضخم منهم إلى مصر " . ويقال إن نائباً سابقا من دمشق يدعى "قبجاق" هو الذى تسبب فى استقدام حملة غازان المغولية . انتشر المغول فى المدينة ولقيت دمشق من جراء هذه الحملة شر الدمار خلال المعارك التى نشبت بين المغول الذين كانوا يحتلون المسجد وبين المماليك الذين كانوا يستميتون فى الدفاع عن أنفسهم بالقلعة ، وخربت ضواحى المدينة مثل الصالحية تخريبا تاما وسوى جند حامية القلعة الأماكن المجاورة كلها بالأرض من باب النصر إلى باب الفرج . كما قام المغول بإحراق أقسام كبيرة من المدينة منها دار الحديث التى شيدها نور الدين وسرعان ما ارتد المغول وخضع "قبجاق" للسلطان الناصر ، وكان غازان قد عينه واليا من قبله .

ولكن فى ١١ فبراير ١٣٠٠ يئس المغول من الاستيلاء على القلعة وعلموا أن جيشاً ضخماً بقيادة الملك الناصر غادر القاهرة فرحلوا عن دمشق ونجت من غزوة المغول .

وفى أبريل ١٣٠٣ ظهر القائد المغولى مرة أخرى على نهر الفرات وكأنه يستعد لإرسال ثمانين ألفا من رجاله إلى منطقة وسط الشام بقيادة قوت لشاه والذى انضمت إليه قوات ضخمة : ملك أرمينيا لكى " يقضى على عقيدة محمد نهائيا (كما عبر بذلك الراهب الأرمنى حيثوم) ويسترد الأرض المقدسة للمسيحيين " . تم الاستيلاء على حمص " وقتل جميع المسلمين بالسيف دون استثناء " . ظهر المغول أمام دمشق وأصبح جميع السكان فريسة للرعب والخوف الشديدين " وقضوا الليل فى الجامع الكبير يتضرعون إلى الله أن ينقذهم " .

ولكن الملك الناصر ومعه الخليفة المستكفى والقراء " الذين كانوا يحثون المسلمين على القتال وأن موعدهم الجنة " كانا على رأس الجيش المملوكى وبدأت المعركة فى شقب بالقرب من دمشق .

وفى ٢٠ أبريل ١٣٠٣ هزم المغول هزيمة منكرة وانسحب عدد ضخم منهم إلى الغوطة ووقعوا فى كمين نصبه لهم أهل دمشق وأخذ من لم يقتل منهم أسرى أذلاء . وعم الفرح والبهجة أرجاء دمشق ونزل السلطان فى قصر الأبلق ولم تدم إقامته فترة طويلة بل عاد إلى القاهرة مسبوقا بالأسرى التتار مكبلين بالسلاسل ويحملون ، أو علقت فى رقابهم رءوس زملائهم الذين قتلوا .

وبموت غازان عام ١٣٠٤ عقدت معاهدة سلام بين شقيقه أولدجايتو والملك الناصر يتم بموجبها عدم التهديد مؤقتاً من جانب المغول .

بدأت بعد ذلك الفترة الثالثة من حكم الملك الناصر وهى أطول فترة فى تاريخ حكم المماليك وأكثرها أمناً والتى استمرت حتى وفاته فى يونية ١٣٤١ . وفى تلك الفترة من حكم الناصر ظل تنكز والى دمشق الذى كان يتبعه نواب الشام جميعاً أميرا على الشام ربع قرن (١٣١٢ – ١٣٣٩) وكان سلطانه فى الواقع مطلقاً . وقد

أسس مسجد التنكيزية كما أسس مدرسة لدراسة التفسير والحديث وأصلح الجدار الجنـــوبى الغربى المتـــهدم من الجامـع الأمـوى . وبينـما كـان مشـــغولاً بترميم مـا أحـدثتـه النيران فى المدينة من تلف . غضب عليـه السلطان فقتل شر قتلة وهو سجين فى الإسكندرية .

نقل المؤرخون والرحالة الذين عاشوا فى النصف الأول من القرن الرابع عشر صورة عن دمشق فى عهد تنكيز تتميز بالرخاء والغنى الواسع .

كان النصف الأول من القرن الرابع عشر هى الفترة التى حكم فيها تنكيز دمشق . اشتراه الأمير حسن الدين لاشين عبداً مملوكًا وهو صغير من سوق العبيد بالقاهرة . وبعد وفاة سيده انتقل إلى خدمة السلطان الناصر . عين أميرا وهو فى العاشرة من عمره واشترك فى معركة شغب ضد المغول . وبعد فترة قصيرة من بدء الولاية الثالثة للسلطان الناصر ، عين حاكما على دمشق وتولى منصبه رسميا فى ٢٤ أبريل ١٣١٢ . " وفى عهده شعر الناس بالأمان وأنهم فى حماية ضد طغيان الأمراء وكبار الشخصيات حتى إن أيا من هؤلاء لم يكن يجرؤ أن يعبر عن غضبه ضد السكان أو يقترف ظلما سواء ضد المسلمين أو أهل الذمة " .

وصل نفوذه وشعبيته درجة كبيرة حتى إنه بعد مماته كان قبره بمثابة مكان يحج إليه الناس ويزورونه ويؤدون الصلاة هناك " . وقد وجه المؤرخ الدمشقى ابن طولون إليه قدرًا كبيرًا من المديح لم يوجهه لأى شخصية أخرى ، فوصفه بـ"العظيم" ، "والعالم" ، و"الممتاز" ، و"المتدين " و"الذكى" ، و"الموهوب بسلطة عظيمة" وأكثر من ذلك ، "موهوب بصفات اكتمال الرجولة" . كما أن تفوقه على السلطان حيث كان حماه وأن أبناءه تزوجوا من بنات السلطان الذى لم يكن يتخذ أى قرار فى القاهرة دون أخذ مشورته من دمشق . كان يوصف بأنه "سيد الأمراء فى الكون" . وذكر الرحالة المغربى ابن بطوطة الذى أقام فى دمشق فى عهده عام ١٣٢٦ وقدمه على أنه " أحد أعظم الرؤساء وأكثرهم نبلا وشجاعة " . وفى الوقت نفسه الذى كان يضاعف فيه سلطته وثروته ، كان يضاعف من إقطاعياته ومناطق نفوذه وقواته ودخله .

ومثل جميع الوصوليين كان له ذوق ينطق بالترف والبذخ التـفاخرى . وكتـب ابن ساسرا يقول "كل شيء على جواده الذى يمتطيه من الذهب حتى الرمح المستخدم فى الصيد " . وبعد وفاة الناصر عام ١٣٤١ صار غنيا بصورة رهيبة ، وقبض عليه واقتيد إلى الإسكندرية حيث مات مسمومًا . وأثناء اعتقاله فى السجن وجد لديه حمولة ثمانمائة جمل من الذهب والفضة والملابس دون ذكر الخيول والبغال والعبيد " .

وفى جرد لممتلكاته ظهر أنها بالكثرة لدرجة أنها ملأت صفحات عديدة . فبالإضافة للمنزل الذهبى الشهير الذى قدر بستمائة ألف درهم . ومنزل الزمرد وأماكن عدة للإقامة بملحقاتها وحمامات وأماكن للضيافة (خانات) وقياسر (جمع قيسارية) وحدائق وبساتين وحقول ومزارع كروم وأرباع وأنصاف وأجزاء من قرى بل وقرى بأكملها ومطاحن ، وكلها موزعة فى عدة مدن بسوريا .

تميز عصره بالاهتمام بالبنية التحتية ، فعمل على تنظيف وإصلاح قنوات المياه وإقامة مصانع للزجاج خاصة فى الضواحى الشمالية والغربية وإنشاء جسور . وحاول مد العمران إلى شمال غرب سور دمشق وطهر المدينة من الكلاب الضالة . وفى نوفمبر ١٣٣٣ قام بإصلاح باب توما وسجلت الإصلاحات على الساكف العلوى للكوة . وكان الجامع الأموى موضع عناية كبيرة منه ففى الفترة من ١٣٢٦ - ١٣٢٨ أعيد بناء الحائط الجنوبى لصحن الصلاة وتثبيت المحراب بصورة نهائية وإصلاح التغليف بالرخام الموجود بصحن الصلاة . وفى سبتمبر ١٣٣ تم إصلاح أحد شبابيك الرواق الغربى .

أما فى عام ١٣٣٩ فقد سقطت المئذنة الشرقية على أثر حريق ، ودمرت عدة أسواق مجاورة . واتهم حوالى عشرة من المسيحيين بينهم شخص يدعى الحالق الذى كان يقوم بسقاية المسلمين فى المساجد حاملاً المياه فى قربة مصنوعة من جلد الخنزير اتهموا بأنهم وراء تلك الكارثة التى وقعت ، فصلبوا جميعًا دون هوادة وقطعوا إلى نصفين بعد سبعة أيام . كان هناك تأكيد على التعاطف والتعاون من رجال الدين كالعلماء والقضاة والفقهاء وإعطائهم الفرصة لممارسة السلطة لاستخدامهم كأداة

لا غنى عنها فى إيجاد انطباع عظيم وإيجابى لدى الناس عن الحاكم ، وفى الوقت نفسه إقناعه ببذل الاهتمام نحو الشئون الدينية كوسيلة للتكفير عن الخطايا الموجودة فى الحياة السياسية .

لم يتوقف ولعه الشديد بالمبانى عند حد ، بل امتد إلى إنشاء تكية فى القدس وقام بأعمال مهمة وبصفة خاصة جر المياه إلى مكة وإنشاء بيمارستان وخان وعدة مبان فى صفد ومنزل وحمام ومحلات بالقاهرة وفى دمشق ، فقد تم إنشاء وإصلاح ما يقرب من أربعين منشأة فى عهده .

وبالقرب من سوق البنورية وفى الموقع الحالى لقصر العظم اشترى دار الفلوس (القطع النحاسية) وجعله من أجمل منازل دمشق وأعطاه اسم : دار الذهب . وفى عام (١٣٣٨ - ١٣٣٩) أنشأ مدرسة للفقراء لتحفيظ القرآن ودراسة الدين .

وبجوار سوق السلال أقام عام ١٣٣٠ ضريحًا لزوجته سطيطة وكساه من الداخل بالجص المنحوت . وفى عام ١٣١٧ أنشأ مسجدًا واجهته ذات لونين ومزود ببابين مزركشين . وقد تم إصلاح الواجهة والباب أثناء الانتداب الفرنسى . وتتميز المئذنة بأنها من الطراز المملوكى : قاعدة مربعة ، جذع عمودها ثمانى الأضلاع ، كوات بقنطرة برءوس متعددة الزوايا ، أعمدة صغيرة متراصة ، شرفات مجوفة ، دهليز بخرجة ذات زركشة ، درابزين مزدان ، كوات متشابهة ، أقراص من الخزف ظهرت لأول مرة فى دمشق . وكان هذا المسجد يعتبر من أجمل مساجد دمشق . وكتب المؤرخ الدمشقى أبو البقا : "إنه الفن المعمارى الذى تجاوز كل الحدود . فالمبنى به عشرون شباكًا على صف واحد وتطل على الأنهار ومراعى الميدان . وفى وسط الفناء ، عبر نهر بانياس ليتوضأ منه المصلون ، كما توجد ناعورتان (ساقيتان) تملآن حوضين (قادوسين) ، إضافة إلى تواجد جميع أنواع الأشجار والنباتات العطرية والزهور .

وبجوار الباب يوجد المدفن الذى دفن فيه تنكيز بعد إحضار جثمانه من الإسكندرية عام ١٣٤٤ . وكان المبنى مطابقًا للطراز الأيوبى . قبة بصلية الشكل مقامة على أسطوانتين كل منهما متعددة الأضلاع ، قاعة مربعة الشكل ، تلبيس دقيق بالرخام الملون بتشبيك زهرى هندسى ، زخارف نجمية الشكل على قاعدة القبر ، بينما قبة المحراب دائرية بين شباكين فى الحائط الجنوبى ومكسوة بالفسيفساء وعجينة زجاجية مبطنة بالذهب .

ساعد السلم بين المدنيين والرخاء الاقتصادى على إنشاء مبان جديدة تجارية . إلا أن هذه المبانى قد اختفت كلها ولكن أسماءها وأماكن بعضها محفوظة فى الكتب الأدبية .

وقد بنيت قيسارية عام ١٣١٥ سميت باسم "دهشة النساء" غرب الجامع الأموى لصالح الوقف وأخرى عام ١٣٣١ باسم قيسارية تنكيز .

وقد نقل إلينا المؤرخون والرحالة فى النصف الأول من القرن الرابع عشر صورة عن الرخاء والثروة التى كانت سائدة فى دمشق تنكيز . وقد نقل المؤرخ الدمشقى العمرى وصفًا دقيقًا حيث بدأ أولاً بالحكم الذى يمتد من العريش جنوبًا إلى السلمية شمالاً ومن الساحل فى الغرب حتى الرحبة فى الشرق ، مما يعنى زيادة كبيرة فى الضرائب التى كانت تحصل عليها الحكومة فى ذلك الوقت . أما عن المبانى فيمكن أن تطبق ملاحظات العمرى على المدينة القديمة حاليًا ، آثارها مبنية أغلبها ، ومنازلها صغيرة بالنسبة لمنازل القاهرة لكنها مزدانة أكثر . ومع ذلك فالرخام أقل استخداما فى تلك المنازل . إلا أنه يوجد تنوع جميل .

ويوجد لدى السكان ذوق جميل وحس مرهف بالنسبة للمبانى ، فهم يهتمون بتزويد منازلهم بحدائق . أما حلب فمبانيها أجمل لأنها تستخدم الحجر على نطاق واسع . إلا أن دمشق تتميز بسحر وجاذبية أكثر لأن المياه موزعة فى كل ركن من أركانها والمنازل مزودة بالمياه ويستخدم خشب الحَورَ (الصفصاف) بدلاً من جذوع النخل وبشكله الطبيعى دون ألوان .

أما الأحياء الأكثر كثافة فى السكان ، فهى الأحياء الغربية والشمالية ذات المبانى الجميلة وأسقفها مذهبة وأرضيتها مبلـــطة بالرخـــام وقريبة من الجـــامع الكـبير . أما الأسواق فهى مخططة تخطيطًا جيداً والقياسر مبنية بشكل متقن . فالحرفيون وعمال البناء وصناع الجواهر وعمال التطريز .. كلهم مهرة فى الحرف التى يقومون بها .

ورغم كل الرخاء الذى كانت تعيشه دمشق وثراء أسواقها وجمال مبانيها ، فإن دمشق ظهرت أكثر جمالاً أيضًا بحدائقها وبفن الحياة الذى ينبع منها . فانتشار الخضرة بهذا الشكل فى مناخ شبه صحراوى جعلها موضع انبهار ، إذ توجد بها حدائق أو بساتين عديدة تروى بأنهار ومياه جارية وصافية تسر الناظرين . ويبلغ عدد الحدائق أو البساتين حوالى ثلاثين ألفا وبها أشجار البرتقال والليمون والتفاح والرمان والعنب والتين والخضروات وجميع المنتجات الغذائية .

وقد تغنى العمرى بأسلوب شاعرى حين وصف دمشق قائلاً : "دمشق والصالحية بهما حدائق رائعة تجرى خلالها شبكة من الجداول التى تحيط بالأشجار الظليلة وتتمايل أغصانها طربا لشدو الطيور .

تبدو الحدائق البهيجة والبساتين الشاسعة وقد أحاطت بها مبان جميلة وأحواض عميقة حيث تقام أجنحة وقاعات استقبال وتمتد حولها النباتات والخضرة وأشجار السرو الكثيفة والصفصاف وتنتشر الروائح العطرة التى تفوح من زهور الأشجار كما تعطى الفواكه الناضجة وآلاف الأشياء بهجة وروعة . وكل هذا بفضل نهر بردى وفروعه السبعة خاصة نهر تورا "نيل دمشق الحقيقى الذى ترتفع على شاطئيه المبانى وأغلب الأجنحة وحيث يتنزه الناس أيضًا " . كما أن النظام الهيدروليكى لتوزيع المياه متكامل ، "فينتشر نهر القنوات فى أرجاء المدينة .. وتجرى مياهه فى قنوات تحت الأرض لتصل إلى المساكن والأماكن البعيدة . وتسير قنوات أخرى تحت الأرض للماء الفائض والخزانات ومياه الصرف وتتجمع بدورها وتكون مجرى مائيا يصب فى خارج المدينة ويروى الحدائق " . تكمن الذروة فى هذه الروائع ، فى الوادى الأعلى لنهر بردى . كما أن ماء المطر كاف والمياه الجوفية متوفرة وكذلك الشمس والمناخ المعتدل يكملان

الصـورة الوردية . كـذلك الجـبلان اللذان يحيطـان بدمـشق وقد غطـتـهـمـا زهور البنفسج والورود والياسمين تتفتح كلها باسمة ، وخرير المياه يرد على هديل الحمام ، وتهب ريح الشمـال على الأرض المفروشة بنباتات عطرة ونسمة الجنوب على الحـقول التى تفوح عطراً .

وفى العقود الأولى لسيطرة المماليك تزايد امتداد مدينة دمشق إلى خارج حدودها بشكل كبير . وتعتبر الضـواحى مهمة على جميع أطراف المدينة وأكثرها أهمية تلك المنتشرة فى الغرب والشمال . فالضواحى التى فى الغرب تؤدى إلى القلعة وإلى ميدان فسيح على شاطئ النهر وهو سوق الخيل ، وفى الوقت نفسه ميدان للفروسية .

أما ضاحية الشمال والتى تسمى العقيبة ، فهى مدينة مستقلة قائمة بذاتها ، بها مساكن فسيحة ومبان كبيرة يسكنها عدد من الأمراء والعسكريون . وقد أكد جاك دى فيرون أهمية الضواحى قائلاً : "المدينة المحاطة بأسوار ليست شاسعة جدا . أما ابن بطوطة فكان أكثر دقة وتحديداً عندما قال : "تحيط بهذه المدينة ضواح من جميع الجهات باستثناء الجهة الشرقية . وتشغل حيزا كبيراً ، كما أنها من الداخل أكثر جمالاً من المدينة ذاتها بسبب شوارعها الفسيحة " . كما ذكر لنا ابن بطوطة بعض خطوط عريضة لدمشق تنكيز التى بهرته : الجامع الكبير ، فالبناء فى حد ذاته يعتبر من أجمل مساجد العالم ولا يوجد نظير له ، ويعمل به سبعون مؤذنًا وثلاثة عشر إماما، ولا تنقطع الصلاة فيه ولا قراءة القرآن منذ الفجر وحتى ثلث الليل . ويحضر إليه عدة مئات من الأشخاص لقراءة القرآن . كما ينتظم أشخاص عديدون فى دروس دينية على أيدى أساتذة متخصصين حيث يتجمعون حول أعمدة ويفسرون للأطفال كتاب الله . كما تقيم هناك أعداد كبيرة لا هم لها سوى الصلاة وقراءة القرآن وذكر الله ، ويقومون للوضوء باستخدام طريقة الأوانى المخزنة فى المئذنة الشرقية والتى يمدهم بها الأهالى مجانًا عن طيب خاطر وأيضًا كل ما يحتاجونه من أغذية وملابس .

أما عن أهالى دمشق فحسب رأى الرحالة المغربى " أنهم يتصارعون من أجل المنافسة فى تشييد المبانى الدينية كالمساجد والزاوية والمدرسة والمدفن " ، وتصل إلى

حد الهوس المعمارى كما حدث فى عهد تنكيز . وأما عن غذائهم فإنه يتميز بالغرابة ، فأغلبهم لا يأكل إلا ما يعدونه بأنفسهم . وكرم الضيافة مثالى عندهم ، إذ يعاملون الغرباء باعتبار وتقدير مع تجنب كل ما يجرح شعورهم أو يسىء إلى كرامتهم الشخصية ، كما أن سلوكهم نحو الموت جدير بالاحترام : "يتبعون نظامًا رائعًا عند السير فى الجنازات ويسيرون أمام النعش ، بينما قارئو القرآن يتلونه بصوت جميل ومؤثر مما يدفع المشيعين إلى البكاء وطلب الرحمة والمغفرة من الله .

ومنذ سقوط عكا نقلت أكبر الأماكن التجارية فى ذلك العصر وهى فينيسيا (البندقية) وجنوا وبيزا وبرشلونة مستعمراتها من الشام إلى قبرص ، ورغم جهود البابا لمنع أى تجارة مع الشرق إلا أنها لم تتوقف . وفى عام ١٣٠٢ وبعد إحدى عشرة سنة من انتهاء الإمارات الصليبية فى الشام ، وصل سفير من البندقية إلى القاهرة وطلب تجديد الامتيازات القديمة . ولم تستمر العلاقات التجارية إلا فترة قصيرة فى أرمينيا الصغرى ثم عادت أكثر نشاطا فى موانئ الشام : بيروت وطرابلس واللاذقية وارتبط نشاطهم بدمشق وحلب .

بعد وفاة تنكيز عاشت دمشق فترة من التدهور والانحطاط وعانت من تباعد الأنشطة العسكرية ، ودخلت فى منافسة مع أكبر مدينة بعدها وهى حلب . كما أن زوال خطر الفرنجة واستمرار وجود التهديد المغولى على نهر الفرات أدى إلى نقل المسئوليات المتعلقة بشئون الحرب إلى حلب . وأصبحت عاصمة الشمال نقطة انطلاق لثمانى حملات كللت بالنصر ووجهت إلى أرمينيا الصغرى فى الفترة من ١٣٣٤ و ١٣٤٨ . ومن ناحية أخرى فخلال السنوات العشر التى أعقبت وفاة السلطان الملك الناصر جاء على دمشق حكم ساده الفوضى والتنازع واقتتل فيه الأمراء على السيادة وعادت دمشق مسرحا لهذه الحروب .

وابتداء من عام ١٣٣٠ استمرت الاضطرابات دون توقف حتى بداية القرن العشرين من جانب القبائل . وفى صعيد مصر ، وفى الشام على الحدود الشمالية والمناطق الشرقية عرقلت الهجمات على القوافل عمليات التبادل التجارى كما أن

الغارات التى كانوا يشنونها على القرى أثرت تأثيرا سيئا على المحاصيل ، وأدت أحيانا إلى هجرة الزراعة وتدمير قنوات الرى . وقد ذكر المقريزى أنه فى عام ١٣٠٢ أدت أعمال اللصوصية وقطع الطرق التى كان يقوم بها البدو فى صعيد مصر إلى عدم تحصيل الضرائب . وعندئذ أعلن الفقهاء والقضاة إباحة المقاومة المسلحة ضد هؤلاء الخارجين عن القانون ومثيرى الشغب : (تم ذبح السكان بالسيف وقتل الجميع دون شفقة أو رحمة . ووصل عدد الرجال الذين شقت بطونهم حوالى ستة عشر ألفا وغطت رائحة الجثث المعفنة أرجاء البلاد) .

وبالإضافة إلى الاختلاسات من جانب ولاة دمشق ، فقد عانت المدينة من عمليات الابتزاز وسحب الأموال التى تتم بصورة منتظمة لصالح القصر فى القاهرة.

وفى العقد الأخير من القرن الرابع عشر ، حدثت منافسة شديدة بين مجموعة من المماليك كان من نتيجتها أن دخلت الإمبراطورية فى دوامة من الاضطرابات استمرت حتى عام ١٤٢٢ بل وأدت إلى ظهور قوات من التتار فى دمشق . وفى ٢٦ نوفمبر ١٣٨٢ ، عُزل آخر سلالة السلطان قلاوون وهو صلاح الدين حجى البالغ من العمر أحد عشر عاما وقام الأمير برقوق وهو عبد قديم تم شراؤه من أوكرانيا وادعى أن الإمبراطورية فى حاجة إلى حاكم قوى لإنقاذها وتقدم للسلطنة بناء على نصيحة الفقهاء الذين يرأسهم الخليفة . وبذا يكون برقوق أول سلاطين المماليك الشركس .

ولكن جاء على دمشق حكم سادته الفوضى والتنازع واقتتل فيه الأمراء على السيادة وعادت دمشق مسرحًا لهذه الحروب .

وحدث صدام بين برقوق ومنطاش الذى اصطحب السلطان الحجى والخليفة إلى دمشق على رأس جيش ضخم فانسحب إلى صخب قرب دمشق .

وفى ٥ يناير ١٣٩٠ لم تكن نتيجة المواجهة لصالح برقوق الذى هرب من المعركة ومعه بضع مئات من الرجال ولكن الظروف ساعدته إلى اعتقال السلطان والخليفة

ومجموعة من القضاة وتوجه بهم إلى القاهرة . فى ذلك الوقت وصل منطاش إلى دمشق واستولى على قصر الأبلق وعين نفسه الحاكم الفعلى لدمشق .

من ناحية أخرى وصل برقوق إلى القاهرة ومعه الخليفة المعتقل فى ٧فبراير ١٣٩٠ واستقبل فى القاهرة استقبال المنتصرين .

وبدأ يعد جيشًا لإعادة غزو الشام . وفى ٢٦ مايو ترك منطاش قصر الأبلق بعد أن علم أن جيشًا قويا فى طريقه من القاهرة إلى دمشق وتوجه إلى شمال الشام وهو انسحاب إستراتيجى .

وفى ٤ يونيه ١٣٩١ ظهر مرة أخرى فى دمشق على رأس جيش كبير وأقام مقر قيادته فى قصر الأبلق . وفى ٦ يونية نشبت معركة طاحنة فى شمال غرب المدينة بين منطاش الوزير المطلق النفوذ وبرقوق السلطان المخلوع .

وفى ٢٦ يولية وعلى أثر تخلى عدد كبير من جنود منطاش عنه ، فقد أعطى إشارة الانسحاب . وبعد هذه الموقعة استعاد السلطان ملكه وعاد التنافس بين الأمراء مرة أخرى .

وفى ٢٩ يولية ١٣٩٣ انتهى موضوع منطاش ووصلت رأسه من حلب إلى دمشق فى سلة تابعة للبريد ، وطاف بها الناس فى أرجاء المدينة ثم أرسلت إلى القاهرة وعلقت لعدة أيام على باب زويلة ليشاهدها الناس . واسترد أهل دمشق الثقة والطمأنينة ، ولكن لم تدم فرحتهم إلا فترة قصيرة . ففى الشهر نفسه وصلت أنباء عن استيلاء جيوش تيمور لنك على بغداد .

وقام تيمور لنك بمسعى حميد لدى البرقوق وأرسل سفيرا إلا أنه عامله بازدراء وقام بقتله . واستعدت دمشق ووصل برقوق إلى دمشق بمصاحبة الخليفة فى ٢٤ مارس ١٣٩٤ . وفى أغسطس قام برقوق بجولة تفتيشية إلى محافظة حلب ثم عاد إلى دمشق حيث أقام بها حتى شهر نوفمبر قبل أن يعود إلى القاهرة .

وفى ٢٠ يونية ١٣٩٩ توفى برقوق على أثر أزمة صرع ، وحل محله ابنه الملك الناصر فرج . ومرة أخرى أعلنت دمشق رفضها الاعتراف بالسلطان الجديد وجهز حاكم دمشق سيف الدين الحسنى جيشًا للتوجه إلى القاهرة ، لكنه هزم عند غزة وأسر واقتيد إلى دمشق حيث أعدم .

واصل الجيش المصرى مسيرته إلى الشام لملاقاة تيمور لنك الذى احتل حلب ووصل إلى وادى نهر العاصى واحتل بعلبك وتجمعت القوات المغولية إلى الغرب من دمشق فى قرية قطنة قبل أن تتخذ موقعا لها فى داريا . واستمرت المناوشات فترة طويلة دون أن يحسم الموقف لصالح أى من الجيشين . وبعد معركة شرسة وعنيدة مال النصر إلى جانب تيمور لنك وهُزم جيش الشام وتقهقر إلى أبواب دمشق بعد أن قتل أكثر من نصف جنوده وتشتت جزء كبير منه ولكن قوات التتار لحقت بهم وأبادتهم . "ولم يكن يشاهد سوى أكوام من الجثث فى كل مكان وجداول من الدماء وأسلحة وأعلام ورءوس مبعثرة على الأرض " . علم السلطان فرج أن ثورة يُعد لها فى القاهرة فغادر دمشق ليلا متوجهًا إلى القاهرة تاركا دمشق تتعرض لهجمات تيمور لنك . " واستيقظ الناس فى صباح اليوم التالى وهم فى حالة ذهول ووجوم " . كما عبر بذلك ابن خلدون ، حاصرت قوات التتار المدينة وهى تحتمى بحائط ضخم من الفيلة احتل تيمور لنك قصر الأبلق .

جاء هذا الفاتح الجبار تيمور لنك من الشرق فحلت على دمشق نكبة عظيمة . وضرب على دمشق غرامة مليون دينار وعرف عظم أهلها وبعد أن جباها أطلق العنان للجيش بالسلب والنهب والقتل والفحش والتعذيب ثم وضع الحريق فى أرجائها فى يوم عاصف فعم المدينة وأتى على ما فيها من التحف والآثار وفعل ذلك فى الجامع الأموى ولم يبق غير جدرانه قائمة وذهبت المساجد والدور والقياسر والحمامات وأحياء منها .

وقد روى يوحنا شلبترجر البافارى الذى كان مملوكا فى جيش تيمور زمانا طويلا أن ثلاثين ألفا من النساء والرجال والأطفال حبسوا فى المسجد الكبير ثم أشعلت النار فيه .

وبعد أن فعلت جنود تيمور لنك ما لا يحمل ذكره من الفتك والحرق والهتك والتدمير حمل تيمور لنك معه إلى سمرقند كل ماهر فى صنعة من الصناعات كالنساجين والخياطين والسيافين والنقاشين وغيرهم ، وأخذ عددا من العلماء والوجهاء فأفقر دمشق من كل الوجوه . فكانت هذه المصيبة من أعظم المصائب التى دهمتها فى كل العصور .

وفى نهاية مارس ١٤٠١ وبعد أن انتهى تيمور لنك من إحراق قصر الأبلق ، أمر بأن يحرر جميع العبيد بالشام كبادرة منه على تسامحه وتفرغ للوقوف ضد تهديدات العثمانيين وترك معسكراته فى القبيقبات وأرسل وحدات صغيرة لنهب تدمر وأنطاكية وحماة وسار على رأس جيش كبير إلى بغداد .

ترك خلفه دمشق وقد نزفت دماؤها وأصبحت فى حالة من الضعف والهزال بعد أن كانت تنعم بالرخاء والبهجة والفخامة فحولها إلى كومة من الأطلال والحطام وفقدت كل معانى الجمال والفن .

ورغم كل الإصلاحات التى قام بها الوالى شيخ الخساكى ابتداء من صيف ١٤٠٣ فى دار السعادة والجامع الأموى وبيمارستان نور الدين وعدة مدارس ، فقد لاحظ جيلبير دى لانوى أثناء مروره عام ١٤٢٢ أن تيمور لنك قد محا دمشق من ذاكرة الزمن لكنها بدأت فى استعادة قوتها وبناء ما تحطم منها . وبعد عشر سنوات لا زالت آثار الكارثة واضحة .

وبعد رحيل تيمور لنك استمرت الحروب الداخلية أكثر من عشر سنوات مما ساعد على زيادة الخراب واضمحلال الصناعات الحرفية والتجارة وفقدت الأموال قيمتها نتيجة التضخم وانهيار النظام البريدى والظلم الفادح فى فرض الضرائب مما أدى إلى طرد الفلاحين من أراضيهم وتشجيع تسلل التركمان الذين خربوا الحقول ، هذا بالإضافة إلى زيادة الهجمات التى يقوم بها البدو على الأراضى الزراعية . وطوال فترة حكم السلطان الملك الناصر فرج التى استمرت ثلاثة عشر عامًا حيث دخل فى صراع مع العصابات والمجموعات التى كانت تعتمد على الدول الرئيسية المنافسة لمصر

والشام . وفى عام ١٤١٢ هزمته قوات التحالف بزعامة الأمراء نوروز الحافظى والشيخ الخساكى فهرب إلى دمشق ، وعزل فى ٧ مايو ١٤١٢ ومات بالقلعة وألقى به خارج المدينة مع أكوام القمامة يسبه كل من تضرر منه بأذى. وبعد فترة عابرة للخليفة الدمية - المستعين - تولى الحكم الشيخ الخساكى بلقب الملك المؤيد .

وفى دمشق أخذت البقايا المشتتة ترجع إلى وطنها وتقيم ما تقدر عليه من الأبنية وتوافد الغرباء عليها من كل جانب فعمر بعض خراب دمشق . على أنها ظلت نحو نصف قرن تترنح من شقائها وفقدان أهلها الأصليين ولا سيما أهل الصناعات منهم إلى أن عادت فاستوت على قدمها ، وانتعشت بذلك صناعة الحرير والقطن والمنسوجات والسجاجيد والجلود والخزف . كما أن المنتجات الأوروبية أحدثت منافسة شديدة ولا زال أثرها باقيا حتى اليوم .

وتغير الميزان الاقتصادى لصالح الغرب مما حدا بابن خلدون (١٤٠٦) أن يرثى للحال التى وصلت إليها المدن الإسلامية من هبوط فى مستوى العلوم والطب والتعليم وتقهقر عام فى الحضارة ، كما لاحظ "تقدم الفنون فى البلاد غير الإسلامية مثل الصين والهند والأقاليم التركية والشعوب المسيحية التى يتوفر لديها كل ما يحتاجون إليه " . كما أن الازدهار والانطلاق الفكرى للغرب المعاصر ظهر كعنصر مستحدث . وكتب يقول : " علمت أن العلوم الفلسفية تلقى تشجيعًا كبيراً فى روما وعلى الشاطئ الشمالى المجاور لبلاد الفرنجة " .

استمر إصلاح الدولة المملوكية بالقوة نفسها فى عهد السلطان الأشرف برسباى الذى تولى الحكم فى أبريل ١٤٢٢ . وقهرت الثورات التى حدثت بالشام والاضطرابات التى قام بها البدو . ومنع أهل الذمة من التعيين فى الوظائف الإدارية ، كما أغلقت ممتلكات الأوروبيين بالشمع الأحمر الذين منعوا من العودة إلى البلاد ومنع تداول العملة الأوروبية واتخذت كافة الإجراءات التى تعمل على توطيد دعائم السلطان وتشجيع اتخاذ مواقف عدائية تجاه المسافرين الأوروبيين الذين يفدون إلى البلاد .

وفى دمشق " كان المسيحيون موضع كراهية شديدة " . وفى عام ١٤٨١ ذكر أحد المسافرين إليهود واسمه ميشو لام بن مناحم أن "اليهود فرض عليهم ارتداء عمامة صفراء فى جميع الأقاليم التابعة للسلطان " .

ولم تمنع تلك الإجراءات من التجارة مع أوروبا . ورغم كل الإهانات التى تعرض لها الأوروبيون ، فقد زاد عددهم فى مدن الشرق الأوسط . وفى عام ١٣٩٥ لاحظ السنيور دانجلور أن عدد النزلاء الفرنسيين والإيطاليين من البندقية وجنوا ونابولى ومن جزيرة قبرص ومن مارسيليا زاد عددهم بدرجة كبيرة فى القاهرة .

وضع برسباى همه فى توفير الأمن للإمبراطورية فعمل على تقوية الدفاعات ، وفى البحرية أعد أسطولاً صغيراً من السفن الحربية وأنشأ تحصينات بطول الساحل . وقامت حملة عام ١٤٢٦ ضد القاعدة الرئيسية للقرصنة المسيحية فى شرقى البحر المتوسط وهى جزيرة قبرص حيث أسر ملكها جانوس . وكان ذلك أول انتصار بحرى إسلامى منذ عدة قرون . كما واصل القتال الشرس ضد التركمان ، وانتصر عليهم فى أميد (ديار بكر حاليا) وأجبرهم على الاعتراف بالسيادة المطلقة للسلطان المملوكى . ووصلت حدود الإمبراطورية إلى أقصى اتساع لها ، واستعاد الوضع الاقتصادى نشاطه وتم تداول عملة ذهبية : الدينار الأشرفى لينافس الدوكا (وهى عملة ذهبية من البندقية) كانت تستعمل فى ذلك الوقت .

ولكى ينمى السلطان والأمراء عائداتهم الشخصية تدخلوا بصورة مباشرة فى الدورة الاقتصادية . فاحتكر برسباى لصالحه زراعة القصب وصناعة وبيع السكر وبيع القطن الخام والمغزول .

وضاعف من عمليات الشراء الجبرى وبأسعار أعلى من السوق ، وهكذا ففى عام ١٤٢٩ اضطر التجار الأوروبيون إلى الشراء من السلطان أو من وكلائه التوابل القادمة من جدة بسعر ١٢٠ ديناراً للشحنة ، بينما لم يكن يتجاوز سعرها ثمانين دينارا .

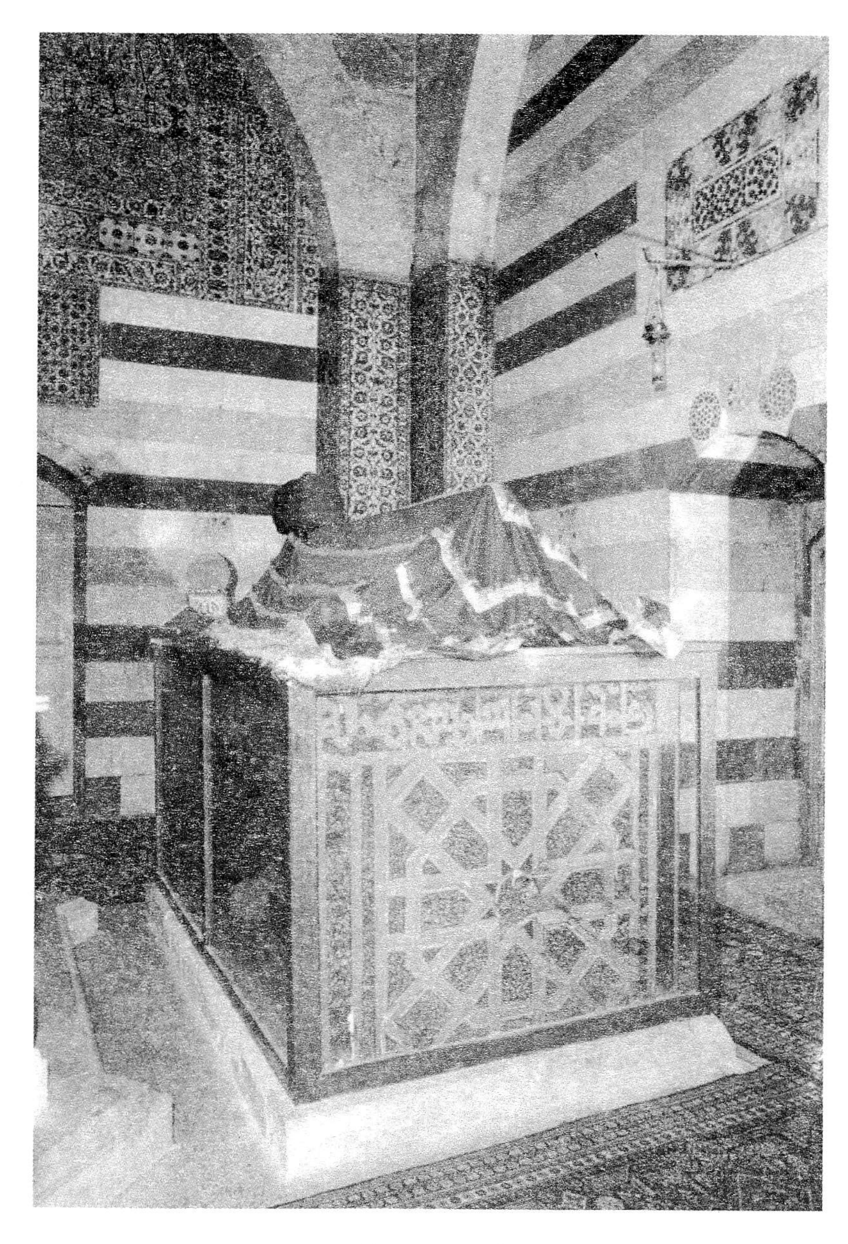
وفى عام ١٤٣٨ أصيب برسباى بالطاعون فأسند السلطة إلى ابنه العزيز يوسف . وبعد عدة أسابيع عزله الأمير سيف الدين جقمق وأعلن نفسه سلطانا باسم الملك الظافر .

وفى عام ١٤٦٨ تبوأ الأمير قايتباى السلطنة وافتتح عهدا من المقرر أن يستمر حتى عام ١٤٩٦ لأن المشكلة السياسية الرئيسية التى كانت تواجهه هى العلاقة مع القوة المتصاعدة المسيطرة على الأناضول ألا وهى الأتراك العثمانيون . وقد أدى الصراع بين الفئتين المتناحرتين إلى سحق المماليك واختفاء نظامهم نهائيا فى العقد الثانى من القرن السادس عشر .

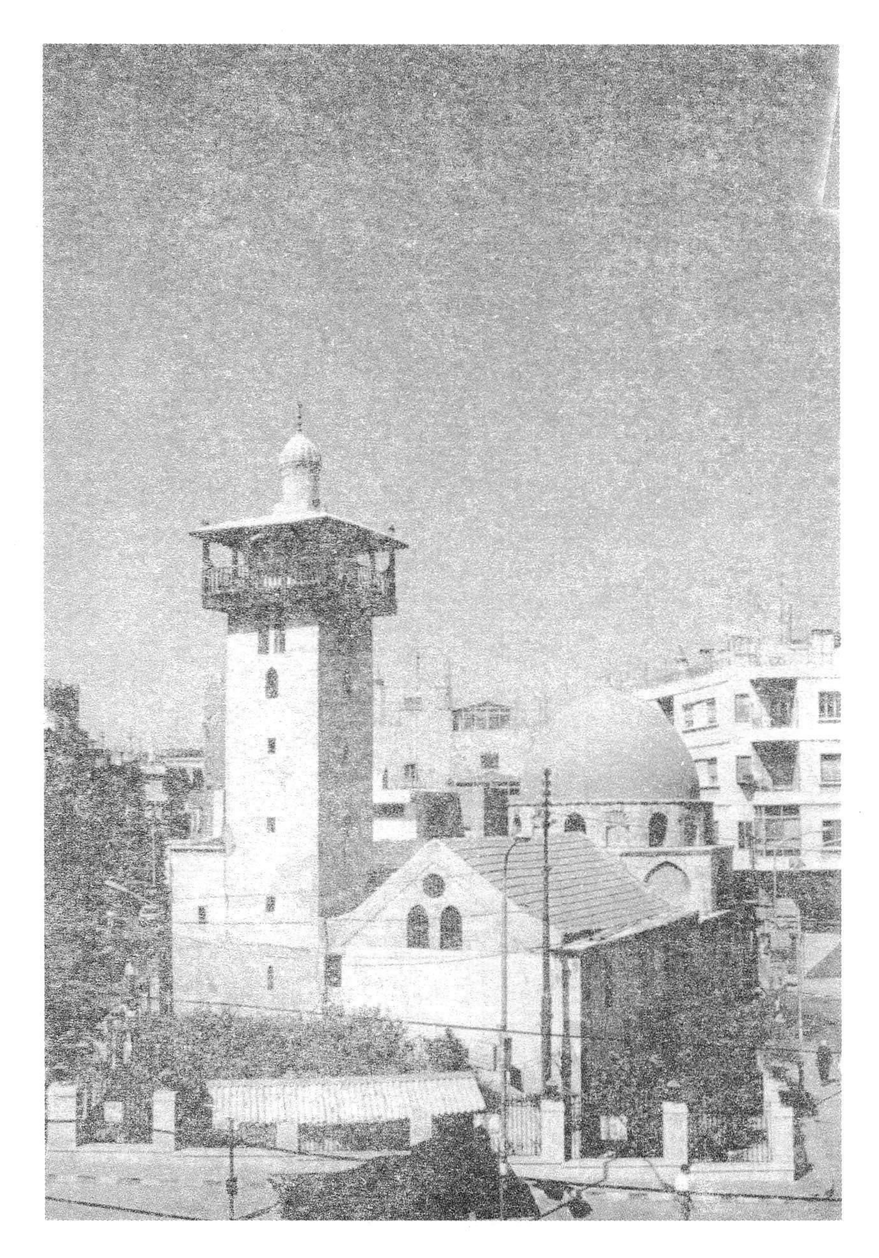
وفى عام ١٤٨٦ غزت الجيوش العثمانية سيليسيا واستولت على تارس وأضنة . ولكى يعد المماليك قوات جديدة تلبى احتياجاتهم فرضوا ضرائب جديدة ومرتفعة ووصل بهم الأمر إلى الابتزاز الذى امتد إلى جميع طبقات المجتمع كما كانو يميلون دائما" إلى التمرد و العصيان إذا لم يحصلوا على المعونة و لم ينج منهم أهل الذمة فقد استدعى السلطان البطريرك المسيحى و الحاخام الأكبر لليهود بالقاهرة وأمرهما بإخضاع جالياتهما لفرض ضريبة عالية لتوفير الأموال اللازمة للحملة القادمة وكتب ابن إياس (تلك كانت بداية مصادرة الأموال و الممتلكات التى أصبحت ظاهرة عامة) وفى الوقت نفسه ضاعف البدو من هجماتهم فى صعيد مصر والدلتا ومنعوا تزويد العاصمة بالقمح وكذلك زادت غاراتهم فى الشام فى طرابلس وحلب وحماة وحوران وفلسطين والرملة .

وفى عام ١٤٨٧ عرض بالأسواق خبز من الذرة الشامية فقط ، وحدثت مجاعة رهيبة لم يحدث مثلها قط . ومات الفقراء جوعًا وسدت جثثهم الطرقات .

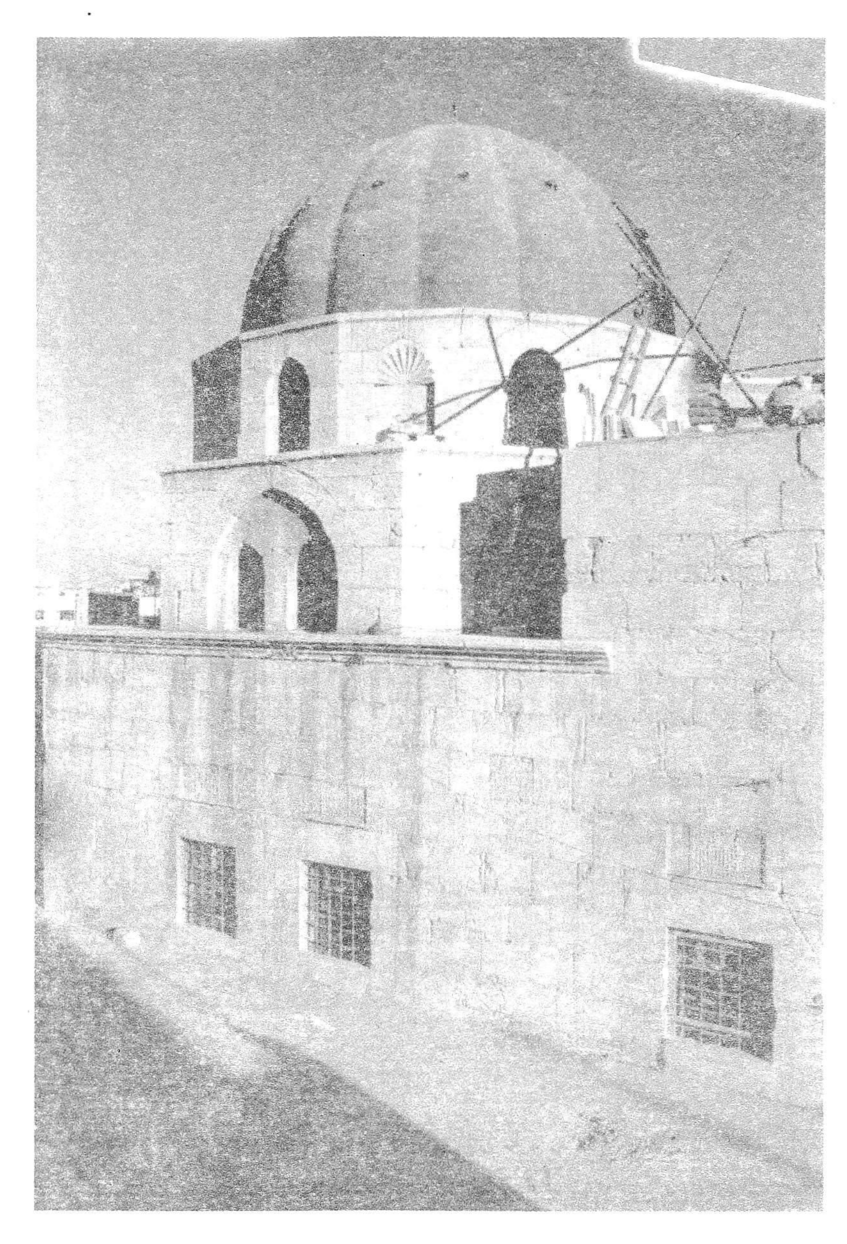
وفى عام ١٤٩٠ وبعد فرض زيادة جديدة فى الضرائب ودفع المنحة للمماليك ومقدارها مائة دينار عن كل رأس ودفع رواتب العسكريين أربعة أشهر مقدما ومقدار ثمن جمل ، نجح قايتباى فى تجهيز جيش ضخم قدرت تكاليفه بخمسمائة ألف دينار ، ووضع تحت قيادة الأتابك إزبك وهزم العثمانيين هزيمة فادحة عند القيسارية . وساد الأمن والسلام حتى نهاية عهد قايتباى .



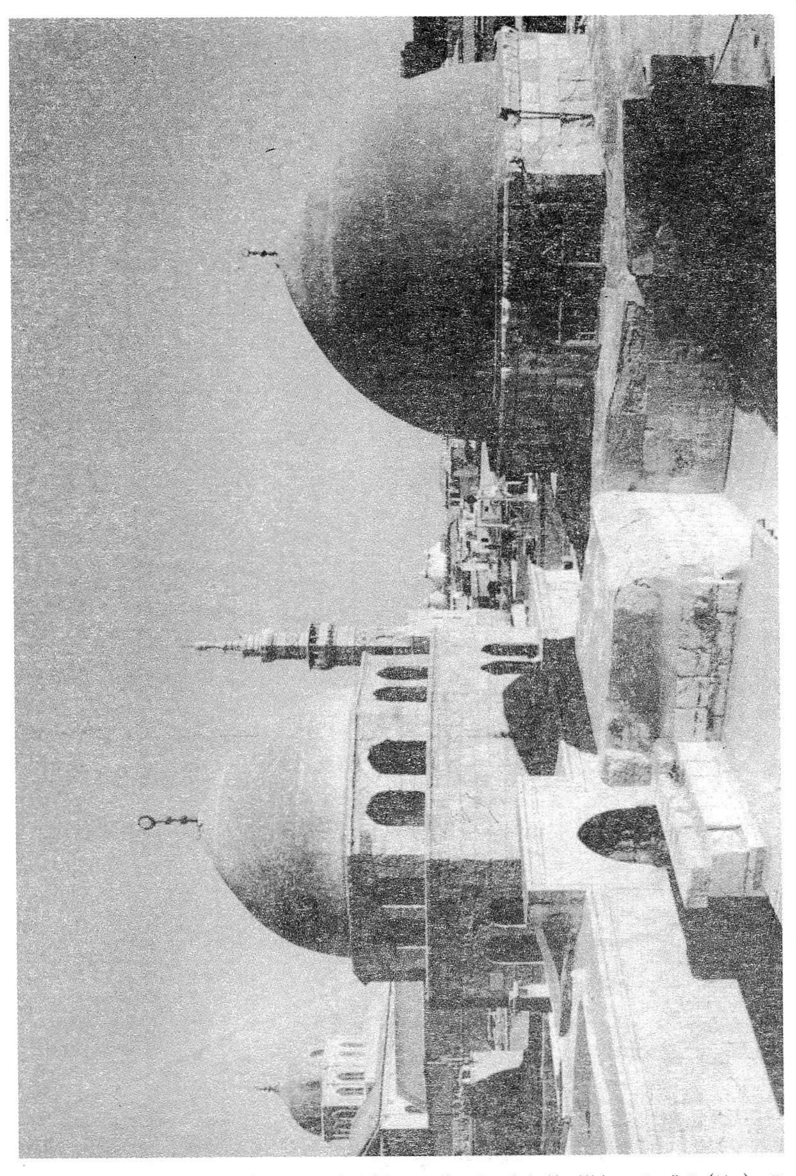
شكل رقم (١٧) قبر صلاح الدين من الداخل



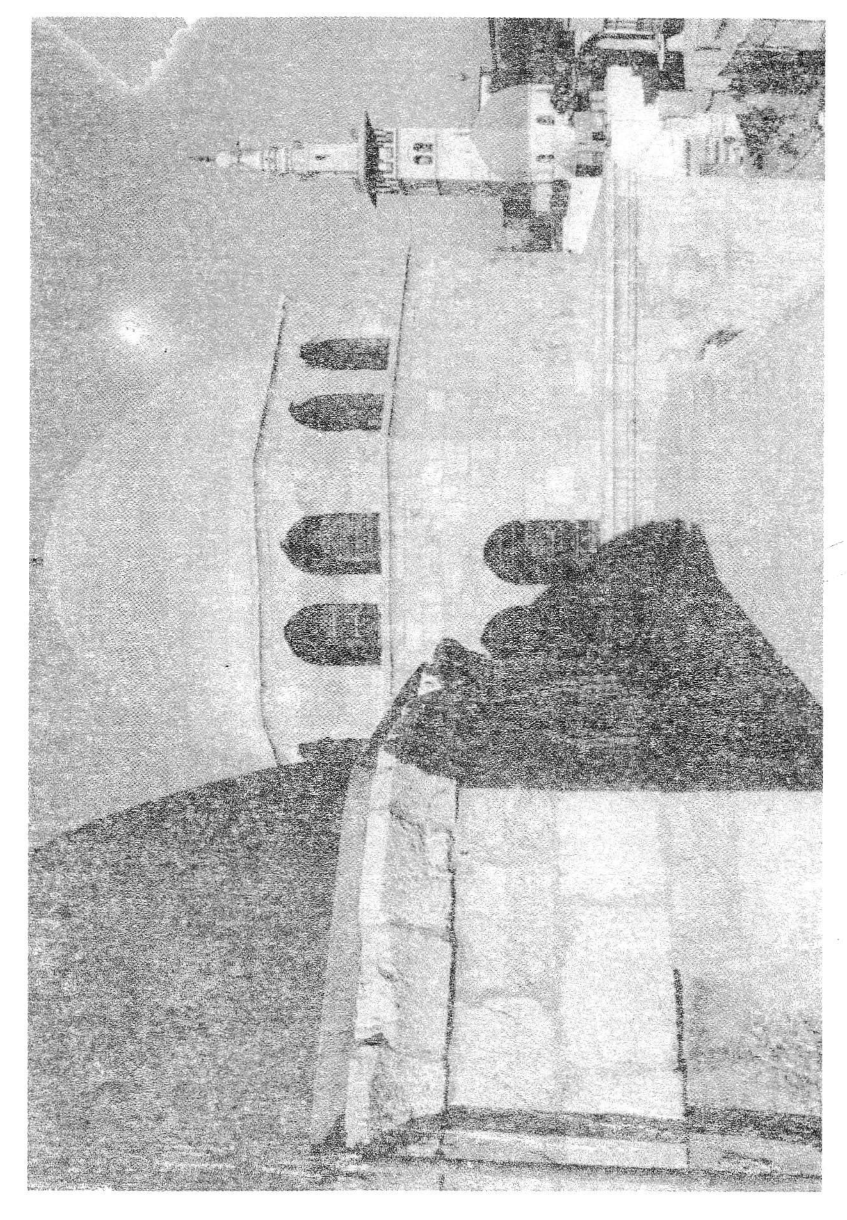
شكل رقم (١٨) المدرسة الماريدانية ١٢٢٦ - ١٢٢٧



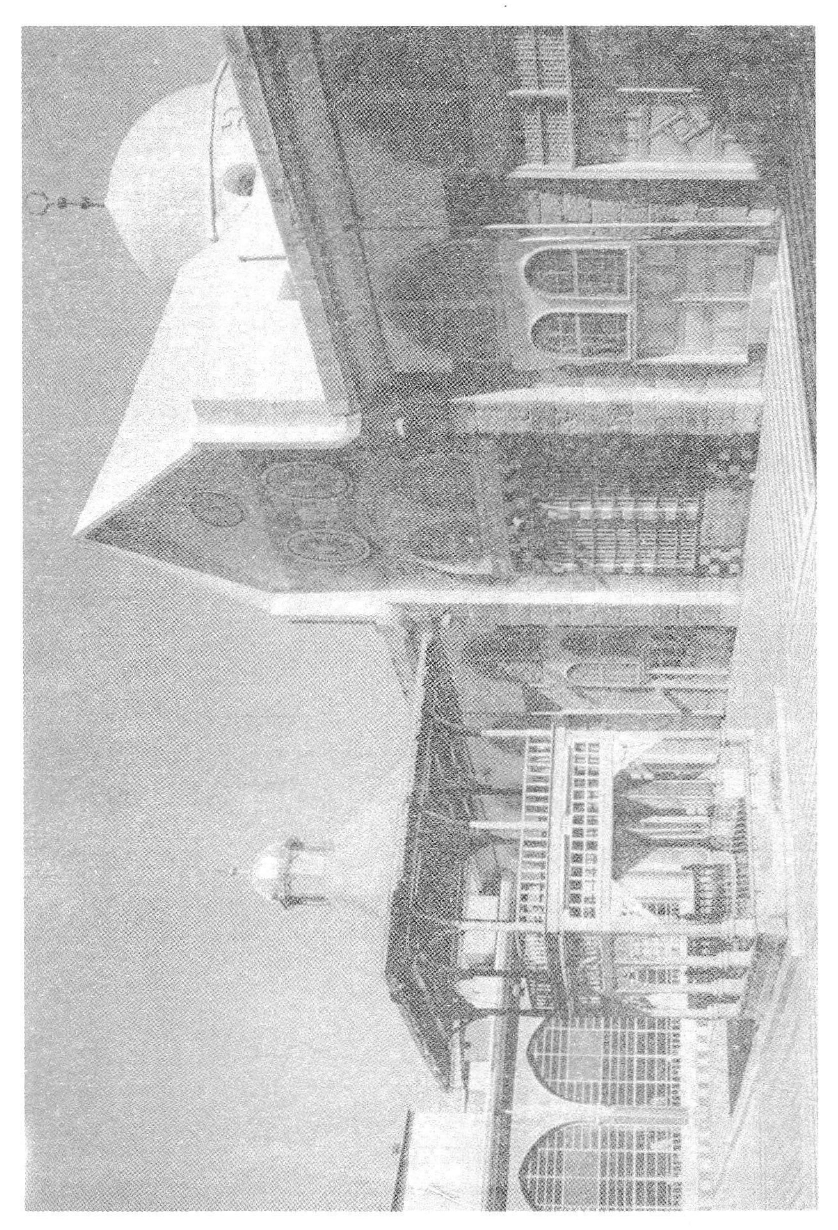
شكل رقم (١٩) المدرسة الركنية ١٢٢٤



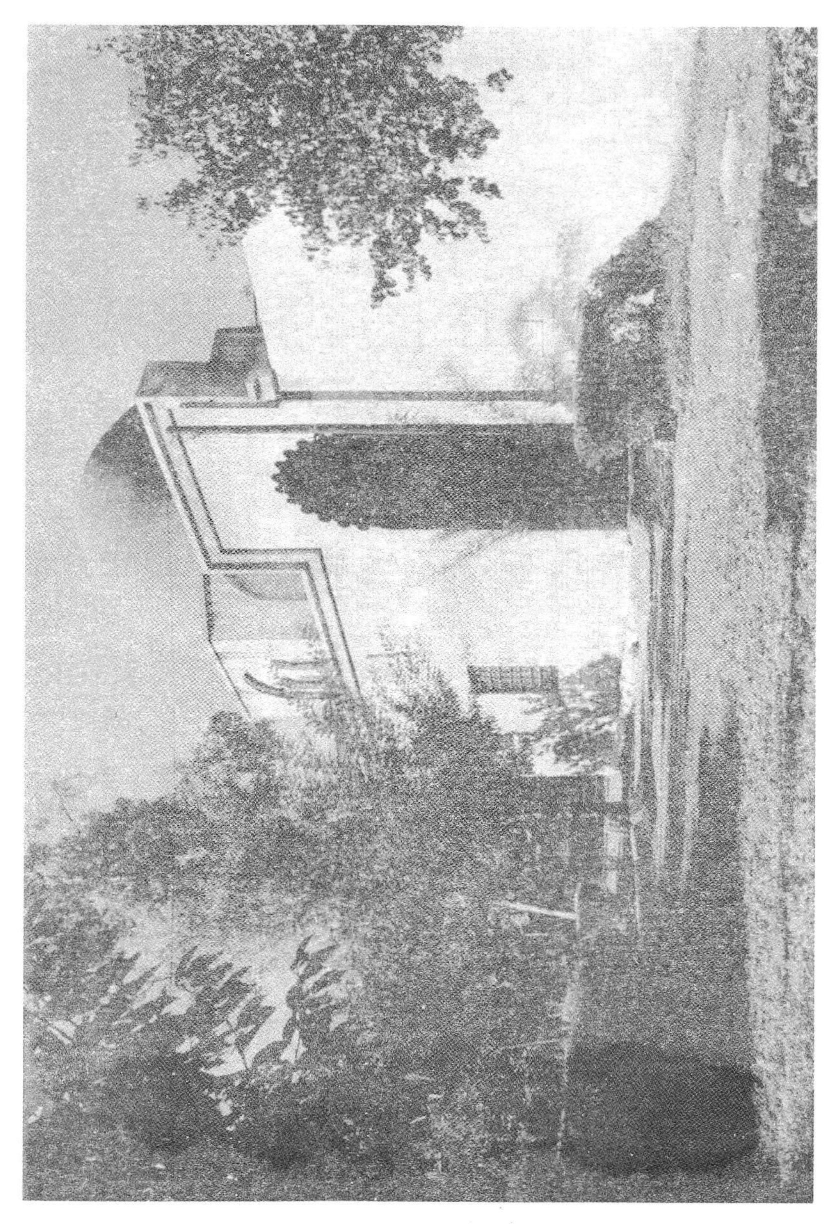
شكل رقم (٢٠) قبة مقبرة الملك العادل على اليمين ١٢٢٢ - ١٢٢٣ ، فى المواجهة باب وقبة المدرسة الظاهرية ١٢٧٧ - ١٢٧٨ ، وفى الخلف الجامع الأموى (قبة النسر ومئذنة قايتباى ١٤٤٨.
وعن بعد قباب أسعد باشا (القرن الثامن عشر)



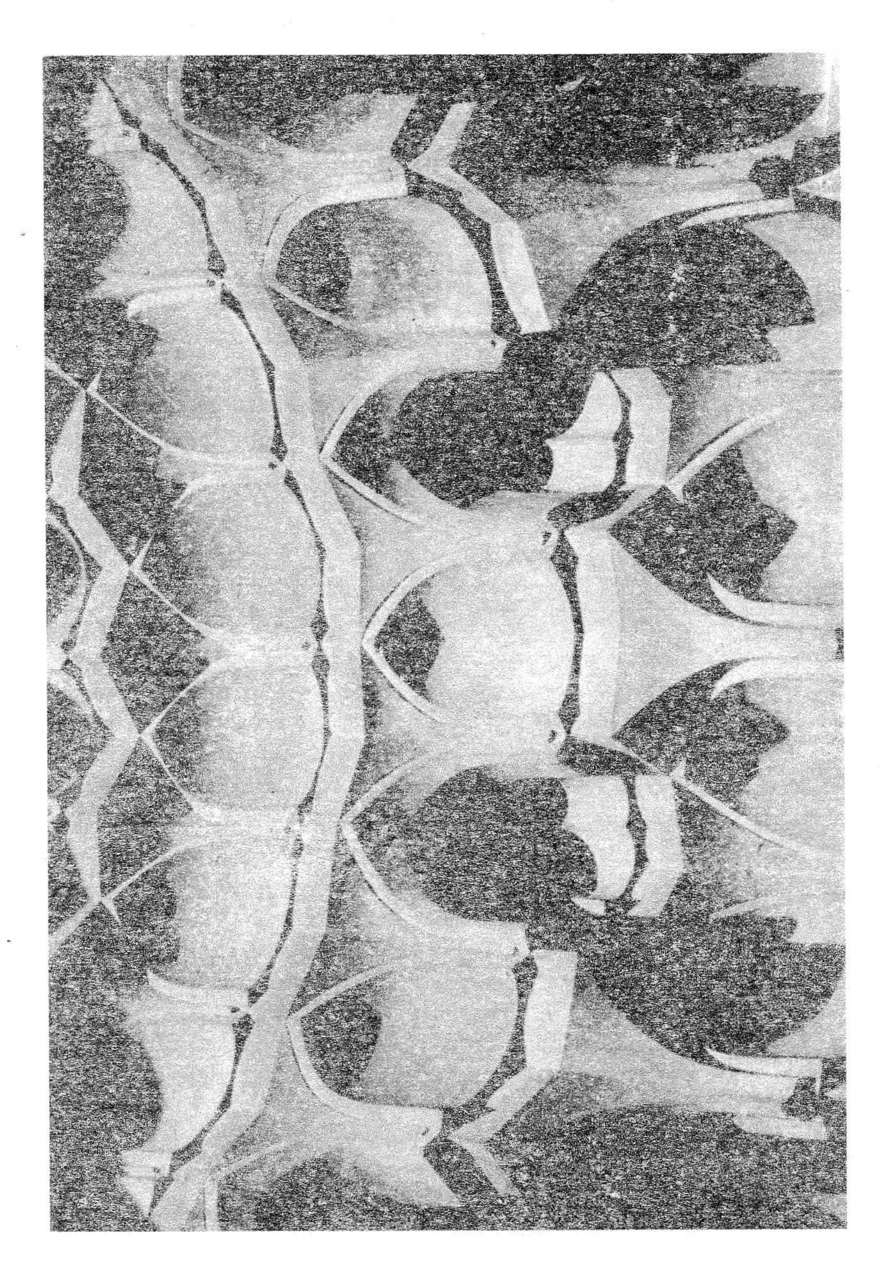
شكل رقم (٢١) المدرسة العدلية والظاهرية . وفى الخلف مئذنة العروس وقبر صلاح الدين



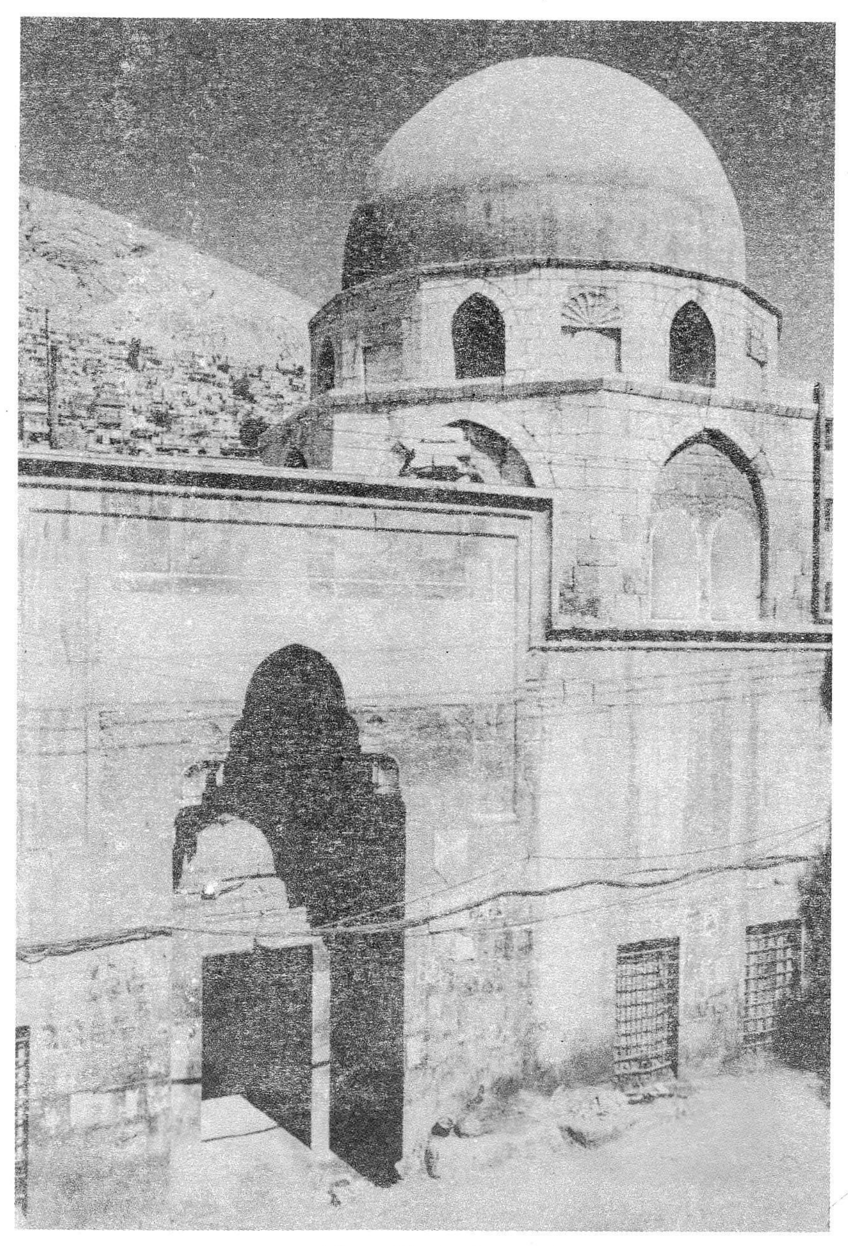
شكل رقم (٢٢) فناء وواجهة صحن الصلاة لمسجد التوبة ١٢٥١



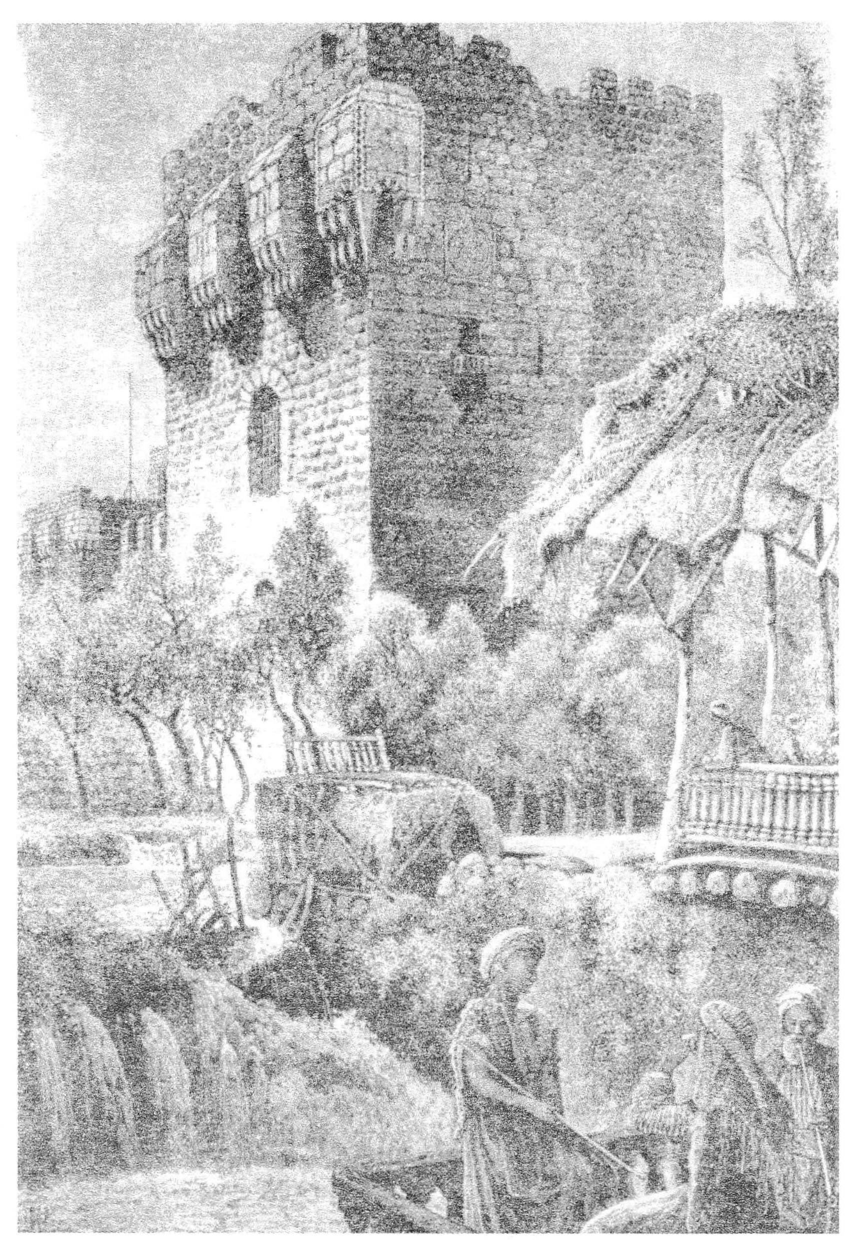
شكل رقم (٢٣) زخارف على باب المدرسة الظاهرية ١٢٧٧ - ١٢٧٨



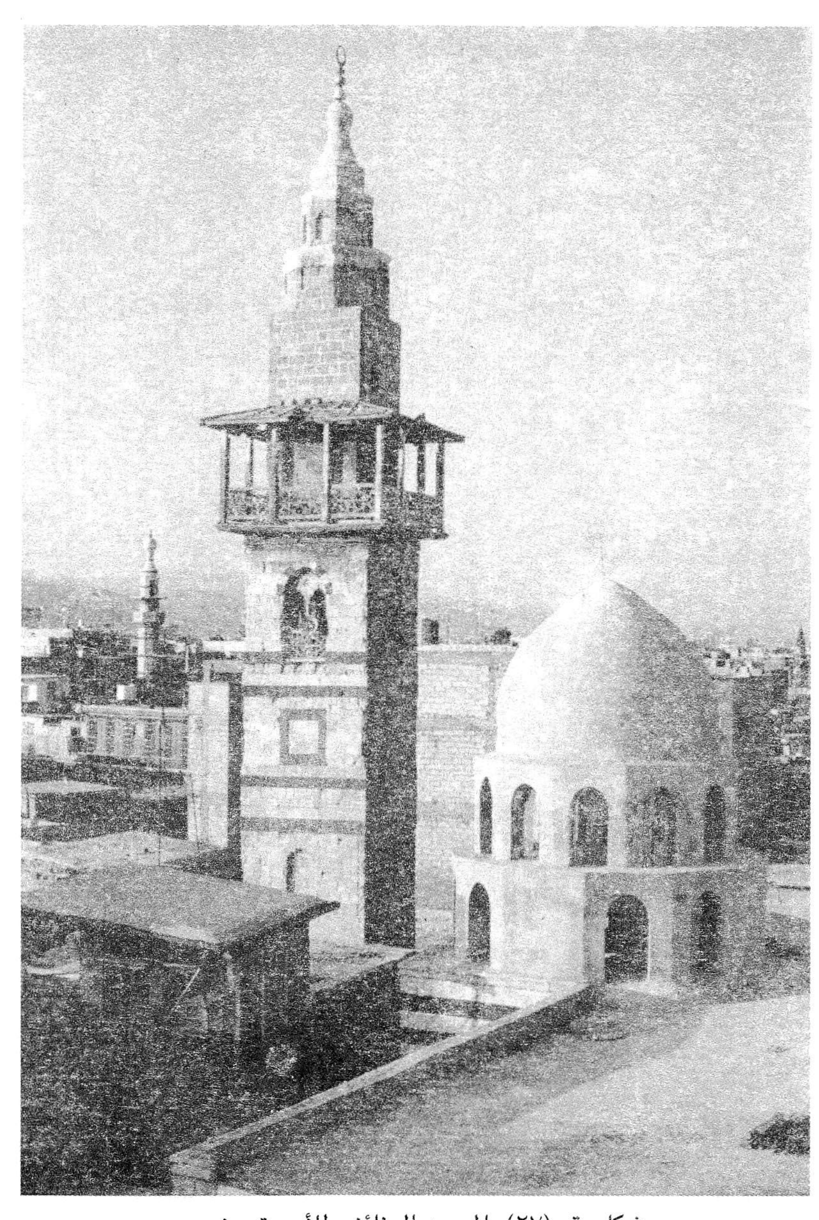
شكل رقم (٢٤) زخارف على باب المدرسة الظاهرية ١٢٧٧ - ١٢٧٨



شكل رقم (٢٥) المقبرة التكريتية



شكل رقم (٢٦) أحد أبراج القلعة

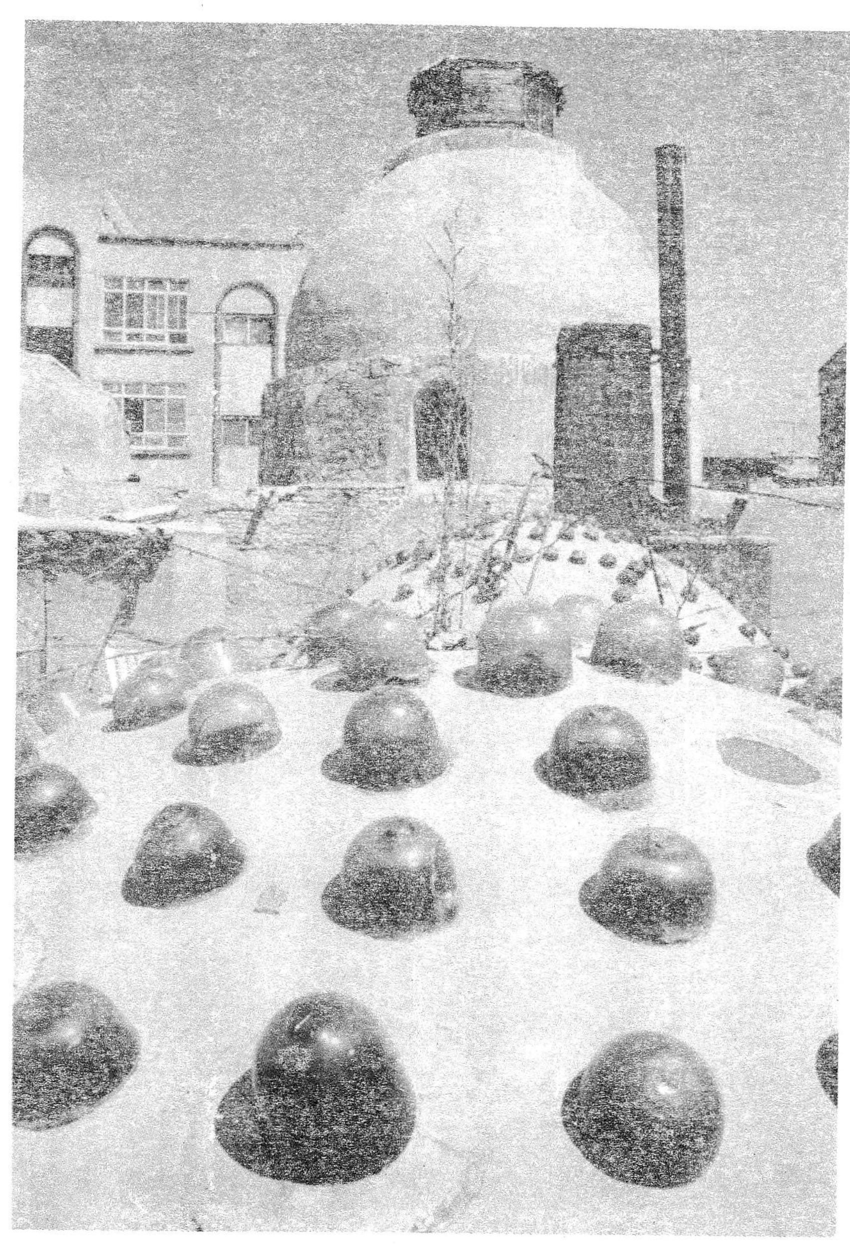


شكل رقم (٢٧) المسجد الجنائزى للأمير توريزى .

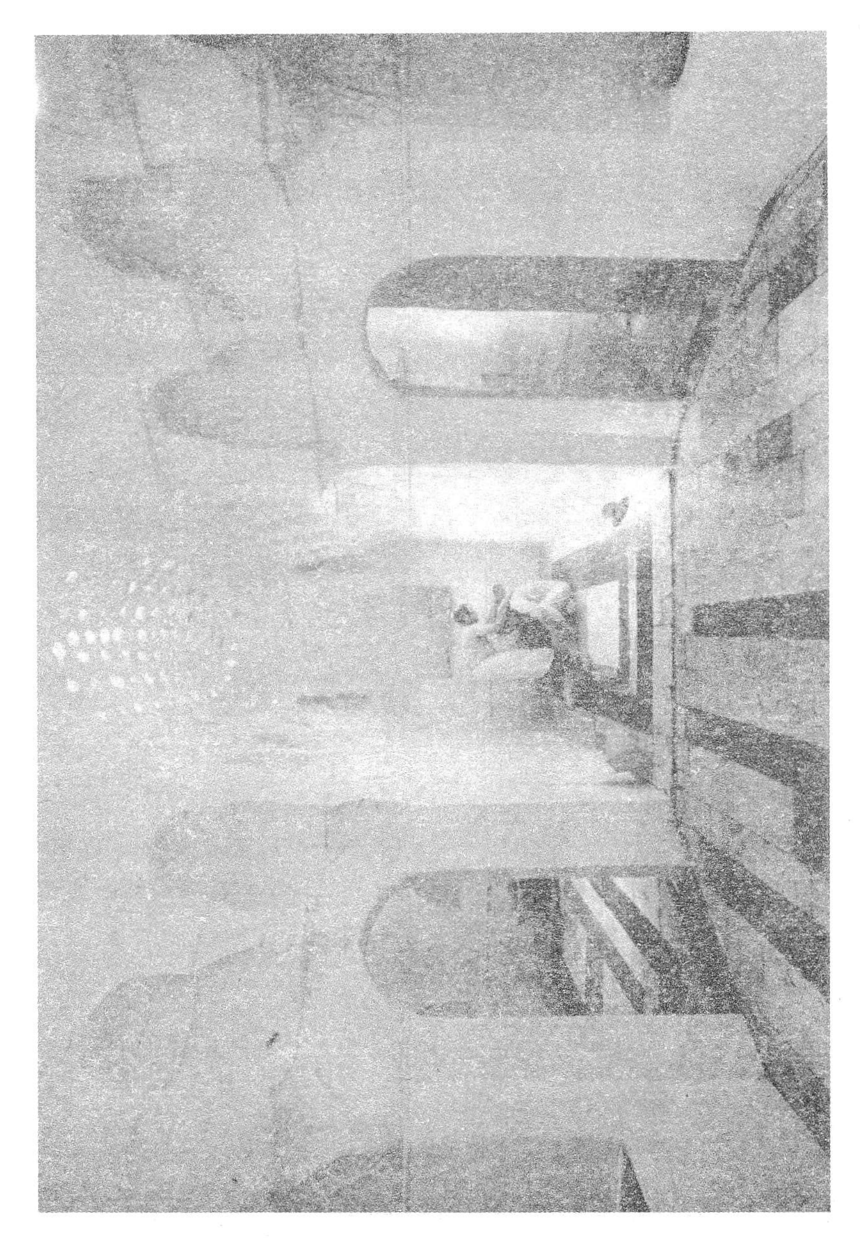
المئذنة وقبة المقبرة ١٤١٥ - ١٤٢٣



شكل رقم (٢٨) إحدى بلاطات الخزف سداسية الشكل التى تغطى قاعدة القبلة لمسجد التوريزى



شكل رقم (٢٩) قباب حمام التوريزى ١٤٤١ - ١٤٤٢



شكل رقم (٣٠) القاعة الحارة لحمام التوريزى



شكل رقم (٣١) مئذنة القلعى ١٤٧٠



شكل رقم (٣٢) مئذنة المدرسة السباعية ١٥١٥

وفى خريف ١٥١٥ بدأ الفصل الأخير من مأساة المماليك ، إذ وصل أسطول عثمانى يضم حوالى أربعمائة سفينة وهجم على دمياط والإسكندرية بينما تحركت أعداد غفيرة من القوات المسلحة تسليحا كاملا على الحدود الشمالية للشام . وفى القاهرة أعلنت التعبئة العامة فاستنفذت جميع الموارد بالخزانة . وتم شراء إخلاص وولاء الضباط بآلاف الدنانير : خمسة آلاف دينار للقائد العام سودون عجمى ومائة دينار راتب أربعة أشهر أى ثمانية آلاف دينار ومبلغا يوازى ثمن جمل لكل مملوك .

وفى ١٨ يونية " وفى موكب لم تشهد البلاد مثله " وبمصاحبة سيباى الذى كان يحمل مظلة كبيرة للوقاية من الشمس وكذلك الهلال دخل قنصوه الغورى إلى دمشق عن طريق باب النصر .

وكتب ابن إياس يقول : "كان يوما خالدًا ، إذ كان هذا الموكب من الأحداث التى لا تنسى" .

كانت المدينة مزدانة بالأعلام ، وفرق الدفوف والطبول تدق فى القلعة ، وكان التجار الأوروبيون المتواجدون ينثرون قطعًا ذهبية وفضية تحت أقدام السلطان . أما مدير النقد اليهودى صدقة فكان يلقى بقطع جديدة . وأقيمت مأدبة فاخرة على شرف السلطان تبعها تبادل الهدايا : تلقى سيباى ثوبا للتشريفات ذا قيمة غالية جدا ومطرزا بالذهب على أرضية خضراء تشبه ريش الحمام الزاجل ومزدانا بالذهب ومطابقًا لذوق العصر كما قال "يلبغا" . أما السلطان فقد تلقى أربع عشرة صينية محملة بالدراهم الفضية وملابس ثمينة وحوالى عشرة خيول ومثلها من المماليك " الذين تم اختيارهم من أجمل المماليك ويملكونهم أهل الكتاب " .

وفى يوم الأربعاء ٢٤ يونية اتجه السلطان وجيشه نحو الشمال يتبعهم سيباى . وفى ١٠ يولية وصل الجيش المملوكى إلى حلب . وقد أودع كانوش الغورى فى القلعة ثروته التى قدرت بمليون دينار بخلاف البضائع التى نهبت من أسواق القاهرة .

وفى الوقت الذى بدا فيه وكأن النصر يميل لصالح المماليك ، إذا بخير باك يغادر ساحة المعركة سرا وهو قائد الجناح الأيسر وترك جميع قواته وبدأت القوات العثمانية تطلق النار بكثافة فسادت الفوضى والاضطراب فى صفوف القوات السورية - المصرية . وقتل سودون عجمى القائد العام للقوات المسلحة وسيباى قائد الجناح الأيمن الذى بدأ يترنح وازداد التباعد والهروب من حول السلطان الذى لقى حتفه هو الآخر وعمره ٧٨ عاماً ، " وتركت جثته فى العراء طعاما للذئاب والحيوانات المتوحشة " ، وكتب أيضاً ابن إياس يقول : " اختفت سلطته فى لمح البصر كما لم يكن يوجد قط . إن السلطان وأمراؤه لم يشغلوا بالهم إطلاقا بتحقيق العدالة ولا المساواة بين المسلمين فلقوا مصيرهم المحتوم جزاء أعمالهم وما اقترفوه " .

وفى معركة مرج دابق التى تشبه إلى حد كبير المعركة الفاصلة بين البريطانيين والفرنسيين عام ١٤١٥ .. هذه المعركة التى قضت للأبد على حكم المماليك الذى استمر أكثر من مائتين وخمسين عاما .

لم يشترك جنود المماليك فى المعركة بل ظلوا " واقفين كخشب مُسندة " حسب تعبير ابن إياس . أُسر عدد كبير من المحاربين والأمراء ومن بينهم تمراز والى طرابلس وطراباى والى صفد وأصلان والى حمص .

أما محمود بن الغورى فقد اصطحب زوجته شقرا ابنة سيباى وأمها متجهين إلى مصر بأقصى سرعة . أما عن فلول جيش المماليك فقد تشتتوا بشكل فوضوى وفى حالة يُرثى لها دون زى عسكرى أو خيل وأغلبهم كان على ظهر حمير وبعضهم جرد تماما من ملابسه ، والبعض الآخر يرتدى جلبابا من البدو أو يلف جسمه بغطاء خفيف .

وبعد أن نهب العثمانيون مخيم المهزومين دخلوا حلب فى ٢٩ أغسطس وهرب كانوش أشرفى قائد القلعة مع الجيش المملوكى . استولى سليم الأول على خزائن الغورى وحضر صلاة الجمعة فى مسجد الأطرش .

أمـا فى القاهـرة فـقـد نادى بعض الضـبـاط بطومـان باى سلطانا باسم الملك الأشرف ، بينما البدو يثيرون القلاقل فى كل مكان .

وفى دمشق أعلن انتخاب الأمير جنبردى الغزالى والى حماه فى ٣ سبتمبر . ولكن فى ٢١ سبتمبر تراجع مقتنعا بعدم جدوى مقاومة نيران أسلحة العثمانيين . وأرسل عائلته إلى مصر ثم لحق بها هو الآخر .

كان الوضع فى الشام فى غاية البشاعة حسب تعبير ابن إياس .

وفى يوم الخميس ٢٧ سبتمبر قرر الأعيان والشيوخ الامتناع عن أى مقاومة . كان يونس باشا قد أقام مخيمه فى الميدان الأخضر ودخل المدينة بصفته الحاكم العثمانى وتجنب أى مواجهة مع على باى والى القلعة الذى قام بزيارة مجاملة له وأهداه ثوبا مطرزاً بالذهب . وفى اليوم التالى نفسه ، تم الدعاء لسليم الأول فى خطبة الجمعة بالجامع الأموى ، حيث وصل فى اليوم نفسه على رأس جيش قوامه أكثر من مائة وثلاثين ألف رجل وأقام مخيمه فى القابون، وهناك استقبل كبار القضاة الأربعة ثم الأشرف وألقى القبض على باى الذى حضر لتسليمه مفاتيح القلعة .

وفى يوم الجمعة ٤ أكتوبر توجه مباشرة إلى الجامع الأموى لحضور صلاة الجمعة . وفى أثناء الخطبة وصف القاضى الشافعى ولى الدين بن فرفور سليم الأول بأنه خادم الحرمين الشريفين فى مكة والمدينة المنورة .

فى الوقت نفسه احتل الجنود العثمانيون عددا ضخما من المنازل وطردوا أصحابها دون مراعاة لسن أو مرتبة اجتماعية ، وألقيت محتويات المنازل من الشبابيك وكان ابن طولون المؤرخ قد وجد كتبه ملقاة على قارعة الطريق بعد أن احتلوا منزله . تحولت أماكن مقدسة كثيرة إلى إسطبلات أو مأوى للأغنام كما صادر السلطان مسكنًا جميلاً قريباً من المدرسة النورية وطرد جميع سكان الحى .

ولكى يضمن ولاء قبائل البدو حتى يتمكن من مواصلة السير إلى فلسطين صدق سليم الأول على تعيين رئيس البدو ناصر الدين بن حنش كمقدم لسهل البقاع وواليا

على صيدا وبيروت ومنحه قرية نوى بحوران كإقطاعية خاصة له مقابل عدم تدخل قبائل المنطقة . وفى ٧نوفمبر توجهت أول حملة إلى المدن الفلسطينية.

وبعد ثلاثة أيام علم سليم أن قواته احتلت بيت المقدس وغزة التى هزم بالقرب منها جنبردى الغزالى على يد الوزير الأعظم سنان باشا .

أما فى القاهرة فقد وقع السكان فريسة للرعب والهلع وفر بعضهم إلى الصعيد والبعض الآخر " واجه الموقف بأن اختبأ فى كهوف المقابر " وسرت بين الناس آلاف الشائعات حول فظاعة أعمال الجنود العثمانيين فى دمشق .

وفى يوم الإثنين ١٥ ديسمبر خرج سليم الأول من دمشق عن طريق باب الجابية متوجها إلى مصر بعد أن أرسل مبعوثًا إلى القاهرة يدعو فيه طومان باى إلى الاستسلام . تطوع الشباب وكونوا ميليشيات شعبية وحاولوا صناعة مدافع تركب على عربات صغيرة من الخشب تجرها ثيران أو جاموس . أقام الجيش معسكره الحصين فى الريدانية (العباسية حاليا) شمال القاهرة . وفى ٢٣ يناير ١٥١٧ أبيد الجيش على يد خصم مسلح تسليحا جيدا وأكثر قوة وعددا ، فقد ترك جنبردى الغزالى معسكر المماليك وانضم للسلطان العثمانى وأقام سرا علاقات معه.

قام الجيش العثمانى بإشعال الحرائق وسفك الدماء فى كل مكان بالقاهرة وتمت مطاردة المماليك وذرياتهم دون شفقة إلى المساجد والمقابر التى اتخذوها ملاجئ لهم وقطعت رءوسهم فورا وتكدست على هيئة أهرامات أو علقت بحبال وثبتت بأعلى عصى طويلة .

وبعد معارك طاحنة فى الضاحية الجنوبية للقاهرة ، هرب طومانباى إلى الصعيد . وكتب ابن إياس يقول : " تعرضت القاهرة لأشد محنة قاسية عبر تاريخها". وقام العثمانيون والدهماء والخدم والرعاع بمذبحة عامة قتلوا فيها ثمانمائة مملوك أمام الحاكم العثمانى . وانتشرت الحرائق ونهبت المقابر ومنها مقبرة الإمام الشافعى وعمت المجاعة فى كل مكان .

وفى ٢ أبريل وعلى الشاطئ الغربى لنهر النيل وعند الجيزة تجمعت آخر قوات طومان باى " التى أصيبت بالصمم من جراء قصف مدافع العثمانيين " حيث هزمت وأسر طومان باى على يد أحد رؤساء البدو وسلِّم إلى سليم الأول الذى قتله وأمر بتعليق جثته على باب زويلة لمدة ثلاثة أيام " إلى أن فاحت الرائحة العفنة " . وهكذا انتهت فى هذه المذبحة الرهيبة دولة المماليك التى ظلت تحكم الشام ومصر لمدة ٢٥٧ عاماً .

ويذكر ابن إياس وابن طولون أن الشعب لم يشعر بأى تغيير إلا فى الحكام الذين أظهروا قسوة أشد من سابقيهم وأنه مجرد حدث بسيط فى الحياة العادية المحلية وليس حدثا له وزنه وتأثيره وفتح عهدا جديدا فى حياة وتاريخ الشرق الأوسط . إنهم أتراك حلوا محل أتراك والفرق أن الجدد أتراك انكشارية حليقو الذقن أما المماليك فكانوا ذوى لحى .

أصبحت القاهرة عاصمة إقليمية تحت سلطة خيرباك الخائن الذى باع نفسه فى مرج دابق . كان للأتراك الجدد الطباع والمعاملة السيئة أنفسهما للمصريين العنف نفسه والاحتقار للفرد .

ففى أحد أيام شهر يولية ١٥١٧ كتب ابن إياس : " لإخراج بعض المدافع من القلعة ألقى القبض على المارة ووضعت حبال فى رقابهم وسحبوا منها حتى هؤلاء الذين كان يبدو عليهم أنهم يشغلون مناصب رفيعة وشخصيات محترمة ووضعوا على آلة التعذيب حيث ضربوا بالسياط " . وقد كان ذلك واضحا وجليا لتحديد مدى العلاقة بين الحاكم والمحكوم . وفى المدينة ظهر الجنود العثمانيون أكثر شراسة ووحشية من المماليك حيث كانوا يقتحمون المنازل ويستولون على ما بها من تحف وأشياء ثمينة وبيعها بثمن بخس ويقيمون فى ثكناتهم حفلات سكر وعربدة ويسرقون ملابس المارة ويخطفون النساء والأولاد لإشباع شذوذهم وغرائزهم الأكثر وحشية .

وفى منتصف سبتمبر ١٥١٧ ، عاد السلطان سليم الأول إلى الشام وأخذ معه – مثلما فعل تيمور لنك قبله فى دمشق – غنائم ضخمة : تحف نادرة ، أوان نحاسية ،

أسلحة ، خيول ، بغال ، جمال ، رخام فاخر نزع من الأبنية ، ألف جمل محملين بالذهب والفضة ومئات الصناع المهرة فى جميع الحرف . كما أجبر عدة آلاف من الأعيان على الرحيل إلى إسطنبول : الأمراء وذريات كبار الضباط والقضاة ومساعديهم والعلماء وكبار الموظفين والتجار والأغوات . كما نهب سليم الدخل الذى كان يحصل عليه الخليفة المتوكل والذى تنازل له عن منصبه . وكما قال ابن إياس " إن مصر لم تشهد مأساة منذ عصر نابوشو دو نصور البابلى الذى دمر البلاد وأشعل فيها النيران بمثل هذه الطريقة . وظلت أربعين عاماً إلى أن استعادت وضعها " .

وفى ٧ أكتوبر ١٥١٧ وصل سليم الأول إلى دمشق وأقام بها أربعة أشهر قبل أن يتوجه إلى إسطنبول فى ٢١ فبراير ١٥١٨ .

وظلت مدينة الأمويين مجرد عاصمة إقليمية للإمبراطورية العثمانية حتى نهاية الحرب العالمية الأولى .

ومما لا شك فيه أن النظام المملوكى كان أكثر النظم غرابة عبر التاريخ الاسلامى كله . ذلك أن حفنة من العبيد " الأجانب سواء كانوا أتراكا أو شركس فى معظمهم تم شراؤهم فى ريعان شبابهم من أسواق القوقاز أو من آسيا الوسطى ونجحوا رغم كل العقبات التى صادفتهم على استمرار سلطتهم على الشام ومصر لمدة أكثر من قرنين من الزمان . إنه نظام لم يشاهد فيه السكان العرب إلا "حكم الأتراك" .

وهو نظام قائم على جلب شبان جدد وبصورة مستمرة ويدينون بالولاء التام لأسيادهم ، ويتولد عامل التآزر داخل الثكنات ، حيث يشعر كل أمير من الأمراء الكبار أنه سيستدعى إلى مناصب رفيعة والوراثة ليس لها أى مكان . فنظام كهذا الصعود فيه إلى العرش مخصص بصورة ثابتة إلى الأفراد الذين ولدوا مماليك ، وليس نتيجة سلالة أو نسل أو بالانتخاب أو الاقتراع ، ولكن بنوع من "الاختيار الطبيعى" بناء على الطمع والمكر والدهاء والعنف . فأولاد الأمراء الذين أحسن اختيارهم مثل آبائهم على تلك الحياة ولدوا أحرارا ومسلمين ولم يرثوا مخصصات عقارية . فعليهم إذن تأمين معيشتهم من خارج الجيش مما جعلهم ينخرطون فى وظائف دينية لتدر عليهم عائداً

كبيرًا وغير محدود . أما المصير المأساوى لبعض أبناء السلاطين الذين جاءوا بعد آبائهم ، فقد ثبتت استحالة تنفيذ نظام تتابع الوراثة وأيضًا بسبب الفترة القصيرة للأسرة الحاكمة فى القرن الرابع عشر ، باستثناء أبناء السلطان قلاوون .

أما فى القرن الخامس عشر فقد حجز السلاطين الحكم بالوراثة لأبنائهم . وكتب خليل الظاهرى صاحب السياسة الميكيافيلية النفعية للمماليك يقول : "إنه لبعد نظر قاسٍ تحتاجه الإمبراطورية كبقائها فى حالة هدوء وأمان " .

أبدى المماليك مهارة كبيرة كمقاتلين وأسسوا شرعيتهم تحت أعين "العلماء" والشعب فى التنظيم الإدارى والعسكرى حيث عرفوا كيف يفرضونه ويحافظون عليه بقوة وشدة حتى يجدوا الأسباب المقنعة لهذا النجاح . على رأس هذا التنظيم : السلطان ، وهو أول شخص من بين الأمراء يتم تعيينه من قبلهم حيث وجدوا أن السلطة التى تعتمد على القوة محدودة نظريا على الأقل بواسطة أقرانه . وعندما يكتب إلى كبار الضباط الذين كانوا بالأمس زملاءه ، وقد يكونون بالغد منافسين له ، فإنه لا يستخدم لقب سلطان حتى لا يجرح شعورهم أو كبرياءهم ، ولكنه يذيل خطابه بتوقيع متواضع قائلاً : " المملوك" . أما هيلمان السلطة والعرش والعلم (الراية) والطبول والمظلة التى تحميه من الشمس ، فهى ملك للإمبراطورية ، ولكنه يتقاسم السلطة مع أمير المؤمنين . وحسب المفاهيم السائدة عن السلطة فى ذلك العصر والتى فسرها خليل الظاهرى أن قوته هى ظل الله فى الأرض ، وأن العناية الإلهية تأمر العباد بطاعته طاعة "عمياء " وأن يذعنوا لأوامره التى ينطق بها كما يشاء ودون مراجعة . فهو يعتبر نفسه أنه يستخدم الصولجان والسيف بفطنة وضعها الله بين يديه لإقامة العدل والنظام والقضاء على الفوضى والعصيان والتمرد والفسق والجريمة وترسيخ دعائم الإمبراطورية بعيدًا عن الإهانة من الخارج والعمل على احترام الحياة وممتلكات المواطنين ، باختصار : يتبع تعاليم الآية الكريمة " تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ " . من أجل ذلك فإن جميع الوسائل مطلوبة وفعالة . وذهب خليل الظاهرى إلى حد أنه أيد استخدام "التعذيب كوسيلة للحكم" .

يتمكن الوصول إلى السلطة عادة بثورة القصر التى هى موضع لوم وتوبيخ نتيجة عمليات القتل والتى قد تؤدى أحيانا إلى إعدام المملوك القديم الذى أصبح سلطانا . يتلقى التنصيب على أيدى الخليفة ، وهو إجراء شرفى لابد منه للمحافظة على المظهر ، ولكن فى الواقع نتيجة الموافقة الجماعية لكبار الضباط والأمراء وكبار القضاة والعلماء .

وبخلاف نسبة كبيرة من عائدات الأراضى ، فإنه يحصل على موارد عديدة بصورة سرية . وفى منتصف القرن الخامس عشر ، وكما حدد ذلك خليل الظاهرى فكان جمرك الإسكندرية يحصل رسوماً عن التجارة مع الأوروبيين على التوابل القادمة من الهند وله نسبة منها وكذلك رسوم على السمسرة والترجمة ورسوم على تكرير السكر ورسوم بنسبة ٥٪ على الممتلكات العقارية والعوائد التى يتم تحصيلها من عدة قرى والرسوم على مدينة بيروت كأكبر ميناء لتصدير التوابل عبر البندقية وأيضًا الاستيلاء على ممتلكات الأعيان الذين ماتوا دون وريث وممتلكات الحجاج والمسافرين الذين ماتوا فى الطريق .

وبناء على أوامر السلطان كان الجيش مكونا أساسًا من فرسان جميعهم من المماليك القدامى أو من السلالات التى تم إعتاقها . وللعناية بهم وتدريبهم وتنشئتهم نشأة قوية كانت جميع إمكانيات الدولة الحيوية من تجارة وإنتاج تستنزف وتستغل لصالحهم دون حياء .

وكان تفوقه ومهارته ونظامه من الأمور التى تثير الإعجاب لدى جميع المراقبين . ورغم أن الخيول كانت تبدو صغيرة الحجم والأسلحة ضعيفة ومتخلفة ، إلا أن جاك دى فيرون ذكر أنهم كانت لديهم "شهرة واسعة كمقاتلين أشداء" . وأراد فيلكس فابرى أن يضع يده على فاعلية تدريبهم العسكرى بهذه الصورة : "كان الاهتمام هنا بموت الرجل أقل من الاهتمام بذبح دجاجة" . وقال لودوفيكو دى فارتيما : "شاهدت مملوكا آخر يجرى بحصانه وينتزع سرج حصان آخر ويضعه فوق رأسه، وبعد ذلك يضع السرج مرة أخرى على الحصان وهو مستمر فى الجرى دون أن يقع من فوق الحصان الذى يركبه .

وأكد شرف الدين مؤرخ تيمور لنك قائلاً " إن الفروسية المملوكية كانت أفضل فروسية فى العالم " .

كان الجيش عبارة عن فرق أفرادها من المماليك أو العبيد الشخصيين للأمراء اشتروهم بأموالهم الخاصة ويتولون تعليمهم وتدريبهم العسكرى . وكان الحرس الشخصى للسلطان من المماليك وعددهم بالآلاف ويطلق عليهم اسم السلطانيون . كان لقلاوون سبعة آلاف مملوك ويدينون بالولاء والإخلاص لسيدهم وكانوا يشكلون حامية القاهرة . وفى كل مرة يتم فيها تغيير الحكم ، يحتفظ السلطان الجديد بكامل حرس السلطان السابق أو بجزء منه ويضاف عليه ما يمتلكه قبل ذلك وما يستجد من شراء .

يأتى بعد ذلك جند الحلقة وهم أيضًا فى خدمة السلطان ولكن الأعضاء مزودون بإقطاعية . يضم جند الحلقة حوالى ٢٤ ألفًا من الرجال ، مقسمين إلى فرق كل فرقة ألف رجل بقيادة أمير المائة . وأخيرًا هناك المماليك حيث يتولى كل أمير رعايتهم والعناية بهم ويشكلون الحرس الخاص به . يأتى فى أعلى التدرج أمراء المائة وهم فى العادة يشغلون المناصب العليا فى الدولة حيث يمتلك كل أمير منهم مائة مملوك ثم أمراء الأربعين فأمراء العشرين وأخيرًا أمراء العشرة أو الخمسة .

وكان ديوان الجيش مكلفا بإدارة الدخل من الأراضى الممنوحة كهبة . كانت أرض الإمبراطورية مقسمة إلى أربعة وعشرين جزءًا أربعة أجزاء للسلطان وعشرة أجزاء للأمراء وعشرة للجند .

وبالإضافة للمخصصات العسكرية للأمراء ، كانوا يشغلون أيضًا وظائف عليا مدنية تعود عليهم بدخل كبير . ففى القصر السلطانى كانت هناك وظائف عليا، ويرتدى كل شخص زيا خاصا يميزه حسب الوظيفة . فهناك النائب الذى يحل محل السلطان ، ورئيس النوبة ويرأس المماليك السلطانيين ، وأمير المجلس وهو الذى يحافظ على البروتوكول وأصول اللياقة ، وأمير السلاح الذى يجهز للسلطان سلاحه فى الاحتفالات

الكبرى ، وأمير الخور للإشراف على الإسطبلات ، وأمير الدويدار وهو المسئول عن المراسلات ، والحاجب ويتولى تحقيق العدل بين الأمراء والجند ، والأمير جندار ويتولى تنفيذ الإعدام والأسطى دار وهو رئيس القصر ويشرف على الخزانة الخاصة للسلطان وإدارة المخازن الملكية والإشراف على المطبخ والخدم .

وهناك أربع إدارات كبرى يشرف عليها الوزير :

المراسلات وتحصيل الضرائب وإدارة الجيش والديوان الخاص للسلطان . وخلافا لرجال الجيش الذين كانوا جميعًا من " الأجانب " فإن الموظفين كانوا يختارون من السكان المحليين : مسلمين أو مسيحيين أو يهود .

وفى القرن الرابع عشر كان الدخل السنوى للأمير يتجاوز مليون درهم ، بينما مرتب رجل الدين لا يتعدى ٧٠٠ دينار سنويا .

يحتل المماليك وضعًا مركزيا فى الدورات الاقتصادية وذلك باستثمارهم جزءا ضخما من عائدات الإقطاع المخصص لهم ومن إيراد اختلاساتهم وأصبحوا يشتركون فى ميراث الدولة المتمثل فى عقود الأوقاف المتنوعة والتى تشمل منازل وحوانيت وطواحين وقياسر (مبان ضخمة تضم أسواقا ومخازن ومستودعات) ومفردها قيسرية ، ومراكز تجارية وأسواقًا (خان) ومصانع لعصر الزيوت وأخرى لاستخلاص السكر من القصب وأفرانًا وحمامات وإسطبلات ومخازن غلال وورشًا ومخازن عمومية وحقولاً وبساتين .

وقد امتلكوا أموالاً ضخمة مما ساعدهم على القيام بدور فعال كممولين حقيقيين للمشاريع الأكثر أهمية . ففى دمشق كان من بين المؤسسين لمشاريع ذات طابع تجارى كالسوق والخان والقيسارية ، السلطان (خمسة مشاريع) والأمراء (٢٨ مشروعًا) وذلك من واحد وأربعين مشروعًا . وهكذا ، ففى عام ١٢٩٢ قام أحد الأمراء بدمشق بشراء قيسارية القطن من خزينة الدولة وحصل على موافقة السلطان بنقل جميع تجار الحرير بالمدينة إلى داخل هذه القيسارية .

ولكى يضمن الأمراء عدم مصادرة ممتلكاتهم من قبل الدولة بعد وفاتهم حسب العرف الذى كان سائدا فى ذلك الوقت . خصصوا جزءًا من ممتلكاتهم وقفا لصالح الجمعيات الخيرية .

وفى دمشق تم إنشاء وإصلاح وإعادة بناء ١٧١ مسجداً ومدرسة وخانقاه فى عهد المماليك حيث قام الأمراء بتمويل إنشاء وإصلاح ٨٢ من تلك المبانى وأغلبهم من النواب وعشرة من السلطان و ٢٥ من التجار و ١١ من كبار الموظفين والباقى وقدره (٤٣) قام به العلماء والقضاة .

واستنادًا إلى الآية الكريمة : " أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الأَمْرِ مِنكُمْ " . ومن هنا مارست السلطة السياسية إشرافا دقيقًا على هيئة العلماء خاصة كبار القضاة وقاضى الجيوش ليكونوا ملتزمين بالطاعة والانقياد . وهكذا كان العلماء فى موقف صعب كمن وضع بين المطرقة والسندان : الشعب حيث من المفترض أن يدافعوا عن حقوقه ، والطبقة العسكرية الحاكمة لتأكيد ونشر السلطة بين جميع طبقات المجتمع ، وكذلك اشتراكهم وتحذيرهم الشعب من عدم دفع الضرائب غير الشرعية وإضفاء الطابع الشرعى عليها لأنهم كانوا يخضعون لضغوط مختلفة لإرضاء السلطان والأمراء حتى لا يحرموا من أموالهم ولا لشرف التقرب منهم .

ومع ذلك فقد كان تدخلهم لصالح المحكومين له أثر كبير . ففى عام ١٣١١ أعلنت بدمشق مجموعة من القضاة وخطباء المساجد وعلماء الدين سخطهم وعدم رضاهم لفرض ضرائب جائرة .

ورغم إلقاء القبض على الزعماء لم يتم خفض الضريبة .

وفى عامى ١٤٧٧ – ١٤٧٨ ، تعرض أحد القضاة بالقاهرة لسخط السلطان قايتباى . ولم يعرف إطلاقًا عنصر الاتهام الموجه إليه ، وطافوا به فى الشوارع وهو مثبت على ظهر جمل ، وبدلا من أن يقطع إلى نصفين حسب العادة المتبعة ، وبسبب تدخل أحد المسئولين إعرابا عن الشفقة والرحمة ، اكتفى فقط بتعليقه على شجر جميز .

وفي نوفمبر عام ١٥٠٤ ، عاقب السلطان قانوش الغورى القاضى بدر الدين وعذبه عذابا أليما لا حدود له كما عبر بذلك ابن إياس ولم يعذبه أحد من المتخصصين فى عمليات التعذيب وإنما تم على يد أحد الحجاج ورئيس الخزانة وسكرتير النائب : " قاموا بسحق كعوب قدميه وركبتيه وغرزوا فى أصابعه أسياخا كانوا قد وضعوها فى النار مما أدى إلى تدمير سلاميات أصابعه . لم يستمر العذاب على وتيرة واحدة بل نوعوه :

استخدموا كلأبة فى نزع حلمات الثديين وحمروها فى النار وطلبوا منه أن يأكلها . ضغطوا صدغيه بحبل قنب حتى خرجت كل عين من حجاجها (تجويفها) وتدلت على الخدين . استمر المسكين فى العذاب دون سند قانونى يحميه .. لقد فاق العذاب أى احتمال يمكن أن يتصوره العقل " .

وفى عام ١٥١٣ ، وبسبب اختلاف بسيط فى تقدير موضوع تافه خاص بالعدول عن الاعتراف فيما يتعلق بجريمة زنا . رد السلطان وكان أيضًا القاسى قانوش الغورى على أحد القضاة قائلاً بأن حكمه هو الذى ينفذ أما حكمك أنت فلا قيمة له .

وكان المتهم شخصًا يدعى زنكلونى . بعد ذلك أمر بجلد القاضى ألف جلدة لأنه تجرأ وخالف أمر السلطان . وبطبيعة الحال فاضت روحه من العذاب .

وإزاء هذه الظروف ، لم يكن يجرؤ إنسان على اتهام السلطة بعدم الشرعية أو الخروج عن الشريعة طالما أن الحاكم يؤكد أنه مسلم وأن الطابع الإسلامى للمجتمع بشكل عام لم يكن موضع اتهام .

كان هناك شعور سائد بأن الدكتاتورية أفضل من الفوضى ومن الحروب الأهلية ومن الخلافات والانقسامات داخل جماعة المؤمنين . كما أنه لا شىء يعرقل أو يقف ضد مذهب السياسة وهو المذهب الرئيسى فى القانون العام للمسلمين والذى بموجبه تتمتع السلطة السياسية بنوع من الاستقلال فى مواجهة الشريعة .

وليس غريباً أنه فى نظام كهذا أن يصل الإحباط والحقد الشعبى إلى حد اللجوء إلى العنف . فبصورة منتظمة وفى كل مناسبة يتم تعيين نائب غير محبوب من الشعب بالإضافة إلى حدوث نقص فى المواد الغذائية ، وخفض قيمة العملة ، وغلاء الأسعار ، وتعسف المماليك ، وفرض ضرائب جزافية ، وبيع إجبارى ، والقبض على أحد العلماء أو عزله ، ومضاربات غير نزيهة ، وفتن تنتشر ، وإغلاق الأسواق والمحلات ...إلخ.

وفى عام ١٤٠١ قام الشعب بطرد النائب . وفى عام ١٤٣٩ - ١٤٤٠ ، أجبر النائب تجار الأغنام على أن يبيعوا له بسعر أقل من السعر الذى يبيعون به وفى عام ١٤٧٥ - ١٤٧٦ ، هوجم أحد الوكلاء وأحرق منزله . وفى عام ١٤٨١ تظاهر تجار سوق الطواقيين وسوق جقماق داخل المسجد الأموى مما أدى إلى تدخل رماة السهام المماليك . وفى عام ١٤٨٨ طعن مبعوث السلطان الذى كان يحمل مرسوماً سلطانيا بزيادة الضريبة على سمسرة الحبوب . وأحرقت جثته . وفى عام ١٤٩٢-١٤٩٣ وأثناء حدوث فوضى خطيرة ، هوجم النائب بالحجارة .

وفى قرى الغوطة اغتيل عدد كبير من الأمراء حيث كانت بعض القرى مثل المزة تتميز بمعارضتها الشرسة لسلطة المماليك .

واستغلالا للانهيار الاقتصادى وعدم التكامل السياسى فى نهاية القرن الخامس عشر ، قامت عصابات شبه عسكرية من الشباب الذين كانوا فى سجون الأحداث قبل العصر المملوكى ، وظهروا فى دمشق تحت اسم الزعّار (مفردها أزعر) ويضعون فوق رءوسهم غطاءً مميزا لهم وكذلك ملابس خاصة بهم ، ويتم اختيارهم من قرى الغوطة ومن الأحياء الواقعة فى ضواحى المدينة مثل شاغور والقبيبات وميدان والحسا وباب المصلى والسويقة حيث يعيش فيها أناس قدموا من الريف ودخلوا فى المدينة حديثًا ، وغير منسجمين مع الحياة فى المدينة.

ورغم أن الحى لا يبدو وكأنه العامل الأساسى للتآزر وإنما فقط بمثابة قاعدة جغرافية للاختيار ، لأن كل حى له عصابته الخاصة به . وعلى رأس كل عصابة يوجد

"الكبير" وأحيانًا يعطونه لقب "الشريف" أو "السيد" أو "قريش" وليس فى دوافعهم أية تطلعات دينية ، وإنما هم مجرمون ولصوص وسلابون . يقوم الزعار بدور مزدوج ومتناقض يعتمد على الظروف التى تتيحها السلطات المختلفة فى إدخالها فى إستراتيجيتهم ، فلا يترددون لكى يثبتوا وجودهم فى طلب الفدية من الشعب بالابتزاز . وفى وقت الاضطرابات يقومون بنهب الأموال ، وليسوا فى كل الأوقات المدافعون الشجعان عن أحيائهم ضد جشع جامعى الضرائب وقهر المماليك. وفى عام ١٤٩٨ - ٩٩ قتلوا أكثر من ثلاثين شخصًا فى الصالحية من بينهم رئيس الشرطة وأكثر من مائة شخص من داخل المدينة ، وقد شجعهم على ذلك العلماء . وفى عام ١٥٠١- ١٥٠٢ ، أعلن النائب الجديد قانوش البرج حل عصابات الزعار وأوجد ضرائب استثنائية . فنظم زعار ميدان والحسا والشاغور مقاومة وهاجموا الثكنة العسكرية وانضم إليهم زعار من أحياء أخرى ، وامتدت المعركة إلى القبيبات وقنصوة .

ولعدم التمكن من السيطرة على النظام والأمن أرسل إليهم شيوخًا وقضاة للتفاوض ، وألغيت الضرائب غير الشرعية ، ولكن قتلت شخصيات رسمية كثيرة حتى تعترف السلطة بالزعار . وبعد فترة قصيرة ، وبسبب فرض ضرائب جديدة استؤنفت الاضطرابات وألقى القبض على زعماء عصابات الشاغور وميدان والحسا ، وهاجم المماليك الشاغور حيث وضعت المتاريس ، وخاض زعار الأحياء الأخرى المعركة مع زملائهم وتعرض جزء كبير من الشاغور للحرائق . وأخيرًا استتب النظام ووافق النائب على هدنة عامة ، إلا أن كبير الشاغور أعدم .

وبالإضافة إلى العنف الذى ارتكبه الزعار فى العقود الأخيرة للنظام المملوكى ، هناك مجموعات أخرى تسمى "المنصر" أو "الحرامية" ، وهى عصابات إجرامية حقيقية منظمة تنظيمًا جيدًا يرأسها أفراد بلقب "كبير" أو "ريس" ، ويهاجمون أماكن العبادة المنعزلة والمدافن والأحياء التى تدفع "إتاوات للحماية " ، ويسلبون منازل الأغنياء ويغتصبون النساء داخل الحمامات . وهناك مجموعات أخرى من أدنى درجات السلم الاجتماعى ويطلق عليهم الحرافيش ، وهم من البروليتاريا أو الطبقة الكادحة المعدمة ،

ويتكونون من المتشردين حيث التسول هو الوسيلة الوحيدة لقوتهم ومعاشهم . وليس لهم مأوى سوى أكواخ حقيرة والمساجد والحمامات والشوارع ، حيث يموت منهم العديد من البرد فى أيام الشتاء القارس[1] . كما أن مظهرهم الخارجي وعاداتهم البربرية تثير الاشمئزاز وتنشر العار والفضيحة للمسلمين المحترمين . وأحيانًا يظهرون فجأة فى المساجد ، فيملأون الجو صياحًا وصرخات كلها قذف وسب . وكانوا يقومون بأعمال حقيرة ويحصلون على أجر متواضع لا يزيد عن درهم فى اليوم مثل نقل وحرق جثث الموتى بالطاعون وأسر ومطاردة الكلاب الضالة . وفى دمشق عام ١٢٩٩ - ١٣٠٠ وعند إعلان هزيمة الجيش المملوكى أمام القائد غازان ، نهبوا الحدائق وانقضوا على منازل الأغنياء ونزعوا الأبواب والأحجار الملونة والرخام وبلاطات الأرضية والشبابيك .

وكانوا ينظمون أنفسهم فى مجموعات على أنهم صوفيون . وابتداء من القرن الخامس عشر كان على رأسهم شيوخ لديهم بعض المعرفة عن العلوم الإسلامية . ولكن الأغلب أنهم ينتمون إلى عائلات المشعوذين والحواة أو حراس المقابر (تربية) أو خدم فى الحمامات .

وبالإضافة لطغيان السلاطين وقسوة المماليك كانت هناك تقلبات الطبيعة : زلازل وفيضانات وجفاف وأوبئة وحرائق وأسراب الجراد التى تحجب الشمس ، والتى أمامها تتضاءل أى مؤامرة أو ثورة وتصير لا قيمة لها .

ففى عام ١٢٨٤ هطلت أمطار غزيرة ومتواصلة ووصلت المياه إلى باب الفرادس وحطمت المزاليج وخربت كل ما كان بالداخل .

---

(١) رأى فيلكس فابرى أثناء مروره بالقاهرة عام ١٤٨٣ « أناسا كثيرين من الفقراء ينامون فى ميادين كبيرة يفترشون الأرض ويلتحفون بالسماء . أما النساء الفقيرات فكن يرقدن فى الأرض يضعن مواليدهن فى الميدان على مرأى من الجميع ، إلا إذا بادرت بعض النسوة العابرات بتغطيتهم بطرحة (غطاء الرأس) . وفى النصف الثانى من القرن الثانى عشر ، ذكر ابن جرير عن الذين ليس لهم مأوى بدمشق « كان هؤلاء الفقراء يبيتون فى الجزء الشرقى من الجامع الكبير لأنهم ليس لهم سكن يقيمون فيه » .

كما دمرت أعدادا كبيرة من المبانى وذكر المقريزى أن الشعب عانى من خسائر لا حصر لها . وفى ١٢٨٣ - ١٢٨٤ كانت الفيضانات من الشدة والعنف حتى إن مخيم جيش قلاوون قد خلعته السيول .

وفى ١٣١٦ - ١٣١٧ تسببت الفيضانات فى حدوث تلفيات خطيرة فى الغوطة وفى المدينة : تدمير ٨٩٥ منزلاً وسبعة عشر مخبزاً وإحدى عشرة طاحونة وأربعين حديقة و ٢١ مسجدا وخمس مدارس . أما عن الجفاف فقد تكرر مرات عديدة وقام الناس بصلوات عديدة حتى يُنزل الله الغيث عليهم .

وفى عام ١٣٩٧ كانت المياه فى نهر بردى ضحلة وشحيحة حتى إنها لم تكن كافية لإدارة طاحونة واحدة وأتلفت أغلب المحاصيل .

وتجمع الناس فى مساجد مختلفة يؤدون صلاة الاستسقاء ويبتهلون إلى الله أن يرسل عليهم الغيث . وخرج الحاجب الأكبر وجميع أمراء دمشق حفاة القدمين وكذلك العلماء والشيوخ والفقهاء يبتهلون ويبكون تضرعا إلى الله . كانت أعداد الناس كبيرة لا يمكن حصرها .

كما أن الأوبئة ومنها وباء الطاعون حصد أرواحا كثيرة . وذكر ابن بطوطة أنه مر بدمشق أثناء عودته من الصين وأنه صعق من انتشار " الطاعون الجينى أى الخاص بسلسلة النسب حيث لا يكتفى بالقضاء على فرد واحد بل بجميع أقاربه أيضاً " حيث كان ضحاياه أكثر من ألف يموتون فى اليوم الواحد .

حدثت أيضاً عدة زلازل أرضية أشهرها الزلزال الذى وقع عام ١٣٠٢ ، وكما يقول المقريزى أنه هز منطقة الشرق الأوسط بالكامل ، وطوال عشرين يوما لم تتوقف الأرض عن الاهتزاز وفقدت أرواح كثيرة تحت الأنقاض وتشققت جدران الجامع الأموى بدمشق . وانتشرت الحرائق بسهولة كبيرة فى المدينة ، وكان عام ١٣٩٦ أكثر الأعوام شؤما . ففى ٥ مايو ١٣٩٦ كتب ابن سارسة ، " شب حريق لم ير أحد مثله والتهم سوق الحريريين جنوب المسجد الأموى وسوق الصابونيين وسوق القطانين وسوق

الدقاقين (تجار الدقيق) وسوق الفرائين (بائعى الفراء) وقيسارية الصوف وقيسارية العباءات وقيسارية ابن البابى وعدد ضخم من النزل (الخان) . كما التهمت النيران الجزء الأعظم من ممتلكات التجار الأوروبيين لأنهم كانوا يقيمون فى تلك النزل وخاصة قيسارية ابن البابى . وفى العام نفسه شب حريق ضخم فى الحى الموجود خارج المدينة وقضت النيران على قيسارية يلبغا وقيسارية الطواشى (الأغوات) .

وفى ١٢ أكتوبر ١٤٧٩ التهمت النيران ثمانية أسواق ووصلت إلى الجامع الكبير وتهدمت المئذنة الغربية بفعل النيران .

ومن الناحية الإدارية قسم الشام فى عهد المماليك إلى ست نيابات (محافظات) وهى : دمشق وحلب وطرابلس وحماة وصفد وكرك التى ضمت إليها غزة . كانت نيابة دمشق الأكبر والأهم حيث تمتد سلطاتها من شمال حمص إلى شمال كرك وعلى الساحل من صور إلى جبيل وإلى الشرق حتى تدمر .

ويعتبر نائب دمشق الممثل الفعلى للسلطان والشخصية المرموقة . وكان بيمارستان النورى والجامع الأموى تحت إشرافه المباشر . وفى أول يوم من تعيينه فى تلك الوظيفة يكون فى استقباله جمع غفير من القضاة وحامية الجند المكلفة بالحراسة بأكملها والموظفون والشيوخ من مختلف جمعيات البر والإحسان ومندوبو الأحياء وحشد كبير من الجمهور . وبمجرد وصوله إلى باب القلعة يضع النائب القدمين على الأرض ، يقلده فورا الحاجب الأكبر والحجاب الأربعة الصغار . ثم يتقدم نحوه قائد القلعة ومتولى الحجر والنقيب وينزعون سيفه ويفكون حزامه وبذا يتمكن من أداء ركعتين لله ثم يوضع حزامه على الرقبة بينما يمسك متولى الحجر سيف النائب . بعد ذلك يقدمون له البيرق الملكى فيقبله ويقبل الأرض ثم يمتطى الجواد ويدخل قصر الحكم . وهناك يقف ليستمع إلى القرار الرسمى بتعيينه بحضور القضاة حيث يقف أمين سر الدولة على منصة ويقرأ نص القرار . وفى كل مرة يرد فيها ذكر اسم السلطان المعظم وأى مدح يُنسب إلى السلطان فى هذا القرار ، يأمر الحاجب الأكبر النائب بتقبيل الأرض . ويقوم بعد ذلك بتوزيع ملابس التشريفة على الموظفين كل حسب درجته .

أما كبار الموظفين المكلفين صراحة بالتجسس على النائب فيتم تعيينهم من قبل السلطان : الحاجب ، ومدير الشرطة وهو الشخصية الثانية بعد النائب ويحل محله فى حالة غيابه ، والوزير ، وأمين سر الدولة ، والمدير الإدارى للجيش ، ورئيس الشئون السلطانية ، مراقب الخزانة العامة ، وكبار القضاة الأربعة ، وخطيب الجامع الأموى . أما الوظائف المتوسطة فكانت تمنح إما عن طريق النائب أو السلطان ومن هذه الوظائف : مفتش الخزانة ، وقاضى الجيش ، ومفتى دار العدل ، والمحتسب ، إلخ . أما الوظائف الثانوية فكانت فقط من اختصاص النائب ومنها : شيخ الشيوخ ، والرئيس العام لجميع الخوانق (جمع خانقاه) ، وخطباء المساجد الأخرى ، رؤساء التعليم ، ومراقب نقاط الإبدال للبريد ، مراقب المسابك ، رؤساء المؤسسات الحرفية : كبير الأطباء ، كبير أطباء العيون ، كبير الجراحين ، إلخ ، ورؤساء نقابات أهل الذمة لأنه كما حدد القلقشندى " تعيينهم عاجز فى التسلسل الإدارى كما كانوا بعيدين عن قصر السلطان " : البطريرك اليعقوبى وبطريرك الميلكيت (الكاثوليك والأورثوذوكس فى ذلك الوقت) ، "ورئيس " اليهود ، ومندوب رئيس السامارتيين بدمشق الذى كان يقيم بنابلس .

ولكى يتم تحييد مطامع وطموحات الذين يشغلون منصب نائب دمشق وحتى لا تتاح لهم فرصة التآمر ، كان قائد القلعة يتلقى أمر تكليفه بالوظيفة من القاهرة مباشرة دون أن يكون للنائب أى سلطة عليه وذلك بمرسوم سلطانى صادر مباشرة من ديوان السلطنة .

يتم تزويد قلعة دمشق بالمياه من نهر بانياس ، وأيضًا توجد آبار لتأمين توافر الماء . كما يوجد مستودع ضخم للأسلحة به سيوف وأقواس وسهام ورماح ودروع مرنة ذات زرد وبلطات ومنجنيق ومواد مختلفة ومخزن ملابس ومستودعات ممتلئة عن آخرها بالبسكوت والدقيق والزبد والعسل والعلف والماشية وذلك تحسبا لحدوث أى حصار . وقد قاومت القلعة مقاومة باسلة أثناء الحصار الذى قام به التتار .

وتعتبر القلعة أحد معالم الجمال بدمشق بعد الجامع الأموى .

فهى بمثابة مدينة نظرا لاتساعها وامتدادها ، ومزودة فى كل ركن من أركانها بخمسة أبراج عالية وضخمة ، كما أنها محاطة بجدران عالية جدا مبنية من الحجر المصقول إضافة إلى حفر ضخمة تعوق وصول العدو إليها مما جعل دمشق محمية تماماً .

وللعمل على سرعة توصيل الأخبار بسرعة بين العاصمة وأقاليم الإمبراطورية المتباعدة وخاصة أثناء تهديدات الفرنجة والتتار والعثمانيين ومؤامرات حكام الأقاليم ، نظم المماليك شبكة ثلاثية للاتصالات . " البريد بالخيل والبريد بالحمام الزاجل وأبراج الإشارات بالنار . سمى البريد بالخيل بالبريد حيث استخدمه السلطان بيبرس أثناء الحرب ضد الصليبين والتتار .

وقد خصص بيبرس مبالغ ضخمة لإصلاح طريق البريد نظراً لأهميته وحفر آبارا للمياه وأوجد عدة نقاط للإبدال ووفر عددا ضخماً من الخيول والمؤن والعلف اللازم للخيول .

وبذا كانت عواصم النيابات والحصون الرئيسية والمدن الحدودية والساحلية على صلة منتظمة بقصر السلطان . وذكر القريزى أن الأخبار كانت تصل بالبريد من القاهرة إلى دمشق فى أربعة أيام ، بينما المسافر العادى كان يقطع المسافة نفسها فى ثلاثة أسابيع فى ذلك الوقت .

وبجانب البريد كان هناك نظام البريد بالحمام الزاجل حيث استعمل أيام الدولة العباسية كما استخدمه نور الدين بوفرة حيث عمل على تحسينه وتطويره خاصة فى اتجاه حدود جبال طوروس والشاطئ السورى . النوع الثالث وهو الإشارات بالنار كان موجها أساساً نحو الساحل لتفادى خطر السفن التى تغادر جزيرة قبرص . ومن خلال هذه الإشارات تقوم قلعة دمشق بدور رئيسى ، وتحدد تلك الإشارات الاتجاه نحو السلم أو الحرب .

وفى عهد السلطان الناصر محمد ارتبطت بالبريد خدمة أخرى ليست لها علاقة به ، ألا وهى نقل الثلج من دمشق إلى القاهرة حتى يحصل السلطان على مشروبات باردة . وفى السنوات التى لا ينزل فيها الثلج على دمشق ، يتم تجميعه من الجبال وينقل من موانئ بيروت وصيدا إلى دمياط عن طريق البحر . ومن هناك ينقل عبر النيل إلى بولاق ويحمل على ظهر بغال إلى قصر السلطان حيث يخزن فى صهاريج .

لم يصمد البريد وملحقاته أمام الانهيار الذى أصاب دولة المماليك ابتداء من بداية القرن الخامس عشر وأصيب بالإهمال التام عقب وفاة السلطان الناصر محمد . كما أن ثورات الأمراء والإفلاس المزمن للخزانة وغزوة تيمورلنك التى أفرغت محطات الإبدال من الخيول ومن الأفراد عجلت بانهيار هذا النظام .

ولقى البريد بالحمام الزاجل المصير نفسه .

ورغم التمرد والعصيان والفتن والكوارث الطبيعية وغزوة تيمور لنك ، فقد عاشت دمشق فى أيام المماليك فترة من الرخاء العظيم لوفرة مياهها وحدائقها الغناء ومنازلها الجميلة . وذكر ابن بطوطة أنها " فاقت فى جمالها وكمالها أى مدينة أخرى " .

وشبهها الدمشقى بأنها " مثل طائر أبيض يحط على مرعى فسيح ويرتوى من المياه المتدفقة .

تعتبر مدينة دمشق وضواحيها مكتظة بالمساكن والسكان حتى لم يعد بها مكان شاغر .

غير أن التطور والعمران فى الضواحى لم يكن متناسقا ، وكلما وصل امتداد الحى إلى درجة معينة ، كان لابد من إنشاء جوامع كبيرة لتحديد تاريخ وحدود هذا التوسع العمرانى . وفى الجهة الشرقية ، وخارج الباب الشرقى ، لا توجد أى ضواح . وبمحاذاة الجهة الشمالية أنشئ حزام من الأحياء وفى كل حى أقيم مسجد خاص به : مسجد السقيفة فى باب توما ، الأقصاب فى باب السلام ، الجوزة والمعلق فى حى العقيبة ، المؤيد ويلبغا فى حى يطلق عليه " تحت القلعة" ، والورد فى حى سوق

ساروجا . وفى غرب المدينة مسجدا سنجقدار وتنكيز . وفى الجنوب الغربى وعلى طول طريق مصر فى حى السويقة يوجد مسجد التوريزى . وفى الجنوب وبطول طريق حوران والحجاز وفى حى الميدان يوجد مسجدا منجاك الكريمى والتينبية . وعلى الطريق نفسه وإلى الجنوب من "ميدان الحصى " كانت توجد قرية القبيبات . وإلى الشمال وعلى سفح جبل قاسيون يوجد حى الصالحية حتى إن جاك دى فيرون ذكر أنه فى " هذا الحى بنى أكثر من ألف منزل فى مواجهة الجبل " .

وفى نهاية العصر المملوكى كان حى الصالحية يضم حوالى خمسمائة مسجد وعدة جوامع كبيرة .

تمتد الضواحى بطول الطرق المؤدية إلى الحجاز ومصر وبيروت لتتاخم الجزء الغربى من وسط المدينة .

وإذا كان هذا الجزء الغربى من المدينة ظل فى العصر المملوكى القلب النابض لدمشق وذلك لوجود القلعة والجامع الأموى والجزء الأعظم من الخان والأسواق ودار السعادة ودار العدل القديم الذى أنشأه نور الدين وتحول إلى مقر رئيسى للحاكم ، واستمر هذا النشاط أيام العثمانيين وحتى الوقت الحاضر .

وفى الجهة الشمالية من القلعة وعلى الشاطئ الأيسر لنهر بردى وفى مكان يسمى تحت القلعة تحيط به أحياء السويقات وساروجا والذى كان يقيم به أعداد كبيرة من الضباط ، يوجد سوق الخيل حيث يعتبر المورد الأساسى للجيش المكون من فرسان ولذلك فقد أصبح سوق الخيل المركز الرئيسى للحياة العسكرية إذ يقام عرض عسكرى يومى الإثنين والجمعة من كل أسبوع يستعرض فيه الحاكم القوة بالكامل مع التفتيش على الأسلحة والمعدات .

وتحت القلعة يوجد سوق للمنسوجات وسوق للملابس الجاهزة وسوق للملابس المستعملة وسوق النحاس وسوق السكاكين وسوق تجار القرب وسوق الجلود المدبوغة وسوق الأقمشة وسروج الخيل وسوق الخيل والبغال والدواب والماشية وسوق الجمال .

وكتب سيجولى الفلورنسى يصف خارج دمشق قائلاً : "يوجد خارج دمشق بساتين تتسم بالجمال الرائع وعندما تكون أشجارها مورقة تحجب أشعة الشمس تماما ويقضى الرجال والنساء هناك أوقاتا ممتعة " . وذكر جاك دى فيرون أن عدد تلك البساتين تجاوز ثلاثين ألف بستان تحتوى أشجارها على "برتقال وليمون وتين وخضروات وجميع المنتجات الأخرى اللذيذة والمفيدة لجسم الإنسان " .

ومثل القاهرة وسائر المدن الإسلامية ، أنشئت دمشق من مجموعة متراصة من الأحياء سميت أحيانا حارات أو محلات .

وفى بداية القرن السادس عشر كان يوجد داخل المدينة حوالى سبعين حارة وحوالى ثلاثين فى حى الصالحية . وخارج المناطق التجارية التى تضم الأسواق والخان والمحلات تمتد الأحياء "الرئاسية" المزودة بجامع وحمام وتجارة بسيطة .

وفى أحياء اليهود والمسيحيين كانت السمة الواضحة التآزر فيما بينهم والمبنى على الترابط الدينى . أما فى أحياء المسلمين فكان هناك تآزر مبنى على عوامل مختلفة حسب الظروف حيث تتلاقى الأصول العرقية من تركمان وأكراد وفرس ومغاربة ويمنيين مع الأصول الريفية والانتماء إلى أى مذهب من المذاهب الأربعة .

وهكذا كان حى الصالحية ينتمى إلى المذهب الحنبلى وباقى المدينة ينتمى إلى المذهب الشافعى .

وإذا كانت " الطبقات " الميسورة تشغل الجزء الغربى من المدينة والضواحى الغربية والشمالية الغربية ، فليس هناك ما يدل على أن مستوى الغنى - مثلما يحدث فى الغرب المعاصر - هو العامل الحاسم فى التمييز الاجتماعى . كما أن تضامن الأحياء وترابطها تدعمه المسئوليات الاجتماعية والإدارية والجنائية المنوطة إليهم .

يعين الحاكم أحد الأعيان الرئيسيين ويعطيه لقب شيخ أو عريف ويعتبر المسئول والإدارى ومندوبا عن الحى لدى السلطة .

فبالإضافة إلى عمله الأساسى وهو تقسيط الضرائب وتحصيلها ، فهو يتولى وبالتعاون مع باقى الأعيان والوجهاء والأمراء والعلماء والتجار الأغنياء صيانة المبانى العامة والعناية بها وكذلك طرق المواصلات وقنوات المياه ، كما يتحمل مسئولية منع وقوع الجرائم والبحث عن الهاربين والمجرمين وأيضًا تأمين الحراسة الليلية وتطبيق التعليمات الصحية والإشراف على فتح وإغلاق المحلات ، وإذا احتاج الأمر يقوم بمنع البغاء وحظر شرب الخمر وتعاطى المخدرات .

وفى الحى المسيحى يقوم البطريرك بدور الشيخ وتطبيق إجراءات تتخذها الحكومة تحت ضغط المسلمين تجاه أهل الذمة كان تجبرهم على ارتداء عمامة زرقاء ومنعهم من ركوب الخيل أو البغال أو حمل أسلحة أو تشييد بنايات أعلى من بنايات المسلمين أو قرع الأجراس أو شراء عبيد من المسلمين .

وكان على رأس الجالية اليهودية أيضًا مسئول يمثلهم وكان بدمشق ٤٥٠ رب أسرة يهودية " جميعهم أغنياء وتجار ويتولى أمرهم يهودى يتسم بالعقل والشرف والتقوى وهو الطبيب ر. يوسف .

قام النائب سيف الدين يلبغا ببناء قيسارية عام ١٣٤٧ خارج باب الفرج وكانت تؤجر سنويا بمبلغ ٨٤ ألف درهم ويضاف إلى هذا الدخل الواضح مبالغ أخرى مستترة لأن الخان كان عبارة عن أماكن للدعارة وكان صاحب الامتياز دائما من القوادين المشهورين ويقتطع جزءا لا بأس به من الدخل لنفسه . كما كانت تلك النزول (الخان) مكانا يتم فيه تحصيل الضرائب على البضائع المحلية والمستوردة فى خان خاص يسمى خان الجمرك حيث حل فى العصر المملوكى مكان دار الوكالة الذى كان موجودا قبل ذلك .

شكل كبار التجار "طبقة" غنية وقوية وتحظى بالاحترام حتى إن بعضهم كان لديه ثروة تفوق ما لدى الأمراء وكانوا من كبار الملاك ولديهم أراض شاسعة وأسواق ونزول (خان) وقياسر (جمع قيسارية) ومحلات وحمامات .

وكان عدد كبير منهم يقيم فى قصور حقيقية . وفى نهاية العصر المملوكى قام جان تينو بإجراء إحصاء فى القاهرة فوجد بها مائتين من كبار التجار الأغنياء وأكثر من مائة ألف صراف ذهب .

كما أن وضعهم الاجتماعى وتواطؤهم مع السلطة والأمراء - حتى إن بعضهم كان يشغل مناصب عليا بما فى ذلك وظائف القضاة والمحتسبين - أتاح لهم التهرب من الضرائب والانخراط فى أنشطة غير مشروعة مثل تجارة الخمور أو الخنازير مع التجار الأوروبيين بل وأيضًا تجارة الرقيق .

وبالنسبة للإسكندرية التى كانت قد خربت عام ١٣٦٥ ودمرت تمامًا عام ١٤٩٥ وأصبحت غير مأهولة بالسكان ، فإنها ظلت الميناء الأكثر نشاطًا فى الدولة المملوكية والباب الرئيسى لدخول التجار الأوروبيين ومنهم تجار البندقية الذين كانوا يتمتعون بامتيازات تجارية خاصة زادت فى العصر الأيوبى .

وفى نهاية العصر المملوكى أدت اكتشافات البرتغاليين لطريق رأس الرجاء الصالح إلى تهديد التجارة فى البحر المتوسط وانحصرت التبادلات بين البندقية والقاهرة .

كانت دمشق المركز التجارى الإقليمى حيث كانت تستورد البضائع من كافة أنحاء الشام : الفواكه من منطقة دمشق والحبوب من حوران والأرز من منطقة الحولة والزيت من نابلس والألبان والحبوب من البقاع . كما كانت تصدر منتجاتها المصنعة والأيدى العاملة الماهرة من بنائين وعمال تركيب رخام وخزف وكانت تستقبل التجارة الدولية عبر القوافل البضائع التى ترد من كل بلاد الشرق من المملكة الأشورية ومن الهند ومن آسيا الوسطى والقوقاز . كما كانت دمشق تشتهر بمنتجاتها من الزجاج والمعادن والخزف والمجوهرات الذهبية والفضة والنحاس والمنسوجات الفاخرة من الحرير والبروكار والملابس المطرزة .

وذكر ميشولام بن مناحم أنه كان يوجد بدمشق أربعة أسواق رئيسية : سوق للأحجار الكريمة واللؤلؤ وسوق لكل أنواع التوابل وثالث لجميع أنواع الحرائر . أما السوق الرابع فكان للنحاس المرصع بالذهب والفضة .

وبعد رحيل تيمور لنك ، فرغم تدهور الصناعات بها إلا أنها ظلت محط إعجاب الغربيين ، خاصة صناعة السيوف .

وقد شكل الحج في العصر المملوكي عاملا مهما في اقتصاد مكة . إذ كان له أهمية كبيرة كما كان يعرض أعدادا كبيرة من المسلمين لمواقف صعبة سواء في الشتاء لشدة الأمطار أو في الصيف لحرارة الجو ونقص مياه الشرب إضافة إلى تعرض الحجاج في جميع الفصول لهجمات البدو حيث وصفهم ابن خلدون بأنهم " وحوش مفترسة " وقال عنهم ابن إياس بأنهم " أكثر بربرية من تيمور لنك " ، فلم يترددوا من مهاجمة القوافل رغم إلحاق مفرزة مسلحة بكل قافلة ورغم دفع إتاوة عشرة آلاف درهم تدفع لهم .

وقد ذكر الجزاري أن عدد المفقودين من الحجاج الشوام والعراقيين بلغ أربعين ألفا .

وفي عام ١٣٢٦ ذكر ابن بطوطة أنه لاحظ " اتساع الشوارع في الضواحي وضيقها في داخل المدينة وأنها كانت مزودة بأرصفة على الجانبين لمرور المشاة " . كما ذكر جاك دي فيرون وهو معاصر لابن بطوطة أنه وجد في دمشق آثارا مصفوفة جيدا وميادين جميلة وشوارع فسيحة وأن جميع الشوارع كانت مغطاة ومزودة بفتحات للإضاءة نهاراً ولمبات للإضاءة ليلاً .

أما سكان مدينة دمشق رجالاً كانوا أم نساءً فإنهم خاضعون للضريبة وللسخرة رغم مبادئ العدل التي تنادي بها الشريعة الإسلامية ، ولكن لكي تضمن طبقة المماليك أن تعيش في بحبوحة ويسر .

ويعيش أهل دمشق حياة الإنسان المؤمن ويتمسكون بالإيمان والصلاة والصيام والأمل .

ويعلق فارتيما على سهولة الطلاق فى الدول الإسلامية قائلاً : " تتزوج النساء إشباعًا لرغباتهن . وعندما تمل من الحياة مع زوجها تتوجه إلى قاضى الحى الذى تعيش فيه وتطلب الانفصال والخُلع عن زوجها ثم تتزوج رجلاً آخر ويأخذ الزوج امرأة أخرى " .

وأهم ما يلفت نظر الأجانب فى الآثار الموجودة بدمشق الجامع الأموى لأنه يذكرهم بأن جسد القديس يوحنا المعمدان مدفون به . وكان الدخول للجامع غير مسموح به لغير المسلمين .

وقد أكد جاك دى فيرون أنه " لم ير أى كنيسة فى جميع مناطق إيطاليا بهذا الحجم وهذا الجمال مثلما رآه فى الجامع الكبير " . وتعتبر هذه شهادة تقدير - دون أن يدرى - للعمارة الإسلامية .

رربما اطلع على داخل المسجد من خلال أحد أبوابه . فهو مبنى ضخم يتسم بالجمال المبهر . وبطول كل جانب من جوانبه تتوفر المياه المتدفقة ، وله أربعة أبواب جميلة وصحن مربع على هيئة رواق ومبلط ببلاطات من الرخام والمرمر المصقول . والجدران التى توجد فى أعلاها القباب التى تحملها أكثر من مائة عمود من الرخام مزينة بالفسيفساء المطعمة بالذهب . يشع النور فى أرجاء الجامع من الداخل حتى فى وضح النهار وبه أكثر من ألفى مصباح .

ورغم ذلك صارت دمشق بعد القاهرة كمعمل تفريخ للآثار الإسلامية . فمن جوامع ومدارس وحمامات ونزل (خان) ومقابر بالمئات والمآذن التى تضاء طوال شهر رمضان .

وقد سجلت المدرسة الظاهرية على أنها أول الآثار المملوكية فى دمشق وعلى أنها فى الخط المستقيم للعمارة الأيوبية منذ نهاية القرن الثالث عشر . كما تعتبر مقبرة

السلطان كتبغا (١٢٩٤-١٢٩٦) التى بنيت عام ١٢٩٦ فى غرب الصالحية كأول دليل ظهر على التغيير .

وفى نهاية العصر المملوكى ظهرت منذنة المدرسة السباعية ولم تنفذ التغطية الخارجية لها بالحجر ولكن اتبعت تقنية سوف تعمم فى العصر العثمانى وهى التغطية بالجص أو الجبس الملون بحيث يملأ الثقوب الخفيفة فى واجهة الجدار . وبالنسبة للمساجد ، كانت العمارة المملوكية فى مصر تقتبس نماذجها من آثار الفاطميين الرائعة . أما فى الشام فقد ظل النمط المعمارى للجامع الأموى هو المرجع .

وفى الصالحية - أمام دار الحديث الأشرفية - يقام ضريح تقى الدين التكريتى الذى توفى بدمشق عام ١٢٩٩ عن عمر يناهز الثمانين عاما وهو أحد مماليك السلطان قلاوون القدامى وشغل منصب الوزارة فى دمشق فى عهد خمسة سلاطين : قلاوون والأشرف خليل والناصر محمد وكتبغا ولاجين . يعكس المبنى الطراز المملوكى الذى كان سائداً فى نهاية القرن الثالث عشر والذى كان متأثراً بالإنشاءات الأيوبية .

يفتح باب الدخول الموجود فى الواجهة الجنوبية على بهو مستطيل تعلوه قبتان بنتوء بارز .

يؤدى البهو إلى القاعة الجنائزية على اليمين ، وهى مغطاة بقبة مقامة على عمودين أسطوانيى الشكل أحدهما بثمانية جوانب والآخر بستة عشر جانبا من الحجر المصقول . وعلى اليسار قاعة للصلاة مغطاة ببروز .

وقد تم تحويلها هذه الأيام إلى مكتب . أما الواجهة فهى من الحجر المصقول ومبنية بشكل جميل وبها أربعة شبابيك منخفضة اثنان على المدفن واثنان على قاعة الصلاة . ويعلو كل شباك ساكن حسب التقاليد الأيوبية . يوجد إطار حول الباب لنقش الكتابة عليه .

كما يغطى بقبة ذات ثلاثة صفوف من الزركشة Muqarnas يعلوها صدفة .

وقد استخدم الجص (الجبس) فى زخرفة صحن المسجد المخصص لإقامة الصلاة فى القرن الرابع عشر بعد نهب تتار خازان المدينة عام ١٣٠٠ وبعد الحريق الذى شب فى ضاحية الصالحية . والنمط الوحيد الباقى فى دمشق من هذا النوع هو المطابق للتقاليد الأندلسية التى انتشرت على جدران الحمراء وغرناطة .

وعلى الشاطئ الأيسر لنهر بردى وإلى الغرب من سوق الخيل وفى الموقع نفسه الذى كان يشنق فيه المجرمون ، أنشأ الأمير يلبغا الجامع الكبير عام ١٣٤٧ ، وكان مملوكا للملك الناصر ويهوى ركوب الخيل ومغرمًا بالفن المعمارى .

وذكر ابن طولون أن يلبغا كان حاكمًا لحماة ثم حلب ، وعندما عين فى دمشق عام ١٣٤٥ ، عمل إنشاء قبة النصر فى مسجد القدم وقيسارية خارج باب الفرادس وحمامين خارج باب الجابية .

وفى عام ١٣٤٧ شرع فى بناء مسجد القدم ، إلا أن السلطان قيد حريته وانتهى المسجد عام ١٣٦١ ، حيث وجدت بقايا نص محفور على لوحة خشبية فى الزاوية الشمالية الشرقية لصحن الصلاة . ووجد نص آخر فوق باب المئذنة ، أن نائب دمشق سيف الدين تاينباك قد أمر بإصلاح المبنى "قبابه وقاعاته وطلاؤه على نفقته الخاصة" . وقد دمر المبنى بالكامل عام ١٩٧٥ أثناء التوسعة العمرانية . وكان يطابق فى بنائه الجامع الأموى . صحن مستطيل لإقامة الصلاة بطول ٦٢ × ١٢ مترًا ينقسم إلى قاعتين يفصل بينهما اثنان من البواكى موازيان لحائط القبلة .

وتوجد على حائط القبلة لوحات جميلة من الجص المنحوت تشبه تلك الموجودة فى مسجد السلطان حسن بالقاهرة . وقد انهارات القبة فى القرن الثامن عشر . وفى القرن التاسع عشر ، وأثناء وجود القوات المصرية فى الشام فى عهد إبراهيم باشا ، تحول إلى مصنع للبسكوت .

يقع مسجد منجق فى حى الميدان جنوب مضمار سباق الخيل المعروف باسم مضمار الحصى ، والذى بناه الأمير سيف الدين منجق عام ١٣٦٨ بعد أن كان

وزيرا بالقاهرة وحاكما على طرابلس ونائبًا على دمشق مرتين . اشتهر بالعدل والكرم فأحبه الناس .

بذل منجق كل جهده للعناية بدمشق وأمر بتنظيف الحارات وأنشأ عدة مبان منها زاوية فى قرية الكسوة . تعتبر مئذنة مسجد الميدان مطابقة للنمط المملوكى وهى الوحيدة التى ظلت قائمة حتى عهد قريب .

وفى حى باب السلام وعلى بعد مائتى متر من نهر بردى أقيم مسجد يعرف الآن باسم الزينبية ولكنه حل محل مسجد أقيم فى القرن الثانى عشر كان يعرف باسم مسجد الأقصاب (البوص) .

وهو مقام على موقع كنيسة بيزنطية قديمة ، ويقال إنها كانت تضم رءوس عدد كبير من الصحابة الذين أعدمهم الخليفة معاوية ، ثم عدلت عام ١٢٣٤ - ٣٥ على يد الأمير الأيوبى الأشرف موسى ثم فى عام ١٣٢٨-٢٩ على يد النائب القوى تنكيز ، ثم هدمت بالكامل على يد محمد بن منجق الذى بنى مكانها عام ١٤٠٨ مسجداً لا يزال موجودا حتى اليوم . يتكون المبنى من فناء يتوسطه حوض رئيسى محاط بأروقة ، ويفصل صحن الصلاة بخمسة أبواب .

استبدل البلاط القديم الملون للفناء فى النصف الأول من القرن العشرين ويوجد محراب فى صحن الصلاة لا زال موجوداً ومزودا فى الوسط بلوحة كبيرة مرصعة بأحجار ملونة . كانت المئذنة مربعة الشكل ومقسمة إلى ثلاثة طوابق محددة ببروز .

وفى حى السويقة الذى يقع على طريق فلسطين ومصر أنشأ الأمير غرس الدين خليل التوريزى مجمعًا معماريا ضخما يضم مسجدا ومقبرة وحماما . كان الأمير غرس الدين يشغل منصب الحاجب الأكبر بدمشق ابتداء من ١٤١٥ وتوفى فى يونية عام ١٤٢٣ .

احتفظ المسجد والمقبرة بالتكسية التى صممت من الخزف والتى أضفت على مجمع التوريزى مكانة ممتازة فى الفنون الإسلامية .

كما استخدمت بلاطات سداسية الشكل ملونة ومرسومة على دهان الخزف الشفاف وغطت الجدران الداخلية للمقبرة بارتفاع ثلاثة أمتار .

وقد استخدم عدد كبير من البلاطات بلغ ١٣٠٠ بلاطة وتخضع لأسلوب "عالمى" شوهد فى عدة مبان معاصرة . وفى القاهرة استخدم فى ضريح على نجم ولم يعرف تاريخ إنشائه على وجه التحديد ولكن الأسلوب يرجع إلى العصر المملوكى ، كما استخدم فى بيت المقدس فى المسجد الأقصى وفى دمشق فى مسجد الأقصاب وفى مئذنة مسجد البذورى القريب من مسجد التوريزى .

وقد انتزعت عدة بلاطات من هذا النوع من مسجد التوريزى ودخلت فى نهاية القرن التاسع عشر فى مجموعة متاحف لندن ونيويورك وبرلين وكوبنهاجن .

أما الحمام الذى أنشأه الأمير التوريزى على مقربة من مسجده الجنائزى فلم ينته بناؤه إلا فى عام ١٤٤٢ . ولا زال حتى اليوم فى حالة سليمة تماما دون إدخال أية إصلاحات عليه .

ويعتبر من أكثر الحمامات ذات الطابع المميز للعصر المملوكى والوحيد الذى أنشئ فى القرن الخامس عشر .

توجد ثلاث مآذن من القرن الخامس عشر : مئذنة هشام ومئذنة القلعى ومئذنة قايتباى وتعبر تماما عن تطور الزخرفة .

أنشئت المئذنة الأولى عام ١٤٢٧ فى سوق الصوف وبالقرب من مئذنة تنكيز . وفى أعلى المئذنة يوجد دهليز مغطى بإفريز محمول بخرجة مكونة من ثلاثة صفوف من الزخارف الجبسية الكبيرة .

وقد أنشأها كبير الوزراء بدمشق ، وهى قريبة الشبه بالمئذنة التى أنشأها تنكيز ، جذع ساقها ثمانى الأضلاع . وقد قسمت إلى عدة مستويات بلوحات مجوفة مع بروز خفيف ويعلوها ممر مغطى بإفريز . وعلى جميع أجزاء جذع الساق من القاعدة إلى القمة ، توجد زينة لتعطى انطباعا بالفوضى وعدم الانتظام . أفاريز من البازلت المدعم ،

شرفات صغيرة ، أطباق مزخرفة من الفسيفساء ، أعمدة صغيرة متراصة ، مشكايات مصمتة بأقواس ثلاثية النصوص ، كوات بأقواس متعددة النصوص .

أنشئت مئذنة القلعى حوالى عام ١٤٧٠ ورغم أنها لم تكتمل إلا أنها أكثر مآذن دمشق نقوشا وزخرفة . وأسفل المئذنة يوجد دهليز ذو اثنى عشر ضلعا وبه إفريز ودرابزين من الخشب .

تنتشر الزخرفة على مستويين منفصلين بواسطة شريط مسطح من لبنات العقد المزخرفة على شكل أكاليل زهور باللون الأسود والأبيض . وعلى كل واجهة من واجهات المستوى العلوى شريط بارز يكون شكلاً مربعًا يدور حول أربعة أحجار غير مصقولة من الخزف المزخرف باللون الأزرق وتدور على هيئة دائرة بداخلها ثلاثة تيجان تضم كوة صغيرة ، وزخرفة التشبيك الزهرى الهندسى بلون أسود على أرضية بيضاء لتزين الركنية غير المكتملة .

أما المستوى السفلى فيظهر فيه الزخرفة المملوكة : أعمدة صغيرة مدعومة ، قبة دائرية عند المهبط ، شرفات صغيرة مزركشة ، مشكاة ثلاثية الفصوص ، إفريز بشراشيف ، صدفات وكوات صغيرة ، أحجار مرصعة بشكل هندسى بلون أسود على أرضية بيضاء ، أحجار غير مصقولة ، أقراص وزجاج من الفسيفساء .

وفى عام ١٤٨٨ أمر السلطان أشرف قايتباى (١٤٦٨-١٤٩٦) بإنشاء المئذنة الغربية للجامع الأموى والتى دمرت عقب الحريق الذى شب فى ١٣ أكتوبر ١٤٧٩ ، وهى قريبة الشبه من طراز مآذن القاهرة . تنقسم المئذنة إلى ثلاثة طوابق وبقسم يتناقص بدهليزين على الزخارف الكبيرة للدرابزين المبنى من الحجر المفرغ .

تتميز الزخرفة فيها بالبساطة بالنسبة لمئذنة القلعى : مشكايات ذات أعمدة صغيرة وأقواس ثلاثية الفصوص حول كوة وأفاريز من الحجر الأسود . تعتبر مئذنة قايتباى نموذجا لمئذنتين مملوكيتين فى دمشق : مئذنة المدرسة السباعية ومئذنة جامع المعلق .

وفى الفترة من أبريل ١٥٠٩ وفبراير ١٥١٥ بنى الأمير سباعى وهو آخر حكام المماليك بدمشق جامعا ومدرسة وزاوية وبداخلها مقبرته وذلك فى المنطقة الواقعة خارج باب الجابية . ولكى ينجز الأمير هذا العمل لم يتوان عن ترك أى مسجد مهجور أو مكان به مقبرة إلا ونزع منه الأحجار والمواد اللازمة للبناء والرخام والأعمدة اللازمة حيث واظب بانتظام على سلب ونهب تلك الأماكن حتى إن علماء دمشق أطلقوا على هذا المبنى اسم "جامع الجوامع" . وقد دفنت أم الأمير وابنته فى المقبرة التى بناها لنفسه . أما هو فقد قتل فى معركة مرج دابق ولم يدفن بدمشق .

يوجد عدد كبير من الآثار الأخرى التى أنشأها المماليك ووصلت إلينا فى حالة لا بأس بها كاملة أو مجزأة وأحيانا مشوهة بفعل الإصلاحات الخاطئة أو استخدم بعضها كمساكن . ومن هذه الآثار : مقبرة النجيبية (١٢٦٨) والغورلو (١٣١٩) وعرق (١٣٤٩) والشيبانى (١٣٣٣) والأرغوشا (١٣٤٨) وشيخ صالح (١٣٥٠) والجيعانية (١٣٥٢) ومدرسة الرشيدية ومقبرة أخرى مجهولة الاسم يقال إنها للشيخ حسن ومن طراز القرن الخامس عشر والمدرسة الأفريدونية (١٣٤٨) والدولامية (١٤٤٣) والشادى بك (١٤٥٣) والصابونية (١٤٦٤) ومساجد سنجق دار (١٣٤٨) والطاباتية (١٣٩٧) والمؤيد (١٣٩٩) والجوزة (١٤٠٢) والسقيفة (١٤١١) والورد والخانقاه اليونسية (١٣٨٢) والحمامات ، والسلطان الأشرف والمورد والقيمارية والناصرى والزين والسبيل والخزنة (١٤٠٥) .

كما اختفت فى أيامنا هذه آثار عديدة معروفة لدينا عن طريق كتب الآثار ؛ ومن هذه الآثار: المدرسة الشريفية ، والقداسية أو الخانتاه الدوهايتاتية ، ولم يتم تحديد مواقعها إلا بصورة تقريبية . أما الآثار الأخرى مثل قصر الأبلق ودار السعادة أو القصر الذهبى لتنكيز ، فقد أمكن تحديد مواقعهم بدقة كبيرة .

المراجع

ABD AL-QADER, (Émir), Un orthostate du temple de Hadad à Damas, *Syria*, XXVI, 1949, pp. 190-195.

ABDUL-HAK, A. L'exposition des découvertes archéologiques de l'année 1952 au musée de Damas, *Annales Archéologiques de Syrie*, II, 1952, pp. 261-266.

ABIAD, M., *Culture et éducation arabo-islamiques au Sham pendant les trois premiers siècles de l'Islam, d'après « Tarikh* Madinat Dimashq », d'Ibn `Asakir (499/1105-571/1176), IFD, Damas, 1981.

ABOULFÉDA, *Géographie*, tr. fr. S. Guyard, Paris, Imprimerie Nationale, 1833.

ADLER, E. N., *Jewish Travellers*, edited with an introduction by Elkan Nathan Adler, London, G. Routledge & sons, ltd., 1930.

AIBACH, A.-N., La mosquée de Khaled b. al-Walid, première mosquée de la conquête islamique, (en arabe), *AAAS*, XXXV, 1985, pp. 417-431.

AIGRAIN, R., Article « Arabie », *Dictionnaire d'histoire et de géographie ecclésiastique*, t. III, col. 1158-1339.

AMANN, E., Article « Nestorius », *Dictionnaire de théologie catholique*, Letouzey et Ané, Paris, 1931, t. 11, pp. 75-158.

AMBROISE, saint, *Lettres*, Paris, 1741.

AMIET, P., *L'art antique du Proche-Orient*, Paris, Mazenod, 1977.

ANGLURE, O. d', *Le saint voyage de Jhérusalem en l'année 1395*, Paris, Société des anciens textes français, Firmin-Didot, 1878.

Annales archéologiques syriennes, numéro spécial Damas, vol.XXXV, 1985.

ANON, Découverte de mosaïques du VIII^{e} siècle à la grande mosquée de Damas, *Syria*, X, 1929, pp. 180-181.

ARCULFE, cf. WRIGHT T., *Early Travels in Palestine*, London, H.G. Bohn, 1848.

ARISTOTE, *Politique*, Paris, Denoël-Gonthier, 1983.

ARRIEN, *Histoire d'Alexandre*, tr. fr. Pierre Savinel, Paris, Éditions de Minuit, 1984.

ASHTOR-SRAUSS, E., L'inquisition dans l'État mamlouk, *R.S.O.*, XXV, 1950, pp. 11-26.

ASHTOR-SRAUSS, E., L'administration urbaine en Syrie médiévale, *R.S.O.*, XXXI, 1956, pp. 73-128.

ATIL, E., *Renaissance of Islam. Art of the Mamluks*, Smithsonian Institution Press, Washington, D.C., 1981.
Au pays de Baal et d'Astarté, 10 000 ans d'art en Syrie, Paris, Association française d'action artistique, 1983.
AURENCHE, O., Les premières maisons et les premiers villages, *La Recherche*, n° 135, juillet/août 1982, pp. 880-889.
AYALON, D., Esclavage mamelouk, *Oriental Notes and Studies*, n° 1, 1951, Jérusalem, pp. 29-31.
AYALON, D., Studies on the Tansfer of the Abbasside Caliphate from Bagdad to Cairo, *Arabica*, VII, 1960, pp. 41-59.
BAEDEKER, K., *Palestine et Syrie*, Leipzig, 1906.
ABU AL-FARAJ, voir BARHEBRAEUS.
BAIROCH, P., *De Jéricho à Mexico, villes et économie dans l'histoire*, Paris, Gallimard, 1985.
BALADHURI, AL, *The Origins of the Islamic State*, tr. angl. de *Kitab Futuh al-Buldan*, t. 1, tr., P. Kh. Hitti, New-York, Columbia University, 1916 ; t. 2, tr., C. Murgotten, New-York, Columbia University,1924.
BARHEBRAEUS, Abu al-Faraj, *Chronicon Syriacum*, édition et traduction Bruns et Kirsch, Leipzig, 1789, 2 vol.
BELIN, F.A., Du régime des fiefs militaires dans l'Islamisme et principalement en Turquie, *JA*, 6, XV, 1870, pp. 187-301.
BENJAMIN DE TUDÈLE, *Voyage du célèbre Benjamin de Tudèle autour du monde commencé en l'an 1173*, 2 t. en 1 vol., La Haye, J. Neaulme, 1735.
BERARDI, R., Espace et ville en pays d'Islam, *L'Espace social de la ville arabe*, Maisonneuve et Larose, Paris, 1979, pp. 99-120.
LA BROQUIÈRE, B. de, *Le voyage d'outremer de Bertrandon de la Broquière, premier écuyer tranchant et conseiller de Philippe le Bon duc de Bourgogne*, Paris, E. Leroux, 1892.
BIANQUIS, T., Les derniers gouverneurs ikhchidides à Damas, *BEO*, XXIII, 1970, pp. 167-196.
BIANQUIS, T., *Damas et la Syrie sous la domination fatimide (359-468/969-1076)*, 2 t. , I.F.D., Damas, 1986-1989.
BOIS, J., Article « Chalcédoine » (concile de), *Dictionnaire de théologie catholique*, Letouzey et Ané, Paris, 1923, t. 2, pp. 2189-2208.
BOLDENSELE, G. de, cf. HÉTHOUM, 1529, feuillets LXVI à LXXVI.
BOUHDIBA, A., *La sexualité en Islam*, Paris, Presses Universitaires de France, 1975.
BOUVAT, L., Essai sur la civilisation timouride, *JA*, avril-juin 1926, pp. 193-299.
BRAUN G. et HOGENBERG F., *Civitates orbis terrarum...*, Coloniae Agrippinae, typis T. Graminaei, 1572, plan de Damas, planche 106.
BRÉHIER, L., *Histoire anonyme de la première croisade*, (édition et traduction), Paris, Les Belles Lettres, 1964.
BRIEND, J., SEUX, M.-J., *Textes du Proche-Orient ancien et histoire d'Israël*, Paris, Éditions du Cerf, 1977.

BRINNER, W. M., *A Chronicle of Damascus 1389-1397, by Muhammad b. Sasra*, Berkeley, University of California Press, 1963.
BRUNSCHVIG, R., Urbanisme médiéval et droit musulman, *REI*, 1947, pp. 127-155.
BUSSON DE JANSSENS, G., Les wakfs dans l'Islam contemporain, *REI*, 1951, pp. 1-72 et 1953, pp. 43-76.
CAHEN, C., Une chronique syrienne du VI^{e}/XII^{e} siècle : Le Bustan al-jami, *B.E.O.*, VII-VIII, 1937-1938, pp. 113-158.
CAHEN, C., Quelques chroniques anciennes relatives aux derniers Fatimides, *IFAO*, XXXVII, 1937-1938, pp. 1-27.
CAHEN, C., *La Syrie du Nord à l'époque des Croisades*, Paris, P. Geuthner, 1940.
CAHEN, C., L'évolution de l'iqtâ' du IX^{e} au XIII^{e} siècle. Contribution à une histoire comparée des sociétés médiévales, *Annales*, VIII, 1953, pp. 25-52.
CAHEN, C., L'histoire économique et sociale de l'Orient musulman médiéval, *Studia Islamica*, III, pp. 93-115, 1955.
CAHEN, C., L'Islam et les minorités confessionnelles au cours de l'histoire, *Table ronde*, CXXVI, 1958, pp. 61-72.
CAHEN, C., Mouvements populaires et autonomisme urbain dans l'Asie musulmane du Moyen Age, *Arabica*, V, 1958, pp. 225-250, VI, 1959, pp. 25-56 et 233-265.
CAHEN, C., Bagdad au temps de ses derniers califes, *Arabica*, IX, 1962, pp. 289-302.
CAHEN, C., Note d'historiographie syrienne, la première partie de l'histoire d'Ibn al-Qalanisi, *Arabic and Islamic Studies in Honor of H.A.R. Gibb*, Leyde, 1965, pp. 156-167.
CAHEN, C., Y a-t-il eu des corporations professionnelles dans le monde musulman classique ?, *The Islamic city*, Colloque édité par A.H. Hourani et S.M. Stern, University of Pennsylvania Press, B. Cassirer Ltd, Oxford,1970, pp. 51-63.
CAHEN, C., *Introduction à l'Histoire du monde musulman médiéval VII^{e}-XV^{e} siècles*, Paris, A. Maisonneuve, 1982.
CAHEN, C., *Orient et Occident au temps des croisades*, Paris, Aubier, 1983
CAHEN, C., *L'Islam des origines au début de l'Empire ottoman*, Paris, Hachette, 1995.
CARMOLY, É., *Relation d'Eldad le Danite, voyageur du IX^{e} siècle*, Paris, 1838.
CARMOLY, É., *Itinéraires de la Terre Sainte des XIII^{e}, XIV^{e}, XV^{e}, XVI^{e}, XVII^{e} siècles, traduits de l'hébreu*, Bruxelles, A. Vandale, 1847.
CASANOVA, L'étymologie de Damas, *Extrait du Journal asiatique*, janvier-février 1919, Paris, 1919.
Catalogue du musée national de Damas, Damas, 1976.
CAUMONT, N. de, *Voyaige d'oultremer en Jherusalem par le seigneur de Caumont*, l'an 1418, Paris, A. Aubry, 1858.
CHABAS, F., *Voyage d'un Égyptien en Syrie, en Phénicie, en Palestine, etc. au XIV^{e} siècle avant notre ère*, Paris, Maisonneuve, 1866.

CHAFIQ IMAM, L'artisanat du verre à Damas, *BEO*, XXVII, 1974, pp. 141-181.
CHAHAB, M., Les demeures de Tâmerlan à Damas, (en arabe), *AAAS*, XXXV, Damas, 1985, pp. 432-439.
CHALINE, C., *Les villes du monde arabe*, Paris, Masson, 1990.
CHAMPDOR, A., *Saladin, le plus pur héros de l'Islam*, Paris, Albin Michel, 1956.
CHEIKHO, Le P. L., Les églises chrétiennes de Damas, lors de la conquête arabe, d'après Ibn 'Asakir, *al-Machreq*, 1911, XIV[e] année, pp. 800-803.
CHUVIN, P., *Chronique des derniers païens*, Paris, les Belles Lettres/Fayard, 1990.
COLONNA-CECCALDI, G., *Monuments antiques de Chypre, de Syrie et d'Égypte*, Paris, Didier et Cie, 1882.
CONTENSON, H. de, Troisième campagne à Tell Ramad, 1966, rapport préliminaire, *AAAS*, XVII, 1967, pp. 17-24.
CONTENSON, H. de, Quatrième et cinqième campagnes à Tell Ramad, 1967-1968, rapport préliminaire, *AAAS*, XIX, 1969, pp. 25-30.
CONTENSON, H. de, Sixième campagne de fouilles à Tell Ramad en 1969, rapport préliminaire, *AAAS*, XIX, 1969, pp. 31-35.
CONTENSON, H. de, Septième campagne de fouilles à Tell Ramad en 1970, rapport préliminaire, *AAAS*, XX, 1970, pp. 77-80.
CONTENSON, H. de, Tell Ramad, a village of Syria of the 7th and 6th Millennia B.C., *Archaeology*, 24, 1971, pp. 278-285.
CONTENSON, H. de, Tell Aswad, fouilles de 1971, *AAAS*, XXII, 1972, pp. 75-104.
CONTENSON, H. de, Huitième campagne de fouilles à Tell Ramad en 1973, rapport préliminaire, *AAAS*, XXIV, 1974, pp. 17-24.
CONTENSON, H. de, Les fouilles de Ghoraifé en 1974, *AAAS*, XXV, 1975, pp. 17-32.
CONTENSON, H. de, Tell Aswad, fouilles de 1972, *AAAS*, XXVII — XXVIII, 1977-1978, pp. 207-215.
CONTENSON, H. de, La région de Damas au néolithique, *AAAS*, XXXV, Damas, 1985, pp. 9-29.
CONTENSON, H. de, et VAN LIERE, W. J., Sondages à Tell Ramad en 1963, rapport préliminaire, *AAAS*, XIV, 1964, pp. 109-124.
CONTENSON, H. de, et VAN LIERE, W. J., Seconde campagne à Telle Ramad, 1965, *AAAS*, XVI, 2, 1966, pp. 167-177.
COURET, Comte, La prise de Jérusalem par les Perses en 614, *Revue de l'Orient chrétien*, Paris, 1897, pp. 125-164.
CRESWELL, K. A. C., *A Provisional Bibliography of the Moslem architecture of Syria and Palestine*, London, 1924.
CRESWELL, K. A. C., *Early Muslim Architecture*, Oxford, Clarendon Press, 1932-1940.
CRESWELL, K. A. C., *A Short Account of Early Muslim Architecture*, Pelican Books A 407, Penguin Books, 1958.
Damas extra-muros, Midan sultani, PIFD, Damas, 1994.

DEGEORGE, G., *Syrie, art, histoire, architecture*, Paris, Hermann, 1983.
DEGEORGE, G., *Palmyre, métropole du désert*, Paris, Séguier, 1987.
DEGEORGE, G., Le case di Damasco, *FMR*, n° 97, avril 1993, pp. 113-126.
DEGEORGE, G., Le massacre de Damas continue, *L'Événement du jeudi*, 16-22 décembre 1993, pp. 97-100.
DEGEORGE, G., Sous la grande mosquée de Damas, *Notre Histoire*, 108, février 1994, pp. 20-24.
DEGEORGE, G., *Damas, des Ottomans à nos jours*, Paris, L'Harmattan, 1994.
DEGEORGE, G., The Damascus massacre, *The Architectural Review*, April 1995, pp. 68-71.
DELOREY, E, et WIET, G., Cénotaphes de deux dames musulmanes, *Syria*, II, 1921, pp. 221-225.
DERENBOURG, H., *Anthologie de texte arabes inédits par Ousama et sur Ousama*, Paris, E. Leroux, 1893.
DEVONSHIRE, Mme R.L., Relation d'un voyage du sultan Qaïtbay en Palestine et en Syrie, traduit de l'arabe, *Extrait du Bulletin de l'Institut français d'archéologie orientale*, t. XX, Le Caire, 1922, pp. 1-43.
DEVONSHIRE, Mme R.L., Extrait de l'histoire de l'Égypte, vol. II, par Ahmed Ibn Iyas El Hanafy El Masry, *Bulletin de l'Institut français d'archéologie orientale*, XXV, 1925-1926, pp. 113-145.
DICKIE, A. C., The Great Mosque of the Omeiyades, Damascus, *Palestine Expl. Fund*, Quarterly Statement, octobre 1897, pp. 268-282.
DIMASHQI, *Manuel de la cosmographie du moyen âge*, tr. fr. par A.F.M. Mehren du *Kitab noukhbat al-dahr*, Copenhague, C.A. Reitzel, 1874.
DJAÏT, H., *Al-Kufa, Naissance de la ville islamique*, Paris, Maisonneuve et Larose, 1986.
DJAÏT, H., *La Grande Discorde, Religion et politique dans l'Islam des origines*, Paris, Gallimard, 1989.
DODINET, M., LE BLANC, J., VALLAT, J.- P., VILLENEUVE, F., Le paysage antique en Syrie : l'exemple de Damas, *Syria*, LXVII, 2, 1990, pp. 339-368.
DUPONT-SOMMER, A., *Les Araméens*, Paris, A. Maisonneuve, 1949.
DUSSAUD, R., Numismatique des rois de Nabatène, *JA*, mars-avril 1904, pp. 189-238.
DUSSAUD, R., Le Temple de Jupiter damascénien et ses transformations aux époques chrétiennes et musulmanes, *Syria*, III, 1922, pp. 219-250.
DUSSAUD, R., *Topographie historique de la Syrie antique et médiévale*, Paris, P. Geuthner, 1927.
DUSSAUD, R., *La pénétration des Arabes en Syrie avant l'islam*, Paris, P. Geuthner, 1955.
DUSSAUD, R., DESCHAMPS, P., et SEYRIG, H., *La Syrie antique et médiévale illustrée*, Paris, P. Geuthner, 1931.
DUSSAUD, R. et MACLER, F., Mission dans les régions désertiques de la Syrie moyenne, *Nouvelles archives des missions scientifiques*, t. X, Paris, 1903.

ÉCOCHARD, M., et LE COEUR, C., *Les Bains de Damas*, IFD, Beyrouth, Impr. catholique, 1942-1943.
ÉDIB, M., *Itinéraire de Constantinople à la Mecque*, Extrait du *Kitab Manasik al-Hajj*, tr. fr. M. Bianchi, Paris, Everat imprimeur, 1825.
ÉLISSÉEFF, N., Les Monuments de Nur ad-Din, *BEO*, XIII, 1949-1951, pp. 5-43.
ÉLISSÉEFF, N., Titulature de Nur ad-din d'après ses inscriptions, *BEO*, XIV, 1952-1954, pp. 155-196.
ÉLISSÉEFF, N., A propos d'une inscription d'al-Malik al-Mu`azzam `Isa. Contribution à l'étude de son règne, *AAS*, IV et V, 1954, 1955, pp. 3-28.
ÉLISSÉEFF, N., Corporations de Damas sous Nur al-din ; matériaux pour une topographie économique de Damas au XII[e] siècle, *Arabica*, III, 1956, fasc. I, pp. 61-79.
ÉLISSÉEFF, N., Nur ad-din, un grand prince musulman de Syrie au temps des croisades, IFD, Damas, 1967.
ÉLISSÉEFF, N., Damas à la lumière des théories de Jean Sauvaget, *The Islamic City*, B. Cassirer, Oxford and University of Pennsylvania Press, 1970, pp. 157-177.
ÉLISSÉEFF, N., Un document contemporain de Nur ad-din, sa notice biographique par Ibn `Asakir, *BEO*, XXV, 1972, pp. 125-140.
ÉLISSÉEFF, N., *L'Orient musulman au Moyen Age 622-1260*, Paris, Armand Colin, 1977.
Encyclopédie de l'Islam. EI[1], ancienne édition, Leyden et Paris, 1927. EI[2], nouvelle édition, Leyden et Paris, 1965.
FINK, H. S., The role of Damascus in the History of the Crusades, *The Muslim World*, XLIX, janvier 1959, pp. 41-53.
FRESCOBALDI, L., *Viaggio di Lionardo... in Egitto e Terra Santa...*, Roma, stamp. di C. Mordacchini, 1818.
FRESCOBALDI, L., GUCCI, G., SIGOLI, S., *Visit to the Holy places of Égypt, Sinaï, Palestine and Syria in 1384*, traduit de l'italien par Fr. Théophilus, Jérusalem, Francisan Press, 1948.
FRITZ, G., article « Nicée » (1er concile de), *Dictionnaire de théologie catholique*, Letouzey et Ané, Paris, 1931, t. 11, pp. 399-415.
GABRIELI, F., *Chroniques arabes des Croisades*, Paris, Sindbad, 1977.
GARDET, L., *La cité musulmane, vie sociale et politique*, Paris, Librairie philosophique J. Vrin, 1981.
GARCIN, J.-C., Le système militaire mamluk et le blocage de la société musulmane médiévale, *Annales islamologiques*, XXIV, Institut français d'archéologie orientale du Caire, pp. 93-110.
GAUDEFROY-DEMOMBYNES, M., *La Syrie à l'époque Mamelouke*, d'après les auteurs arabes, B.A.H., t. 3, Paris, P. Geuthner, 1923.
GAUDEFROY-DEMOMBYNES, M., *La Syrie au début du XV[e] siècle d'après Qalqachandi*, Paris, P. Geuthener, 1923.
GAUDEFROY-DEMOMBYNES, M., *Les institutions musulmanes*, Paris, Flammarion, 1946.

GAUDEFROY-DEMOMBYNES, M., et PLATONOV, S.F., *Le monde musulman et byzantin jusqu'aux Croisades*, Paris, E. de Boccard, 1931.
GAULMIER, J., *La Zubda Kachf al-Mamalik de Khalil az-Zâhiri*, trad. inédite de Venture de Paradis, Beyrouth, 1950.
GAYET, A., *L'Art Arabe*, Paris, Librairies — Imprimeries réunies, 1893.
GEIGER, A., *Syrie et Liban* (avec 37 photographies sur Damas), Grenoble, B. Arthaud, 1932.
GIRAULT DE PRANGEY, *Monuments arabes d'Égypte, de Syrie et d'Asie Mineure dessinés et mesurés de 1842 à 1845*, Paris, l'auteur, 1846.
GOEJE, M. J. de, *Mémoire sur la conquête de la Syrie*, Leyde, E.J. Brill, 1864.
GOUDARD, J., Damas et saint Jean Damascène, *Jérusalem*, 19, 1906-1907, pp. 241-246, pp. 279-283.
GRABAR, O., La grande mosquée de Damas et les origines architecturales de la mosquée, *Bibliothèque des cahiers archéologiques*, Paris, Klincksieck, 1968.
GRABAR, O., Survivances classiques dans l'art de l'Islam, *AAS*, XXI, 1971, pp. 371-380.
GRABAR, O., *La formation de l'art islamique*, Paris, Flammarion, 1987.
GUIDONI, E., *La ville européenne, formation et signification, du 4ᵉ au 11ᵉ siècle*, P. Mardaga, 1981.
GUÉRIN, V., *Description géographique, historique, archéologique de la Palestine*, 7 vol., Paris, Impr. Nationale, 1868-1880.
GUÉRIN, V., *La Terre Sainte* (26 gravures sur Damas), Paris, Plon et Cie, 1882.
HADDAD, G., Damascus in the Writings of Classical and Arab Authors, *AAS*, Damas, 1951, pp. 157-164.
HADDAD, E.N., Political Parties in Syria and Palestine (Qaisi and Yemeni), *JPOS*, oct. 1920, pp. 209-214.
HAITON, voir HÉTHOUM, prince de Gorigos.
HAMBIS, L., Saint Louis et les Mongols, *JA*, 1970, pp. 25-33.
HARAWI AL -, *Guide des lieux de pèlerinage*, tr. fr. du *Kitab al-isharat*.... par J. Sourdel-Thomine, Damas, IFD, 1957.
HARRY, M., *Damas, jardin de l'Islam*, Paris, J. Ferenczi et fils, 1948.
HERZFELD, E., Damascus. Studies in Architecture, *Ars Islamica*, 1942, pp. 1-53 ; 1943, pp. 13-70 ; 1946, pp. 1-71 ; 1948, pp. 118-138.
HÉTHOUM, prince de Gorigos, *Histoire orientale ou des Tartares de Haiton, parent du roi d'Arménie qui comprend...*, La Haye, J. Neaulme, 1735.
HÉTHOUM, prince de Gorigos, *L'Hystore merveilleuse, plaisante et récréative du grand empereur de Tartarie, seigneur des Tartres, nommé le grand Can...*, Paris, Jehan Sainct Denys, 1529. Suivi de la relation de voyage de Guillaume de Boldensele.
HITTI, K.-P., *History of Syria*, London, Mac Millan Ltd., 1951.
HOEXTER, M., The role of the Qays and Yaman factions in local political divisions, *Asian and African Studies*, Jérusalem, 1973, vol.9, n° 2, pp. 249-311.

HOUGHTON, L.C., Survey of the Salhiyé quarter, Damascus, *A.A.R.P.* 14, London, December 1978.
HUMPHREYS, R.S., *From Saladin to the Mongols ; the Ayyubides of Damascus, 1193-1260,* State University of New-York Press, Albany, 1977.
HUOT, J.-L., THALMANN, J.-P. et VALBELLE D., *Naissance des cités*, Paris, Nathan, 1990.
IBN AL-`AMID, *Chronique des Ayyoubides* (602-658/1205-6 -1259-60), tr. fr. A.-M. Eddé et F. Micheau, Documents relatifs à l'histoire des croisades, Académie des Inscriptions et Belles-Lettres, Paris, 1994.
IBN `ASAKIR, *La description de Damas*, tr. fr. Nikita Elisséeff, Damas, IFD, 1959.
IBN AL-ATHIR, Histoire des Atabegs, tr. fr. Barbier de Meynard, *RHOC*, II, 2, Paris, 1876.
IBN BATOUTAH, *Voyages d'Ibn Batoutah*, tr. fr. C. Defrémery et B.R. Sanguinetti, Paris, Imprimerie impériale, 1853-1858.
IBN AL-FAQIH AL-HAMADANI, *Abrégé du livre des pays*, tr. fr. H. Massé, IFD, Damas, 1973.
IBN IYAS, voir WIET G.
IBN HAWQAL, *Kitab surat al-ard*, publ. par J.H. Kramers, t. II de la BGA, 2 éd., Leyde, 1938 ; tr. fr. par WIET G., *Configuration de la terre*, Paris-Beyrouth, 1964.
IBN AL-JAWZI, *La pensée vigile*, tr. fr. D. Reg, Paris, Sinbad, 1986.
IBN JUBAYR, *Voyages*, tr. fr. M. Gaudefroy-Demombynes, Documents relatifs à l'histoire des croisades, 3 t. , Paris, P. Geuthner, 1949 -1956.
IBN KHALDUN, *Discours sur l'Histoire universelle*, 3 t. , Paris, Sindbad, 1978.
IBN KHALDUN, *Le voyage d'Occident et d'Orient*, tr. fr. A. Cheddadi, Paris, Sindbad, 1980.
IBN KHALLIKAN, *Biographical Dictionary*, translated from arabic by B.M.G. de Slane, Paris, B. Duprat, 1842-1871.
IBN KHURDADHBEH, *Le livre des routes et des provinces*, tr. fr. C. Barbier de Meynard, Paris, Imprimerie impériale, 1865.
IBN MUNQIDH, U., *Autobiographie*, tr. fr. H. Derenbourg, *Revue de l'Orient latin*, II, 1894, pp. 329-565.
IBN MUNQIDH, U., *Des enseignements de la vie. Souvenirs d'un gentilhomme syrien du temps des croisades*, tr. fr. A. Miquel, Paris, Imprimerie nationale, 1983.
IBN AL-QALANISI, *Damas de 1075 à 1154*, traduction d'un fragment de l'*Histoire de Damas...* par R. Le Tourneau, Beyrouth, Imprimerie catholique, 1952.
IBN RUSTEH, *Les atours précieux*, tr. fr. G. Wiet, Le Caire, 1955.
Institut français de Damas, *Liste des publications, 1929-1959*, Paris, A. Maisonneuve, 1959.
IBN SASRA, *al-Durra al-Mundi'a fi l- Dawla al-Zahiriya*, tr. anglaise W. M. Brinner, *A Chronicle of Damascus, 1389-1397*, University of California Press, Berkeley, 1963.

IBN SHADDAD, *La description de Damas*, (texte arabe), Beyrouth, Imprimerie Catholique, 1956.
IBN AL-SUQA'I, M., *Tali kitab wafayat al-`ayan*, édit. et tr. fr. J. Sublet, IFD, Damas, 1974.
IDRISI, Géographie, tr. fr. P. -A. Jaubert, Philo press, Amsterdam, 1975.
ISFAHANI, Imad al-din al-, *Conquête de la Syrie et de la Palestine par Saladin*, Paris, P. Geuthner, 1972.
ISSA BEY, A., *Histoire des bimaristans à l'époque islamique*, Le Caire, Imprimerie P. Barbey, 1928.
JALABERT, L., Article « Damas », *Dictionnaire d'archéologie chrétienne*, IV, cols 119-45, 1920.
JEAN d'ASIE, *The Third part of the Ecclesiastical history of John...*, tr. angl. R. Payne, Smith, Oxford, 1860.
JÉROME, saint, *Oeuvres choisies de saint Jérôme*, Lyon-Paris, Périsse frères, 1837-1840.
JÉROME, saint, *Lettres de saint Jérôme*, Paris, Imprimerie de F. Didot, 1829.
JOHN OF WÜRZBURG, Description of the Holy Land (AD 1160-1170), *Palestine Pilgrim's Text Society*, vol. V, London, 1890.
JOMIER, J., Le Mahmal et la caravane égyptienne des pèlerins de La Mecque (XIII^{e}-XX^{e} siècle), *Rech. Arch. Phil. Hist.* XX, IFAO, le Caire, 1953.
JONES, A. H. M., *The cities of the Eastern Roman Provinces*, Oxford, Clarendon Press, 1971.
JOSÈPHE, F., *La guerre des Juifs*, tr. fr. P. Savinel, Paris, Les Éditions de Minuit, 1977.
JOSÈPHE, F., *Antiquités judaïques*, tr. fr. J. Weill, Paris, E. Leroux, 1900-1911.
JUGIE, M., Article « Monothélisme », *Dictonnaire de théologie catholique*, Letouzey et Ané, Paris, 1929, t. 10, pp. 2307-2324.
JUGIE, M., Article « Eutychès », *Dictionnaire de théologie catholique*, Letouzey et Ané, Paris, 1924, t. 5, pp. 1582-1610.
JULIEN, l'Empereur, *Discours*, tr. fr. C. Lacombrade, Paris, Les Belles Lettres, 1964.
JUSTIN, *Oeuvres complètes de Justin*, (Abrégé de l'Histoire universelle de Trogue-Pompée), tr. fr. J. Pierrot et E. Boitard, Paris, Garnier frères, 1862.
KEMP, P., *Territoires d'Islam*, Paris, Sindbad, 1982.
KING, D. J. C., *The Defences of the Citadel of Damascus. A Great Mohammedan Fortress of the Time of Crusades, Archeologia*, 94, 1951, pp. 57-96.
KLENGEL, H., City and land of Damascus in the cuneiform tradition, *AAAS*, XXXV, Damas, 1985, pp. 49-57.
KURD `ALI, M., *Ghuta Dimashq*, Publications de l'Académie arabe de Damas, Damas, 1952.
KREMER, A. von, *Topogaphie von Damaskus*, Denkschriften der Wiener Kaiserlichen Akademie, phil.- hist. Klasse 5 : II (1854), pp. 1-51, Klasse 6 : II (1855), pp. 1-36.

LA BROQUIÈRE, B. de, *Le Voyage d'Outremer*, publié et annoté par Ch. Schefer et H. Cordier, Paris, E. Leroux, 1892. (Recueil de voyages et de documents pour servir à l'histoire de la géographie, XII).
La Jordanie de l'âge de la pierre à l'époque byzantine, *Rencontres de l'École du Louvre*, Paris, La documentation française, 1987.
LAMMENS, le P. H., Études sur le règne du calife omaiyade Mo'awia I^er^, *Mélanges de la faculté orientale de Beyrouth*, vols I et II, 1906-1907.
LAMMENS, le P. H., Études sur le règne du calife omaiyade Mo'awia I^er^, troisième série, La jeunesse du calife Yazid I^er^, Paris, P. Geuthner, 1908.
LAMMENS, le P. H., Le « Triumvirat », Abou Bakr, `Omar et Abou Obaida, *Mélanges de la faculté orientale de Beyrouth*, vol. IV, 1910, pp. 113-144.
LAMMENS, le P. H., Le califat de Yazid I^er^, *Mélanges de la Faculté orientale de Beyrouth*, vols. IV à VII, Beyrouth, Imprimerie catholique, 1910-1914.
LAMMENS, le P. H., *La Syrie, précis historique...*, Beyrouth, Imprimerie catholique, 1921, 2 vol.
LAMMENS, le P. H., L'avènement des Marwanides et le califat de Marwan I^er^, *Mélanges de l'Université Saint-Joseph*, Beyrouth, Imprimerie catholique, 1927, tome XII, fasc.2, pp. 43-147.
LAMMENS, le P. H., *Études sur le siècle des Omayyades*, Beyrouth, Imprimerie catholique, 1930.
LANE, F. C., *Andrea Barbarigo, Merchant of Venice 1418-1449*, Baltimore, The Johns Hopkins Press, 1944.
LANE-POOLE, S., *The Muhammedan Dynasties*, Westminster, 1894. Réedit. Khayats, Beyrouth, 1966.
LAOUST, H., Remarques sur les expéditions du Kasrawan sous les premiers Mamluks, *Bulletin du musée de Beyrouth*, IV, 1940, pp. 93-115.
LAOUST, H., *Les gouverneurs de Damas sous les Mamlouks et les premiers Ottomans (1260-1744)*. Traduction des Annales d'Ibn Tulun et d'Ibn Jum`a, IFD, Damas, 1952.
LAOUST, H., *Les schismes dans l'Islam*, Paris, Payot, 1965.
LAPERROUSAZ, E.-M., Collectif sous la direction de, *La Palestine à l'époque perse*, Paris, Les Éditions du Cerf, 1994.
LAPIDUS, I. M., *Muslim cities in the later Middle Ages*, Cambridge, Harvard University Press, 1967.
LAPIDUS, I. M., Muslim Urban Society in Mamluk Syria, *The Islamic City*, A.H. Hourani et S.M. Stern, University of Pennsylvania Press, B. Cassirer Ltd., Oxford, 1970.
LASSUS, J., Notes sur les mosaïques de Jérusalem et de Damas, *BEO*, III, 1933, pp. 31-42.
LECERF, J., et TRESSE, R., Les `Arâda de Damas, *BEO*, VII-VIII, 1937-1938, pp. 237-264.
LE STRANGE, G., *Palestine under the Moslems. A description of Syria and the Holy Land from 650 to 1500*, London, Alexander P. Watt, 1890.
LETHABY, W.R., The Church of St. John at Damascus. *The Builder*, 17 mars, 1894.

LE TOURNEAU, R., *Damas de 1075 à 1154*. Traduction annotée d'un fragment de l'histoire de Damas d'Ibn al-Qalanisi, IFD, Damas, 1952.
LIBANIOS, *Autobiographie*, Paris, Les Belles Lettres, 1979.
LOREY, E. de, Les mosaïques de la mosquée des Omayyades à Damas, *Syria*, XII, 1931, pp. 326-349.
LUCIEN DE SAMOSATE, *Oeuvres complètes*, tr. fr. E. Talbot, Paris, Hachette, 2 vol., 1912.
MANDEVILLE, J. de, *Voyage à Jérusalem*, Lyon, B. Buyer, 1480.
MANDEVILLE, J. de, *Voyage autour de la terre*, tr. fr. C. Deluz, Paris, Les Belles Lettres, 1993.
MAQRIZI, Ahmad al -, cf. QATREMÈRE E.-M.
MARAVAL, P., *Récits des premiers pèlerins chrétiens au Proche-Orient, (IV^e-VII^e siècle)*, Paris, les Éditions du Cerf, 1996.
MARÇAIS, G., La Mosquée d'El-Walid à Damas et son influence sur l'architecture musulmane d'Occident, *Revue africaine*, I, 1906, pp. 37-56.
MARÇAIS, G., La conception des villes dans l'Islam, *Revue d'Alger*, n° 10, t. II, 1945, p. 525.
MARÇAIS, G., L'urbanisme musulman, *Mélanges d'histoire et d'archéologie de l'Occident musulman*, t. 1, Alger, Imprimerie officielle, 1957, pp. 219-231.
MARÇAIS, W., L'Islamisme et la vie urbaine, *CR. Ac. I.B.L.*, 1928, pp. 86-100.
MARIN, F.-L.-C., *Histoire de Saladin, sulthan d'Égypte et de Syrie*, Paris, Tilliard, 1758.
MASSIGNON, L., Les sept dormants, *REI*, 1954, pp. 61-89.
MASSON, P., *Éléments d'une bibliographie française de la Syrie*, Paris, E. Champion, 1919.
MASSON, P., *Bibliographie française de la Syrie*, Marseille, Typographie et Lithographie Barlatier, 1919.
MASSON, R.P. J., *Voyage en Égypte de Félix Fabri, 1483*, Paris, PIFAO, 1975.
MAS'UDI, *Les Prairies d'Or*, texte et trad. par C. Barbier de Meynard et Pavet de Courteille, Paris, Imprimerie impériale, 9 vol., 1861-1917.
MAS'UDI, *Les Prairies d'Or*, tr. fr. de Barbier de Meynard et Pavet de Courteille revue et corrigée par C. Pellat, Paris, Société asiatique, 4 vol. 1962-1989.
MAUSSION DE FAVIÈRES, J. de, Notes sur les bains de Damas, avec 22 photographies, *B E O*, XVII, 1961-1962, pp. 121-132.
MAYER, L.A., *Mamluk Costume : A Survey*, Genève, A. Kundig, 1952.
MAYER, L.A., *Islamic Woodcarvers and their Works*, Genève, A. Kundig, 1958.
MEHREN, A.-F., Cinquième extrait de la cosmographie de Dimashqi, *Nouvelles Annales des voyages*, juin 1864, pp. 257-308.
MEINECKE, M., Die osmanische Architektur des 16. Jahrhunderts in Damaskus, *Fith International Congress of Turkish Art*, 1979, pp. 575-595.

MEINECKE, M., Der Survey des Damaszener Altstadviertels as-Salihiay, *Damaszener Mitteilungen*, vol.1, Mainz am Rhein, Verlag Philipp von Zabern, 1983, pp. 189-241.
MEINECKE, M., The old Quarter of as-Salihiya Damascus : development and recent changes, *AAAS*, XXXV, Damas, 1985, pp. 31-47.
MEINECKE, M., Syrian Blue-and-white Tiles of the 9 th/15 th Century, *Damaszener Mitteilungen*, vol.3, 1988, pp. 203-214.
Mémoires sur la ville de Damas, *Nouveaux Mémoires des missions de la Compagnie de Jésus dans le Levant*, t. VI, Paris, Pissot, 1727, pp. 114-173.
MICHEL LE SYRIEN, *Chronique syriaque*, ed. J.-B. Chabot, texte et traduction, 4 vol., Paris, 1899-1914.
MILLER K., *Mappae Arabicae*, Selbstverlag des Herausgebers, Stuttgart, 1926-1927.
MIQUEL, A., *La géographie humaine du monde musulman*, Paris, Publications de l'École des Hautes Etudes en Sciences sociales, 4 t. , 1967-1988.
MOAZ, Kh., Le Mausolée d'Ibn al-Muqaddam, *Mélanges de... l'Institut Français de Damas*, Beyrouth, Imprimerie catholique, I, 1929, pp. 67-74.
MOAZ, Kh., et ORY, S., *Inscriptions arabes de Damas ; les stèles funéraires, I, Cimetière de Bab al-Saghir*, IFD, Damas, 1977.
MOSTO, A. da, *L'antico regno di Damasco*, Tipografia Fratelli Centenari, Roma, 1888.
AL-MUQADDASI, *Description de l'Occident Musulman au IVe/Xe siècle*, tr. fr. C. Pellat, Alger, Editions Carbonel, 1950.
AL-MUQADDASI, *La meilleure répartition pour la connaissance des provinces*, traduction partielle annotée par A. Miquel, Damas, IFD, 1963.
NASIR-I KHOSRAW, *Relation de voyage en Syrie, en Palestine, en Égypte, en Arabie et en Perse*, publié, traduit et annoté par Ch. Schefer, Paris. E. Leroux, 1881.
NASRALLAH, MGR. J., *Les souvenirs chrétiens de Damas*, Harissa, 1944.
NASRALLAH, MGR. J., Le Qalamoun à l'époque romano-byzantine, *AAS*, II, 1952, pp. 149-168 ; VI, 1956, pp. 63-86 ; VIII, 1958, pp. 59-80.
NASRALLAH, MGR. J., Damas et la Damascène : leurs églises à l'époque byzantine, *Proche-Orient chrétien*, XXXV, 1-2, 1985, pp. 36-58 et pp. 264-276.
NAU, F., L'histoire ecclésiastique de Jean d'Asie patriarche jacobite de Constantinople (m.585), *Revue de l'Orient chrétien*, Paris, 1897, t. 2, pp. 455-493.
NAU, F., Les Arabes chrétiens de la Mésopotamie et de la Syrie du VIe au VIIe siècle, *Cahiers de la Société Asiatique*, Paris, Imprimerie Nationale, 1933.
NEUMANN, G.-A., Ludolphus de Sudheim, De itinere Terre Sancte, *Archives de l'Orient latin*, Paris, E. Leroux, t. II, pp. 305-376.
NIZAM AL-MULK, *Traité de gouvernement*, Paris, Sindbad, 1984.
NU`AYMI, AL-, *Histoire des madrasas de Damas*, éditée par Ja `far al Hasani, (en arabe), 2 vol., Damas, Imprimerie du Progrès, 1951.

OTTO-DORN, K., *L'art de l'Islam*, Paris, Albin Michel, 1967.
OUECHEK, E.,*Index général de la « Description de Damas » de Sauvaire*, Damas, IFD, 1954.
PARROT, A., *Abraham et son temps*, Delachaux et Niestlé, 1962.
PATAI, R., *Jordan, Lebanon, Syria, an annotated bibliography*, New-Haven, Hiraf Press, 1957.
PAUPHILET, A., *Historiens et chroniqueurs du Moyen Age*, Paris, Gallimard, 1963, p. 287.
PAYNE SMITH, R., *The third Part of the Ecclesiastical History of John Bishop of Ephesus*, University Press, Oxford, 1860.
PETACHIA DE RATISBONNE, *Travels of Rabbi Petachia of Ratisbonne...*, London, Trubner, 1856.
PETERS, F. E., City planning in Greco-Roman Syria : some new considerations, *Damaszener Mitteilungen*, vol. 1, 1983, pp. 269-277.
PETIT, P., *Libanius et la vie municipale à Antioche au IV^{e} siècle ap. J.-C.*, Paris, Geuthener, 1955.
PHOCAS, J., The Pilgrimage of J. Phocas in the Holy Land (in the year 1185 A.D.), *Palestine Pilgrim's Text Society*, vol. V, London, 1889.
PITARD, W. T. , *Ancient Damascus*, Eisenbrauns, Winona Lake, Indiana, 1987.
PITARD, W. T. , The Identity of Bir-Hadad of the Melqart Stela, *Bulletin of the American School of Oriental Research*, 272, 1988.
POGGIBONSI, Fra N. da, *Libro d'Oltramare or A Voyage beyond the Seas (1346-1350)*, tr. anglaise T. Bellorini and E. Hoade, Jérusalem, Francisan Press, 1945.
POLIAK, A.N., La féodalité islamique, *Revue des études islamiques*, 1936, pp. 247-265.
POLIAK, A.N., The Ayyubid Feudalism, *Journal of the Royal Asiatic Society*, 1939, pp. 428-432.
POPPER, W., *Égypt and Syria under the Circassian Sultans*, University of California Press, Berkeley and Los Angeles, 1955.
POPPER, W., *History of Égypt, 1382-1469 AD*, translated from the Arabic Annals of Ibn Taghribirdi, University of California Press, Berkeley and Los Angeles, 1960.
PORTER, Rev. J.-L., *Five years in Damascus, with travels and Researches in Palmyra...*, 2 vol., London, John Murray, 1855.
POUZET, L., Maghrébins à Damas au VII^{e}/XIII^{e} siècle, *BEO*, XXVIII, 1975, pp. 167-193.
POUZET, L., *Damas au VII^{e}/XIII^{e} siècle. Vie et structures religieuses dans une métropole islamique*, Beyrouth, Dar el-Machreq, 1991.
PREAUX, C., *Le monde hellénistique*, Paris, Presses Universitaires de France, 1978.
PRESCOTT, H.F.M., *Le Voyage de Jérusalem au XV^{e} siècle*, Paris, Arthaud, 1959.

PTOLÉMÉE, *Traduction latine de la Géographie de Ptolémée par Jacop d'Angiolo*, Florence, vers 1470. (Bibliothèque Nationale, manuscrits latins 4802).
QUATREMÈRE, E.-M., *Histoire des sultans Mamelouks de l'Égypte*, tr. fr. du *Kitab al-suluk* de Maqrizi. Paris, B. Duprat, 2 vol., 1837-1845.
QUATREMÈRE, E.-M., Extrait des *`uyun al-tawarikh*, les sources des histoires, (description de la mosquée des Omayyades) par Muhammad B. Shakir, *Histoire des sultans Mamelouks de l'Égypte*, II, 1, pp. 262-277.
RABBATH, E., *Les Chrétiens dans l'Islam des premiers temps.*
1. *L'Orient chrétien à la veille de l'Islam*, Beyrouth, Publications de l'Université libanaise, XXIII, 1980.
2. *Mahomet, prophète arabe et fondateur d'État*, Beyrouth, Publications de l'Université libanaise, XXIII, 1981.
RADI, A., *Damas et sa région. Étude de géographie régionale*, Thèse dactylographiée de l'Université Paris I, Paris, 1976.
RAVAISSE, P., *Zoubdat Kachf el-Mamalik par Khalil ed-Dahiry*, Paris, Imprimerie Nationale, 1894.
REINACH, T., *Textes d'auteurs grecs et romains relatifs au jadaïsme*, Paris, E. Leroux, 1895.
REINACH, T., *L'Hellénisme en Syrie*, Paris, F. Alcan, 1914.
REY-COQUAIS, J.-P., Syrie romaine, de Pompée à Dioclétien, *Journal of Roman Studies*, 68, 1978, pp. 44-73.
RIANT, Comte P. -E.-D., *Archives de l'Orient latin*, 2 t. , Paris, E. Leroux, 1881-1883.
RIHAWI, Abd al-Qader al-, Mosquée Yalbugha à Damas, (en arabe), *AAAS*, XXIV, 1974.
RIHAWI, Abd al-Qader al-, *Caravansérails de Damas*, (en arabe), *AAAS*, XXV, 1975, pp. 47-82.
RIHAWI, Abd al-Qader al-, *Damascus. Its History, Development and Artistic Heritage*, Damascus, 1977.
RODINSON, M., *Mahomet*, Paris, Éditions du Seuil, 1961.
ROUX, J.-P., *Histoire des Turcs*, Paris, Fayard, 1984.
SABA, G. et SALZWEDEL, K., Typologie des caravansérails dans la vieille ville de Damas, *Cahiers de la recherche architecturale*, 10/11, avril 1982, pp. 52-59.
SACK, D., *Damaskus*, Mainz am Rhein, Verlag Philipp von Zabern, 1989.
SACY, S. de, *Chrestomathie arabe*, Paris, Imprimerie impériale, 1806.
SIVAN, E., La genèse de la Contre-Croisade, un traité damascain du début du XII^{e} siècle, *JA*, CLLIV, 1966, pp. 197-224.
SIVAN, E., Réfugiés syro-palestiniens au temps des croisades, *REI*, XXV, 1967, pp. 135-147.
SIVAN, E., *L'Islam et la Croisade*, Paris, Maisonneuve, 1968.
SAUVAGET, J., Le Cénotaphe de Saladin, *Revue des Arts Asiatiques*, VI, Paris, 1929-1930.
SAUVAGET, J., La Citadelle de Damas, *Syria*, XI, 1930, pp. 59-90 et pp. 216-241.

SAUVAGET, J., Un bain damasquin du XIII^e siècle, *Syria*, 1930, pp. 370-380.
SAUVAGET, J., *Les monuments historiques de Damas*, Beyrouth, Imprimerie catholique, 1932.
SAUVAGET, J., Décrets mamelouks de Syrie, *BEO*, II, 1932, pp. 1-52 ; III, 1933, pp. 1-29 ; XII, 1947-48, pp. 5-60.
SAUVAGET, J., Les Perles choisies d'Ibn ach-Chihna, *Matériaux pour servir à l'histoire de la ville d'Alep*, t. II, Beyrouth, IFD, 1933.
SAUVAGET, J., L'architecture musulmane en Syrie, *Revue des Arts Asiatiques*, 1934, pp. 19-51.
SAUVAGET, J., Esquisse d'une histoire de la ville de Damas, *REI*, 8, 1934, pp. 421-480.
SAUVAGET, J., Caravansérails syriens I et II, *Ars islamica*, VI, 1939, pp. 48-55 et VII, 1940, pp. 1-19.
SAUVAGET, J., *La poste aux chevaux dans l'empire des Mamelouks*, Paris, Adrien-Maisonneuve, 1941.
SAUVAGET, J., *La Mosquée omeyyade de Médine*, Paris, Vanoest, 1947.
SAUVAGET, J., Notes sur quelques monuments musulmans de Syrie à propos d'une étude récente, *Syria*, XXIV, 1944-1945, pp. 211-231 et *Syria*, XXV, 1946-1948, pp. 259-267.
SAUVAGET, J., Une ancienne représentation de Damas au musée du Louvre, *BEO*, XI, 1945-1946, pp. 5-12.
SAUVAGET, J., *Quatre décrets seldjoukides*, Beyrouth, IFD, 1947.
SAUVAGET, J., *Relation de la Chine et de l'Inde*, tr. fr. d'un anonyme du IX^e siècle, Paris, Les Belles Lettres, 1948.
SAUVAGET, J., La chronique de Damas d'al-Jazari, années 689-698 H., *Bibliothèque de l'École Pratique des Hautes-Études*, fascicule 294, Paris, 1949.
SAUVAGET, J., Le Plan antique de Damas, *Syria*, 26, 1949, pp. 314-358.
SAUVAGET, J., Noms et surnoms des Mamelouks, *J.A.*, 1950, fasc. n°1, pp. 31-58.
SAUVAGET, J., Les Trésors d'or de Sibt ibn al-`Ajami, *Matériaux pour servir à l'histoire de la ville d'Alep*, t. II, Beyrouth, IFD, 1950.
SAUVAGET, J., *Introduction à l'histoire de l'Orient musulman. Éléments de Bibliographie*, Paris, Adrien Maisonneuve, 1961.
SAUVAGET, J., *Introduction à la céramique musulmane*, Paris, P. Geuthner, 1966.
SAUVAGET, J., *Historiens arabes*, Paris, Adrien Maisonneuve, 1988.
SAUVAGET, J., ÉCOCHARD, M., SOURDEL-THOMINE, J., *Les Monuments ayyubides de Damas*, IFD, Damas, 4 fasc., 1938-1950.
SAUVAGET, J. et WEULERSSE, J., *Damas et la Syrie du Sud*, Office touristique de la république syrienne, Damas, 1936.
SAUVAIRE, H., La description de Damas, *J.A.*, 9^e série, t. III, n°2, 1894, pp. 251-270-271-318, n°3, 1894, pp. 385-501, t. IV, n°2, 1894, pp. 242-331, n°3, 1894, pp. 460-464, t. V, n°2, 1895, pp. 269-312, n°3, 1895, pp. 377-386, t. VI, n°2, 1895, pp. 221-313, n°3, 1895, pp. 409-484, t. VII, n°2, 1896, pp. 185-285, n°3, 1896, pp. 369-421, 423-424, 425-459.

SCHARABI, M., Der Suq von Damaskus und zwei traditionelle Handels-analgen : Khan Jaqmaq und Khan Sulayman Pasha, *Damaszener Mitteilungen*, vol.1, 1983, pp. 285-305.
SCHEFER, Ch., Voyage du magnifique et très illustre chevalier et procurateur de Saint-Marc Domenico Trevisan, *Recueil de voyages et de documents pour servir à l'histoire de la géographie*, Paris, E. Leroux, 1884.
SCHEFER, Ch., Note sur un tableau du Louvre naguère attribué à Gentile Bellini, *Gazette des Beaux-Arts*, XIV, 1895.
SCHILTBERGER, J., *Reisen des Johannes Schiltberger aus Munchen in Europa, Asia und Afrika von 1394 bis 1427*, München, Aus Rosten des Herausgebers, 1859.
SCHULTHESS, F., Christlich-palästinische Fragmente aus der Omajjaden-Moschee zu Damaskus..., Berlin, Weidmann, 1905.
SCHWAB, M., Al-Harizi et ses perégrinations en Terre Sainte (vers 1217), *Archives de l'Orient latin*, t. 1, Paris, E. Leroux, 1881, pp. 231-244.
SEURAT, M., La ville arabe orientale, *Esprit*, février 1986.
SEYRIG, H., Sur les ères de quelques villes de Syrie, *Syria*, XXVII, 1950.
SHARAF AL-DIN, `A., *Histoire de Timur-Bec, connu sous le nom du Grand Tamerlan*, tr. fr. F. Pétis de la Croix, Paris, D. Hortemels, 4 vol., 1722.
SHMAYSANI, H., *Madaris Dimashq fi al-`asr al-Ayyubi*, Beyrouth, Dar al-Afaq, 1983.
SIGOLI, S., *Viaggio al Monte Sinaï*, Milano, G. Silvestri, 1841.
SOBERNHEIM, M., Die Inschriften der Zitadelle von Damaskus, *Der Islam*, 12, 1921, pp. 1-28.
SOURDEL, D., Le vizirat abbasside de 749 à 936, 2 vol., Damas, IFD, 1959-1960.
SOURDEL, D., Réflexions sur la diffusion de la madrasa en Orient du XI^e^ au XIII^e^ siècle, *REI*, 44, 1976, pp. 165-184.
SOURDEL, D., *L'islam médiéval*, Paris, Presses Universitaires de France, 1979.
SOURDEL-THOMINE, J., Locaux d'enseignement et madrasas dans l'Islam médiéval, *REI*, 44, 1976, pp. 185-197.
SOURDEL-THOMINE, J., Les anciens lieux de pèlerinage damascains d'après les sources arabes, *B.E.O.*, XIV, 1952-1954, pp. 65-85.
SOURDEL-THOMINE, J. et SOURDEL, D., Nouveaux documents sur l'histoire religieuse et sociale de Damas au Moyen-Age, *REI*, XXXII, 1964, pp. 1-15.
SOURDEL-THOMINE, J. et SOURDEL, D., A propos des documents de la grande mosquée de Damas conservés à Istanbul. Résultats de la seconde enquête, *REI*, XXXIII, 1965, pp. 77-85.
SOUSTIEL, J., *La céramique islamique*, Paris, Vilo, 1985.
SPIERS, R.-Ph., The Omeyyad Mosque, Damascus, *The Builder*, 17 february 1894.
SPIERS, R.-Ph., The Great Mosque of the Omeiyades, Damascus, *Architectural Review*, VIII, 1900, pp. 80-88, pp. 103-114 et pp. 158-169.

SPIERS, R.-Ph., The Great Mosque of the Omeiyades, *Journal of the Royal Institute of British Architects*, vol.IV, Third series, nov. 1896 - oct. 1897, p. 25-41 et pp. 57-65.
SPIERS, R.-Ph., The Great Mosque of Damascus, *Palestine Expl. Fund. Quart. Stat.*, octobre 1897, pp. 282-301.
STARCKY, J., Pétra et la Nabatène, *Supplément au dictionnaire de la Bible de Vigouroux*, VII, Paris, Letouzey et Ané, 1966, pp. 886-1018.
STARCKY, J. et GAWLIKOWSKI, M., *Palmyre*, Paris, J. Maisonneuve, 1985.
STRABON, *Géographie*, tr. fr. A. Tardieu, Paris, Hachette, 1867.
SUBLET, J., tr. fr. du *Tâlî kitâb wafayât al-A`yân*, de Ibn as-Suqâ`i, IFD, Damas, 1974.
SUBLET, J., Le séquestre sur les jardins de la Ghouta, Damas 666/1267, *SI*, XLIII, 1976, pp. 81-86.
SUDHEIM, L. de, De itinere Terre Sancte, *Archives de l'Orient latin*, t. 2, Paris, E. Leroux, 1884.
SURIANO, Fra F., *Treatise on the Holy Land*, Jérusalem, Franciscan Press, 1949.
Syrie, mémoire et civilisation, Catalogue d'exposition, Paris, Flammarion, 1993.
TABARI, *Annales*, Paris, Imprimerie impériale, 1867-1871.
TABARI, *Mohammed sceau des prophètes*, Paris, Sindbad, 1980.
TABARI, *Les quatre premiers califes*, Paris, Sindbad, 1981.
TABARI, *Les Omayyades*, Paris, Sindbad, 1983.
TALAS, M.`A., *L'enseignement chez les Arabes. La madrasa Nizamiyya et son histoire*, Paris, P. Geuthner, 1939.
TALAS, M.`A., *Les Mosquées de Damas d'après Yusuf ibn Abd al-Hadi*, Beyrouth, 1943.
THÉNAUD, J., *Le Voyage d'Outremer*, suivi de *La relation de l'Ambassade de Domenico Trevisan auprès du Soudan d'Égypte*, Paris, E. Leroux, 1884.
THOUMIN, R., Notes sur l'aménagement et la distribution des eaux à Damas et dans sa Ghouta, *BEO*, V, 1934, pp. 1-26.
THOUMIN, R., *Géographie humaine de la Syrie centrale*, Tours, Imprimerie Arrault, 1936.
THOUMIN, R., Damas. Notes sur la répartition de la population par l'origine et par religion, *Revue de géographie alpine*, 25, 1937, pp. 663-697.
TOUEIR, K., Céramiques mameloukes à Damas, *BEO*, XXVI, 1973, pp. 209-217.
TRESSE, R., L'irrigation dans la Ghouta de Damas, *REI*, 1929, pp. 463-574.
TUDÈLE, B. de, *Voyage du célèbre Benjamin de Tudèle autour du monde commencé en l'an 1173 en Amsterdam, aux dépens de la Compagnie (1734)*, 2 tomes en 1 vol., La Haye, J. Neaulme, 1735.
VAN BERCHEM, M., Notes sur les Croisades, *JA*, janv.-juin 1902, pp. 385-456.
VAN BERCHEM, M., Notes archéologiques sur la mosquée des Ommayades, *BEO*, VII-VIII, 1937-1938.

VAN LIERE, W. J. et CONTENSON, H., Holocene Environment and early Settlement in the Levant, *AAAS*, XIV, 1964, pp. 125-128.
VAN LIERE, W. J. et CONTENSON, H., A note on five Early Neolithic sites in Inland Syria, *AAAS*, XIII, 1963, pp. 173-209.
VARTHÉMA, L. di, *Les Voyages*, tr. fr. J. Balarin de Raconis, Paris, E. Leroux, 1888.
VÉRONE, J. de, Le Pèlerinage du Moine Augustin Jacques de Vérone (1335), publié par R. Röhricht, *Extrait de la Revue de l'Orient Latin*, t. III, n°2, Paris, 1895.
Voyage en Terre Sainte d'un maire de Bordeaux au XIV^e^ siècle, par Thomas Brygg, Gènes, 1884.
WACHOLDER, B. Z., *Nicolaus of Damascus*, Berkeley and Los Angeles, University of California Press, 1962.
WATT, W. M., *Mahomet à La Mecque*, Paris, Payot, 1977.
WATZINGER, C. et WULZINGER, K., *Damaskus, Die Islamische Stadt*, Berlin und Leipzig, W. de Gruyter, 1924.
WATZINGER, C. et WULZINGER, K., *Damaskus, Die Antike Stadt*, Berlin und Leipzig, W. de Gruyter, 1921.
WIET, G., Les Inscriptions arabes de Damas, *Syria*, III, 1922, pp. 153-163.
WIET, G., Les inscriptions de Saladin, *Syria*, III, 1922, pp. 307-328.
WIET, G., Notes d'épigraphie syro-musulmane, *Syria*, V, 1924, pp. 216-253 ; *Syria*, VI, 1925, pp. 150-173 ; *Syria*, VII, 1926, pp. 46-66 et pp. 153-177.
WIET, G., Les biographies du Manhal Safi, *Mémoires présentées à l'Institut d'Égypte*, XIX, Le Caire, 1932.
WIET, G., La madrasa Khaidariya à Damas, *Mélanges Gaudefroy-Demombynes*, 1935, pp. 17-23.
WIET, G., Répertoire des décrets mamelouks, *Mélanges R. Dussaud*, II, Paris, 1939, pp. 521-537.
WIET, G., *Histoire des Mamluks Circassiens (872-906)*, tr. fr. de la *Chronique* d'Ibn Iyas al-Hanafi al-Misri, IFAO, Le Caire, 1945.
WIET, G., *Les marchands d'épices sous les sultans Mamlouks*, *Cahiers d'Histoire Égyptienne*, VII, 1955, pp. 83-147.
WIET, G., L'Empire néo-byzantin des Omeyyades et l'Empire néo-sassanide des Abbassides, *Cahiers d'histoire mondiale*, 1953, pp. 62-71.
WIET, G., *Journal d'un bourgeois du Caire*. Chronique d'Ibn Iyas traduite et annotée par Gaston Wiet. (Suite de l'Histoire des Mamlouks Circassiens éditée en 1945), Paris, Bibliothèque de l'École pratique des Hautes Études, 2t., 1955-1960.
WIET, G., SAUVAGET, J et COMBE, E., *Répertoire chronologique d'épigraphie arabe*, PIFAO, Le Caire, 16 tomes, 1931-1964.
WILL, E., *Histoire politique du monde hellénistique*, Presses Universitaires de Nancy, 1979.
WOOLLEY, C.L., *Ur en Chaldée*, Payot, Paris, 1938.
WRIGHT, T., *Early Travels in Palestine*, London, H.G. Bohn, 1848.

YAHYA, F., *Inventaire archéologique des Caravansérails de Damas*, Thèse de l'Université d'Aix-en-Provence, 1979.
YAQUBI, *Les Pays*, tr. fr. Gaston Wiet, Le Caire, 1937.
YAQUT, *Dictionnaire géographique, historique et littéraire de la Perse et des contrées adjacentes*, tr. fr. C. Barbier de Meynard, Paris, Imprimerie impériale, 1861.
ZIADEH, N., *Urban life in Syria under the early Mamluks*, Beirut, Printed at the American Press, 1953.
ZIADEH, N., *Damascus under the Mamluks*, Oklahoma, 1964.
ZUHDI, B., Le royaume araméen de Damas (en arabe), *AAS*, VII et IX, 1958 et 1959, pp. 85-102.

المؤلف فى سطور :

جيرار ديجورج

هو مؤرخ ومهندس معمارى وأستاذ بمدرسة الهندسة المعمارية بباريس . وله مؤلفات أخرى منها : سوريا - الفن والتاريخ والهندسة المعمارية (١٩٨٣) ، باريس - الناشر هيرمان ، تدمر عاصمة الصحراء (باريس - الناشر سيجوبيه - ١٩٨٧) .

كما اشترك فى كتاب زنوبيا ملكة تدمر (ميلانو - ١٩٩٣) .

المترجم فى سطور :

محمد رفعت عواد

من مواليد القاهرة . حصل على ليسانس الآداب ، قسم اللغة الفرنسية ، ودبلوم التربية وعلم النفس من جامعة عين شمس سنة ١٩٥٦ . درس فى جامعة السوربون حصل خلالها على ثلاثة دبلومات عليا فى الأدب الفرنسى واللغة وعلم النفس والفن .

عمل فى سوريا فى الفترة من ١٩٥٨ إلى ١٩٦٠ زار خلالها عدة أماكن : دمشق ، وحمص وحماة وحلب واللاذقية وصافيتا والسلمية موطن الإسماعيليين .

عمل خبيراً لليونسكو بالكونغو كينشاسا ، ومترجماً بالشعبة الوطنية لليونسكو بالرياض ، ومترجما بوزارة البترول ووزارة الدفاع السعودية .

عمل مترجماً برئاسة الجمهورية ومترجماً بوكالة الأنباء الفرنسية ، وأستاذ اللغة الفرنسية بكلية الشرطة ، ومديراً عاما للترجمة بالهيئة العامة للاستعلامات بوزارة الإعلام .

قام بترجمة ومراجعة عدة كتب ونشرات ووثائق باللغتين الإنجليزية والفرنسية .

المشروع القومى للترجمة

المشروع القومى للترجمة مشروع تنمية ثقافية بالدرجة الأولى ، ينطلق من الإيجابيات التى حققتها مشروعات الترجمة التى سبقته فى مصر والعالم العربى ويسعى إلى الإضافة بما يفتح الأفق على وعود المستقبل، معتمداً المبادئ التالية :

١- الخروج من أسر المركزية الأوروبية وهيمنة اللغتين الإنجليزية والفرنسية .

٢- التوازن بين المعارف الإنسانية فى المجالات العلمية والفنية والفكرية والإبداعية .

٣- الانحياز إلى كل ما يؤسس لأفكار التقدم وحضور العلم وإشاعة العقلانية والتشجيع على التجريب .

٤- ترجمة الأصول المعرفية التى أصبحت أقرب إلى الإطار المرجعى فى الثقافة الإنسانية المعاصرة، جنبًا إلى جنب المنجزات الجديدة التى تضع القارئ فى القلب من حركة الإبداع والفكر العالميين .

٥- العمل على إعداد جيل جديد من المترجمين المتخصصين عن طريق ورش العمل بالتنسيق مع لجنة الترجمة بالمجلس الأعلى للثقافة .

٦- الاستعانة بكل الخبرات العربية وتنسيق الجهود مع المؤسسات المعنية بالترجمة .

المشروع القومى للترجمة

١-	اللغة العليا	جون كوين	أحمد درويش
٢-	الوثنية والإسلام (ط١)	ك. مادهو بانيكار	أحمد فؤاد بلبع
٣-	التراث المسروق	جورج جيمس	شوقى جلال
٤-	كيف تتم كتابة السيناريو	انجا كاريتنيكوفا	أحمد الحضرى
٥-	ثريا فى غيبوبة	إسماعيل فصيح	محمد علاء الدين منصور
٦-	اتجاهات البحث اللسانى	ميلكا إفيتش	سعد مصلوح ووفاء كامل فايد
٧-	العلوم الإنسانية والفلسفة	لوسيان غولدمان	يوسف الأنطكى
٨-	مشعلو الحرائق	ماكس فريش	مصطفى ماهر
٩-	التغيرات البيئية	أندرو. س. جودى	محمود محمد عاشور
١٠-	خطاب الحكاية	چيرار چينيت	محمد معتصم وعبد الجليل الأزدى وعمر حلى
١١-	مختارات شعرية	فيسوافا شيمبوريسكا	هناء عبد الفتاح
١٢-	طريق الحرير	ديفيد براونيستون وأيرين فرانك	أحمد محمود
١٣-	ديانة الساميين	روبرتسن سميث	عبد الوهاب علوب
١٤-	التحليل النفسى للأدب	جان بيلمان نويل	حسن المودن
١٥-	الحركات الفنية منذ ١٩٤٥	إدوارد لوسى سميث	أشرف رفيق عفيفى
١٦-	أثينة السوداء (جـ١)	مارتن برنال	بإشراف: أحمد عتمان
١٧-	مختارات شعرية	فيليب لاركين	محمد مصطفى بدوى
١٨-	الشعر النسائى فى أمريكا اللاتينية	مختارات	طلعت شاهين
١٩-	الأعمال الشعرية الكاملة	چورج سفيريس	نعيم عطية
٢٠-	قصة العلم	ج. ج. كراوثر	يمنى طريف الخولى و بدوى عبد الفتاح
٢١-	خوخة وألف خوخة وقصص أخرى	صمد بهرنجى	ماجدة العنانى
٢٢-	مذكرات رحالة عن المصريين	جون أنتيس	سيد أحمد على الناصرى
٢٣-	تجلى الجميل	هانز جيورج جادامر	سعيد توفيق
٢٤-	ظلال المستقبل	باتريك بارندر	بكر عباس
٢٥-	مثنوى	مولانا جلال الدين الرومى	إبراهيم الدسوقى شتا
٢٦-	دين مصر العام	محمد حسين هيكل	أحمد محمد حسين هيكل
٢٧-	التنوع البشرى الخلاق	مجموعة من المؤلفين	بإشراف: جابر عصفور
٢٨-	رسالة فى التسامح	جون لوك	منى أبو سنة
٢٩-	الموت والوجود	جيمس ب. كارس	بدر الديب
٣٠-	الوثنية والإسلام (ط٢)	ك. مادهو بانيكار	أحمد فؤاد بلبع
٣١-	مصادر دراسة التاريخ الإسلامى	جان سوفاجيه - كلود كاين	عبد الستار الحلوجى وعبد الوهاب علوب
٣٢-	الانقراض	ديفيد روب	مصطفى إبراهيم فهمى
٣٣-	التاريخ الاقتصادى لأفريقيا الغربية	أ. ج. هوبكنز	أحمد فؤاد بلبع
٣٤-	الرواية العربية	روجر ألن	حصة إبراهيم المنيف
٣٥-	الأسطورة والحداثة	بول ب . ديكسون	خليل كلفت
٣٦-	نظريات السرد الحديثة	والاس مارتن	حياة جاسم محمد

٣٧-	واحة سيوة وموسيقاها	بريجيت شيفر	جمال عبد الرحيم
٣٨-	نقد الحداثة	آلن تورين	أنور مغيث
٣٩-	الحسد والإغريق	بيتر والكوت	منيرة كروان
٤٠-	قصائد حب	أن سكستون	محمد عيد إبراهيم
٤١-	ما بعد المركزية الأوروبية	بيتر جران	عاطف أحمد وإبراهيم فتحى ومحمود ماجد
٤٢-	عالم ماك	بنجامين باربر	أحمد محمود
٤٣-	اللهب المزدوج	أوكتافيو باث	المهدى أخريف
٤٤-	بعد عدة أصياف	ألدوس هكسلى	مارلين تادرس
٤٥-	التراث المغدور	روبرت دينا وجون فاين	أحمد محمود
٤٦-	عشرون قصيدة حب	بابلو نيرودا	محمود السيد على
٤٧-	تاريخ النقد الأدبى الحديث (جـ١)	رينيه ويليك	مجاهد عبد المنعم مجاهد
٤٨-	حضارة مصر الفرعونية	فرانسوا دوما	ماهر جويجاتى
٤٩-	الإسلام فى البلقان	هـ . ت . نوريس	عبد الوهاب علوب
٥٠-	ألف ليلة وليلة أو القول الأسير	جمال الدين بن الشيخ	محمد برادة وعثمانى الميلود ويوسف الأنطكى
٥١-	مسار الرواية الإسبانو أمريكية	داريو بيانويبا وخ. م. بينياليستى	محمد أبو العطا
٥٢-	العلاج النفسى التدعيمى	ب. نوفاليس وس . روجسيفيتز وروجر بيل	لطفى فطيم وعادل دمرداش
٥٣-	الدراما والتعليم	أ . ف . ألنجتون	مرسى سعد الدين
٥٤-	المفهوم الإغريقى للمسرح	ج . مايكل والتون	محسن مصيلحى
٥٥-	ما وراء العلم	چون بولكنجهوم	على يوسف على
٥٦-	الأعمال الشعرية الكاملة (جـ١)	فديريكو غرسية لوركا	محمود على مكى
٥٧-	الأعمال الشعرية الكاملة (جـ٢)	فديريكو غرسية لوركا	محمود السيد و ماهر البطوطى
٥٨-	مسرحيتان	فديريكو غرسية لوركا	محمد أبو العطا
٥٩-	المحبرة (مسرحية)	كارلوس مونييث	السيد السيد سهيم
٦٠-	التصميم والشكل	جوهانز إيتين	صبرى محمد عبد الغنى
٦١-	موسوعة علم الإنسان	شارلوت سيمور – سميث	بإشراف : محمد الجوهرى
٦٢-	لذّة النّص	رولان بارت	محمد خير البقاعى
٦٣-	تاريخ النقد الأدبى الحديث (جـ٢)	رينيه ويليك	مجاهد عبد المنعم مجاهد
٦٤-	برتراند راسل (سيرة حياة)	آلان وود	رمسيس عوض
٦٥-	فى مدح الكسل ومقالات أخرى	برتراند راسل	رمسيس عوض
٦٦-	خمس مسرحيات أندلسية	أنطونيو جالا	عبد اللطيف عبد الحليم
٦٧-	مختارات شعرية	فرناندو بيسوا	المهدى أخريف
٦٨-	نتاشا العجوز وقصص أخرى	فالنتين راسبوتين	أشرف الصباغ
٦٩-	العالم الإسلامى فى أوائل القرن العشرين	عبد الرشيد إبراهيم	أحمد فؤاد متولى وهويدا محمد فهمى
٧٠-	ثقافة وحضارة أمريكا اللاتينية	أوخينيو تشانج رودريجث	عبد الحميد غلاب وأحمد حشاد
٧١-	السيدة لا تصلح إلا للرمى	داريو فو	حسين محمود
٧٢-	السياسى العجوز	ت . س . إليوت	فؤاد مجلى
٧٣-	نقد استجابة القارئ	چين ب . تومبكنز	حسن ناظم وعلى حاكم
٧٤-	صلاح الدين والمماليك فى مصر	ل . ا . سيمينوفا	حسن بيومى

٧٥-	فن التراجم والسير الذاتية	أندريه موروا	أحمد درويش
٧٦-	جاك لاكان وإغواء التحليل النفسى	مجموعة من المؤلفين	عبد المقصود عبد الكريم
٧٧-	تاريخ النقد الأدبى الحديث (جـ٣)	رينيه ويليك	مجاهد عبد المنعم مجاهد
٧٨-	العولمة : النظرية الاجتماعية والثقافة الكونية	رونالد روبرتسون	أحمد محمود ونورا أمين
٧٩-	شعرية التأليف	بوريس أوسبنسكى	سعيد الغانمى وناصر حلاوى
٨٠-	بوشكين عند «نافورة الدموع»	ألكسندر بوشكين	مكارم الغمرى
٨١-	الجماعات المتخيلة	بندكت أندرسن	محمد طارق الشرقاوى
٨٢-	مسرح ميجيل	ميجيل دى أونامونو	محمود السيد على
٨٣-	مختارات شعرية	غوتفريد بن	خالد المعالى
٨٤-	موسوعة الأدب والنقد (جـ١)	مجموعة من المؤلفين	عبد الحميد شيحة
٨٥-	منصور الحلاج (مسرحية)	صلاح زكى أقطاى	عبد الرازق بركات
٨٦-	طول الليل (رواية)	جمال مير صادقى	أحمد فتحى يوسف شتا
٨٧-	نون والقلم (رواية)	جلال آل أحمد	ماجدة العنانى
٨٨-	الابتلاء بالتغرب	جلال آل أحمد	إبراهيم الدسوقى شتا
٨٩-	الطريق الثالث	أنتونى جيدنز	أحمد زايد ومحمد محيى الدين
٩٠-	وسم السيف وقصص أخرى	بورخيس وآخرون	محمد إبراهيم مبروك
٩١-	المسرح والتجريب بين النظرية والتطبيق	باربرا لاسوتسكا - بشونباك	محمد هناء عبد الفتاح
٩٢-	أساليب ومضامين المسرح الإسبانوأمريكى المعاصر	كارلوس ميجيل	نادية جمال الدين
٩٣-	محدثات العولمة	مايك فيذرستون وسكوت لاش	عبد الوهاب علوب
٩٤-	مسرحيتا الحب الأول والصحبة	صمويل بيكيت	فوزية العشماوى
٩٥-	مختارات من المسرح الإسبانى	أنطونيو بويرو باييخو	سرى محمد عبد اللطيف
٩٦-	ثلاث زنبقات ووردة وقصص أخرى	نخبة	إدوار الخراط
٩٧-	هوية فرنسا (مج١)	فرنان برودل	بشير السباعى
٩٨-	الهم الإنسانى والابتزاز الصهيونى	مجموعة من المؤلفين	أشرف الصباغ
٩٩-	تاريخ السينما العالمية (١٨٩٥-١٩٨٠)	ديفيد روبنسون	إبراهيم قنديل
١٠٠-	مساءلة العولمة	بول هيرست وجراهام تومبسون	إبراهيم فتحى
١٠١-	النص الروائى: تقنيات ومناهج	بيرنار فاليط	رشيد بنحدو
١٠٢-	السياسة والتسامح	عبد الكبير الخطيبى	عز الدين الكتانى الإدريسى
١٠٣-	قبر ابن عربى يليه آياء (شعر)	عبد الوهاب المؤدب	محمد بنيس
١٠٤-	أوبرا ماهوجنى (مسرحية)	برتولت بريشت	عبد الغفار مكاوى
١٠٥-	مدخل إلى النص الجامع	چيرارچينيت	عبد العزيز شبيل
١٠٦-	الأدب الأندلسى	ماريا خيسوس روبييرامتى	أشرف على دعدور
١٠٧-	صورة الفدائى فى الشعر الأمريكى اللاتينى المعاصر	نخبـة من الشعراء	محمد عبد الله الجعيدى
١٠٨-	ثلاث دراسات عن الشعر الأندلسى	مجموعة من المؤلفين	محمود على مكى
١٠٩-	حروب المياه	چون بولوك وعادل درويش	هاشم أحمد محمد
١١٠-	النساء فى العالم النامى	حسنة بيجوم	منى قطان
١١١-	المرأة والجريمة	فرانسس هيدسون	ريهام حسين إبراهيم
١١٢-	الاحتجاج الهادئ	أرلين علوى ماكليود	إكرام يوسف

١١٣- راية التمرد	سادى پلانت	أحمد حسان
١١٤- مسرحيتا حصاد كونجى وسكان المستنقع	وول شوينكا	نسيم مجلى
١١٥- غرفة تخص المرء وحده	فرچينيا وولف	سمية رمضان
١١٦- امرأة مختلفة (درية شفيق)	سينثيا نلسون	نهاد أحمد سالم
١١٧- المرأة والجنوسة فى الإسلام	ليلى أحمد	منى إبراهيم وهالة كمال
١١٨- النهضة النسائية فى مصر	بث بارون	لميس النقاش
١١٩- النساء والأسرة وقوانين الطلاق فى التاريخ الإسلامى	أميرة الأزهرى سنبل	بإشراف: رءوف عباس
١٢٠- الحركة النسائية والتطور فى الشرق الأوسط	ليلى أبو لغد	مجموعة من المترجمين
١٢١- الدليل الصغير فى كتابة المرأة العربية	فاطمة موسى	محمد الجندى وإيزابيل كمال
١٢٢- نظام العبودية القديم والنموذج المثالى للإنسان	جوزيف فوجت	منيرة كروان
١٢٣- الإمبراطورية العثمانية وعلاقاتها الدولية	أنينل ألكسندرو فنادولينا	أنور محمد إبراهيم
١٢٤- الفجر الكاذب: أوهام الرأسمالية العالمية	چون جراى	أحمد فؤاد بلبع
١٢٥- التحليل الموسيقى	سيدرك ثورپ ديڤى	سمحة الخولى
١٢٦- فعل القراءة	ڤولڤانج إيسر	عبد الوهاب علوب
١٢٧- إرهاب (مسرحية)	صفاء فتحى	بشير السباعى
١٢٨- الأدب المقارن	سوزان باسنيت	أميرة حسن نويرة
١٢٩- الرواية الإسبانية المعاصرة	ماريا دولورس أسيس جاروته	محمد أبو العطا وآخرون
١٣٠- الشرق يصعد ثانية	أندريه جوندر فرانك	شوقى جلال
١٣١- مصر القديمة: التاريخ الاجتماعى	مجموعة من المؤلفين	لويس بقطر
١٣٢- ثقافة العولمة	مايك فيذرستون	عبد الوهاب علوب
١٣٣- الخوف من المرايا (رواية)	طارق على	طلعت الشايب
١٣٤- تشريح حضارة	بارى ج. كيمب	أحمد محمود
١٣٥- المختار من نقد ت. س. إليوت	ت. س. إليوت	ماهر شفيق فريد
١٣٦- فلاحو الباشا	كينيث كونو	سحر توفيق
١٣٧- مذكرات ضابط فى الحملة الفرنسية على مصر	چوزيف مارى مواريه	كاميليا صبحى
١٣٨- عالم التليفزيون بين الجمال والعنف	أندريه جلوكسمان	وجيه سمعان عبد المسيح
١٣٩- پارسيڤال (مسرحية)	ريتشارد ڤاچنر	مصطفى ماهر
١٤٠- حيث تلتقى الأنهار	هربرت ميسن	أمل الجبورى
١٤١- اثنتا عشرة مسرحية يونانية	مجموعة من المؤلفين	نعيم عطية
١٤٢- الإسكندرية : تاريخ ودليل	أ. م. فورستر	حسن بيومى
١٤٣- قضايا التنظير فى البحث الاجتماعى	ديرك لايدر	عدلى السمرى
١٤٤- صاحبة اللوكاندة (مسرحية)	كارلو جولدونى	سلامة محمد سليمان
١٤٥- موت أرتيميو كروث (رواية)	كارلوس فوينتس	أحمد حسان
١٤٦- الورقة الحمراء (رواية)	ميجيل دى ليبيس	على عبدالروف البمبى
١٤٧- مسرحيتان	تانكريد دورست	عبدالغفار مكاوى
١٤٨- القصة القصيرة: النظرية والتقنية	إنريكى أندرسون إمبرت	على إبراهيم منوفى
١٤٩- النظرية الشعرية عند إليوت وأدونيس	عاطف فضول	أسامة إسبر
١٥٠- التجربة الإغريقية	روبرت ج. ليتمان	منيرة كروان

١٥١- هوية فرنسا (مج ٢ ، جـ١)	فرنان برودل	بشير السباعى
١٥٢- عدالة الهنود وقصص أخرى	مجموعة من المؤلفين	محمد محمد الخطابى
١٥٣- غرام الفراعنة	فيولين فانويك	فاطمة عبدالله محمود
١٥٤- مدرسة فرانكفورت	فيل سليتر	خليل كلفت
١٥٥- الشعر الأمريكى المعاصر	نخبة من الشعراء	أحمد مرسى
١٥٦- المدارس الجمالية الكبرى	جى أنبال وآلان وأوديت ڤيرمو	مى التلمسانى
١٥٧- خسرو وشيرين	النظامى الكنجوى	عبدالعزيز بقوش
١٥٨- هوية فرنسا (مج ٢ ، جـ٢)	فرنان برودل	بشير السباعى
١٥٩- الأيديولوجية	ديڤيد هوكس	إبراهيم فتحى
١٦٠- آلة الطبيعة	بول إيرليش	حسين بيومى
١٦١- مسرحيتان من المسرح الإسبانى	أليخاندرو كاسونا وأنطونيو جالا	زيدان عبدالحليم زيدان
١٦٢- تاريخ الكنيسة	يوحنا الأسيوى	صلاح عبدالعزيز محجوب
١٦٣- موسوعة علم الاجتماع (جـ ١)	جوردون مارشال	بإشراف: محمد الجوهرى
١٦٤- شامبوليون (حياة من نور)	چان لاكوتير	نبيل سعد
١٦٥- حكايات الثعلب (قصص أطفال)	أ. ن. أفاناسيفا	سهير المصادفة
١٦٦- العلاقات بين المتدينين والعلمانيين فى إسرائيل	يشعياهو ليڤمان	محمد محمود أبوغدير
١٦٧- فى عالم طاغور	رابندرنات طاغور	شكرى محمد عياد
١٦٨- دراسات فى الأدب والثقافة	مجموعة من المؤلفين	شكرى محمد عياد
١٦٩- إبداعات أدبية	مجموعة من المؤلفين	شكرى محمد عياد
١٧٠- الطريق (رواية)	ميجيل دليبيس	بسام ياسين رشيد
١٧١- وضع حد (رواية)	فرانك بيجو	هدى حسين
١٧٢- حجر الشمس (شعر)	نخبة	محمد محمد الخطابى
١٧٣- معنى الجمال	ولتر ت. ستيس	إمام عبد الفتاح إمام
١٧٤- صناعة الثقافة السوداء	إيليس كاشمور	أحمد محمود
١٧٥- التليفزيون فى الحياة اليومية	لورينزو فيلشس	وجيه سمعان عبد المسيح
١٧٦- نحو مفهوم للاقتصاديات البيئية	توم تيتنبرج	جلال البنا
١٧٧- أنطون تشيخوف	هنرى ترويا	حصة إبراهيم المنيف
١٧٨- مختارات من الشعر اليونانى الحديث	نخبة من الشعراء	محمد حمدى إبراهيم
١٧٩- حكايات أيسوب (قصص أطفال)	أيسوب	إمام عبد الفتاح إمام
١٨٠- قصة جاويد (رواية)	إسماعيل فصيح	سليم عبد الأمير حمدان
١٨١- النقد الأدبى الأمريكى من الثلاثينيات إلى الثمانينيات	فنسنت ب. ليتش	محمد يحيى
١٨٢- العنف والنبوءة (شعر)	و.ب. ييتس	ياسين طه حافظ
١٨٣- چان كوكتو على شاشة السينما	رينيه جيلسون	فتحى العشرى
١٨٤- القاهرة: حالمة لا تنام	هانز إيندورفر	دسوقى سعيد
١٨٥- أسفار العهد القديم فى التاريخ	توماس تومسن	عبد الوهاب علوب
١٨٦- معجم مصطلحات هيجل	ميخائيل إنوود	إمام عبد الفتاح إمام
١٨٧- الأرضة (رواية)	بُزرج علوى	محمد علاء الدين منصور
١٨٨- موت الأدب	ألفين كرنان	بدر الديب

١٨٩-	العمى والبصيرة: مقالات فى بلاغة النقد المعاصر	پول دى مان	سعيد الغانمى
١٩٠-	محاورات كونفوشيوس	كونفوشيوس	محسن سيد فرجانى
١٩١-	الكلام رأسمال وقصص أخرى	الحاج أبو بكر إمام وآخرون	مصطفى حجازى السيد
١٩٢-	سياحت نامه إبراهيم بك (جـ١)	زين العابدين المراغى	محمود علاوى
١٩٣-	عامل المنجم (رواية)	بيتر أبراهامز	محمد عبد الواحد محمد
١٩٤-	مختارات من النقد الأنجلو-أمريكى الحديث	مجموعة من النقاد	ماهر شفيق فريد
١٩٥-	شتاء ٨٤ (رواية)	إسماعيل فصيح	محمد علاء الدين منصور
١٩٦-	المهلة الأخيرة (رواية)	فالنتين راسبوتين	أشرف الصباغ
١٩٧-	سيرة الفاروق	شمس العلماء شبلى النعمانى	جلال السعيد الحفناوى
١٩٨-	الاتصال الجماهيرى	إدوين إمرى وآخرون	إبراهيم سلامة إبراهيم
١٩٩-	تاريخ يهود مصر فى الفترة العثمانية	يعقوب لانداو	جمال أحمد الرفاعى وأحمد عبد اللطيف حماد
٢٠٠-	ضحايا التنمية: المقاومة والبدائل	جيرمى سيبروك	فخرى لبيب
٢٠١-	الجانب الدينى للفلسفة	جوزايا رويس	أحمد الأنصارى
٢٠٢-	تاريخ النقد الأدبى الحديث (جـ٤)	رينيه ويليك	مجاهد عبد المنعم مجاهد
٢٠٣-	الشعر والشاعرية	ألطاف حسين حالى	جلال السعيد الحفناوى
٢٠٤-	تاريخ نقد العهد القديم	زالمان شازار	أحمد هويدى
٢٠٥-	الجينات والشعوب واللغات	لويجى لوقا كافاللى- سفورزا	أحمد مستجير
٢٠٦-	الهيولية تصنع علماً جديداً	جيمس جلايك	على يوسف على
٢٠٧-	ليل أفريقى (رواية)	رامون خوتاسندير	محمد أبو العطا
٢٠٨-	شخصية العربى فى المسرح الإسرائيلى	دان أوريان	محمد أحمد صالح
٢٠٩-	السرد والمسرح	مجموعة من المؤلفين	أشرف الصباغ
٢١٠-	مثنويات حكيم سنائى (شعر)	سنائى الغزنوى	يوسف عبد الفتاح فرج
٢١١-	فردينان دوسوسير	جوناثان كلر	محمود حمدى عبد الغنى
٢١٢-	قصص الأمير مرزبان على لسان الحيوان	مرزبان بن رستم بن شروين	يوسف عبدالفتاح فرج
٢١٣-	مصر منذ قدوم نابليون حتى رحيل عبدالناصر	ريمون فلاور	سيد أحمد على الناصرى
٢١٤-	قواعد جديدة للمنهج فى علم الاجتماع	أنتونى جيدنز	محمد محيى الدين
٢١٥-	سياحت نامه إبراهيم بك (جـ٢)	زين العابدين المراغى	محمود علاوى
٢١٦-	جوانب أخرى من حياتهم	مجموعة من المؤلفين	أشرف الصباغ
٢١٧-	مسرحيتان طليعيتان	صمويل بيكيت وهارولد بينتر	نادية البنهاوى
٢١٨-	لعبة الحجلة (رواية)	خوليو كورتاثار	على إبراهيم منوفى
٢١٩-	بقايا اليوم (رواية)	كازو إيشجورو	طلعت الشايب
٢٢٠-	الهيولية فى الكون	بارى باركر	على يوسف على
٢٢١-	شعرية كفافى	جريجورى جوزدانيس	رفعت سلام
٢٢٢-	فرانز كافكا	روناالد جراى	نسيم مجلى
٢٢٣-	العلم فى مجتمع حر	باول فيرابند	السيد محمد نفادى
٢٢٤-	دمار يوغسلافيا	برانكا ماجاس	منى عبدالظاهر إبراهيم
٢٢٥-	حكاية غريق (رواية)	جابرييل جارثيا ماركيث	السيد عبدالظاهر السيد
٢٢٦-	أرض المساء وقصائد أخرى	ديفيد هربت لورانس	طاهر محمد على البريرى

٢٢٧-	المسرح الإسبانى فى القرن السابع عشر	خوسيه ماريا ديث بوركى	السيد عبدالظاهر عبدالله
٢٢٨-	علم الجمالية وعلم اجتماع الفن	جانيت وولف	مارى تيريز عبدالمسيح وخالد حسن
٢٢٩-	مأزق البطل الوحيد	نورمان كيجان	أمير إبراهيم العمرى
٢٣٠-	عن الذباب والفئران والبشر	فرانسواز جاكوب	مصطفى إبراهيم فهمى
٢٣١-	الدرافيل أو الجيل الجديد (مسرحية)	خايمى سالوم بيدال	جمال عبدالرحمن
٢٣٢-	ما بعد المعلومات	توم ستونير	مصطفى إبراهيم فهمى
٢٣٣-	فكرة الاضمحلال فى التاريخ الغربى	أرثر هيرمان	طلعت الشايب
٢٣٤-	الإسلام فى السودان	ج. سبنسر تريمنجهام	فؤاد محمد عكود
٢٣٥-	ديوان شمس تبريزى (جـ١)	مولانا جلال الدين الرومى	إبراهيم الدسوقى شتا
٢٣٦-	الولاية	ميشيل شودكيفيتش	أحمد الطيب
٢٣٧-	مصر أرض الوادى	روبين فيدين	عنايات حسين طلعت
٢٣٨-	العولمة والتحرير	تقرير لمنظمة الأنكتاد	ياسر محمد جادالله وعربى مدبولى أحمد
٢٣٩-	العربى فى الأدب الإسرائيلى	جيلا رامراز - رايوخ	نادية سليمان حافظ وإيهاب صلاح فايق
٢٤٠-	الإسلام والغرب وإمكانية الحوار	كاى حافظ	صلاح محجوب إدريس
٢٤١-	فى انتظار البرابرة (رواية)	ج . م. كوتزى	ابتسام عبدالله
٢٤٢-	سبعة أنماط من الغموض	وليام إمبسون	صبرى محمد حسن
٢٤٣-	تاريخ إسبانيا الإسلامية (مج١)	ليفى بروفنسال	بإشراف: صلاح فضل
٢٤٤-	الغليان (رواية)	لاورا إسكيبيل	نادية جمال الدين محمد
٢٤٥-	نساء مقاتلات	إليزابيتا أديس وأخرون	توفيق على منصور
٢٤٦-	مختارات قصصية	جابرييل جارثيا ماركيث	على إبراهيم منوفى
٢٤٧-	الثقافة الجماهيرية والحداثة فى مصر	والتر أرمبرست	محمد طارق الشرقاوى
٢٤٨-	حقول عدن الخضراء (مسرحية)	أنطونيو جالا	عبداللطيف عبدالحليم
٢٤٩-	لغة التمزق (شعر)	دراجو شتامبوك	رفعت سلام
٢٥٠-	علم اجتماع العلوم	دومنيك فينك	ماجدة محسن أباظة
٢٥١-	موسوعة علم الاجتماع (جـ٢)	جوردون مارشال	بإشراف: محمد الجوهرى
٢٥٢-	رائدات الحركة النسوية المصرية	مارجو بدران	على بدران
٢٥٣-	تاريخ مصر الفاطمية	ل. أ. سيمينوفا	حسن بيومى
٢٥٤-	أقدم لك: الفلسفة	ديف روبنسون وجودى جروفز	إمام عبد الفتاح إمام
٢٥٥-	أقدم لك: أفلاطون	ديف روبنسون وجودى جروفز	إمام عبد الفتاح إمام
٢٥٦-	أقدم لك: ديكارت	ديف روبنسون وكريس جارات	إمام عبد الفتاح إمام
٢٥٧-	تاريخ الفلسفة الحديثة	وليم كلى رايت	محمود سيد أحمد
٢٥٨-	الغجر	سير أنجوس فريزر	عُبادة كُحيلة
٢٥٩-	مختارات من الشعر الأرمنى عبر العصور	نخبة	فاروجان كازانجيان
٢٦٠-	موسوعة علم الاجتماع (جـ٣)	جوردون مارشال	بإشراف: محمد الجوهرى
٢٦١-	رحلة فى فكر زكى نجيب محمود	زكى نجيب محمود	إمام عبد الفتاح إمام
٢٦٢-	مدينة المعجزات (رواية)	إدواردو مندوثا	محمد أبو العطا
٢٦٣-	الكشف عن حافة الزمن	جون جريبين	على يوسف على
٢٦٤-	إبداعات شعرية مترجمة	هوراس وشلى	لويس عوض

٢٦٥-	روايات مترجمة	أوسكار وايلد وصمويل جونسون	لويس عوض
٢٦٦-	مدير المدرسة (رواية)	جلال آل أحمد	عادل عبدالمنعم على
٢٦٧-	فن الرواية	ميلان كونديرا	بدر الدين عرودكى
٢٦٨-	ديوان شمس تبريزى (جـ٢)	مولانا جلال الدين الرومى	إبراهيم الدسوقى شتا
٢٦٩-	وسط الجزيرة العربية وشرقها (جـ١)	وليم چيفور بالجريف	صبرى محمد حسن
٢٧٠-	وسط الجزير العربية وشرقها (جـ٢)	وليم چيفور بالجريف	صبرى محمد حسن
٢٧١-	الحضارة الغربية: الفكرة والتاريخ	توماس سى. باترسون	شوقى جلال
٢٧٢-	الأديرة الأثرية فى مصر	سى. سى. والترز	إبراهيم سلامة إبراهيم
٢٧٣-	الأصول الاجتماعية والثقافية لحركة عرابى فى مصر	جوان كول	عنان الشهاوى
٢٧٤-	السيدة باربارا (رواية)	رومولو جاييجوس	محمود على مكى
٢٧٥-	ت. س. إليوت شاعراً وناقداً وكاتباً مسرحياً	مجموعة من النقاد	ماهر شفيق فريد
٢٧٦-	فنون السينما	مجموعة من المؤلفين	عبدالقادر التلمسانى
٢٧٧-	الچينات والصراع من أجل الحياة	براين فورد	أحمد فوزى
٢٧٨-	البدايات	إسحاق عظيموف	ظريف عبدالله
٢٧٩-	الحرب الباردة الثقافية	ف.س. سوندرز	طلعت الشايب
٢٨٠-	الأم والنصيب وقصص أخرى	بريم شند وآخرون	سمير عبدالحميد إبراهيم
٢٨١-	الفردوس الأعلى (رواية)	عبد الحليم شرر	جلال الحفناوى
٢٨٢-	طبيعة العلم غير الطبيعية	لويس وولبرت	سمير حنا صادق
٢٨٣-	السهل يحترق وقصص أخرى	خوان رولفو	على عبد الرءوف البمبى
٢٨٤-	هرقل مجنونًا (مسرحية)	يوريبيديس	أحمد عتمان
٢٨٥-	رحلة خواجة حسن نظامى الدهلوى	حسن نظامى الدهلوى	سمير عبد الحميد إبراهيم
٢٨٦-	سياحت نامه إبراهيم بك (جـ٣)	زين العابدين المراغى	محمود علاوى
٢٨٧-	الثقافة والعولمة والنظام العالمى	أنتونى كنج	محمد يحيى وآخرون
٢٨٨-	الفن الروائى	ديفيد لودج	ماهر البطوطى
٢٨٩-	ديوان منوچهرى الدامغانى	أبو نجم أحمد بن قوص	محمد نور الدين عبدالمنعم
٢٩٠-	علم اللغة والترجمة	جورج مونان	أحمد زكريا إبراهيم
٢٩١-	تاريخ المسرح الإسبانى فى القرن العشرين (جـ١)	فرانشسكو رويس رامون	السيد عبد الظاهر
٢٩٢-	تاريخ المسرح الإسبانى فى القرن العشرين (جـ٢)	فرانشسكو رويس رامون	السيد عبد الظاهر
٢٩٣-	مقدمة للأدب العربى	روجر ألن	مجدى توفيق وآخرون
٢٩٤-	فن الشعر	بوالو	رجاء ياقوت
٢٩٥-	سلطان الأسطورة	جوزيف كامبل وبيل مويرز	بدر الديب
٢٩٦-	مكبث (مسرحية)	وليم شكسبير	محمد مصطفى بدوى
٢٩٧-	فن النحو بين اليونانية والسريانية	ديونيسيوس ثراكس ويوسف الأهوازى	ماجدة محمد أنور
٢٩٨-	مأساة العبيد وقصص أخرى	نخبة	مصطفى حجازى السيد
٢٩٩-	ثورة فى التكنولوجيا الحيوية	جين ماركس	هاشم أحمد محمد
٣٠٠-	أسطورة بروميثيوس فى الأدبين الإنجليزى والفرنسى (مج١)	لويس عوض	جمال الجزيرى وبهاء چاهين وإيزابيل كمال
٣٠١-	أسطورة بروميثيوس فى الأدبين الإنجليزى والفرنسى (مج٢)	لويس عوض	جمال الجزيرى و محمد الجندى
٣٠٢-	أقدم لك: فنجنشتين	جون هيتون وجودى جروفز	إمام عبد الفتاح إمام

٣٠٣- أقدم لك: بوذا	جين هوب وبورن فان لون	إمام عبد الفتاح إمام
٣٠٤- أقدم لك: ماركس	ريوس	إمام عبد الفتاح إمام
٣٠٥- الجلد (رواية)	كروزيو مالابارته	صلاح عبد الصبور
٣٠٦- الحماسة: النقد الكانطى للتاريخ	چان فرانسوا ليوتار	نبيل سعد
٣٠٧- أقدم لك: الشعور	ديفيد بابينو وهوارد سلينا	محمود مكى
٣٠٨- أقدم لك: علم الوراثة	ستيف جونز وبورين فان لو	ممدوح عبد المنعم
٣٠٩- أقدم لك: الذهن والمخ	أنجوس جيلاتى وأوسكار زاريت	جمال الجزيرى
٣١٠- أقدم لك: يونج	ماجى هايد ومايكل ماكجنس	محيى الدين مزيد
٣١١- مقال فى المنهج الفلسفى	ر.ج كولنجوود	فاطمة إسماعيل
٣١٢- روح الشعب الأسود	وليم ديبويس	أسعد حليم
٣١٣- أمثال فلسطينية (شعر)	خايير بيان	محمد عبدالله الجعيدى
٣١٤- مارسيل دوشامب: الفن كعدم	جانيس مينيك	هويدا السباعى
٣١٥- جرامشى فى العالم العربى	ميشيل بروندينو والطاهر لبيب	كاميليا صبحى
٣١٦- محاكمة سقراط	أى. ف. ستون	نسيم مجلى
٣١٧- بلا غد	س. شير لايموفا- س. زنيكين	أشرف الصباغ
٣١٨- الأدب الروسى فى السنوات العشر الأخيرة	مجموعة من المؤلفين	أشرف الصباغ
٣١٩- صور دريدا	جايترى اسبيفاك وكرستوفر نوريس	حسام نايل
٣٢٠- لمعة السراج لحضرة التاج	مؤلف مجهول	محمد علاء الدين منصور
٣٢١- تاريخ إسبانيا الإسلامية (مج٢، جـ١)	ليفى برو فنسال	بإشراف: صلاح فضل
٣٢٢- وجهات نظر حديثة فى تاريخ الفن الغربى	دبليو بوجين كلينباور	خالد مفلح حمزة
٣٢٣- فن الساتورا	تراث يونانى قديم	هانم محمد فوزى
٣٢٤- اللعب بالنار (رواية)	أشرف أسدى	محمود علاوى
٣٢٥- عالم الآثار (رواية)	فيليب بوسان	كرستين يوسف
٣٢٦- المعرفة والمصلحة	يورجين هابرماس	حسن صقر
٣٢٧- مختارات شعرية مترجمة (جـ١)	نخبة	توفيق على منصور
٣٢٨- يوسف وزليخا (شعر)	نور الدين عبد الرحمن الجامى	عبد العزيز بقوش
٣٢٩- رسائل عيد الميلاد (شعر)	تد هيوز	محمد عيد إبراهيم
٣٣٠- كل شىء عن التمثيل الصامت	مارفن شبرد	سامى صلاح
٣٣١- عندما جاء السردين وقصص أخرى	ستيفن جراى	سامية دياب
٣٣٢- شهر العسل وقصص أخرى	نخبة	على إبراهيم منوفى
٣٣٣- الإسلام فى بريطانيا من ١٥٥٨-١٦٨٥	نبيل مطر	بكر عباس
٣٣٤- لقطات من المستقبل	أرثر كلارك	مصطفى إبراهيم فهمى
٣٣٥- عصر الشك: دراسات عن الرواية	ناتالى ساروت	فتحى العشرى
٣٣٦- متون الأهرام	نصوص مصرية قديمة	حسن صابر
٣٣٧- فلسفة الولاء	جوزايا رويس	أحمد الأنصارى
٣٣٨- نظرات حائرة وقصص أخرى	نخبة	جلال الحفناوى
٣٣٩- تاريخ الأدب فى إيران (جـ٣)	إدوارد براون	محمد علاء الدين منصور
٣٤٠- اضطراب فى الشرق الأوسط	بيرش بيربروجلو	فخرى لبيب

٢٤١- قصائد من رلكه (شعر)	راينر ماريا رلكه	حسن حلمى
٢٤٢- سلامان وأبسال (شعر)	نور الدين عبدالرحمن الجامى	عبد العزيز بقوش
٢٤٣- العالم البرجوازى الزائل (رواية)	نادين جورديمر	سمير عبد ربه
٢٤٤- الموت فى الشمس (رواية)	بيتر بالانجيو	سمير عبد ربه
٢٤٥- الركض خلف الزمان (شعر)	بونه ندائى	يوسف عبد الفتاح فرج
٢٤٦- سحر مصر	رشاد رشدى	جمال الجزيرى
٢٤٧- الصبية الطائشون (رواية)	جان كوكتو	بكر الحلو
٢٤٨- المتصوفة الأولون فى الأدب التركى (جـ١)	محمد فؤاد كوبريلى	عبدالله أحمد إبراهيم
٢٤٩- دليل القارئ إلى الثقافة الجادة	أرثر والدهورن وآخرون	أحمد عمر شاهين
٢٥٠- بانوراما الحياة السياحية	مجموعة من المؤلفين	عطية شحاتة
٢٥١- مبادئ المنطق	جوزايا رويس	أحمد الانصارى
٢٥٢- قصائد من كفافيس	قسطنطين كفافيس	نعيم عطية
٢٥٣- الفن الإسلامى فى الأندلس: الزخرفة الهندسية	باسيليو بابون مالدونادو	على إبراهيم منوفى
٢٥٤- الفن الإسلامى فى الأندلس: الزخرفة النباتية	باسيليو بابون مالدونادو	على إبراهيم منوفى
٢٥٥- التيارات السياسية فى إيران المعاصرة	حجت مرتجى	محمود علاوى
٢٥٦- الميراث المر	بول سالم	بدر الرفاعى
٢٥٧- متون هرمس	تيموثى فريك وبيتر غاندى	عمر الفاروق عمر
٢٥٨- أمثال الهوسا العامية	نخبة	مصطفى حجازى السيد
٢٥٩- محاورة بارمنيدس	أفلاطون	حبيب الشارونى
٢٦٠- أنثروبولوچيا اللغة	أندريه جاكوب ونويلا باركان	ليلى الشربينى
٢٦١- التصحر: التهديد والمجابهة	آلان جرينجر	عاطف معتمد وآمال شاور
٢٦٢- تلميذ بابنبرج (رواية)	هاينرش شبورل	سيد أحمد فتح الله
٢٦٣- حركات التحرير الأفريقية	ريتشارد جيبسون	صبرى محمد حسن
٢٦٤- حداثة شكسبير	إسماعيل سراج الدين	نجلاء أبو عجاج
٢٦٥- سأم باريس (شعر)	شارل بودلير	محمد أحمد حمد
٢٦٦- نساء يركضن مع الذئاب	كلاريسا بنكولا	مصطفى محمود محمد
٢٦٧- القلم الجرىء	مجموعة من المؤلفين	البرّاق عبدالهادى رضا
٢٦٨- المصطلح السردى: معجم مصطلحات	جيرالد برنس	عابد خزندار
٢٦٩- المرأة فى أدب نجيب محفوظ	فوزية العشماوى	فوزية العشماوى
٢٧٠- الفن والحياة فى مصر الفرعونية	كليرلا لويت	فاطمة عبدالله محمود
٢٧١- المتصوفة الأولون فى الأدب التركى (جـ٢)	محمد فؤاد كوبريلى	عبدالله أحمد إبراهيم
٢٧٢- عاش الشباب (رواية)	وانغ مينغ	وحيد السعيد عبدالحميد
٢٧٣- كيف تعد رسالة دكتوراه	أومبرتو إيكو	على إبراهيم منوفى
٢٧٤- اليوم السادس (رواية)	أندريه شديد	حمادة إبراهيم
٢٧٥- الخلود (رواية)	ميلان كونديرا	خالد أبو اليزيد
٢٧٦- الغضب وأحلام السنين (مسرحيات)	جان أنوى وآخرون	إدوار الخراط
٢٧٧- تاريخ الأدب فى إيران (جـ٤)	إدوارد براون	محمد علاء الدين منصور
٢٧٨- المسافر (شعر)	محمد إقبال	يوسف عبدالفتاح فرج

٣٧٩- ملك فى الحديقة (رواية)	سنبل باث	جمال عبدالرحمن
٣٨٠- حديث عن الخسارة	جونتر جراس	شيرين عبدالسلام
٣٨١- أساسيات اللغة	ر. ل. تراسك	رانيا إبراهيم يوسف
٣٨٢- تاريخ طبرستان	بهاء الدين محمد إسفنديار	أحمد محمد نادى
٣٨٣- هدية الحجاز (شعر)	محمد إقبال	سمير عبدالحميد إبراهيم
٣٨٤- القصص التى يحكيها الأطفال	سوزان إنجيل	إيزابيل كمال
٣٨٥- مشترى العشق (رواية)	محمد على بهزادراد	يوسف عبدالفتاح فرج
٣٨٦- دفاعًا عن التاريخ الأدبى النسوى	جانيت تود	ريهام حسين إبراهيم
٣٨٧- أغنيات وسوناتات (شعر)	چون دن	بهاء چاهين
٣٨٨- مواعظ سعدى الشيرازى (شعر)	سعدى الشيرازى	محمد علاء الدين منصور
٣٨٩- تفاهم وقصص أخرى	نخبة	سمير عبدالحميد إبراهيم
٣٩٠- الأرشيفات والمدن الكبرى	إم. فى. روبرتس	عثمان مصطفى عثمان
٣٩١- الحافلة الليلكية (رواية)	مايف بينشى	منى الدروبى
٣٩٢- مقامات ورسائل أندلسية	فرناندو دى لاجرانجا	عبداللطيف عبدالحليم
٣٩٣- فى قلب الشرق	ندوة لويس ماسينيون	زينب محمود الخضيرى
٣٩٤- القوى الأربع الأساسية فى الكون	بول ديفيز	هاشم أحمد محمد
٣٩٥- آلام سياوش (رواية)	إسماعيل فصيح	سليم عبد الأمير حمدان
٣٩٦- السافاك	تقى نجارى راد	محمود علاوى
٣٩٧- أقدم لك: نيتشه	لورانس جين وكيتى شين	إمام عبدالفتاح إمام
٣٩٨- أقدم لك: سارتر	فيليب تودى وهوارد ريد	إمام عبدالفتاح إمام
٣٩٩- أقدم لك: كامى	ديفيد ميروفتش وآلن كوركس	إمام عبدالفتاح إمام
٤٠٠- مومو (رواية)	ميشائيل إنده	باهر الجوهرى
٤٠١- أقدم لك: علم الرياضيات	زياودن ساردر وآخرون	ممدوح عبد المنعم
٤٠٢- أقدم لك: ستيفن هوكنج	ج. ب. ماك إيفوى وأوسكار زاريت	ممدوح عبدالمنعم
٤٠٣- ربة المطر والملابس تصنع الناس (روايتان)	تودور شتورم وجوتفرد كولر	عماد حسن بكر
٤٠٤- تعويذة الحسى	ديفيد إبرام	ظبية خميس
٤٠٥- إيزابيل (رواية)	أندريه جيد	حمادة إبراهيم
٤٠٦- المستعربون الإسبان فى القرن ١٩	مانويلا مانتاناريس	جمال عبد الرحمن
٤٠٧- الأدب الإسبانى المعاصر بأقلام كتابه	مجموعة من المؤلفين	طلعت شاهين
٤٠٨- معجم تاريخ مصر	جوان فوتشركنج	عنان الشهاوى
٤٠٩- انتصار السعادة	برتراند راسل	إلهامى عمارة
٤١٠- خلاصة القرن	كارل بوبر	الزواوى بغورة
٤١١- همس من الماضى	جينيفر أكرمان	أحمد مستجير
٤١٢- تاريخ إسبانيا الإسلامية (مج٢، جـ٢)	ليفى بروفنسال	بإشراف: صلاح فضل
٤١٣- أغنيات المنفى (شعر)	ناظم حكمت	محمد البخارى
٤١٤- الجمهورية العالمية للآداب	باسكال كازانوفا	أمل الصبان
٤١٥- صورة كوكب (مسرحية)	فريدريش دورينمات	أحمد كامل عبدالرحيم
٤١٦- مبادئ النقد الأدبى والعلم والشعر	أ. أ. رتشاردز	محمد مصطفى بدوى

٤١٧- تاريخ النقد الأدبى الحديث (جـ٥)	رينيه ويليك	مجاهد عبدالمنعم مجاهد
٤١٨- سياسات الزمر الحاكمة فى مصر العثمانية	جين هاثواى	عبد الرحمن الشيخ
٤١٩- العصر الذهبى للإسكندرية	جون مارلو	نسيم مجلى
٤٢٠- مكرو ميجاس (قصة فلسفية)	فولتير	الطيب بن رجب
٤٢١- الولاء والقيادة فى المجتمع الإسلامى الأول	روى متحدة	أشرف كيلانى
٤٢٢- رحلة لاستكشاف أفريقيا (جـ١)	ثلاثة من الرحالة	عبدالله عبدالرازق إبراهيم
٤٢٣- إسراءات الرجل الطيف	نخبة	وحيد النقاش
٤٢٤- لوائح الحق ولوامع العشق (شعر)	نور الدين عبدالرحمن الجامى	محمد علاء الدين منصور
٤٢٥- من طاووس إلى فرح	محمود طلوعى	محمود علاوى
٤٢٦- الخفافيش وقصص أخرى	نخبة	محمد علاء الدين منصور وعبد الحفيظ يعقوب
٤٢٧- بانديراس الطاغية (رواية)	باى إنكلان	ثريا شلبى
٤٢٨- الخزانة الخفية	محمد هوتك بن داود خان	محمد أمان صافى
٤٢٩- أقدم لك: هيجل	ليود سبنسر وأندزجى كروز	إمام عبدالفتاح إمام
٤٣٠- أقدم لك: كانط	كرستوفر وانت وأندزجى كليموفسكى	إمام عبدالفتاح إمام
٤٣١- أقدم لك: فوكو	كريس هوروكس وزوران جفتيك	إمام عبدالفتاح إمام
٤٣٢- أقدم لك: ماكيافللى	باتريك كيرى وأوسكار زاريت	إمام عبدالفتاح إمام
٤٣٣- أقدم لك: جويس	ديفيد نوريس وكارل فلنت	حمدى الجابرى
٤٣٤- أقدم لك: الرومانسية	دونكان هيث وجودى بورهام	عصام حجازى
٤٣٥- توجهات ما بعد الحداثة	نيكولاس زربرج	ناجى رشوان
٤٣٦- تاريخ الفلسفة (مج١)	فردريك كوبلستون	إمام عبدالفتاح إمام
٤٣٧- رحالة هندى فى بلاد الشرق العربى	شبلى النعمانى	جلال الحفناوى
٤٣٨- بطلات وضحايا	إيمان ضياء الدين بيبرس	عايدة سيف الدولة
٤٣٩- موت المرابى (رواية)	صدر الدين عينى	محمد علاء الدين منصور وعبد الحفيظ يعقوب
٤٤٠- قواعد اللهجات العربية الحديثة	كرستن بروستاد	محمد طارق الشرقاوى
٤٤١- رب الأشياء الصغيرة (رواية)	أرونداتى روى	فخرى لبيب
٤٤٢- حتشبسوت: المرأة الفرعونية	فوزية أسعد	ماهر جويجاتى
٤٤٣- اللغة العربية: تاريخها ومستوياتها وتأثيرها	كيس فرستيغ	محمد طارق الشرقاوى
٤٤٤- أمريكا اللاتينية: الثقافات القديمة	لاوريت سيجورنه	صالح علمانى
٤٤٥- حول وزن الشعر	پرويز ناتل خانلرى	محمد محمد يونس
٤٤٦- التحالف الأسود	ألكسندر كوكبرن وجيفرى سانت كلير	أحمد محمود
٤٤٧- أقدم لك: نظرية الكم	ج. پ. ماك إيڤوى وأوسكار زاريت	ممدوح عبدالمنعم
٤٤٨- أقدم لك: علم نفس التطور	ديلان إيفانز وأوسكار زاريت	ممدوح عبدالمنعم
٤٤٩- أقدم لك: الحركة النسوية	نخبة	جمال الجزيرى
٤٥٠- أقدم لك: ما بعد الحركة النسوية	صوفيا فوكا وريبيكا رايت	جمال الجزيرى
٤٥١- أقدم لك: الفلسفة الشرقية	ريتشارد أوزبورن وبورن ڤان لون	إمام عبد الفتاح إمام
٤٥٢- أقدم لك: لينين والثورة الروسية	ريتشارد إيجينانزى وأوسكار زاريت	محيى الدين مزيد
٤٥٣- القاهرة: إقامة مدينة حديثة	جان لوك أرنو	حليم طوسون وفؤاد الدهان
٤٥٤- خمسون عاماً من السينما الفرنسية	رينيه بريدال	سوزان خليل

٤٥٥-	تاريخ الفلسفة الحديثة (مجـ٥)	فردريك كوبلستون	محمود سيد أحمد
٤٥٦-	لا تنسنى (رواية)	مريم جعفرى	هويدا عزت محمد
٤٥٧-	النساء فى الفكر السياسى الغربى	سوزان موللر أوكين	إمام عبدالفتاح إمام
٤٥٨-	الموريسكيون الأندلسيون	مرثيديس غارثيا أرينال	جمال عبد الرحمن
٤٥٩-	نحو مفهوم لاقتصاديات الموارد الطبيعية	توم تيتنبرج	جلال البنا
٤٦٠-	أقدم لك: الفاشية والنازية	ستوارت هود وليتزا جانستز	إمام عبدالفتاح إمام
٤٦١-	أقدم لك: لكان	داريان ليدر وجودى جروفز	إمام عبدالفتاح إمام
٤٦٢-	طه حسين من الأزهر إلى السوربون	عبدالرشيد الصادق محمودى	عبدالرشيد الصادق محمودى
٤٦٣-	الدولة المارقة	ويليام بلوم	كمال السيد
٤٦٤-	ديمقراطية للقلة	مايكل بارنتى	حصة إبراهيم المنيف
٤٦٥-	قصص اليهود	لويس جنزبيرج	جمال الرفاعى
٤٦٦-	حكايات حب وبطولات فرعونية	فيولين فانويك	فاطمة عبد الله
٤٦٧-	التفكير السياسى والنظرة السياسية	ستيفين ديلو	ربيع وهبة
٤٦٨-	روح الفلسفة الحديثة	جوزايا رويس	أحمد الأنصارى
٤٦٩-	جلال الملوك	نصوص حبشية قديمة	مجدى عبدالرازق
٤٧٠-	الأراضى والجودة البيئية	جارى م. بيرزنسكى وآخرون	محمد السيد النتة
٤٧١-	رحلة لاستكشاف أفريقيا (جـ٢)	ثلاثة من الرحالة	عبد الله عبد الرازق إبراهيم
٤٧٢-	دون كيخوتى (القسم الأول)	ميجيل دى ثربانتس سابيدرا	سليمان العطار
٤٧٣-	دون كيخوتى (القسم الثانى)	ميجيل دى ثربانتس سابيدرا	سليمان العطار
٤٧٤-	الأدب والنسوية	بام موريس	سهام عبدالسلام
٤٧٥-	صوت مصر: أم كلثوم	فرجينيا دانيلسون	عادل هلال عنانى
٤٧٦-	أرض الحبايب بعيدة: بيرم التونسى	ماريلين بوث	سحر توفيق
٤٧٧-	تاريخ الصين منذ ما قبل التاريخ حتى القرن العشرين	هيلدا هوخام	أشرف كيلانى
٤٧٨-	الصين والولايات المتحدة	ليوشيه شنج و لى شى دونج	عبد العزيز حمدى
٤٧٩-	المقهـــى (مسرحية)	لاو شه	عبد العزيز حمدى
٤٨٠-	تساى ون جى (مسرحية)	كو مو روا	عبد العزيز حمدى
٤٨١-	بردة النبى	روى متحدة	رضوان السيد
٤٨٢-	موسوعة الأساطير والرموز الفرعونية	روبير جاك تيبو	فاطمة عبد الله
٤٨٣-	النسوية وما بعد النسوية	سارة جامبل	أحمد الشامى
٤٨٤-	جمالية التلقى	هانسن روبيرت ياوس	رشيد بنحدو
٤٨٥-	التوبة (رواية)	نذير أحمد الدهلوى	سمير عبدالحميد إبراهيم
٤٨٦-	الذاكرة الحضارية	يان أسمن	عبدالحليم عبدالغنى رجب
٤٨٧-	الرحلة الهندية إلى الجزيرة العربية	رفيع الدين المراد آبادى	سمير عبدالحميد إبراهيم
٤٨٨-	الحب الذى كان وقصائد أخرى	نخبة	سمير عبدالحميد إبراهيم
٤٨٩-	هُسِّرل: الفلسفة علمًا دقيقًا	إدموند هُسِّرل	محمود رجب
٤٩٠-	أسمار الببغاء	محمد قادرى	عبد الوهاب علوب
٤٩١-	نصوص قصصية من روائع الأدب الأفريقى	نخبة	سمير عبد ربه
٤٩٢-	محمد على مؤسس مصر الحديثة	جى فارجيت	محمد رفعت عواد

٤٩٣- خطابات إلى طالب الصوتيات	هارولد بالمر	محمد صالح الضالع
٤٩٤- كتاب الموتى: الخروج فى النهار	نصوص مصرية قديمة	شريف الصيفى
٤٩٥- اللوبى	إدوارد تيفان	حسن عبد ربه المصرى
٤٩٦- الحكم والسياسة فى أفريقيا (جـ١)	إكوادو بانولى	مجموعة من المترجمين
٤٩٧- العلمانية والنوع والدولة فى الشرق الأوسط	نادية العلى	مصطفى رياض
٤٩٨- النساء والنوع فى الشرق الأوسط الحديث	جوديث تاكر ومارجريت مريودز	أحمد على بدوى
٤٩٩- تقاطعات: الأمة والمجتمع والنوع	مجموعة من المؤلفين	فيصل بن خضراء
٥٠٠- فى طفولتى: دراسة فى السيرة الذاتية العربية	تيتز رووكى	طلعت الشايب
٥٠١- تاريخ النساء فى الغرب (جـ١)	أرثر جولد هامر	سحر فراج
٥٠٢- أصوات بديلة	مجموعة من المؤلفين	هالة كمال
٥٠٣- مختارات من الشعر الفارسى الحديث	نخبة من الشعراء	محمد نور الدين عبدالمنعم
٥٠٤- كتابات أساسية (جـ١)	مارتن هايدجر	إسماعيل المصدق
٥٠٥- كتابات أساسية (جـ٢)	مارتن هايدجر	إسماعيل المصدق
٥٠٦- ربما كان قديسًا (رواية)	أن تيلر	عبدالحميد فهمى الجمال
٥٠٧- سيدة الماضى الجميل (مسرحية)	بيتر شيفر	شوقى فهيم
٥٠٨- المولوية بعد جلال الدين الرومى	عبدالباقى جلبنارلى	عبدالله أحمد إبراهيم
٥٠٩- الفقر والإحسان فى عصر سلاطين المماليك	أدم صبرة	قاسم عبده قاسم
٥١٠- الأرملة الماكرة (مسرحية)	كارلو جولدونى	عبدالرازق عيد
٥١١- كوكب مرقَّع (رواية)	أن تيلر	عبدالحميد فهمى الجمال
٥١٢- كتابة النقد السينمائى	تيموثى كوريجان	جمال عبد الناصر
٥١٣- العلم الجسور	تيد أنتون	مصطفى إبراهيم فهمى
٥١٤- مدخل إلى النظرية الأدبية	جونثان كولر	مصطفى بيومى عبد السلام
٥١٥- من التقليد إلى ما بعد الحداثة	فدوى مالطى دوجلاس	فدوى مالطى دوجلاس
٥١٦- إرادة الإنسان فى علاج الإدمان	أرنولد واشنطون ودونا باوندى	صبرى محمد حسن
٥١٧- نقش على الماء وقصص أخرى	نخبة	سمير عبد الحميد إبراهيم
٥١٨- استكشاف الأرض والكون	إسحق عظيموف	هاشم أحمد محمد
٥١٩- محاضرات فى المثالية الحديثة	جوزايا رويس	أحمد الأنصارى
٥٢٠- الولع الفرنسى بمصر من الحلم إلى المشروع	أحمد يوسف	أمل الصبان
٥٢١- قاموس تراجم مصر الحديثة	أرثر جولد سميث	عبدالوهاب بكر
٥٢٢- إسبانيا فى تاريخها	أميركو كاسترو	على إبراهيم منوفى
٥٢٣- الفن الطليطلى الإسلامى والمدجن	باسيليو بابون مالدونادو	على إبراهيم منوفى
٥٢٤- الملك لير (مسرحية)	وليم شكسبير	محمد مصطفى بدوى
٥٢٥- موسم صيد فى بيروت وقصص أخرى	دنيس جونسون	نادية رفعت
٥٢٦- أقدم لك: السياسة البيئية	ستيفن كرول ووليم رانكين	محيى الدين مزيد
٥٢٧- أقدم لك: كافكا	ديفيد زين ميروفتس وروبرت كرمب	جمال الجزيرى
٥٢٨- أقدم لك: تروتسكى والماركسية	طارق على وفلْ إيفانز	جمال الجزيرى
٥٢٩- بدائع العلامة إقبال فى شعره الأردى	محمد إقبال	حازم محفوظ وحسين نجيب المصرى
٥٣٠- مدخل عام إلى فهم النظريات التراثية	رينيه جينو	عمر الفاروق عمر

٥٣١-	ما الذى حدث فى «حدث» ١١ سبتمبر؟	چاك دريدا	صفاء فتحى
٥٣٢-	المغامر والمستشرق	هنرى لورنس	بشير السباعى
٥٣٣-	تعلُّم اللغة الثانية	سوزان جاس	محمد طارق الشرقاوى
٥٣٤-	الإسلاميون الجزائريون	سيڤرين لابا	حمادة إبراهيم
٥٣٥-	مخزن الأسرار (شعر)	نظامى الكنجوى	عبدالعزيز بقوش
٥٣٦-	الثقافات وقيم التقدم	صمويل هنتنجتون ولورانس هاريزون	شوقى جلال
٥٣٧-	للحب والحرية (شعر)	نخبة	عبدالغفار مكاوى
٥٣٨-	النفس والآخر فى قصص يوسف الشارونى	كيت دانيلر	محمد الحديدى
٥٣٩-	خمس مسرحيات قصيرة	كاريل تشرشل	محسن مصيلحى
٥٤٠-	توجهات بريطانية - شرقية	السير رونالد ستورس	رءوف عباس
٥٤١-	هى تتخيل وهلاوس أخرى	خوان خوسيه مياس	مروة رزق
٥٤٢-	قصص مختارة من الأدب اليونانى الحديث	نخبة	نعيم عطية
٥٤٣-	أقدم لك: السياسة الأمريكية	باتريك بروجان وكريس جرات	وفاء عبدالقادر
٥٤٤-	أقدم لك: ميلانى كلاين	روبرت هنشل وآخرون	حمدى الجابرى
٥٤٥-	يا له من سباق محموم	فرانسيس كريك	عزت عامر
٥٤٦-	ريموس	ت. ب. وايزمان	توفيق على منصور
٥٤٧-	أقدم لك: بارت	فيليب تودى وأن كورس	جمال الجزيرى
٥٤٨-	أقدم لك: علم الاجتماع	ريتشارد أوزبرن وبورن فان لون	حمدى الجابرى
٥٤٩-	أقدم لك: علم العلامات	بول كوبلى وليتاجانز	جمال الجزيرى
٥٥٠-	أقدم لك: شكسبير	نيك جروم وبيرو	حمدى الجابرى
٥٥١-	الموسيقى والعولمة	سايمون ماندى	سمحة الخولى
٥٥٢-	قصص مثالية	ميجيل دى ثربانتس	على عبد الرءوف البمبى
٥٥٣-	مدخل للشعر الفرنسى الحديث والمعاصر	دانيال لوفرس	رجاء ياقوت
٥٥٤-	مصر فى عهد محمد على	عفاف لطفى السيد مارسوه	عبدالسميع عمر زين الدين
٥٥٥-	الإستراتيجية الأمريكية للقرن الحادى والعشرين	أناتولى أوتكين	أنور محمد إبراهيم ومحمد نصرالدين الجبالى
٥٥٦-	أقدم لك: چان بودريار	كريس هوروكس وزوران جيفتك	حمدى الجابرى
٥٥٧-	أقدم لك: الماركيز دى ساد	ستوارت هود وجراهام كرولى	إمام عبدالفتاح إمام
٥٥٨-	أقدم لك: الدراسات الثقافية	زيودين ساردار وبورين ڤان لون	إمام عبدالفتاح إمام
٥٥٩-	الماس الزائف (رواية)	تشا تشاجى	عبدالحى أحمد سالم
٥٦٠-	صلصلة الجرس (شعر)	محمد إقبال	جلال السعيد الحفناوى
٥٦١-	جناح جبريل (شعر)	محمد إقبال	جلال السعيد الحفناوى
٥٦٢-	بلايين وبلايين	كارل ساجان	عزت عامر
٥٦٣-	ورود الخريف (مسرحية)	خاثينتو بينابينتى	صبرى محمدى التهامى
٥٦٤-	عُش الغريب (مسرحية)	خاثينتو بينابينتى	صبرى محمدى التهامى
٥٦٥-	الشرق الأوسط المعاصر	ديبورا ج. جيرنر	أحمد عبدالحميد أحمد
٥٦٦-	تاريخ أوروبا فى العصور الوسطى	موريس بيشوب	على السيد على
٥٦٧-	الوطن المغتصب	مايكل رايس	إبراهيم سلامة إبراهيم
٥٦٨-	الأصولى فى الرواية	عبد السلام حيدر	عبد السلام حيدر

٥٦٩- موقع الثقافة	هومی بابا	ثائر دیب
٥٧٠- دول الخليج الفارسي	سير روبرت هاى	يوسف الشاروني
٥٧١- تاريخ النقد الإسباني المعاصر	إيميليا دى ثوليتا	السيد عبد الظاهر
٥٧٢- الطب فى زمن الفراعنة	برونو أليوا	كمال السيد
٥٧٣- أقدم لك: فرويد	ريتشارد ابيجنانس وأسكار زارتى	جمال الجزيرى
٥٧٤- مصر القديمة فى عيون الإيرانيين	حسن بيرنيا	علاء الدين السباعى
٥٧٥- الاقتصاد السياسى للعولمة	نجير وودز	أحمد محمود
٥٧٦- فكر ثربانتس	أمريكو كاسترو	ناهد العشرى محمد
٥٧٧- مغامرات بينوكيو	كارلو كولودى	محمد قدرى عمارة
٥٧٨- الجماليات عند كيتس وهنت	أيومى ميزوكوشى	محمد إبراهيم وعصام عبد الروف
٥٧٩- أقدم لك: تشومسكى	چون ماهر وچودى جرونز	محيى الدين مزيد
٥٨٠- دائرة المعارف الدولية (مج١)	جون فيزر وبول سيترجز	بإشراف: محمد فتحى عبدالهادى
٥٨١- الحمقى يموتون (رواية)	ماريو بوزو	سليم عبد الأمير حمدان
٥٨٢- مرايا على الذات (رواية)	هوشنك كلشيرى	سليم عبد الأمير حمدان
٥٨٣- الجيران (رواية)	أحمد محمود	سليم عبد الأمير حمدان
٥٨٤- سفر (رواية)	محمود دولت أبادى	سليم عبد الأمير حمدان
٥٨٥- الأمير احتجاب (رواية)	هوشنك كلشيرى	سليم عبد الأمير حمدان
٥٨٦- السينما العربية والأفريقية	ليزبيث مالكموس وروى أرمز	سهام عبد السلام
٥٨٧- تاريخ تطور الفكر الصينى	مجموعة من المؤلفين	عبدالعزيز حمدى
٥٨٨- أمنحوتب الثالث	أنييس كابرول	ماهر جويجاتى
٥٨٩- تمبكت العجيبة (رواية)	فيلكس ديبوا	عبدالله عبدالرازق إبراهيم
٥٩٠- أساطير من الموروثات الشعبية الفنلندية	نخبة	محمود مهدى عبدالله
٥٩١- الشاعر والمفكر	هوراتيوس	على عبدالتواب على وصلاح رمضان السيد
٥٩٢- الثورة المصرية (جـ١)	محمد صبرى السوربونى	مجدى عبدالحافظ وعلى كورخان
٥٩٣- قصائد ساحرة	بول فاليرى	بكر الحلو
٥٩٤- القلب السمين (قصة أطفال)	سوزانا تامارو	أمانى فوزى
٥٩٥- الحكم والسياسة فى أفريقيا (جـ٢)	إكوادو بانولى	مجموعة من المترجمين
٥٩٦- الصحة العقلية فى العالم	روبرت ديجارليه وآخرون	إيهاب عبدالرحيم محمد
٥٩٧- مسلمو غرناطة	خوليو كاروباروخا	جمال عبدالرحمن
٥٩٨- مصر وكنعان وإسرائيل	دونالد ريدفورد	بيومى على قنديل
٥٩٩- فلسفة الشرق	هرداد مهرين	محمود علاوى
٦٠٠- الإسلام فى التاريخ	برنارد لويس	مدحت طه
٦٠١- النسوية والمواطنة	ريان ڤوت	أيمن بكر وسمر الشيشكلى
٦٠٢- ليوتار:نحو فلسفة ما بعد حداثية	چيمس وليامز	إيمان عبدالعزيز
٦٠٣- النقد الثقافى	أرثر أيزابرجر	وفاء إبراهيم ورمضان بسطاويسى
٦٠٤- الكوارث الطبيعية (مج١)	باتريك ل. أبوت	توفيق على منصور
٦٠٥- مخاطر كوكبنا المضطرب	إرنست زيبروسكى (الصغير)	مصطفى إبراهيم فهمى
٦٠٦- قصة البردى اليونانى فى مصر	ريتشارد هاريس	محمود إبراهيم السعدنى

٦٠٧- قلب الجزيرة العربية (جـ١)	هارى سينت فيلبى	صبرى محمد حسن
٦٠٨- قلب الجزيرة العربية (جـ٢)	هارى سينت فيلبى	صبرى محمد حسن
٦٠٩- الانتخاب الثقافى	أجنر فوج	شوقى جلال
٦١٠- العمارة المدجنة	رفائيل لويث جوثمان	على إبراهيم منوفى
٦١١- النقد والأيديولوجية	تيرى إيجلتون	فخرى صالح
٦١٢- رسالة النفسية	فضل الله بن حامد الحسينى	محمد محمد يونس
٦١٣- السياحة والسياسة	كولن مايكل هول	محمد فريد حجاب
٦١٤- بيت الأقصر الكبير(رواية)	فوزية أسعد	منى قطان
٦١٥- عرض الأحداث التى وقعت فى بغداد من ١٩٩٧ إلى ١٩٩٩	أليس بسيرينى	محمد رفعت عواد
٦١٦- أساطير بيضاء	روبرت يانج	أحمد محمود
٦١٧- الفولكلور والبحر	هوراس بيك	أحمد محمود
٦١٨- نحو مفهوم لاقتصاديات الصحة	تشارلز فيلبس	جلال البنا
٦١٩- مفاتيح أورشليم القدس	ريمون استانبولى	عايدة الباجورى
٦٢٠- السلام الصليبى	توماش ماستناك	بشير السباعى
٦٢١- النوبة المعبر الحضارى	وليم ى. أدمز	فؤاد عكود
٦٢٢- أشعار من عالم اسمه الصين	أى تشينغ	أمير نبيه وعبدالرحمن حجازى
٦٢٣- نوادر جحا الإيرانى	سعيد قانعى	يوسف عبدالفتاح
٦٢٤- أزمة العالم الحديث	رينيه جينو	عمر الفاروق عمر
٦٢٥- الجرح السرى	جان جينيه	محمد برادة
٦٢٦- مختارات شعرية مترجمة (جـ٢)	نخبة	توفيق على منصور
٦٢٧- حكايات إيرانية	نخبة	عبدالوهاب علوب
٦٢٨- أصل الأنواع	تشارلس داروين	مجدى محمود المليجى
٦٢٩- قرن آخر من الهيمنة الأمريكية	نيقولاس جويات	عزة الخميسى
٦٣٠- سيرتى الذاتية	أحمد بللو	صبرى محمد حسن
٦٣١- مختارات من الشعر الأفريقى المعاصر	نخبة	بإشراف: حسن طلب
٦٣٢- المسلمون واليهود فى مملكة فالنسيا	دولورس برامون	رانيا محمد
٦٣٣- الحب وفنونه (شعر)	نخبة	حمادة إبراهيم
٦٣٤- مكتبة الإسكندرية	روى ماكلويد وإسماعيل سراج الدين	مصطفى البهنساوى
٦٣٥- التثبيت والتكيف فى مصر	جودة عبد الخالق	سمير كريم
٦٣٦- حج يولندة	جناب شهاب الدين	سامية محمد جلال
٦٣٧- مصر الخديوية	ف. روبرت هنتر	بدر الرفاعى
٦٣٨- الديمقراطية والشعر	روبرت بن ورين	فؤاد عبد المطلب
٦٣٩- فندق الأرق (شعر)	تشارلز سيميك	أحمد شافعى
٦٤٠- ألكسياد	الأميرة أنَّاكومنينا	حسن حبشى
٦٤١- برتراندرسل (مختارات)	برتراند رسل	محمد قدرى عمارة
٦٤٢- أقدم لك. داروين والتطور	جوناثان ميلر وبورين فان لون	ممدوح عبد المنعم
٦٤٣- سفرنامه حجاز (شعر)	عبد الماجد الدريابادى	سمير عبدالحميد إبراهيم
٦٤٤- العلوم عند المسلمين	هوارد د.تيرنر	فتح الله الشيخ

٦٤٥- السياسة الخارجية الأمريكية ومصادرها الداخلية تشارلز كجلي ويوجين ويتكوف عبد الوهاب علوب
٦٤٦- قصة الثورة الإيرانية سيهر ذبيح عبد الوهاب علوب
٦٤٧- رسائل من مصر جون نينيه فتحي العشري
٦٤٨- بورخيس بياتريث سارلو خليل كلفت
٦٤٩- الخوف وقصص خرافية أخرى جي دي موباسان سحر يوسف
٦٥٠- الدولة والسلطة والسياسة في الشرق الأوسط روجر أوين عبد الوهاب علوب
٦٥١- ديليسبس الذي لا نعرفه وثائق قديمة أمل الصبان
٦٥٢- آلهة مصر القديمة كلود ترونكر حسن نصر الدين
٦٥٣- مدرسة الطغاة (مسرحية) إيريش كستنر سمير جريس
٦٥٤- أساطير شعبية من أوزبكستان (جـ١) نصوص قديمة عبد الرحمن الخميسي
٦٥٥- أساطير وآلهة إيزابيل فرانكو حليم طوسون ومحمود ماهر طه
٦٥٦- خبز الشعب والأرض الحمراء (مسرحيتان) ألفونسو ساستري ممدوح البستاوي
٦٥٧- محاكم التفتيش والموريسكيون مرثيديس غارثيا أرينال خالد عباس
٦٥٨- حوارات مع خوان رامون خيمينيث خوان رامون خيمينيث صبري التهامي
٦٥٩- قصائد من إسبانيا وأمريكا اللاتينية نخبة عبداللطيف عبدالحليم
٦٦٠- نافذة على أحدث العلوم ريتشارد فايفيلد هاشم أحمد محمد
٦٦١- روائع أندلسية إسلامية نخبة صبري التهامي
٦٦٢- رحلة إلى الجنور داسو سالديبار صبري التهامي
٦٦٣- امرأة عادية ليوسيل كليفتون أحمد شافعي
٦٦٤- الرجل على الشاشة ستيفن كوهان وإنا راي هارك عصام زكريا
٦٦٥- عوالم أخرى بول دافيز هاشم أحمد محمد
٦٦٦- تطور الصورة الشعرية عند شكسبير ولفجانج اتش كليمن جمال عبد الناصر ومدحت الجيار وجمال جاد الرب
٦٦٧- الأزمة القادمة لعلم الاجتماع الغربي ألفن جولدنر على ليلة
٦٦٨- ثقافات العولمة فريدريك جيمسون وماساو ميوشي ليلى الجبالي
٦٦٩- ثلاث مسرحيات وول شوينكا نسيم مجلي
٦٧٠- أشعار جوستاف أدولفو جوستاف أدولفو بكر ماهر البطوطي
٦٧١- قل لي كم مضى على رحيل القطار؟ جيمس بولدوين على عبدالأمير صالح
٦٧٢- مختارات من الشعر الفرنسي للأطفال نخبة إبتهال سالم
٦٧٣- ضرب الكليم (شعر) محمد إقبال جلال الحفناوي
٦٧٤- ديوان الإمام الخميني آية الله العظمى الخميني محمد علاء الدين منصور
٦٧٥- أثينا السوداء (جـ٢، مج١) مارتن برنال بإشراف: محمود إبراهيم السعدني
٦٧٦- أثينا السوداء (جـ٢، مج٢) مارتن برنال بإشراف: محمود إبراهيم السعدني
٦٧٧- تاريخ الأدب في إيران (جـ١ ، مج١) إدوارد جرانفيل براون أحمد كمال الدين حلمي
٦٧٨- تاريخ الأدب في إيران (جـ١ ، مج٢) إدوارد جرانفيل براون أحمد كمال الدين حلمي
٦٧٩- مختارات شعرية مترجمة (جـ٢) وليام شكسبير توفيق على منصور
٦٨٠- سنوات الطفولة (رواية) وول شوينكا سمير عبد ربه
٦٨١- هل يوجد نص في هذا الفصل؟ ستانلي فش أحمد الشيمي
٦٨٢- نجوم حظر التجوال الجديد (رواية) بن أوكري صبري محمد حسن

٦٨٣-	سكين واحد لكل رجل (رواية)	ت. م. ألوكو	صبرى محمد حسن
٦٨٤-	الأعمال القصصية الكاملة (أنا كندا) (جـ١)	أوراثيو كيروجا	رزق أحمد بهنسى
٦٨٥-	الأعمال القصصية الكاملة (الصحراء) (جـ٢)	أوراثيو كيروجا	رزق أحمد بهنسى
٦٨٦-	امرأة محاربة (رواية)	ماكسين هونج كنجستون	سحر توفيق
٦٨٧-	محبوبة (رواية)	فتانة حاج سيد جوادى	ماجدة العنانى
٦٨٨-	الانفجارات الثلاثة العظمى	فيليب م. دوبر وريتشارد أ. موار	فتح الله الشيخ وأحمد السماحى
٦٨٩-	الملف (مسرحية)	تادووش روجيفيتش	هناء عبد الفتاح
٦٩٠-	محاكم التفتيش فى فرنسا	(مختارات)	رمسيس عوض
٦٩١-	ألبرت أينشتين: حياته وغرامياته	(مختارات)	رمسيس عوض
٦٩٢-	أقدم لك: الوجودية	ريتشارد أبيجانسى وأوسكار زاريت	حمدى الجابرى
٦٩٣-	أقدم لك: القتل الجماعى (المحرقة)	حاييم برشيت وآخرون	جمال الجزيرى
٦٩٤-	أقدم لك: دريدا	جيف كولينز وبيل مايبلين	حمدى الجابرى
٦٩٥-	أقدم لك: رسل	ديف روبنسون وجودى جروف	إمام عبدالفتاح إمام
٦٩٦-	أقدم لك: روسو	ديف روبنسون وأوسكار زاريت	إمام عبدالفتاح إمام
٦٩٧-	أقدم لك: أرسطو	روبرت ودفين وجودى جروفس	إمام عبدالفتاح إمام
٦٩٨-	أقدم لك: عصر التنوير	ليود سبنسر وأندرزيجى كروز	إمام عبدالفتاح إمام
٦٩٩-	أقدم لك: التحليل النفسى	إيفان وارد وأوسكار زارايت	جمال الجزيرى
٧٠٠-	الكاتب وواقعه	ماريو فرجاش	بسمة عبدالرحمن
٧٠١-	الذاكرة والحداثة	وليم رود فيفيان	منى البرنس
٧٠٢-	الأمثال الفارسية	أحمد وكيليان	محمود علاوى
٧٠٣-	تاريخ الأدب فى إيران (جـ٢)	إدوارد جرانڤيل براون	أمين الشواربى
٧٠٤-	فيه ما فيه	مولانا جلال الدين الرومى	محمد علاء الدين منصور وآخرون
٧٠٥-	فضل الأنام من رسائل حجة الإسلام	الإمام الغزالى	عبدالحميد مدكور
٧٠٦-	الشفرة الوراثية وكتاب التحولات	جونسون ف. يان	عزت عامر
٧٠٧-	أقدم لك: ڤالتر بنيامين	هوارد كاليجل وآخرون	وفاء عبدالقادر
٧٠٨-	فراعنة من؟	دونالد مالكولم ريد	رءوف عباس
٧٠٩-	معنى الحياة	ألفريد أدلر	عادل نجيب بشرى
٧١٠-	الأطفال والتكنولوچيا والثقافة	يان هاتشباى وجوموران إليس	دعاء محمد الخطيب
٧١١-	درة التاج	ميرزا محمد هادى رسوا	هناء عبد الفتاح
٧١٢-	ميراث الترجمة: الإلياذة (جـ١)	هوميروس	سليمان البستانى
٧١٣-	ميراث الترجمة: الإلياذة (جـ٢)	هوميروس	سليمان البستانى
٧١٤-	ميراث الترجمة: حديث القلوب	لامنيه	حنا صاوه
٧١٥-	جامعة كل المعارف (جـ١)	مجموعة من المؤلفين	نخبة من المترجمين
٧١٦-	جامعة كل المعارف (جـ٢)	مجموعة من المؤلفين	نخبة من المترجمين
٧١٧-	جامعة كل المعارف (جـ٣)	مجموعة من المؤلفين	نخبة من المترجمين
٧١٨-	جامعة كل المعارف (جـ٤)	مجموعة من المؤلفين	نخبة من المترجمين
٧١٩-	جامعة كل المعارف (جـ٥)	مجموعة من المؤلفين	نخبة من المترجمين
٧٢٠-	جامعة كل المعارف (جـ٦)	مجموعة من المؤلفين	نخبة من المترجمين
٧٢١-	فلسفة المتكلمين فى الإسلام (مج١)	هـ. أ. ولفسون	مصطفى لبيب عبد الغنى

٧٢٢-	الصفيحة وقصص أخرى	يشار كمال	الصفصافى أحمد القطورى
٧٢٣-	تحديات ما بعد الصهيونية	إفرايم تيمنى	أحمد ثابت
٧٢٤-	اليسار الفرويدى	بول روبنسون	عبده الريس
٧٢٥-	الاضطراب النفسى	جون فيتكس	مى مقلد
٧٢٦-	الموريسكيون فى المغرب	غييرمو غوثالبيس بوستو	مروة محمد إبراهيم
٧٢٧-	حلم البحر (رواية)	باچين	وحيد السعيد
٧٢٨-	العولمة: تدمير العمالة والنمو	موريس أليه	أميرة جمعة
٧٢٩-	الثورة الإسلامية فى إيران	صادق زيباكلام	هويدا عزت
٧٣٠-	حكايات من السهول الأفريقية	أن جاتى	عزت عامر
٧٣١-	النوع: الذكر والأنثى بين التميز والاختلاف	مجموعة من المؤلفين	محمد قدرى عمارة
٧٣٢-	قصص بسيطة (رواية)	إنجو شولتسه	سمير جريس
٧٣٣-	مأساة عطيل (مسرحية)	وليم شيكسبير	محمد مصطفى بدوى
٧٣٤-	بونابرت فى الشرق الإسلامى	أحمد يوسف	أمل الصبان
٧٣٥-	فن السيرة فى العربية	مايكل كوبرسون	محمود محمد مكى
٧٣٦-	التاريخ الشعبى للولايات المتحدة (جـ١)	هوارد زن	شعبان مكاوى
٧٣٧-	الكوارث الطبيعية (مج٢)	باتريك ل. أبوت	توفيق على منصور
٧٣٨-	دمشق من عصر ما قبل التاريخ إلى الدولة المملوكية	جيرار دى جورج	محمد عواد

طبع بالهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية

رقم الإيداع ١٥٢٨٤ / ٢٠٠٥